

مجتمع وادي سوف

منذ فجر التاريخ إلى أواخر العصور الوسطى

أ.د. علي غنابزيتة

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة الوادي - الجزائر

مجتمع وادي سوف

منذ فجر التاريخ إلى أواخر العصور الوسطى

أ. د. علي خنابزيّة

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة الوادي - الجزائر



عنوان الكتاب

مجتمع وادي سوف

منذ فجر التاريخ إلى أواخر العصور الوسطى

أ.د. علي غنابزية

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة الوادي - الجزائر

تصميم الغلاف
كمال خزان

الطبعة



ردمك:

978-9931-273-48-6

الإيداع القانوني:

جانفي 2023

الإهداء

إلى كل الذين ساهموا في تأسيس
هذا المجتمع وصارعوا حوادث
الزمان، وصبروا على الشدائد
والمحن، وأرسوا معالم هذا المجتمع في
رقعته الجغرافية، ووحدته الترابية مع
الوطن الأم - الجزائر -

الأستاذ الدكتور علي غنابزية

تصدير بقلم

الأستاذ الدكتور: عاشوري قمعون

أول ما تعرفت على الأستاذ علي، صادف إحدى الندوات الفكرية الوطنية محمد الأمين العمودي التي تنعقد كل سنة بالوادي. ووقعت أوائل التسعينيات من القرن الماضي. ومن ذلك الحين، صرنا مرتبطين بعلاقة أخوية صادقة. نتبادل الآراء، وندقق في بعض المسائل التاريخية والفكرية.

شارك في مسابقة الماجستير في جامعة الجزائر، وكان أول المتفوقين. وحصل بعدئذ على شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر عام 2002 خولته المشاركة في مسابقة التوظيف بالمركز الجامعي بالوادي، فكان حظه وافرا. حيث أجراها بتفوق، والتحق بعدئذ بالتعليم العالي أستاذا مساعدا متربصا، وباحثا مدققا، حتى حصد أعلا الدرجات الجامعية مثل: شهادة الدكتوراه سنة 2009، ودرجة الأستاذية في دورة جوان عام 2016.

وهكذا اقتحم الأستاذ علي دروب البحث العلمي في مجال اختصاصه، وحقول الاستقصاء في شتى الميادين الثقافية بكل جدارة واستحقاق. فكان رجلا مشحونا بمختلف المعارف التاريخية والفقهية والفكرية بصفة وافية وشمولية.. وكان في كل ذلك الفارس المغوار، والشجاع المقدم. اتصف بدمائة الأخلاق، وحسن السيرة الرشيدة والخصال الحميدة. لين العريكة. رجل قل نظيره في تقديم الخدمات إلى أقصى حدود الخدمة. وهو بذلك رجل علم بآتم معاني الكلمة. يبحث في دقائق الأمور. وتخصص في التاريخ المحلي وتبوأ فيه مركز الصدارة بدون منازع ولا وازع. إنه المرجع الأساس لكل الباحثين في تاريخ سوف من مختلف جوانبه.

يقتحم الصعاب ولا يلتفت للوراء مهما كانت النتيجة التي يحققها في عمله البحثي. وقد عمل الأستاذ علي على إقحامه في مجال البحث في التاريخ المعاصر. وكان يحفزني لخوض غماره والغوص في بحاره. وكنت أتهيب من النفاذ في هذا الميدان الذي لم تكن لي به دراية، وليس لي فيه غاية. وكان هو الأستاذ النصح الذي يلح علي بالمشاركة فيه. ويشجعني بكل ما أوتي من قوة الإقناع وسلاسة التفهم، سواء عن طريق إعارته لما أطلبه من مراجع، أو تقديم أبحاث مكتوبة، أو وثائق أرشيفية عنده محفوظة

وكان صديقنا الأستاذ علي صاحب المبادرة في تأسيس المنتدى الأكاديمي للدراسات التاريخية بجامعة الوادي في إطار الدفع بالحراك والنقاش العلمي على مستوى القسم إلى أقصى مداه. واقترح إشكاليات تاريخية ومعرفية بغية برمجتها. كما تجدد الأستاذ علي في أغلب المحافل العلمية والمنابر البحثية التي يشارك فيها، إما متدخلا أو مناقشا أو معقبا.

له مجموعة معتبرة من المؤلفات القيمة، وما زال مشوار بحثه طويلا، وينبوع زلاله عذبا وغزيرا، وأسلوب كتابته شيقا وورصينا، ومنهجه في الاستقصاء ممتازا وجميلا. ومن أبرز مصنفاة في نظري، هذا الكتاب الجديد الذي اعتبره موسوعة تاريخ سوف من بدايته إلى نهايته حينما نضيف إليه أطروحتي الأستاذ الجامعية في الماجستير والدكتوراه على التوالي: مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن الثالث عشر (13هـ) التاسع عشر (19م)، ومجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية 1882-1954.

عرض علينا مُصنّفه تحت عنوان: مجتمع وادي سوف منذ فجر التاريخ إلى أواخر العصور الوسطى. استهله بإهداء ومقدمة. ثم قسمه إلى ستة فصول:

الفصل الأول وعنوانه: **المجال الجغرافي لوادي سوف**، تناول فيه: الدلالات اللفظية لتسمية وادي سوف، ثم موقعها الجغرافي، وحدودها الإقليمية، والإطار الطبيعي، ومراحل تعمير القبائل العربية، والإطار السكاني والاقتصادي للمنطقة.

وكان موضوع الفصل الثاني: **الوجود البشري القديم بوادي سوف**، عالج فيه: المظاهر الطبيعية وملامح الحياة الأولى في عصر ما قبل التاريخ، والسكان الأوائل في صحراء وادي سوف، وأوضاع وادي سوف في عهد الاحتلال الأوربي القديم.

وكان عنوان الفصل الثالث: **تاريخ وادي سوف منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية عصر الولاية بإفريقية**، تطرق فيه إلى: حالة وادي سوف في بدايات الفتح الإسلامي لبلاد إفريقية، والمسارات التاريخية للفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأوسط ووادي سوف، وعصر الولاية بإفريقية وأثره على المغرب الأوسط ووادي سوف.

وتناول في الفصل الرابع وموضوعه: **تاريخ وادي سوف في ضفاف دول المغرب الأوسط العربية الإسلامية**، وضعية وادي سوف في عصر الدولة الرستمية (160-296هـ/777-909م)، ووضعية وادي سوف في عصر الدولة الأغلبية (184-296هـ/800-909م)، ووادي سوف في عصر الدولة العبيدية (الفاطمية) (296-361هـ / 909-972م).

وكان موضوع الفصل الخامس وعنوانه: **تاريخ وادي سوف في ضفاف دول المغرب الأوسط البربرية الإسلامية**، تطرق فيه إلى: وضعية وادي سوف في عصر الدولة الصنهاجية (الزيرية) (361-543هـ/972-1148م)، ووضعية وادي سوف في عصر الدولة الحمادية (405-547هـ/1014-1153م)، ووادي سوف في عصر الدولة الموحدية (515-668هـ / 1121-1269م).

أما موضوع الفصل السادس والأخير فكان: **وضعية وادي سوف في عصر الدولة الحفصية (627-981هـ / 1229-1573م)**، تناول فيه: تأسيس الدولة

الحفصية وسياستها العامة في الحواضر وأثرها على إقليم وادي سوف، والحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية والمظاهر العمرانية في مجتمع وادي سوف. وذيل بحثه بخاتمة مرفقة بملاحق وقائمة المصادر والمراجع.

وإذا تمعنا في فحوى هذا البحث، فإننا نلاحظ فيه تنوعا في الموضوعات شملت جميع النواحي: البشرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعمرانية والسياسية والعسكرية ... كتبت في فصول موزعة توزيعا متوازنا، ومتناسقا ومنسجما بأسلوب شيق وعبارات سلسة ومبسطة، وبلغة عربية مميّنة وسليمة اللحن. تستغرق من القارئ وقتا طويلا دون كلل ولا ملل لبساطة أسلوبها ويسر فهمها. وهذا ما عاهدناه في جل كتابة صاحبها.

وهكذا يتبين لنا أن الأستاذ علي قد أحاط بالموضوع من شتى جوانبه مع دقة التحري والتمحيص والمتابعة المتأنية لمختلف الجوانب التاريخية مع البسطة الشاملة لسيرورة التوغل العربي الإسلامي لهذه المنطقة من القطر الجزائري الفسيح. وهذا جميعه مستمد من مصادر متنوعة، ومراجع متعددة.

الوادي، في يوم الأربعاء 07 ربيع الثاني سنة 1444 هـ / 02 نوفمبر عام 2022م

المقدمة

تعتبر دراسة حياة الشعوب والمجتمعات القديمة من أصعب الفترات التاريخية التي تستدعي من سكانها وذويها المسارعة إلى كتابة تلك الصفحات، والوقوف عند خصائص تلك المراحل العتيقة؛ لأن الجهل بتلك الحقب يجعلها مبتورة الصلة بجذورها. ومعرفة تاريخها له دوره الأساسي في تطوير الذات، لأنها تتلمس مآثر الأجداد، وتعزز بإنجازاتهم، وتضيف عليها مآثر جديدة، ترتقي بها في سلم التقدم الحضاري.

كانت رغبتني ملحة - منذ فترة الشباب - في التعرف عن حياة مجتمع وادي سوف الذي أعيش في دياره، وأتأنس من هوائه، وأشرب ماء عذبا من آباره، وأتناول من غيطانه تمرا رطبا جنيا، وأرتع في صحرائه الرملية ذات اليمين وذات الشمال. تلك الأرض التي تبوح بأسرارها، ويبقى الخفي منها في ذاكرة النسيان، ينادي - كل باحث - إلى كشف المستور، وإزاحة غشاء تلك الأحداث التي دفن أكثرها تحت ركام الرمال، وتحت الكثبان الشاهقة بين الغرود والغيطان. ولما حانت الفرصة في دراستي الأكاديمية، كان "مجتمع وادي سوف" هو محل البحث. وتبلور الهدف، وازداد العزم في بداية التسعينيات من القرن العشرين، ووجدت الرغبة السابقة قد آتت أكلها، وأثمرت بحوثا متواصلة في مجالات شتى، ولاسيما في التاريخ المعاصر لوادي سوف والجنوب الشرقي. وحينئذ، تعرفت على ملامح التاريخ القديم والوسيط والحديث، ولكن دراساتي الآنية لم تستوعب ذلك، لأن المنهجية تقتضي احترام التخصص والالتزام بالموضوع قيد الدراسة.

إن الرؤية التي اكتسبتها حول تاريخ وادي سوف، تعمقت في الروح، وتجزرت في النفس، وألحت علي في المزيد من عمليتي البحث والتنقيب، والسعي حثيثا لتبديد كل التساؤلات، وتبديد الحيرة التي اعترت بعض أفراد المجتمع، واعتبروا

المنطقة عديمة الوجود في بدايات التاريخ، والسبب هو غياب الكتابة، وليس غياب الوجود والفاعلية، إضافة إلى اغفال المؤرخين القدامى ذكر وادي سوف، إلا بعض الشذرات القليلة، والإشارات العابرة. ولولا ما كتبه العدواني في تاريخه في القرن السابع عشر، والعوامر في صروفه في القرن العشرين، لما وجد لوادي سوف تاريخ يذكر.

لقد آليت على نفسي أن أقتحم هذا المجال، أسبر غور تلك العهود الغابرة، لعلني أضيف إلى تلك الشذرات بعض الصفحات الناصعة من المجد الخفي، والتاريخ الزاخر السخي، والمعنى الواضح الجلي. وبعد سنوات مرت من التأجيل، وسببه تشعب الأعمال، وتعدد الالتزامات والمهام - ووفق سلم الأولويات - لم أهمل رغبتني، وتم بحمد الله وتوفيقه تحقيق غايتي بهذا الكتاب الذي يؤرخ لمجتمع وادي سوف منذ فجر التاريخ إلى نهايات العصور الوسطى.

إن الثقافة الشعبية تقتحم - باستمرار - خضم التاريخ المحلي، ولا تبالي بنشر الأخبار والروايات على نطاق واسع، وتحاول تثبيت ذلك في نطاق الحقائق الأكيدة التي لا يساورها أدنى شك. فعندما تناقش مع الناس موضوع أصول السكان، وهجراتهم، ومجيئ العرب للمنطقة وتعميرها، تجدهم قد نسجوا قصصا عديدة، وأفاضوا في الخيال، ولا يباليون في الخوض عن العنصر المسيحي من الروم، أو التوارق، دون وجود توثيق أو إسناد، أو دليل واضح يطمئن إليه الباحث. والجدير بالملاحظة، أن للرواية الشعبية قيمتها، وخصوصا في حالة غياب الوثائق أو الكتابات المخطوطة، ونؤكد على تسجيلها بتحفظ، والاستفادة منها - قدر الإمكان - وما تقتضيه الضرورة في مضانها، ولكن يشار إليها على تلك الصفة، ويستمر البحث، ريثما يتوفر الجديد الذي يمكن من خلاله تجلية الحقيقة.

وعند إعداد هذا الكتاب، كان الاعتماد الأساسي على الكتابات المحلية بالدرجة الأولى، وما كتبه الفرنسيون وما سجلوه في مذكراتهم ورحلاتهم وتقاريرهم، ودراساتهم المركزة حول جوانب عديدة في المجتمع، وتم إخضاع معلوماتهم إلى

التمحيص، ومحاولة فهم الأبعاد المختلفة للكتابات السابقة، والاستعانة بالكتابات القريبة منها، والدراسات الأكاديمية الحديثة التي أنجزت بإتقان.

وأهم الكتابات المعتمدة في البحث، تاريخ محمد بن عمر العدواني اللجي الذي تم تدوينه على مراحل، آخرها القرن السابع عشر. ورغم ما اعتراه من اضطراب وغموض، وورود بعض الخرافات التي قلما يقبلها العقل، إلا أنه زاخر بالإشارات عن أحوال العرب ورحلاتهم الأولى، وتعميرهم لوادي سوف في قسمها الشمالي، والصراع مع بربر زناتة، وبني عمومهم من قبيلة طرود، وكيف استقروا في جنوب وادي سوف، واتخذوها قاعدة نهائية. بالإضافة إلى الجوانب العمرانية والاجتماعية والاقتصادية.

ويليه زمينا كتاب الشيخ إبراهيم العوامر، الصروف في تاريخ سوف، المخطوط بجزأيه، إضافة إلى النسخة المطبوعة، وتعليقات ابنه الجيلاني. ويعتبر أهم مرجع قام عليه صرح كتابي هذا، لأنه يسر علينا البحث الأولي. وأورد في كتابه الخطوط العريضة والمراحل التاريخية المتتابعة، وإن كانت متداخلة. ولكن بالصبر والتأمل، تم وضعها في مسارها ضمن التاريخ العام للجزائر، والمناطق المجاورة لوادي سوف.

لقد اعتمدت منهجا تاريخيا متعدد الجوانب، بداية من نقد المصادر والمراجع والروايات، وفهم ما كتب عن وادي سوف، وتمت الاستفادة من كتابات رواد المدرسة التاريخية الأصيلة في الجزائر، وخصوصا تاريخ مبارك الميلي عن تاريخ الجزائر في القديم والحديث، وكتاب تاريخ الجزائر العام للشيخ عبد الرحمن الجيلالي، الذي يعتبر السند القوي، والذي استندت عليه في ترتيب المراحل، واقتبست منه الأفكار المنهجية، وطورتها، ولاسيما حول الجوانب الاجتماعية والدينية والثقافية، والحضارة والعمران. وذلك ساعدني في بلورة كثير من الحقائق الماثورة في كتاب الصروف، لأن إخضاع تلك المعلومات لمنهج التصنيف، ووضعها إلى جانب أخواتها في المناطق القريبة في تونس أو بلاد الزاب أو وادي ريغ

أو غيرها، أعطائها قيمة جديدة كشفت عن وجه آخر للفعل التاريخي لسكان المنطقة.

لقد حرصت على كتابة مادة الكتاب ضمن التاريخ الوطني بكل معالمه الأساسية، وكلما وجدت أخبارا عن مجتمع وادي سوف، ضمنتها في مكانها حتى يستفيد القارئ من جانبيين، ويعرف كلما غابت الأخبار في جانب معين، أن المؤرخين لم يتعرضوا لتلك الفترة، ويبقى البحث فيها مفتوحا عبر الزمن، حتى يسد الفراغ في وقت لاحق. كما تم تدعيم المتن بخرائط جديدة، تحدد بالتقريب موقع وادي سوف حتى يتبين كل باحث جانب الجغرافيا التي توجه التاريخ وتدعمه. كما قمت بدعم البحث بملاحق، وهي تقارير أو مقالات كتبت بالفرنسية، فأوردتها على حالها حتى تكون مفهومة للجميع، ودعمتها بترجمة عربية لتلك النصوص حتى تعم الفائدة وتنتشر.

كتبت هذه الدراسة، حول مجتمع بدأ ينمو رويدا، في وسط صحراوي قاحل، مع انعدام أدنى متطلبات الحياة الهنيئة، وخلال حقبة متوالية بلغت قرونا، وعرفت أجيالا، وخلفت تراكمات تبحث عن يتابع أثرها، ويبعث فيها روح التاريخ. ونعني بالمجتمع الجغرافية الممتدة والشاسعة، وكل المواطن التي عاش فيها السكان الأوائل، والأجناس المتعاقبة عليها، وكل ذلك جعل منطقة وادي سوف، والمجتمع القديم، يتميز بما يلي:

- عدم الاستقرار لسكانه الأوائل، بسبب حياة البداوة التي حتمت عليه التنقل، وهجران المنطقة نهائيا إلى مناطق أكثر ملاءمة لظروفهم القاسية، ويخلفهم آخرون، اضطرتهم حالة الأمان إلى السكن النهائي.

- اتصاف المجتمع بالبساطة في العيش، والرضا بالدون من مستلزمات الحياة. فتوفر الماء لشرب الإنسان، وسقي الحيوانات من الإبل والغنم، وتوفر النباتات والكأ للمواشي، تعتبر كافية وتضمن لهم البقاء، مع التنقل لتوفير الطعام من المناطق المجاورة عن طريق التجارة.

- الارتباط الوثيق بالتجمعات السكانية القريبة، والتي كانت موطن الهجرة، وبقية الصلات دائمة مع بلاد الجريد التونسي، وبلاد الزاب، ووادي ريغ، التي كانت أكثر استقرارا منها. وتأثرت وادي سوف بأحداثها، وكان صداها يصل سريعا. ولكن بسبب الفقر الشديد، وابتعاد المجتمع عن العلم والوعي العميق، وفقدان التدوين، جعلها شبه غائبة عن التاريخ. كما أن الرحالة الأوائل الذين جابوا المنطقة، لم يجدوا ما يكتبون عنها بسبب الطبيعة البدوية، والتنقل الدائم للسكان، وانعدام العمران الثابت إلا في أوقات متأخرة.

- انتعاش المجتمع في ظل قبيلة زناتة البربرية الإباضية، والتي دونت في سير أئمتها شذرات هامة عن وادي سوف، وأبرز علمائها. وكان للوجود العربي دوره في تثبيت أركان المجتمع، والإعلان عن الاستقرار. وبدأت المنطقة تشهد تدوينا خفيفا منذ عهد الدولة العبيدية في القرن الثالث الهجري، وتوسعت المعلومات في العهد الزييري والحمادي والموحدي، وتطورت بصفة جلية في العهد الحفصي الذي شهد بدايات غراسة النخيل التي شجعت على الهجرة، ورافقتها عناصر جديدة ساهمت في إعطاء وجه جديد للمجتمع، والذي صار فاعلا في العهد العثماني للجزائر.

وليس من السهل بمكان، الكتابة الجادة حول هذه الحقبة الغامضة، وهي أول التحديات التي واجهتني. فقد اصطدمت بفترات طويلة لا أتمكن من سدها، بل تركتها غامضة، حتى يحين الكشف عنها من قبل الباحثين، أو عندما تتوفر الوثائق، وتتحقق الأخبار.

إن هذا الكتاب، على ما يعتره من نقص، وهو طبيعة البشر، أو تتخلله أخطاء، فهو جانب من السهو الذي لا يسلم منه إنسان، فنسأل الله العفو والغفران. ولكن نقول أخيرا، إن كتاب مجتمع وادي سوف في القديم والوسيط، هو إضافة نوعية لما احتواه من مفاهيم واضحة تشفي غليل العامة، وتبدد كثيرا من تساؤلاتهم، وتميزه بإشارات موثقة فتحت مجالا رحبا للخاصة من المهتمين والمتابعين. وهو في نهاية

المطاف ينير دروب الباحث الجاد والدارس المثابر، والراغب في الوصول إلى الحقيقة التاريخية أو الاقتراب منها.

وأخيرا أسأل الله العظيم رب العرش الكريم التوفيق والسداد، والإلهام إلى الطريق الصواب، إنه ولي ذلك والهادي إلى سواء السبيل.

الوادي (الجدلة): يوم الثلاثاء 22 ذي القعدة 1443هـ / 21 جوان 2022م

الأستاذ الدكتور علي بن الأخضر غنابزية الجدلاوي

الفصل الأول

المجال الجغرافي لوادي سوف وخصائص السكان

- أولاً: الدلالات اللفظية لتسمية وادي سوف
- ثانياً: الموقع الجغرافي والحدود الإقليمية لوادي سوف
- ثالثاً: الإطار الطبيعي لوادي سوف
- رابعاً: مراحل تعمير القبائل العربية لوادي سوف
- خامساً: الإطار السكاني لوادي سوف
- سادساً: الإطار الاقتصادي لوادي سوف

المجال الجغرافي لوادي سوف وخصائص السكان

إن دراسة حياة المجتمع يدعو إلى التعريف التام بالمجال الجغرافي، والبيئة الطبيعية، فضلا عن خصائصها الاقتصادية والاجتماعية، لأنها المعالم الأساسية للمجتمع. ويقتضي الحال التركيز على الروابط التاريخية التي نكتشف من خلالها سبل هجرة السكان إلى إقليم وادي سوف، وتعمير المنطقة. وهذا المجال الصحراوي في الجنوب الشرقي الجزائري، تطور زمنيا في العصور القديمة والوسطى، وبدأت ملامحه تبرز وريدا، وكان لها تأثيرها الفعال على المكان بما احتواه من منشآت عمرانية، وأنماط الحياة التي تغيرت على مدار الزمان. وحينها أخذ المجتمع صفته العامة، ضمن الجغرافية الصحراوية التي يمكن معرفة مظاهرها وطبيعتها في السياق التالي:

أولا: الدلالات اللفظية لتسمية وادي سوف

يعتبر إقليم ((وادي سوف)) من الأقاليم الصحراوية العديدة، الضاربة في أعماق التاريخ. وهو اسم علم مركب من كلمتين متشابهتين في المعنى، ويحمل كل منها دلالات وردت في كتب التاريخ، أو المعاجم اللغوية، أو الكتب التراثية المختلفة. وهي تدل على الجوانب الطبيعية أو التاريخية أو المظاهر الاجتماعية التي طبعتها. وكان بعضها تعبيرا عما تناقلته الألسنة ردحا من الزمن، ثم تغير حتى استقر في آخر المطاف حول التسمية المشهورة التي ما زالت متداولة بين الناس إلى اليوم.

أ) دلالات اسم ((سوف)):

تعددت دلالات ((سوف)) تاريخيا. وحتى نفهم المعاني المختلفة، نعرضها وفق المجالات

التالية:

1. **الدلالة الجغرافية:** وهي الأقرب إلى الحقيقة، لأن الطبيعة تتلاءم مع المعاني المتداولة في

الكتب القديمة، وتخص عنصري الماء والترية:

- **معنى النهر المائي:** وهي التسمية الأشهر، لأن الأساطير القديمة تطلق الكلمة على نهر

كان يجري بالمنطقة من الشمال نحو الجنوب، ويدعى ((واد إزوف)) (Oued Izouf) أي النهر الرقراق الذي كانت مياهه تنساب على طول المسافة في المنطقة، ولكن مياهه غارت في أعماق

الأرض، وانقطعت من منبعها الأصلي، ولم يبق إلا المكان شاهدا على النهر الذي عرف باسمه ((وادي سوف))⁽¹⁾.

كما أن كلمة ((سوف)) تعني في لغة زناتة البربرية ((النهر))⁽²⁾. وعندما نقارن هذه الكلمة مع الكلمات البربرية القديمة (Isouf) و (Asouf) والتي تعني في البربرية الحديثة ((أسيف))، نجدها توافق معنى ((الواد))، أو بمعنى أشمل ((النهر)). وتلتقي أيضا مع اللهجة التارقية في الكلمة المركبة (le Souf Mellon) أو تعني النهر الأبيض⁽³⁾.

ولما كان البربر هم سكان سوف القدماء، فإن أولى الكتابات التي توصلت إليها، كانت تطلق على المنطقة اسم ((أسوف)). وهذا ما ذكره المؤرخون الإباضيون، ومنهم: أبو زكرياء (ت 471 هـ) الذي ذكر أسوف في كتابه⁽⁴⁾، ومن شواهد: ((وسارا حتى وصلا أسوف، فخرج إليها...))⁽⁵⁾، وأبو الربيع الوسياني في القرن السادس الهجري⁽⁶⁾، ومن كلامه الواضح: ((فقدم عبد السلام، فشخص بأهله من القلعة إلى أسوف...))⁽⁷⁾.

ويعتبر كتاب طبقات المشايخ للدرجيني الإباضي (ت 670 هـ)⁽⁸⁾ أقدم مصدر ذكر ((سوف)) بدون ألف. ومما نذكره على سبيل المثال قوله: ((قال وسرنا حتى وصلنا سُوف فاهتز أهلها جذلا...))⁽⁹⁾. فيكون ظهور الكلمة في حدود القرن 13 م، أي حوالي سنة (1271 م). ولما قدم العرب في ذلك القرن، صارت كلمة سوف هي السائدة. ولعل ما نقله عن العدواني في تاريخه، قوله من أول كتابه: ((وأما سوف فلم يكن فيها ساكن حليف ولا سيد، بل كانت براح الذياب))⁽¹⁰⁾.

(1) André Voisin, *Monographie d'une région Saharienne*, Paris, 1985, (Manuscrit), P.30.

(2) J. Scelles – Millie, *Contes Sahariens du souf*, Maisonneuve et larose, 1964, Paris, P. 17.

(3) André voisin. op- cit, P. 03 .

(4) أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر، كتاب *سير الأئمة وأخبارهم*، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 2، الجزائر، 1984، ص ص 244 – 250.

(5) نفسه، ص 244.

(6) أبو الربيع الوسياني، *سير مشايخ المغرب*، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1985، ج 2، ص ص 26 – 83.

(7) نفسه، ج 2، ص 26.

(8) أبو العباس أحمد الدرجيني، كتاب *طبقات المشايخ بالمغرب*، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث بقسنطينة، الجزائر، 1974، ج 1، ص ص 152 – 153. ج 2، ص ص 482 – 500.

(9) نفسه، ج 1، ص 152.

(10) محمد العدواني، *تاريخ العدواني*، تحقيق وتعليق أبي القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت، 1996، ص 82.

وأول العرب الذين نزلوا بوادي سوف، هم بنو عدوان، في سنة 600هـ/1204م، وريثا استقروا واختلطوا ببربر زناتة⁽¹⁾، استعملوا مثلهم الكلمة المتداولة، والتي ما زالت نعتا للإقليم.

- معنى الرمال المنتشرة: والمعنى الجغرافي يفرض نفسه في أديم الأرض، فنجد الاسم مرتبطا ببعض الخصائص الطبيعية للمنطقة، ففي اللغة العربية نجد كلمة ((السوفة والسائفة)) وهي الأرض بين الرمل والجلد، قال أبو زياد: السائفة جانب من الرمل ألين ما يكون منه والجمع سوائف، وعندما تثير الريح الرمل تدعى المسفسفة⁽²⁾. وهذا جعل أهل سوف يطلقون على الرمل اسم ((السافي))⁽³⁾.

وينسب بعضهم لفظة ((سوف)) إلى كلمة ((السيوف)) وأصلها كلمة سيف أي ((السيف القاطع)) وأطلقت على الكثبان الرملية ذات القمم الحادة التي تشبه السيف، وتلتقي معه في الحدة والبروز. وقد أشار العوامر إلى قول من سبقه من المعمرين من أهل المنطقة، ونقل ما قاله في كتابه: (وقال القدماء: حين أتى طرود إلى هذه النواحي، قالوا نسكن تلك السيوف، أي الأحقاف والكثبان من الرمل. والسيوف جمع سيف أي كتيب من الرمل، فحذفت الياء لكثرة الاستعمال وتداول ألسنة العامة عليها مع عدم محافظتهم على أصول الكلمات. فصار الذاهب والآتي يقول: ذاهب إلى سوف أو كنت في سوف)⁽⁴⁾. وما يدعم هذا الوصف أن الرحالة المغربي العياشي لما مر بالمنطقة في حدود عام 1662 م، تحدث عنها في رحلته ((ماء الموائد)) بعبارة ((سف))⁽⁵⁾. ولعله اختلط عليه الأمر في وصف الكثبان، فجعله نعتا على البلاد، ولكن المعاني السابقة كلها تصف الوسط الطبيعي الذي ينطبق على الوجه السافر للمنطقة.

2- الدلالة السوسيو تاريخية: كما أن السلوك الاجتماعي وعادات السكان، وأحوالهم التاريخية القديمة، لا تخلو من إشارات نستشف منها الدلالات التي تقربنا من الحقيقة التاريخية. ومما ورد من تلك المعاني:

(1) علي غنابزية، الشيخ محمد بن عمر العدواني حياته ومآثره، إصدار دار الثقافة بالوادي، مطبعة الرمال، ط 1، الوادي - الجزائر، 2015، ص 18.

(2) ابن منظور، لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ب ت، ج 11، ص 66.

(3) محمد الطاهر التليلي، الفوائد المنتشرة من المطالعات المبتورة، مخ، توجد نسخة في النادي السياحي بقمار، ص 128.

(4) المرجع السابق، ص 39.

(5) مولاي بالحيمسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر، 1981. ص 92.

- معنى الصوف الملبوس: لا شك أن لباس أهلها قديما - مثل بقية سكان الصحراء - هو لباس الصوف. وهو النسيج المشهور عند الناس، ولا يوجد غيره، لأنهم يربون الأغنام⁽¹⁾، فيتخذون من ألبانها ولحومها طعامهم وشرابهم، ومن أصوافها ألبستهم وأمتعتهم. ولهذا يوجد تقارب بين الملبوس من كلمة الصوف، والمستتر والمتغير في كلمة سوف، وهو الفرق بين حرفي الصاد والسين، فهذا القلب الحرفي هو السر في ذلك، وهو احتمال وارد، ولكن بدرجة أقل من سابقه.

- العباد أهل الصوفة: ⁽²⁾ عرف عن أهل التصوف الخلوة، وتفضيل المناطق النائية التي يتخذونها مأوى، وينقطعون فيها لعبادة الله، ويرضون بشطف العيش، ما دام الأمن مضمونا، ولا يهتمهم قلة ذات اليد، لأنهم فضلوا الزهد عن الثراء، ويكفيهم القليل من الكألاً لقطعانهم، والماء الجاري في الوادي، فأقاموا بجواره، ولعل كل عابر يصفهم بذلك المعنى الذي تحول بطول الزمان إلى المعنى المقصود من أهل سوف.

- أهل العلم والحكمة: وغالبا ما يجمع أهل التصوف بين الصفاء القلبي والذهني، ويتفجر العلم من ينابيعهم. فالرجل الذي سكنها أولا عرف بالعلم والحكمة وذاع صيته، وعمت شهرته، وكان يدعى ((إذا السوف))⁽³⁾، فنسبت المنطقة إليه⁽⁴⁾.

3- الدلالة الإثنوغرافية: والتي ترتبط بتنقل الجنس البشري في مختلف البلدان، ويحمل ثقافته والتي يصدرها أثناء زيارته لتلك المواطن، أو يستقر فيها ويعطيها الطابع الجديد ضمن عاداته وتقاليده، ومنها تسميات المواقع التي استوطنها ولو لفترة قصيرة. وما نلاحظه في مجالنا الجغرافي لوادي سوف، أن التأثير القبلي البربري الداخلي في الجزائر، والتأثير المشرقي الوافد، ترك ظلالاتا تاريخية، ساهمت في صياغة اسم سوف، وهي التالية:

(1) إبراهيم العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تعليق الجيلاني العوامر، الشركة التونسية للنشر - تونس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، 1977، ص 38.

(2) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 38.

(3) السوف في اللغة هي العلم والحكمة، هذا ما ذكره العوامر، وتتبعنا الكلمة ولم نعثر لها عن أصل في اللغة، ولا أعلم لها معنى في اللهجة الشعبية، ولعله يقصد كلمة الفيلسوف، فشطرها الثاني فيه كلمة سوف، ولكنها كلمة من أصل يوناني، وتعني محب الحكمة والعلم، وكلمة "سوفوس Sophos" تعني عندهم الحكيم. وتنطبق على الذي اعتقده العوامر. أنظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983، ص 143. إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 38.

(4) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 38.

- نسبة لقبيلة مسوفة: وهي قبيلة مسوفة MASSOUFA التارقية البربرية، وإحدى بطون صنهاجة، وهم المثلثون، وسكنوا الصحراء ولاسيما من بلاد المغرب⁽¹⁾. وصلة القبيلة بالمنطقة من جهتين:

- عرفت القبيلة بالتنقل، وعدم الاستقرار النهائي ولاسيما قديما، وذكرها الحميري في ترجمته لمدينة سجلماسة: (يسكنها قوم من مسوفة رحالون لا يستقر بهم مكان، ليس لهم مدن ولا عمارة يأوون إليها إلا وادي درعة، وبينه وبين سجلماسة مسيرة خمسة أيام)⁽²⁾. ومن مسوفة، خرج بنو غانية وكانوا من المرابطين الذي خاضوا ثورة كبيرة، ووصلوا في زحفهم إلى مناطق قريبة ومتاخمة لوادي سوف، كما ذكر ابن خلدون، وخاصة بلاد الجريد من أواخر القرن السادس إلى منتصف القرن السابع الهجريين⁽³⁾. كما ورد عند ابن خلدون: (ووصل ابن غانية إلى قفصة وملكها ونازل بورك وقسطيلية وارتحل إلى طرابلس)⁽⁴⁾. بل وصلوا إلى بسكرة واستولوا عليها⁽⁵⁾، وتنقلوا إلى الصحراء الجزائرية. وهذا احتمال اتصاهم بسوف التي كانت آمنة من الزعازع والاضطرابات.

- أما الاعتبار الثاني، وهو احتمال السكن من القبيلة أو بعض أفرادها في سوف، أو التردد عليها، فحملت اسمها، ولكن حدث تحويل بنزع الميم من اسم القبيلة، أو نقلوا الأسماء المتداولة في بلادهم الجديدة في التوارق والصحراء، والتي تحمل أسماء متشابهة وهي ((سوف)) جنوب سهل تيديكلت، وهو وادي مائي ((وادي اسوف))⁽⁶⁾، وإقليم ((أدرار سوف توات))⁽⁷⁾ وهذا التقارب في التسمية يؤكد تبادل التسميات بين المناطق نظرا للتعاون والتقارب بين القبائل، بل والتضامن التجاري وربط العلاقات.

- نسبة لسوف الشام: ونعني بهم الوافدين على المنطقة من بلاد الشام. وذكر العوامر أنهم الذين نعتوا في تغريبة بني هلال: ((قيل إن أهل سوف حين دخلت العرب دخلوها...)). ثم

(1) محمد عبد المنعم الحميري، *الروض المعطار في خبر الأقطار*، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط2، بيروت، 1984، ص 470.

(2) نفسه، ص 305.

(3) أنظر: عبد الواحد المراكشي، *المعجب في تلخيص أخبار المغرب*، تح: محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994، ص 228. عبد الرحمان الجليلي، *تاريخ الجزائر العام*، ديوان المطبوعات الجامعية، ط7، الجزائر، ج2، ص ص 13-14.

(4) ابن خلدون، *تاريخ ابن خلدون*، دار الفكر، بيروت، 2000، ج 6، ص 255.

(5) نفسه، ص 259.

(6) يقع بالتحديد جنوب عين صالح. انظر: *الأطلس العالمي*، المعهد التربوي الوطني الجزائري، الجزائر، 1983، ص 18.

(7) تقع جنوب الصحراء الغربية ووادي الذهب. انظر: *الأطلس العالمي*، المرجع السابق، ص 31.

عقب أن سوف التي ذكرها هي المكان المعروف الآن بسوف البصرة⁽¹⁾ بقرب مدينة حلب الشام، ولعلمهم أتوا إلى هذه الأرض فسميت بهم⁽²⁾. وراجعنا كتبنا في الموضوع فلم نحصل على هذا الاسم، وإنما تعرفنا فقط على قرية ((باسوفان)) في قضاء جبل سمعون⁽³⁾. وما ذكره الشيخ العوامر من الاحتمالات الممكنة الوقوع، وفيه شيء من المقاربة والتخمين، لأن أحد الحجج أخبره أن في رحلة حجه مر بأرض سوف بالشام، ويشبه أهلها سكان سوف الجزائر في الخلقة واللباس، فأكرموه بعد معرفة نسبه⁽⁴⁾. والجدير بالذكر أن بلاد الشام عرفت أسماء أخرى مشابهة، ومنها:

ما أشار إليه صاحب معجم البلدان: (سُوفَةٌ، ... ولعله من السافة: وهي الأرض بين الرمل والجلد، والسافة الرملة الرقيقة. قال أبو عبيدة: سوفة موضع بالمروءت⁽⁵⁾)، وهي صحاري واسعة بين قُفين أو شرفين غليظين وحائل في بطن المروءت⁽⁶⁾.

أما بلدة ((سوف)) الأخرى، فإنها تقع في لواء قصبه جرش في شمال الأردن، وتبعد عن جرش بثمانية كيلومترات غرب المدينة، ونشأت على سفح جبال عجلون، وتشتهر بغاباتها، وزراعة أشجار الزيتون واللوز، والصنوبر والبلوط، ويسودها مناخ بارد شتاء، وشبه معتدل صيفا. وسميت هذه البلدة بسوف. وتشير الكتابات القديمة أن اسمها مشتق من كلمة لاتينية معناها النهر، وبلدة الينابيع، لأشتهارها بينابيع وعيون الماء الكثيرة، وأهمها عين لمغاسل وعين أم ظاهر، وعين القرفة وعين عبود ونبع سوف⁽⁷⁾.

كما أن أرض فلسطين، بها بلدة مشابهة في التسمية، وتدعى ((أرسوف)) التي تقع على ساحل البحر المتوسط، شمالي قرية الحرم التي تقع على بعد سبعة كيلومترات شمالي يافا، وهي إحدى

(1) أما علاقة حلب بالبصرة، فقد كانت البصرة هي مقر الحكم الذي تتبعه حلب، فقد تولاها ناصر الدولة الحمداني سنة 332هـ، أعمال الشام: من مدينة الموصل إلى حلب. انظر: ابن العديم الحلبي، زبدة الحلب في تاريخ حلب، مراجعة خليل المنصور، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1996، ص 63.

(2) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 38.

(3) كامل بن حسين الحلبي العزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب، ب ت ن، ص 462.

(4) كان لقاء العوامر بالرجل الذي أخبره بالجزائر العاصمة في سنة 1909، واسمه عثمان البهيمي وكان يعمل مع أخيه بالتجارة. انظر: إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 102.

(5) المروءت: قال البغدادي: ((من ديار ملوك غسان بالشام)). انظر: عبد المؤمن البغدادي، مرآة الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح علي محمد البجاوي، دار المعرفة، ط 1، بيروت، 1954، ج 3، ص 1261.

(6) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، ط 2، بيروت، 1995، ج 3، ص 283.

(7) راجع: أين أنت من سوف جرش، صحيفة الشاهد الالكترونية، الشركة النموذجية للصحافة، صحيفة يوم 2015/11/18، تم الاطلاع 2019/10/04 ليلا..

المدن التي شيدها العرب من بني كنعان، ويحتمل أنهم اشتقوا اسمها من الإله رشف الذي كانوا يعبدونه. ولم يكن لها شأن في العهدين الروماني والبيزنطي، ولكن شأنها برز لما حررها العرب من البيزنطيين في القرن السابع الميلادي، واستقروا فيها، وازدهرت وصارت عامرة بالسكان (1).

ومما سبق فان سوف، رغم كل الملامح والدلالات، فإن الجانب الطبيعي هو الأقرب إلى معناها. وقد أخذت ملامح «النهر» من سكانها البربر الأوائل في لفظ «أسوف»، وأخذت ملامح الرمال السائفة من قبل العرب المستقرين، في لفظ «سوف». ويعتبر الكاتب المراكشي، صاحب الاستبصار في القرن السادس، من أوائل الذين أوردوا كلاماً عن صحراء سوف، وكونها قرب بلاد الجريد، وتحدث عنها بأنها أرض مجهولة العواقب، وخطيرة جداً (2). وسبب جهله بالمكان، أنه لم يكلف نفسه العبور إلى سوف، والتي كانت خلاف ما اعتقد. وبعده نقل عنه الحميري ما قال وأضاف إليه تحديد موقع سوف، والتي وصفها بالمدينة، وأنها بدون عمران، وهذا في القرن التاسع بعد تمكن العرب منها، وانتشار خبرها في الآفاق، ونورد ما ذكره: «سوف: مدينة بالقرب من درجين وبقر نطقة من البلاد الجريدية ولا يعرف عليها عمران إلا جبال ورمال... وأهل تلك البلاد يخبرون أن قوما أرادوا المعرفة بها وراء قسطلية مثل توزر وغيرها، فأعدوا الأزودة والمياه وتاهوا في تلك الصحراء والرمال أياما فلم يروا أثراً لعمران وهلك أكثرهم في تلك الرمال» (3).

والجدير بالذكر أن التسمية ظهرت مبكراً بكلمة سوف المركبة بعدة صيغ. ويرجع ذلك للعهد الفاطمي، وهي «سوف جمار» (4). وهي التي احتضنت الدعاة الأوائل للمذهب الفاطمي، ولكن المراجع تعددت في ذكرها بألفاظ متعددة، (5) بسبب وضع النقاط على

(1) أحمد المرعشي وآخرون، الموسوعة الفلسطينية، ط1، دمشق، 1984، مج1، ص ص 168-169.

(2) مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ب ت ن، ص 159.

(3) محمد عبد المنعم الحميري، المرجع السابق، ص 333.

(4) أنظر: سهيل زكار، أخبار القرامطة، في الاحساء والشام والعراق واليمن (جمع وتحقيق)، دار الاحسان للطباعة والنشر، ط2،

دمشق، 1982، ج1، دمشق، ص 313. تاريخ ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص 41.

(5) ذكرت باسم «سوق همار» عند ابن الأثير. أنظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مراجعة محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1987، ج6، ص 450. كما ذكرت باسم «سوجمار»، عند القاضي النعمان، كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، تونس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1986، ص 29. بينما ذكرها الحسن الوزان، ونسبها لمدينة قسنطينة باسم «سوفغار»، وهو نهر وادي الرمل، أنظر: الحسن الوزان، وصف افريقيا، =

حروفها. والتبس الأمر كذلك في مكانها، أنها قريبة من قسنطينة. والصحيح أنها قريبة من قسطنطينية وهي بلاد الجريد⁽¹⁾، وهو الأقرب إلى أوضاع التخفي لدى أصحاب المذهب الشيعي المحظورة. وغالبا ما يقع هذا الخلط من المؤرخين في تحديد صحة الألفاظ ومواقعها. هذا أهم ما ورد في كلمة الأصل «سوف». وأما الثانية وهي كلمة «وادي» فلها دلالاتها هي الأخرى.

ب) دلالات اسم «الوادي»:

تركزت دلالات «وادي» في الجوانب الجغرافية الطبيعية، الواردة فيما يلي:

1. دلالة وادي الماء: وهذه التسمية امتداد لكلمة سوف السالفة الذكر، وتعني «وادي الماء» الذي كان يجري قديما في شمال شرق سوف، ويدعى منبعه «وادي الجبل»⁽²⁾ الواقع في نواحي بودخان⁽³⁾، وعقلة الطرودي⁽⁴⁾، والميتة⁽⁵⁾. ولهذا الوادي عدة روافد وفروع منها: عيون النازية على مسافة 60 كم شمال شرقي الوادي، وسمي هذا القسم وادي النازية، ووادي الجردانية⁽⁶⁾. وعندما يصل إلى منطقة الشط الشرقي بمدينة الوادي، يتفرع إلى ثلاثة فروع: يتجه أحدها شرقا نحو الطريفايوي، وينعطف آخر نحو الجنوب الشرقي ويدعى «واد وراغ»، حيث تغور مياهه بسبب كثرة الرمل، ويتجه فرع ثالث نحو الجهة الجنوبية الغربية ويدعى «واد زيتن»⁽⁷⁾.

وقد ورد في القاموس الموسوعي الحديث تعريف لوادي سوف باسم «النيل»، وأنه نهر صحراوي قديم غُطي مجراه الآن بالرمال. وهو التريتون الذي ذكره الجغرافيون القدماء. وأن

= ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1983، ج2، ص 55. ولعل وادي الرمل هو الذي جعل هذا الاضطراب عند المؤرخين والجغرافيين في تحديد موقعها.

(1) القاضي النعمان، كتاب افتتاح الدعوة، ص 29.

(2) وهو منابع وادي سوف القديم من جبال النمامشة الواقعة في المنطقة الشمالية.

(3) بودخان: جبل يبعد حوالي 100 كم من خنشلة بينها وبين سوف. وهو حاليا تابع لبلدية أولاد رشاش والمعروفة بزوي في ولاية خنشلة. انظر تاريخ العدواني، المصدر السابق، ص 163.

(4) عقلة الطرودي: وهي مكان يقع جنوب بودخان. وسميت عقلة الطرودي لأن شداد بن حارث الطرودي توفي بها، وهو من سكان سوف، وهذا ما جعل المكان قديم النشأة. و عمر بعد دخول طرود في أواخر القرن السابع الهجري (690 هـ/ 1292 م). انظر: إبراهيم العوامر، الصروف، ص 149.

(5) الميتة: وهي تقع في الفضاء الواسع بين عقلة الطرودي ومناطق الشطوط. وهي الآن تابعة لبلدية بابار بولاية خنشلة. انظر الخريطة في تاريخ العدواني، المصدر السابق، ص 73.

(6) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 48 - 49.

(7) نفسه، ص 91 - 92.

العرب الفاتحين الأوائل عرفوه تحت الاسم المطلق للنيل من نال: صار كريبا⁽¹⁾. وذكره العدواني في القرن 17 م باسم «غديرة النيل» بقوله: «قال الراوي: ثم انحدروا إلى سوف وكان فيها يومئذ غديرة النيل...»⁽²⁾. والمقصود به «الوادي»، لأن العرب قديماً كانوا يعتقدون أن نهر النيل بمصر هو سيد الأنهار، وأن الله سخر له سائر الأنهار لأن تمده بالماء. فاقتبس القدماء ذلك من الأثر الذي روي عن عمرو بن العاص أنه قال: «إن نيل مصر سيد الأنهار سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب أن يمد له وذلك، فإذا أراد الله تعالى أن يجري نيل مصر، أمر الله تعالى كل نهر أن يمد بهائه، وفجر الله الأرض عيوناً، وانتهى جريانه إلى ما أراد الله تعالى. فإذا بلغ النيل نهايته أمر الله تعالى كل ماء أن يرجع إلى عنصره، ولذلك جميع مياه الأرض تقل أيام زيادته»⁽³⁾.

2. دلالة وادي الرمل: وهو وصف لطبيعة المنطقة الترابية، لأن الرمال تغطي كل سطح أرض سوف. وذكر العوامر أن قبيلة «طرود» العربية لما قدمت للمنطقة في حدود عام 690هـ/1292م⁽⁴⁾، أطلقوا عليه اسم «الوادي»⁽⁵⁾، والذي استمر في الجريان⁽⁶⁾ حتى القرن 8هـ / 14م⁽⁷⁾.

كما أطلقت التسمية عندهم على مواطن أخرى في الجهة الجنوبية الغربية مثل «وادي العلندة»⁽⁸⁾ و«وادي الترك»⁽⁹⁾. ومما شبَّهت به - قبيلة طرود - الرمال التي تذروها الرياح وتنقلها من طرف إلى آخر قولهم: «إن تراب هذا المحل كالوادي في الجريان لا ينقطع»⁽¹⁰⁾.

(1) Jules Trousset, **Nouveau Dictionnaire Encyclopédique**, Librairie illustrée, Paris, V4, P. 321 .

(2) محمد العدواني، المصدر السابق، ص 82.

(3) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، 1977، مج 5، ص ص 334 - 335.

(4) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 149.

(5) نفسه، ص 90.

(6) استمر نهر أسوف، والذي أطلق عليه أهل مدينة الوادي اسم الوادي، ولكن ضعف في آخر أيامه وكثرت به الغدائر أو البرك المائية التي عرفت «باللجج». وتزامن ذلك بنزول القبائل العربية لأرض سوف.

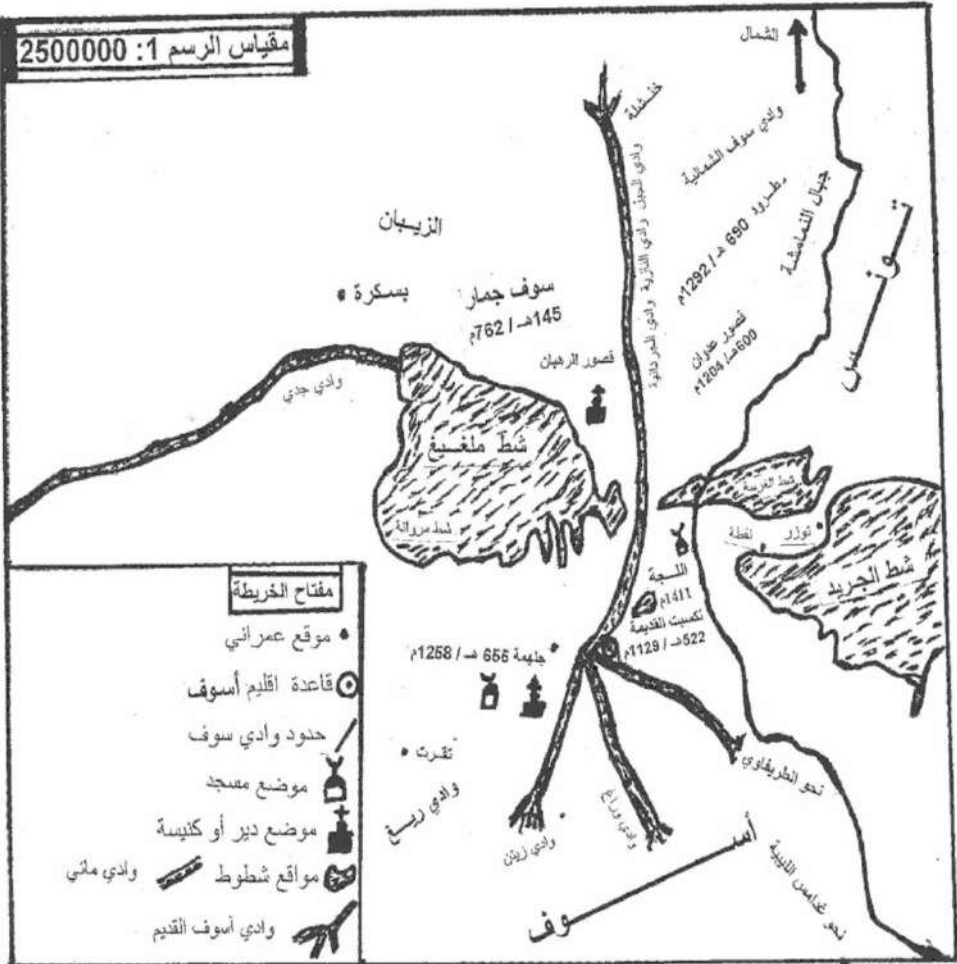
(7) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 153.

(8) تبعد عن الوادي بـ 20 كم في الجهة الجنوبية الغربية. وشبهت بالوادي لانخفاضها. وينمو بها شجر العلندة.

(9) تبعد عن الوادي بـ 33 كم في الجهة الغربية.

(10) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 91.

مقياس الرسم 1: 2500000



المراجع:

- 1- الأطلس العالمي، المعهد الوطني التربوي، الجزائر، 16. 2- تاريخ العوناني، ص 73.
- 3- إبراهيم العوامر، الصروف، الصفحات 37-48-49-91-92.
- 4- سبيل زكار، اخبار القرامطة، ج 1، ص 313. 5- القاضي النعمان، كتاب افتتاح الدعوة، ص 29.

الموقع التقريبي للمجرى المائي وادي أسوف القديم

وفيما بعد صارت كلمة ((الوادي)) تطلق على عاصمة الإقليم والمركز الإداري لسوف كلها وهي مدينة الوادي (1).

مما سبق اتضح أن كلمة ((سوف)) بالبربرية هي نفسها لفظة ((الوادي)) بالعربية. وقد كان ذلك الوادي جاريا ثم صار جافا. وتحولت مياهه إلى جوف الأرض، حيث توجد بغزارة في الطبقة المعروفة باسم (FLEUVE ALBIEN) والتي استغلت في العصر الحديث (2). والجدير بالذكر أن أشجار النخيل بالمنطقة تتصل جذورها مباشرة بالماء الموجود في الطبقة الدوثرولية. وتشير الحالة الجيدة التي تعيش فيها الأشجار إلى وجود نهر جوفي متحرك لأن المياه الراكدة تقتل الأشجار التي تعيش عليها (3). ولما نضب الماء نهائيا من فوق الأرض، صارت الرمال تغطي العرق السوفي مشكلة واديا من الرمال. فأصبح ينطبق على مصطلح ((وادي سوف)) إذن ((وادي الرمال)).

وصارت كلمة ((سوف)) تعني الإقليم كله، بينما أضيفت لها كلمة ((وادي)) وتقدمت عليها، وتحولت إلى ((وادي سوف)) على غرار المناطق التي حملت نفس المعنى، سواء في المناطق الصحراوية مثل ((وادي ريغ)) و((وادي ميزاب)) أو في المشرق مثل ((وادي القرى)). وأول من ذكره بهذا الجمع ((وادي سوف)) هو الرحالة الأغواطي في حدود عام 1829 (4). ثم عم الاسم، وانتشر فيما بعد على يد الفرنسيين على أثر دخولهم للمنطقة. وقد ذكره الدكتور إيسكار في تقريره الطبي سنة 1886 (5).

وبعد الاستقرار النهائي للفرنسيين بالمنطقة، تم إنشاء ملحقة الوادي " Annexe d' El- Oued " في جانفي 1885 (6) فغلب اسم الوادي، على مدينة الوادي ثم على كامل الإقليم (7).

(1) كانت مدينة الوادي تعرف في زمن زناتة باسم ((تكسبت القديمة)). فلما استقر العرب وخرجت زناتة، تغير اسمها، لأن الوادي هو المعلم الثابت فيها. وحتى لما نضب ماؤه، بقي رمزا يذكر، وأثرا خالدا في ذاكرة الكبار.

(2) P 17., J. scelles, Millie, Op. cit

(3) جورج غيرستر، الصحراء الكبرى، تعريب خيرى حماد، منشورات المكتب التجاري، ط 1، بيروت، ص 101.

(4) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط 2، بيروت، 1990، ج 2، ص 260.

(5) D. Escard, **Etude médicale et climatologique sur le pays de l'Oued-Souf**, publié dans les archives de médecine militaire en 1886, T.7, P.33 .

(6) Cauvet, " Notes sur le Souf et le Souafa ", **bulletin de la société de géographie D'Alger**, 1934, P.51

(7) ولما تم التقسيم الإداري عام 1984 على مستوى الوطن، صارت وادي سوف ولاية، عرفت باسم ولاية الوادي. وهي تضم إقليم سوف بأكمله، وألحق به الجزء الشمالي من وادي ريغ الذي قاعدته مدينة جامعة. وأضحى مدينة الوادي هي عاصمة الولاية الإدارية.



المراجع:

- خريطة افريقية الاقتصادية، انجاز ج. انسكمر، تحقيق: ع الذيب، الناشر M DI سان جرمان، أن لاي، فرنسا، 1978 .
- J.Ferry , Liaison par Jeep El-Oued – Ghadamès, in T.I.R.S, T 5 , Université d'Alger, 1948, p 186.
- إبراهيم العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، ص 37.

خريطة موقع وحدود وادي سوف القديمة

ثانيا: الموقع الجغرافي والحدود الإقليمية لوادي سوف:

يقع إقليم وادي سوف جنوب شرق الجزائر، ويتتمي إلى العرق الشرقي الكبير. يحده من الشمال بلاد الزاب ((بسكرة⁽¹⁾ والزرائب))، ويمتد حتى جبال الأوراس والنمامشة، وإلى منطقة تقرين⁽²⁾ في الشمال الشرقي⁽³⁾. ومن الشرق، الحدود التونسية من نفطة⁽⁴⁾ ونفزاوة⁽⁵⁾ مروراً ببير رومان⁽⁶⁾ حتى غدامس⁽⁷⁾. ومن الجنوب واحات غدامس⁽⁸⁾، ومن الغرب وادي ريغ (تقرت وتماسين) وورقلة⁽⁹⁾.

تمتد أراضي سوف من الجنوب إلى الشمال بين خطي عرض 31° - 34° شمالاً، وبين خطي طول 6° - 8° شرقاً⁽¹⁰⁾. وتبلغ المسافة من سطيل في الشمال إلى غدامس جنوباً حوالي 620 كم، ومن وادي ريغ بالجهة الغربية إلى الحدود التونسية بالشرق حوالي 160 كم. وتبلغ مساحة وادي سوف . 800,82 كم⁽¹¹⁾. والإقليم محاط بثلاثة شطوط وهي: شط وادي ريغ بالغرب، وشطوط مروانة وملغيغ وشط الغرسة من الشمال، وشط الجريد من الجهة الشرقية⁽¹²⁾.

(1) وتعرف أيضاً بإقليم الزيبان أو منطقة بسكرة. وتبعد عن الوادي بنحو 220 كم.

(2) المسافة الجوية بين تقرين وسوف تقدر بنحو 163 كم.

(3) انظر إبراهيم مياسي، «من تاريخ وادي سوف مدينة الألف قبة»، مجلة الثقافة، الجزائر، 1996، العدد 113، ص 194. إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 37.

(4) نفطة: وهي مدينة هامة تقع في بلاد الجريد التونسية، وتقع في الشمال الشرقي من وادي سوف. وتبعد عنه بمسافة 116 كم.

(5) نفزاوة: وهي إقليم صحراوي يقع في جنوب البلاد التونسية. ويمتد من بلاد الجريد إلى الأراضي الليبية بالجنوب الشرقي.

(6) بير رومان: قرب الحدود التونسية، يقع في الجنوب الشرقي من بئر بوطينة، ويبعد عنه بنحو 15 كم. ويبعد بئر رومان عن دوار الماء بحوالي 100 كم. انظر: الهادي بوغزالة حمد، شاهد من الثورة، حواره طليبة بوراس، تق علي غنابزية، منشورات ملحقة متحف المجاهد بولاية الوادي، مطبعة سخري، الوادي - الجزائر، 2012، ص 74.

(7) Marc-Robert Tomas – Sahara et communauté – presses universitaires de France 1 éd. Paris 1960. P. 37.

(8) غدامس: وهي إقليم صحراوي يقع في جنوب البلاد التونسية، ويمتد من بلاد الجريد إلى الأراضي الليبية بالجنوب الشرقي.

(9) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 37.

10 - إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص 194.

Carte de Tozeur – Publiée par le service géographique de l'Armée Française – en 1929.

(11) - الحدود المذكورة، ضبطت من قبل الفرنسيين، لأنها قبل مجيئهم، كانت المنطقة في مد وجزر، ولكنها لا تخرج في كل تاريخها القديم عن تلك الحدود إلا قليلاً.

(12) - André Voisin -. op. cit, (Manc), P. 3 .

ثالثا: الإطار الطبيعي لوادي سوف:

إن الامتداد الكبير لأراضي وادي سوف في أعماق العرق الشرقي، ومحاذاتها للأراضي الشمالية القريبة من المناطق الجبلية وشبه التلية، جعل مظاهرها الطبيعية متنوعة:

أ) مظاهر السطح:

يسود المنطقة عدة مظاهر منها:

- **العرق:** فسطحها يتتمي إلى العرق الشرقي الكبير. إذ تغطي الرمال معظم الأراضي (ثلاثة أرباع المساحة الإجمالية)⁽¹⁾ هي رمال ناعمة تشبه الدقيق ذات ألوان صفراء وبيضاء، تحركها الرياح⁽²⁾ وقد نتج عن ذلك شكلان اثنان:

- **الكثبان الرملية:** وهي الشكل البارز، وتقع بصورة كبيرة في جنوب سوف. وتختلف ارتفاعاتها حيث يصل أحدها 127 م على بعد 2 كم جنوب اعميش. وفي أقصى الجنوب بين الوادي وغدامس يصل أحدها إلى 200 م، وتدعى هذه الكثبان بالغرود⁽³⁾.

- **المنخفضات والأودية:** وهي الشكل الثاني، وتوجد بين ثنايا الكثبان السابقة. وتعتبر سوف أخفض نقطة في العرق الشرقي الكبير⁽⁴⁾. وتوجد منخفضات وأودية متخللة الكثبان الرملية. ومتوسط ارتفاع السطح هو 80 م، وينخفض دون مستوى سطح البحر بـ 25 م عند شط ملغيب⁽⁵⁾. والمظهر الآخر لوادي سوف هو:

- **الحمادات الرملية:** وتغطي المنطقة الشمالية لسوف. وهي طبقات حجرية متنوعة تحت الرمال، ويختلف سمك الرمال المتراكمة فوقها من جهة إلى أخرى. ومن تلك الطبقات ((الترشة)) وتستعمل لصنع الجبس، وتوجد بمنطقة البهيمة⁽⁶⁾ وسيدي عون⁽⁷⁾. أما ((اللوس)) فهي حجارة صلبة متشابكة وتستعمل في البناء لصلابتها. وتوجد بغمرة⁽⁸⁾ والمقرن⁽⁹⁾ وشرق

¹ - André Voisin -. op. cit, P 12 .

² - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 41.

³ - André Voisin, op. Cit., P. 12 .

⁴ -Gouvernement Général de l'Algérie – le Territoire du sud de l'Algérie – Imprimerie Algérienne. Alger. 1929. p 82 .

⁵ Ahmed Nadjah, **le Souf des Oasis**, Edition la maison des livres. Alger. 1971. P 10. -

⁶ - **البهيمة:** وهي بلدة تبعد عن مدينة الوادي شمالا بنحو 14 كم، وصارت تشكل الآن مع الزقم بلدية حسانى عبد الكريم.

⁷ - **سيدي عون:** بلدة تقع شمالا وتبعد بنحو 22 كم.

⁸ - **غمرة:** وتقع شمالا وتبعد عن الوادي بنحو 20 كم.

⁹ - **المقرن:** وتقع شمالا وتبعد عن مركز وادي سوف بنحو 26 كم.

الزرقم⁽¹⁾. وأما «الصلصالة أو السميدة» فتوجد في غمرة، والدييلة⁽²⁾، والمقرن. وتستعمل للبناء⁽³⁾.

ب) الخصائص المناخية:

يسود الإقليم مناخ صحراوي قاري شديد الحرارة صيفا، وقارس البرودة شتاء بسبب جفافه. ويغلب عليه الحر في معظم شهور السنة. ويصل المتوسط الحراري في الفصل الحار إلى 34°م، ويتعدى في فصل الصيف 50°م، وحينئذ تكون الرمال شبه ملتهبة. وفي فصل الشتاء يكون المتوسط الحراري 10°م⁽⁴⁾. وعندما تشتد البرودة، وخاصة ليلا تنخفض إلى ما دون الصفر⁽⁵⁾.

-أما الرياح: فهي تهب بصفة دائمة، وفي معظم شهور السنة بنسب متفاوتة، ومنها الشهيلى أو (القبلي) وهو شديد الحرارة، ويهب جنوبا. ويدوم من يوم إلى أسبوع، ويهب 15 يوما في السنة، وأكثره يكون بالنهار فتزيده أشعة الشمس حدة⁽⁶⁾.

أما البحري أو (الشرقي) فيهب على الإقليم آتيا من خليج قابس. ويكون هبوه غالبا في المساء بهواء رطب منعش، ويستمر إلى الليل. إذ يساعد على النوم فيمكن السكان من الراحة استعدادا لمشاق اليوم الموالي⁽⁷⁾. إضافة الى أنواع أخرى من الرياح منها الظهرراوي والغربي. وهذه الرياح تثير الأتربة غالبا فتزعج السكان، وتشل الحركة إذا تحولت إلى زوابع قوية.

.أما الأمطار: فهي نادرة وقليلة بسبب بعد المنطقة عن البحار. فمن جهة عنابة تبعد عن سوف بحوالي 390 كم⁽⁸⁾، وعن خليج قابس تبعد بحوالي 305 كم⁽⁹⁾. وينحصر سقوط هذه الأمطار فيما بين شهري نوفمبر وفيفري. وعندما تكون غزيرة، تتسبب في فيضانات تحلف

1 - الزرقم: بلدة هامة تقع في الناحية الشمالية الشرقية وتبعد عن الوادي بنحو 15 كم.

2 - الدييلة: وتقع شمالا وتبعد عن الوادي بنحو 20 كم.

3 Ahmed Nadjah, op. cit, p. 14.

4 - André Voisin. op. Cit. p 25

5- CH - Iutaud - **Exposé de la situation générale de Territoire du Sud** - Iypographie Adolphe-Jordan 1908. P 158 .

6 - André Voisin. op. Cit p 25

7 - Ahmed Nadjah op. Cit. p 23 .

8 - المقصود هو المسافة بين نقطتين، وقد تفوق 400 كم، وهي طيران الطائر. بينما تكون ما بين 530 إلى 600 كم تقريبا عبر الطرق البرية.

9 - André Voisin. op. Cit. p 25

أضراراً مادية على المساكن وغابات النخيل. ويصل المتوسط السنوي للتساقط بالمنطقة إلى 80,3 مم⁽¹⁾.

ج) الغطاء النباتي:

إن مظاهر الجذب وندرة النباتات هي السمة الغالبة على الإقليم المناخي الصحراوي، لأن النبات هو أثر لتفاعل ثنائي بين المناخ والتربة. ويمتاز المناخ في الصحراء بقساوته وشدة حرارته، بينما تفتقر التربة غالباً للمواد العضوية الضرورية. ومن هذا المنطلق فإن الغطاء النباتي في وادي سوف يتميز بالفقر بسبب الجفاف وكثرة الرمال. وأهم الخصائص البارزة لهذا الغطاء:

1) سرعة الظهور والاختفاء، بسبب قلة الأمطار التي تتساقط في مواسم معينة وتقتصر على وقت محدود جداً لتنمو النباتات، إلا أن حياتها لا تستمر إلا أياماً قصيرة.

2) تمتاز أغصانها بانعدام الأوراق أو قتلها، وقصر الجذوع ودقتها. وغالباً ما تتدرج بالأشواك لتصد الحيوانات، وتقلل من عملية التبخر بسبب شدة الحرارة في هذا الإقليم الجاف.

3) كثرة جذورها وتشعبها في اتجاهات مختلفة، وفي أعماق بعيدة، لأنها تبحث عن الماء الغائر في جوف الأرض، وأغنى الأراضي هي الوهاد والأودية والمنخفضات بين الكثبان الرملية، فتلك الحفر العميقة تكون طبقتها قريبة من منطقة اختزان المياه التي تمكن الحشائش والشجيرات وأشجار الحطب من الحياة مدة أطول.

4) توجد النباتات متناثرة في الصحراء، فتكون بعيدة عن الواحات والقرى وأماكن وجود الإنسان في المناطق العمرانية الأهلة بالسكان.

والنباتات الطبيعية في وادي سوف متنوعة، ذات جذور طويلة تنمو في الأودية وأطراف الكثبان الرملية، فيعتمد البدو الرحل على الحشائش لرعي حيواناتهم، والحضر يعتمدون عليها في حياتهم اليومية، فيتم استعمال الحطب وقوداً، وبعض الأعشاب الطبية للاستشفاء.

وأهم النباتات في هذا الإقليم هي:

- النباتات الرعوية: وأهمها الحلفاء والبشنة والعضيد والسعد والحارة والتين والخبيز والشيخ والقريطفة والنجم واللافة. وهي التي تعيش عليها الحيوانات من ضأن وماعز وإبل.

- النباتات الطبية: وهي حشائش متنوعة وأعشاب تتغذى عليها الحيوانات في المراعي الشاسعة، ويستخلص منها السكان البذور، ويقطعون بعض الأغصان - بعد يسها - يُصنع

¹ - Ahmed Nadjah. op. cit. p 23 .

منها الدواء الشعبي الذي يخضع للتجارب والعادات. وأهمها: البسباس وعنب الذئب أو (الثعلب) والحرمل والبصيل والفقاع والترثوث وغيرها.

- **الأشجار الحطية:** وأهمها شجر الأزال والأرطي والعلندی والزيتاء والباقل والمرخ. ويستفاد منها في إضرام النار لتحضير الطعام في البيوت أو أمام خيام البدو الرحل. كما تحرق بها الحجارة في الحاروق والكوشة لصنع مواد البناء. أما الأشجار التي يستفاد منها في العلاجات فهي: شجر الرتم والعرعار والطرفاء والأثل⁽¹⁾.

(د) الحيوانات البرية:

تعيش في البيئة الصحراوية بإقليم وادي سوف، منذ فجر التاريخ، مختلف الحيوانات البرية وهي: الطيور والحشرات والحيوانات المفترسة التي ترتبط حياتها بالظروف الطبيعية الصحراوية القاسية وتكيف معها. وأهم مميزات الحيوانات البرية في هذا الإقليم:

(1) تتحمل الجوع والعطش لمدة طويلة بسبب فقر الإقليم من الغذاء الكافي لهذه الكائنات.

(2) اعتمادها في غذائها على النباتات المتوفرة بالمنطقة، والحيوانات الضعيفة.

(3) انقراض بعض الحيوانات في الإقليم واختفاؤها بسبب اختفاء الظروف الملائمة لها بغياب أنواع من الغذاء، ومياه النهر القديم والغابات الكثيفة التي كانت تتخذها المأوى المناسب.

(4) البحث الدائم عن مأوى يحميها من الظروف المناخية الشديدة، بالحفر تحت الرمال المتراكمة، أو اتخاذ كهوف في الأراضي الحجرية الصلبة.

(5) تنقلها المستمر في الفضاء الصحراوي الواسع والهجرة في قطعان متميزة إلى المناطق المجاورة عند الضرورة.

(6) أغلب الحيوانات الصحراوية ذات ألوان صفراء تحاكي لون الرمال، وهذا يساعدها على الاختفاء بسهولة عند احتدام الأخطار، ويُمكنها من الابتعاد عن الأعداء بيسر.

والجدير بالذكر أن الحيوانات المنطقة أهمية معتبرة في حياة السكان. فهم يصطادونها للانتفاع بلحومها مع مراعاة الجائز منها في الشرع الإسلامي الحنيف. وتتم الاستفادة من جلودها وعظامها وأنيابها وريشها في مختلف الشؤون العامة. كما تتخذ أجزاء منها أدوية لبعض الأمراض. وأهم الأنواع السائدة في هذا الإقليم هي:

1 - انظر إبراهيم العوامر. المرجع السابق ص ص 52، 54.

- **الحيوانات المفترسة:** وكانت تعيش قديما في الغابات الكثيفة، ومنها غابة العرعار في الجهة الغربية من الوادي⁽¹⁾. ومن تلك الحيوانات: الأسد والنمر والفيل والفهد والحمار الوحشي والبقر الوحشي والنعامة والزرافة وغيرها. واستمر بعضها إلى القرن الخامس الهجري عند دخول بني هلال وبني سليم. ولكن تلك الحيوانات انقرضت عندما اختفت تلك الغابات بسبب عملية الحرق التي قامت بها الكاهنة. وبقيت بعض الأنواع مثل: الثعلب والذئب.

- **الحيوانات البرية:** وهي التي ينتفع السكان بلحمها كالغزال والأرنب، أو التي يقتنيها السياح الأجانب مثل: حيوان الفنك والقنفذ وكذا الغزال.

- **الحشرات والزواحف:** وهي كثيرة الأنواع والأشكال، ومن الزواحف: الحنش والورن والزرزومية والشرشمان (ويدعى سمك الرمل)⁽²⁾. ومنها أيضا الأفعى والعقرب والثعبان. إضافة إلى الحشرات ذات الأرجل كالبوية (الحرباء) والجربوع والضفدعة البرية (جرانة الصحراء).

- **الطيور البرية:** وتنتشر بكثرة، ويعيش أغلبها في غيطان النخيل لوجود الظلال الوارفة والمياه العذبة، والتمور الناضجة. ويكون وجودها مزعجا في حياة الفلاح بسبب إفساد وتخريب الغلة⁽³⁾، وذلك يدفع الفلاح إلى محاربتها بشتى الطرق والأساليب⁽⁴⁾. بينما يستمتع الأطفال باصطيادها، ويكون لهم موسم لعب ومرح في كل عام. ومن أنواعها المختلفة: العصافير وتدعى الزاوش، وبوبشير⁽⁵⁾ والزرَّاعَة (العصيفرة)، والعقاية (اليحموم)، وبوحبيبي (الزرزور)، وخويدم عرب (الجميل)، والقطا والشعيرية (أبوقير)، وأم سيسي، وبوفسية وحميميري والحجلة (دجاجة البر) والحمام البري (الورقاء) والخرطيفة (السنونوة)، وطوير الليل (الخفاش) وغيرها كثير⁽⁶⁾.

وأغلب الطيور يظهر بالمنطقة في أوقات محدودة في (فصل الربيع). ويستمر وجودها في فصل الصيف والخريف، حيث تتوفر لها التمور الناضجة. وهي تهاجر من أماكن مختلفة وبعيدة

1 - إبراهيم العوامر. المرجع السابق، ص 67.

2 - الشرشمان: يتخذ السكان منه وجبة غذائية هامة وخاصة بعدما يقدد ويحفظ، ويصلح بالتحديد لوجبة الشيشة.

3 - غلة التمر: وهي الإنتاج السنوي الذي ينتظره الفلاح لأنه يمثل لديه الثروة الرئيسية التي تقوم عليها حياته عموما.

4 - خيال الزاوش: بوضع دمي بلباس بشري، وتقام في البساتين (الغيطان) وإيها تلك الطيور بوجود البشر حتى تهرب ولا تلتف المزروعات المعاشية.

5 - وهو طائر (الأنيس)، ويبشر غالبا بدخول العام الجديد.

6 - انظر بتوسع: إبراهيم العوامر، الصروف، ص ص 69، 72.

عن أرض سوف، وهذا يجعلها تغادر المنطقة عند حلول فصل الشتاء، وتستقر في تلك الأماكن التي تلبى حاجاتها الضرورية.

رابعاً. مراحل تعمير القبائل العربية:

إن تاريخ الحركة السكانية في مجتمع وادي سوف يبرز جلياً منذ قدوم القبائل العربية الأولى، ومساهمة أفرادها في تطوير حياة المجتمع واشتراكها مع العناصر الأخرى في نمو السكان. أما الانتشار في أنحاء المنطقة، فقد تأثر بالعوامل الطبيعية والاقتصادية بشكل ظاهر. وكان إقبال العرب إلى منطقة سوف عبر حقب زمنية متفاوتة كما يلي:

- الهجرة الهلالية والسليمية إلى بلاد المغرب:

* **الموطن الأصلي للقبائل:** يرجع أصل قبائل بني هلال وبني سليم إلى العرب العدنانية الذين كانوا بدوياً رحلاً في صحراء الحجاز بشبه الجزيرة العربية.

أما بنو سليم: فينتسبون إلى سليم بن منصور الذي عاش في أوائل القرن الثالث الميلادي⁽¹⁾ وكان موطنهم ما بين المدينة المنورة وخيبر⁽²⁾ وتيما⁽³⁾.

أما بنو هلال: فينتسبون إلى هلال بن عامر الذي عاش في أوائل القرن الخامس الميلادي⁽⁴⁾. وكان موطنهم في نواحي الطائف⁽⁵⁾ وحتى جبل غزوان شرقي مكة المكرمة.

وكانت قبائل بني هلال وبني سليم تقوم برحلة الشتاء بين العراق وبلاد الشام. واشتهروا بغاراتهم على الجيران والحجاج، والإفساد في المناطق العمرانية، وعجزت الدولة العباسية عن تأديبهم.

* **هجرتهم إلى مصر:** بدأت هجرة فئة من بني سليم في ولاية عبد الله بن الحبحاب⁽⁶⁾ على مصر، ولحقت بهم من بني هلال وأحلافهم، واشتغلوا بالزراعة. أما البقية فتم نقلهم من طرف الفاطميين وأنزلوهم في صعيد مصر، في الجهة الشرقية من نهر النيل. وبعد استقرارهم، شكلوا

1- وهو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان.

2- خيبر: واحة تقع شمال المدينة المنورة، شهدت غزوة خيبر في السنة 7هـ، وانتهت بانتصار المسلمين على اليهود.

3- تيما: واحة في شمال الحجاز تقع شمال خيبر، وجنوب صحراء النفوذ الكبرى.

4- هو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان.

5- الطائف: مدينة تقع في إقليم الحجاز جنوب شرق مكة على جبل غزوان.

6- عبد الله بن الحبحاب الموصلي: تولى عام 116هـ/735م وحتى 123هـ/741م نحو 16 سنة. أي في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي.

خطراً كبيراً على البلاد بسبب غاراتهم المتتالية ونهبهم وفسادهم المتكرر، فتضرر السكان من سلوكهم، وضجوا من أعمالهم.

*** هجرتهم إلى بلاد المغرب⁽¹⁾:** عندما تنكر المعز بن باديس⁽²⁾ للفاطميين وشق عصا الطاعة، أرسل له الخليفة الفاطمي المستنصر بالله⁽³⁾ قبائل بني هلال وبني سليم في حدود عام 442هـ/ 1050م. وقد أعان كل فرد منهم ببيعر ودينار. وقال لهم وزيره اليازوري: (وقد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي، العبد الآبق، فلا تفتقرون). ثم كتب إلى المعز: (أما بعد: فقد أرسلنا إليكم خيولا، وحملنا عليها رجالا فحولوا، ليقضي الله أمرا كان مفعولا)⁽⁴⁾.

*** هجرتهم إلى برقة الليبية⁽⁵⁾:** سارت القبائل السابقة من مصر إلى برقة، وكانت يومئذ بلدة خالية، لأن المعز أباد معظم سكانها من قبيلة زناتة. فنزل العرب بها، ثم أرسلوا إلى إخوانهم الذين بقوا في شرق النيل فاستجابوا للنداء. وحينئذ استقر بنو سليم في برقة وخرّبوا بعض مواقعها، بينما واصلت القبائل الهلالية مسيرتها إلى بلاد المغرب الأدنى في حدود سنة 443هـ/ 1051م، وبلغ عددهم نحو 400 شخص.

*** دخول الهلاليين إلى بلاد المغرب الأدنى:** دخل الهلاليون إلى بلاد المغرب الأدنى (تونس) في حدود سنة 444هـ/ 1052م، وانتشروا في أرجائها كالجراد. وبلغوا عدة نواحي ومنها قابس وتونس، فأكثروا فيها الفساد والنهب حتى تخلى لهم المعز عن القيروان، وسار إلى المهديّة فتبعوه إليها. وفي ذلك يقول شاعرهم ابن رزوق الرياحي:

وإن ابن باديس لا حزم فاضل * لعمري ولكن ما لديه رجال
ثلاثة آلاف لنا هزمت له * ثلاثين ألفا، إن ذا لنكال

1 - بلاد المغرب: وتضم برقة الليبية والمغرب الأدنى (تونس) والمغرب الأوسط (الجزائر) والمغرب الأقصى (مراكش).

2 - المعز بن باديس: هو أمير إفريقية من بني زيري (الصنهاجيين) 406-454هـ/ 1016-1062م. استقل عن الفاطميين وأعلن الخطبة للعباسيين.

3 - المستنصر بالله: (معد بن الظاهر) ثامن الخلفاء الفاطميين في مصر 427-487هـ/ 1036-1094م.

4 - انظر: إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 268، 129. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير العصر الإسلامي، دار النهضة العربية بيروت، 1981، ج2، ص 666، 667. مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ج2، ص 178، 180.

5 - برقة: شبه جزيرة في ليبيا شرقي خليج سرت وتقع في الحدود الغربية من مصر. في شالها هضبة الجبل الأخضر. ومن أشهر مدنها: بنغازي. وطبرق والبيضاء والمرج وهي برقة قديما.

ثم تلاحقت فلول المهلالين القادمة من الصعيد المصري وبلاد نجد بالجزيرة العربية، ودامت حركة الهجرة نحو نصف قرن في اتجاه بلاد المغرب الإسلامي⁽¹⁾.

*** دخول المهلالين إلى بلاد المغرب الأوسط (الجزائر):** دخلت القبائل الهلالية من ثلاث جهات: الأولى من الساحل، والثانية من جهة الهضاب، والثالثة من ناحية الصحراء. وتقدمت نحو تبسة وانتشرت جنوب الأوراس وإلى قرى بلاد الزاب، ووصلوا في أيام الموحدين إلى جبل راشد وبلاد الزاب الشرقي. ووقع صراع مع زناتة وقتل في أحد الحروب أبو سعدى الزناتي الفتري⁽²⁾ بنواحي بلاد الزاب⁽³⁾. بينما ذكرت «تغريبة بني هلال» أنه قتل في أرض سوف⁽⁴⁾. وحينئذ تغلبوا على أهل تلك المناطق، وزاحموا قبيلة زناتة وعجزت عن إبعادهم. والجدير بالذكر أن الغزو الهلالي لبلاد إفريقية وأرض سوف كان له الفضل الكبير في تعريب البلاد،⁽⁵⁾ وتمكين السكان من اللغة العربية التي أضحت اللهجة الأساسية السائدة في مجتمع وادي سوف على مر الزمان.

- دخول قبائل بني سليم إلى إفريقية ووادي سوف: التحق بنو سليم بقبائل بني هلال، ونزلوا في بادئ الأمر في القيروان في حدود عام 835هـ / 1432م، وكان دخولهم إلى سوف في حدود سنة 840هـ / 1437م، ونزلوا يومئذ في نواحي كوينين⁽⁶⁾. وذكرهم الشيخ عبد المجيد بن حبة في منظومته «الرغبة في رفع النسبة»:

ومنهمو في المغربين أمم *	لكن حوى الأوسط معظمهم
أعني به منطقة الجزائر *	وانقسموا فيها إلى عمائر
عرفت منهم فرق الأعشاش *	وبعض من يعزى إلى رشاش
ومعظم الحضور والبوادي *	فمن سليم سكنوا بالوادي ⁽⁷⁾

1 - راجع: إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 130، 131. مبارك الملي، المرجع السابق، ص 180، 181. السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 667، 671. عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 1، ص 258.

2 - هو وزير بن خزر بتلمسان.

3 - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 58، 2.

4 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 134.

5 - السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 672، 673.

6 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 173، 174.

7 - ديوان العلامة عبد المجيد حبة، جمع وإعداد: عبد الحليم صيد، فوزي مصمودي، نادي الأدب والتراث، جمعية أضواء للثقافة والفنون، بسكرة، ص 11.

أما أحلاف الهلالين الذين نزلوا بمجتمع وادي سوف، فهم قبيلتا عدوان وطرود، وتوافدوا على المنطقة في أوقات متعاقبة (1).

الهجرة العدوانية والطرودية إلى بلاد المغرب:

تعتبر قبائل عدوان وطرود من أهم القبائل العربية التي هاجرت إلى بلاد المغرب في وقت مبكر بعد الفتح الإسلامي. ثم سكنوا في مجتمع سوف فيما بعد، وهم أبناء عمومة يلتقون في جداهم عمرو بن قيس عيلان وأمههم جديلة (2). ويمكن تتبع خط هجرتهم إلى أن وصلوا أرض سوف:

أصول قبيلة عدوان ومسار هجرتها إلى وادي سوف:

1 - أصول القبيلة ومكانتها:

تنسب قبيلة عدوان إلى عدوان بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان (3). فهم من العرب العدنانية، ووالدهم عدوان بن عمرو كان اسمه الحارث. وسمي عدوان لأنه عدا على أخيه فهم فقتله، وأنجب عدوان من الولد زيد ويشكر ودوس (4) وعاتكة، وأمههم هي ماوية بنت سويد بن الغطريف الأزديّة.

وأما بطون عدوان، فمنهم بنو خارجة وبنو وابش وبنو يشكر وبنو عوف والفرعا وبنو رهم وبنو رباح، ومنهم الخلج (5).

وقبيلتهم تستحق الإشادة لما عرف فيها من الحكماء والبلغاء والشعراء، وأصحاب المكانة والخطوة في عهد الجاهلية وفي عصور الإسلام.

فمنهم شيخ قبيلة عدوان وحكّمها وفارسها وشاعرها، وهو عامر بن الظرب بن عمرو بن عياذ بن يشكر بن عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان. وفي بني عدوان يقول عامر بن الظرب العدواني مفتخراً بقومه، ومادحاً لهم:

أولئك قوم شيد الله فخرهم * فما فوقه فخر وإن عظم الفخر

1 - مبارك الملي، المرجع السابق، ص 192، 193.

2 - قال ابن حزم الأندلسي: (جديلة): وهم فهم وعدوان، ابنا عمرو بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان). انظر ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، تح عبد السلام هارون، دار المعارف، ط5، مصر، 1982، ص 480.

3 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 270.

4 - أبو العباس القلقشندي، **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، تح إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبنانيين، ط2، بيروت، 1980، ص 354.

5 - ابن قتيبة الدينوري، **المعارف**، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 2003، ص 47.

أناس إذا ما الدهر أظلم وجهه * فأيديهم بيض وأوجههم زهر
يصونون أحسابا ومجدا مؤثلا * ببذل أكف دونها المزن والبحر
سموا في المعالي رتبة فوق رتبة * أحلتهم حيث النعائم والنسر
أضاءت أحسابهم فتضاءلت * لنورهم الشمس المنيرة والبدر

كما كان - عامر - إمام مضر وحكمها في سوق عكاظ، وفارسها. ومن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية، وكانت العرب لا تعدل بفهمه فهماً، ولا بحكمه حكماً. وهو أحد المعمرين في الجاهلية ولم يدرك الإسلام. ولقب بـ (ذي الحلم) لسعة علمه وحلمه وفهمه. وهو أول من حكم بين العرب في عكاظ، واشتهر بين الجاهليين بـ (حاكم العرب) أو (قاضي العرب)، وهو آخر حكام العرب وقضاتهم وأئمتهم، قبل انتقال الإمامة من بني عدوان إلى بني تميم بن عكاظ.

ومع أن عامر بن الظرب لم يدرك الإسلام، إلا أن وصيته لقومه كأنها كتبت في بدايات العصر الإسلامي. ومما قاله: (إن الذي أرسل الحيا أنبت المرعى ثم قسمه، وكلاً لكل فم بقلة، ومن الماء جرعة، ترون ولا تعلمون، ولن يرى ما أصف لكم إلا كل قلب واع، ولكل مرعى راع، ولكل رزق ساع، ولكل خلق خلق، كيس أو حمق، وما رأيت شيئاً قط إلا سمعت حسه، ووجدت مسه، وما رأيت شيئاً خلق نفسه، وما رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً، وما رأيت جائياً إلا ذاهباً، ولا غانماً إلا خائباً، ولا نعمة إلا ومعها بؤس، ولو كان يميت الناس الداء لأعاشهم الدواء). ثم يختتمها بقوله: (حتى يرجع الميت حياً، ويعود لا شيء شيئاً، ولذلك خلقت الأرض والسماوات).

وثمة أحكام لابن الظرب سنّها في الجاهلية، فجاء الإسلام فوافقها، منها مثلاً أنه حكم في الخنثى حكماً جرى الإسلام به. كما كان خلعه لابنته (عمرة) من زوجها عامر ابن الحارث، أول خلع في العرب، جاء الإسلام فثبته. وروى ابن حزم أن عامراً هو أول من قضى بأول دية، مقدارها مئة من الإبل. وكان ذلك بعد أن قتل زيد بن بكر بن هوازن أخاه معاوية بن بكر بن هوازن. كما أنه حرم الخمر، وفي تحريمه إياه على نفسه أولاً ثم على الناس يقول:

سألته للفتى ما ليس في يده * ذهابه بعقول القوم والمال
أقسمت بألا أسقيها وأشربها * حتى يفرق ترب القبر أوصالي

مُورثة لقوم أضغانا بلا إحن * مزرية بالفتى ذي النجدة الحالي⁽¹⁾

ومنهم الشاعر الشهير **ذو الأصبغ العدواني**: هو حرثان بن الحارث بن محرث بن ثعلبة بن سيار بن ربيعة بن هيرة بن ثعلبة بن ظرب بن عمرو بن عباد بن يشكر بن عدوان، أحد الشعراء والحكماء في العصر الجاهلي. عاش في حدود 22 ق. هـ/ نحو 600 م⁽²⁾. ولقب بذى الأصبغ لأنه كان له أصبغ زائد في رجله، وقيل لأن الحية نهشت أصبغ رجله وقطعته. وهو من المعمرين إذ تجاوز عمره المائة عام بكثير. وكان لذي الأصبغ أربع بنات، وكانت إحدى بناته، هي أميمة الشاعرة. وهو شديد التعلق بقبيلته عدوان. وقال مفتخراً بها:

وفيهم رباط الأعوجيات والقنا * وأسيافهم فيها القضاء المجرب
وهم جمرات الحرب لم يلف مثلهم * إذا لم يكن للناس في الأمر مذهب
وجوههم تندى وتندى أكفهم * إذا لاح برق للمخيلين خلب
سليم وعدوان وفهم تناولوا * مفاخر عز لم تنلهن يعرب

وعرف بحروب ووقائع وأخبار، وله شعر مفعم بالحكمة والعظة والفخر، وقليل الغزل والمديح، يعتبر أحد حكماء العرب. ومن أقواله الخالدة وصيته لابنه أسيد قبل موته: (يا بني إن أباك قد فني وهو حي، وعاش حتى سئم العيش، وإني موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغت، فأحفظ عني: (ألن جانبك لقومك يجبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وابسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم، واسمح بكالك، واحم حريمك، وأعزز جارك، وأعن من استعان بك، وأكرم ضيفك، وأسرع النهضة في الصريخ فإن لك أجلا لا يعدوك، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً فبذلك يتم سؤددك)⁽³⁾.

ومنهم أبو سيارة عميلة بن الأعرل العدواني: الذي كان يدفع الناس في الإفاضة من مزدلفة، لأن عدوان توارثوها كابراً عن كابر. وكان أبو سيارة آخرهم، وكان يدفع الناس على أتان له، وفيه قال الشاعر:

1 - انظر: الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، ط7، بيروت، 1986، ج3، ص 252. كامل سليمان الجبوري، معجم الأدياء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2003، ص 285. جمانة محمد نايف الدليمي، عامر بن الظرب العدواني حياته وآثاره، الموقع: دنيا الرأي.

2 - الزركلي: الأعلام، ج2، ص 173.

3- الزركلي: الأعلام، مصر، ج2، ص 173. موقع: ويكيبيديا الموسوعة الحرة، والموسوعة العربية. تم الاطلاع يوم 2012/07/29.

نحن دفعنا عن أبي سيارة * وعن مواليه بني فزارة
حتى أجاز سالما حماره * مستقبل القبلة يدعو جاره⁽¹⁾

وذكرت كتب السير ومصنفات الحديث النبوي عدداً من الصحابة الكرام، الذين يتسبون لقبيلة بني عدوان⁽²⁾، وقيل ثقف بن عمرو الأسلمي، ويقال الأسدي حليف بني عبد شمس، ويكنى أبا مالك، ويقال ثقاف. شهد هو وأخوه مدلاج بن عمرو، ومالك بن عمرو غزوة بدر، واستشهد ثقف يوم أحد، وقال موسى بن عقبة، قتل يوم خيبر قتله الأسير اليهودي⁽³⁾.

-**الصحابي خالد بن أبي جبل العدواني:** من أهل الحجاز، وسكن الطائف، وله حديث واحد رواه عنه ابنه عبد الرحمان. وكان خالد ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة يوم الحديبية، وسكن في آخر حياته بالكوفة⁽⁴⁾.

-**الصحابي سمرة بن ربيعة العدواني:** وقيل سمرة العدوي. روى حرام بن عثمان عن محمد وعبد الله ابني جابر عن أبيهما أن سمرة بن ربيعة العدواني جاء يتقاضى أبا اليسر حقاله، فقال أبو اليسر لأهله: قولوا ليس ها هنا، فجلس سمرة يستريح، فظن أبو اليسر أنه ذهب، فأطلع رأسه، فراه سمرة، فقال: ألم يقل أهلك ليس ها هنا؟ قال: عن أمري كان ذلك، قال: ولم؟ قال: لأنه لم يكن حقل عندي فأفضيك. قال أبو اليسر: أفما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((من أنظر معسراً وفرج عنه، أظله الله في ظله يوم القيامة))⁽⁵⁾. قال سمرة: أشهد لسمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم⁽⁶⁾.

-**الصحابي سعد بن جنادة العدواني:** والد عطية العوفي، من عوف بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان. وقد روى محمد بن الحسن بن عطية عن أبيه عن جده عطية عن أبيه سعد بن جنادة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما شيء أكرم على الله من عبد مؤمن لو أقسم على الله

1 - أبو الربيع سليمان الاندلسي، الاكتفا بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء، تح محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 2000، ج 1، ص ص 53-54.

2 - ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 1، ص 476.

3 - ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، صححه وخرج أحاديثه عادل مرشد، دار الإعلام، ط 1، الأردن، 2002، ص 108.

4 - نفسه، ص 202.

5 - رواه مسلم.

6 - انظر: أسد الغابة، ج 2، ص 555.

لأبره⁽¹⁾». وروى يونس بن نفع عن سعد بن جنادة قال: كنت أول من أتى النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الطائف فأسلمت⁽²⁾». أخرجه ابن منده وأبو نعيم⁽¹⁾.

- ربيعة بن قيس العدواني: ذكره محمد بن عبيد الله بن أبي رافع فيمن شهد مع علي من الصحابة⁽²⁾.

ومنهم الصحابي عبد بن عبد العدواني، وهو أبو الحجاج الثمالي، وقيل اسمه ((عبد الله بن عبد)) وهو بكنيته أشهر⁽³⁾. قال أبو عمر: الحجاج بن عامر الثمالي، ويقال: الحجاج بن عبد الله الثمالي، وقيل رأى النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث ((العين حق))⁽⁴⁾. وروى عنه شرحبيل بن مسلم حديثاً مرفوعاً، ((إياكم وكثرة السؤال وإضاعة المال وقيل وقال، وأن يعطى العطاء خير من أن يمسك، وأن يمسك شر له، ولا يلوم على الله الكفاف، وابدأ بمن تعول))⁽⁵⁾. وروى ثور عن خالد بن معدان عن الحجاج بن عامر الثمالي، أنه صلى مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقرأ (إذا السماء انشقت) فسجد فيها⁽⁶⁾.

- عمارة بن عوف العدواني: ذكره أبو حاتم السجستاني في المعمرين، وقال: كان كاهناً وعمر مئتين وخمسين سنة، وعاش إلى خلافة عمر، وكان هجيراً لما كبر أقروا ضيفكم، وهو القائل:

عمر دهنراً ثم دهنراً وقد * أمل إن أتى علي دهنري

خمسون لي قد أكملت بعدما * ساعدني قرناي في عمري⁽⁷⁾

- فضالة بن زيد العدواني: وهو أحد المعمرين، وقدم على معاوية بن أبي سفيان وحاوره، وسأله عن عمره، فقال: عشرون ومئة سنة. قال: فأي الأشياء مر بك منذ كنت بها أسراً؟ وأي

1 - أسد الغابة، ج2، ص424.

2 - نفس المصدر، ص268.

3 - أسد الغابة، ج3، ص511.

4 - أخرجه البخاري في الصحيح، وابن ماجه في السنن كتاب الطب باب العين، وأحمد في المسند.

5 - أخرجه البخاري في الصحيح، وأحمد في المسند، وذكره الهيثمي في الزوائد.

6 - أسد الغابة، ج1، ص689.

7 - ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تح عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1995، ج5، ص108.

الأشياء كنت بوقوعه أشد اكتئاباً؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لم يقطع الظهرَ قطع الولد شيء، ولا دفعَ البلايا والمصائب مثل إفادة المال⁽¹⁾.

- **يحيى بن يعمر العدواني:** هو أبو سليمان العدواني البصري كنيته أبو عدي. عالم فقيه ومقريء، ومحدث. روى عن أبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر مرسلًا، وعن عائشة وأبي هريرة، وابن عباس وابن عمر. حفظ القرآن عن أبي الأسود الدؤلي، وأخذ عنه اللغة العربية، وكان فصيحًا. وقيل هو أول من نقطَ المصحف الشريف قبل تشكيل الكتابة بمدة طويلة، وأهداه لابن سيرين. ولما نفاه الحجاج، ولأه قتيبة بن مسلم القضاء في خراسان. وذكر المؤرخ خليفة بن خياط وفاته قبل التسعين في سنة 129 هجرية⁽²⁾.

- **أحمد مشاري العدواني:** مثقف وشاعر وناقد. ولد عام 1923 بالكويت، وتخرج من الأزهر بكلية اللغة العربية. عاد لوطنه واشتغل بالأدب والعلم والصحافة، وعين موظفًا في المجالات التربوية والفنية والإعلام. أنشأ بالاشتراك عدة مجلات، منها: البعث والرائد، وأنشأ مجلة الفكر مع أحمد أبي زيد وترأس تحريرها، ومجلة عالم المعرفة والثقافة العالمية والمسرح العالمي. كان له دور كبير في بدايات المسرح الكويتي، وأنشأ معهد الفنون المسرحية. وله مسرحية «مهزلة في مهزلة». وله شعر يتميز بالتهكم والسخرية على حال العرب. ودواوينه الثلاثة: «أجنحة العاصفة» و«أوشال» و«صور وسوانح». تُرجم عدد من قصائده إلى اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية واللغة الصينية واللغة الإسبانية. كما كان صاحب فكرة تدوين الأمثال والحكم الكويتية، وتأليف النشيد الوطني الكويتي. وعين عام 1972 ممثلًا للكويت في مجمع اللغة العربية في القاهرة. توفي في 17 يونيو 1990 وكتبت عنه عدة كتب ودراسات⁽³⁾.

2- هجرة قبيلة عدوان من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد المغرب الإسلامي:

عرف بنو عدوان بنشاطهم الدؤوب، وتنقلهم في البلدان، وهجراتهم نحو كثير من الأمصار. وكان المغرب الإسلامي موطنًا بارزًا في حياتهم، ولاسيما المغرب الأوسط.

(1) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج5، المصدر السابق، ص ص 296-297.

(2) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح شعيب الأرنؤوط - مأمون الصاغري، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1982، ص ص 441-443. ويكيبيديا الموسوعة الحرة، يوم 2014/12/30.

(3) نزار اباضة، محمد رياض المالح، إمام الأعلام "ذيل لكتاب الاعلام لخير الدين الزركلي"، دار صادر، ط1، بيروت، 1999، ص 38. ويكيبيديا الموسوعة الحرة، يوم 2014/12/30. معجم الباطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، كتاب الكتروني، تم الاطلاع يوم السبت 2020/05/31، الساعة الواحدة والنصف زوالاً.

أما مساكن عدوان الأولى فهي شبه الجزيرة العربية، وحول بلاد الحجاز عاشوا، وامتدت رحلاتهم إلى أماكن عديدة. قال القلقشندي⁽¹⁾: (قال في العبر⁽²⁾)، وهم بطن متسع وكانت منازلهم بالطائف من أرض نجد نزلوها بعد إباد والعمالقة، ثم غلبتهم عليها ثقيف فخرجوا إلى تهامة). وأصل القبيلة هو عدوان بن عمرو، وكان اسمه الحارث، وسمي عدوان لأنه عدا على أخيه فهم فقتله، وأنجب عدوان من الولد زيد، ويشكر، ودوس⁽³⁾.

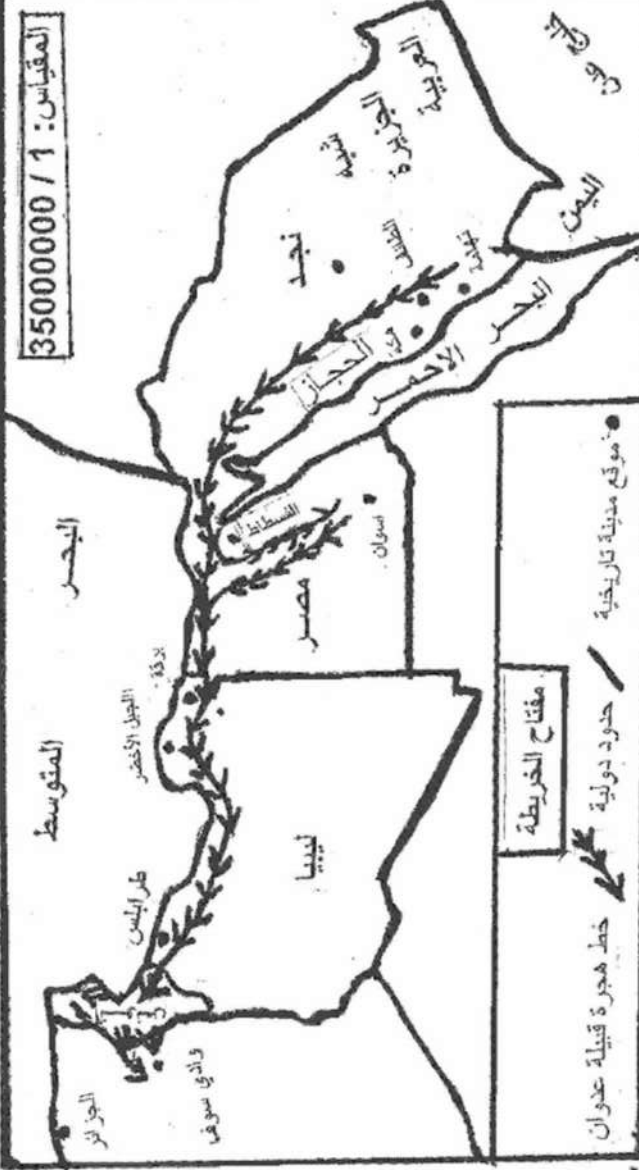
والجدير بالذكر أن قبيلتي عدوان وطرود كانتا حليفتي الهلاليين، وتوافدتا على وادي سوف في أوقات متباعدة⁽⁴⁾. والسبب في تقديم عدوان، لأنها هاجرت إلى سوف قبل قبيلة طرود.

- هجرة قبيلة عدوان إلى مصر: تمت هجرتهم من بلاد الحجاز نحو مصر بعد الفتح الإسلامي في القرن الثامن الميلادي بإيعاز من بني عمومتهم ((قبيلة طرود)) الذين سبقوهم إلى مصر عام 90هـ / 707م. وتمت هجرة عدوان إلى مصر في عهد حكم الوليد بن رفاعة الفهمي الطرودي. والذي أرسل إلى كثير من بني عمومته عدوان، واستوطنهم معه في أرض مصر بعد سنة 109هـ / 727م⁽⁵⁾. وكان موطن استقرارهم الأول في مدينة بلبيس⁽⁶⁾ بالجهة الشرقية⁽⁷⁾. لكن عدوان سبقت طرود في الهجرة خارج مصر، وكان مسارهم كما يلي:

- انتقال عدوان إلى برقة الليبية: ضمن الهجرة الهلالية، كانت عدوان وغيرها من القبائل تنتقل نحو الموطن الجديد، وكانت برقة مقصدهم في حدود القرن الخامس الهجري، ومكثوا بها مدة وواصلوا نحو بلاد إفريقية⁽⁸⁾.

- 1 - أحمد بن علي القلقشندي (1355 . 1418) مؤرخ وأديب مصري شافعي. اشتغل بتدريس الحديث النبوي والفقه والعلوم الدينية. من مؤلفاته: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، وقلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان وغيرها. انظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، د ب، دت، ج 1، ص 196.
- 2 - ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، أو (تاريخ ابن خلدون)، دار البيان (ب ت ج 2، ص 305.
- 3 - أبو العباس القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تح إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، ط 2، بيروت، 1980، ص 354.
- 4 - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، د ت، ص ج 1، ص ص 193-194.
- 5 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 121، 122.
- 6 - بلبيس: أهم المدن التاريخية بمصر، ومثلت في العصور القديمة البوابة الشرقية لمصر ومعبر الوافدين إليها والمهاجرين من البلدان القريبة.
- 7 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 122.
- 8 - نفسه، ص ص 128-129.

المقياس: 1 / 35000000



- المراجع:
- 1- الأطلس العالمي، المعهد الوطني التربوي، الجزائر، ص 41.
 - 2- إبراهيم العوام، الصروف، الصفحات، 122-128-129.
 - 3- ابن خلدون، كتاب العبر، ج 2، ص 305.
 - 4- هويدا عبد العظيم رمضان، المجتمع في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي، ج 2، ص 22-23.

خط هجرة قبيلة عدوان من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد المغرب الإسلامي

- انتقال عدوان إلى إفريقية: واصلت قبيلة عدوان هجرتها إلى بلاد المغرب الأدنى، واستوطنت أرض القيروان والكاف مع قبائل بني هلال وسليم، فضاقت عليهم الأرض بسبب كثرتهم، وحينئذ اضطرتهم الظروف إلى الهجرة مرة أخرى بحثاً عن موضع ملائم لل عمران، فوصلوا في آخر الأمر إلى مشارف وادي سوف الشمالية،⁽¹⁾ وهو الموضع المحاذي لوادي الماء في مجراه الأعلى يدعى (وادي الجردانية).

3- دخول قبيلة عدوان إلى وادي سوف ومراحل الاستقرار:

طالت مدة تنقل قبيلة عدوان⁽²⁾ في البلدان، وانتهى بهم المطاف إلى أرض سوف، وجعلوها موطناً دائماً، وتم ذلك في الظروف التالية:

أ) دخول بني عدوان إلى وادي سوف: استقرت قبيلة عدوان في أرض الجردانية واستوطنتها في حدود سنة 600هـ/1204م بعد صراع مرير مع بربر زناتة، والسبب هو التنازع على المراعي الخصبة⁽³⁾ لأن سكانها من بربر زناتة رفضوا إقامتهم. وبعد صراع دموي، رجحت كفة قبيلة عدوان، وتشتت سكان الجردانية في الآفاق. ويومئذ فتح باب الهجرة العربية نحو وادي سوف، وتتابع المهاجرون أفراداً وجماعات، وحدث الاختلاط بسكان البلاد، وتعرب قسم منهم نتيجة الالتحام الاجتماعي والتزاوج، وتمتدح أواصر القرابة. وامتزجت تلك السلالات بالدماء العربية⁽⁴⁾ التي طبعت المنطقة بتلك العناصر العربية الجديدة.

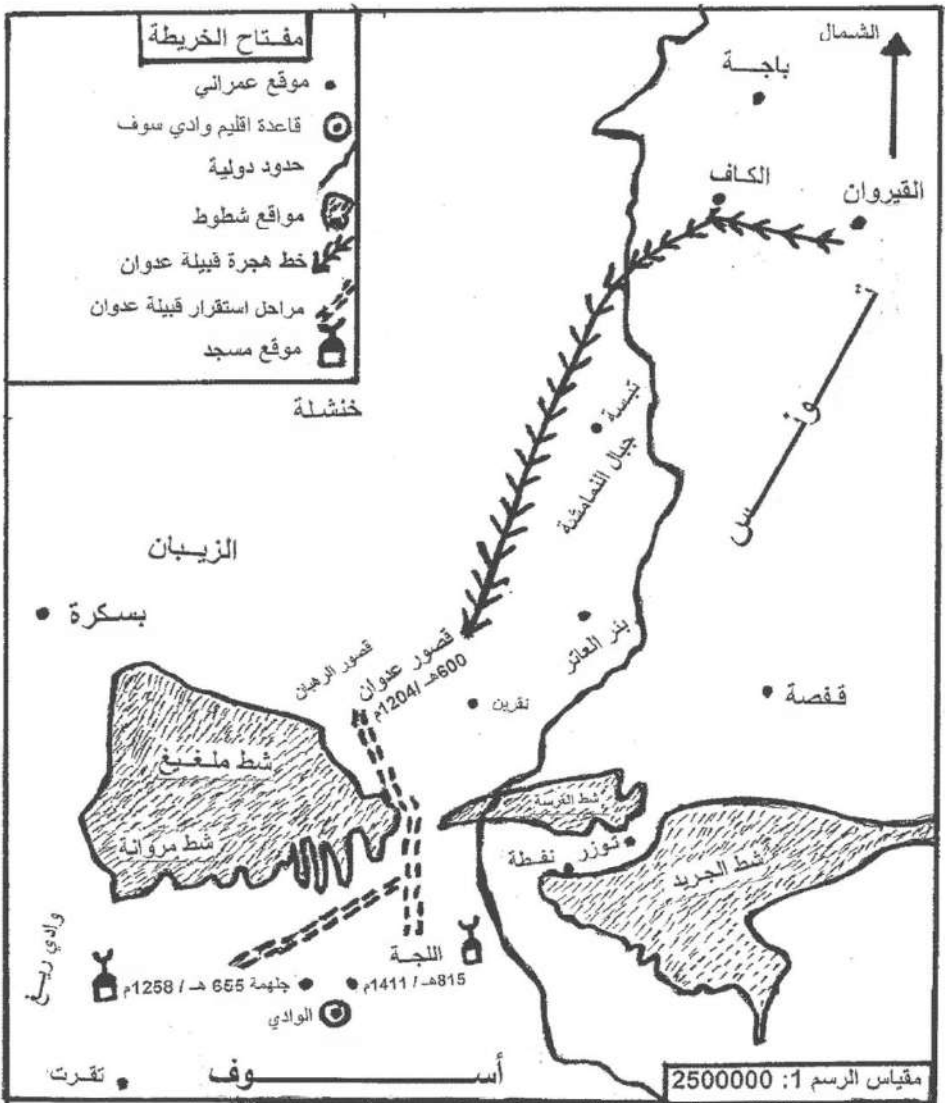
وسكنت قبيلة عدوان في المواطن الزناتية في الجردانية نفسها - بعد رحيل أصحابها - وصارت تعرف بقصور عدوان، وتم الترحيب بالوافدين عليهم من نصارى الزاب وورجلان. ثم لحق الوفد الثاني من بني عدوان بعد مغادرتهم القيروان، وربطتهم علاقات حسنة مع بني مرين من زناتة ((تكسبت القديمة)). وتعاونوا في حدود سنة 600هـ/1204م

1 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 140.

2- عدوان: اسم أطلق على عدد من القبائل والعشائر المتواجدة ما بين الحجاز ونجد وعسير، والعراق وحصص. والذين دخلوا منهم إلى وادي سوف، هم بنو عدوان بن عمرو بن قيس عيلان، من العرب العدنانية. كانت منازلهم الأولى في الطائف من بلاد نجد، وغلبتهم عليها ثقيف، فخرجوا نحو تهامة اليمنية، ثم انتقلوا إلى إفريقية في هجرات متواصلة إلى القرن الثامن، وهم يسكنون تارة إلى جوار بني سليم، وفي أحيان أخرى مع بني هلال. انظر: إبراهيم بن عامر، الصروف في تاريخ سوف، مخ، نسخة أحمد مفتاح القماري، لدي نسخة مصورة، ج1، ص 59، عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، ط8، بيروت، 1997، ج2، ص 762.

3 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 140.

4- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس "عصر المرابطين والموحدين"، مكتبة الخانجي، ط1، مصر، 1980، ص 319.



المراجع:

- 1- الأطلس العالمي، المعهد الوطني التربوي، الجزائر، ص 16.
- 2- إبراهيم العوامر، الصروف، ص ص، 140-149.
- 3- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والاندلس، ص 319.
- 4- محمد العدواني، تاريخ العدواني، ص ص 103، 96.
- 5- إبراهيم بن عامر، الصروف، مخ، ج 1، ص ص 65-66.

خط هجرة قبيلة عدوان ومراحل استقرارها بوادي سوف

على الدفاع، ورد غائلة الأعداء عن وادي سوف⁽¹⁾ ولاسيما ممن كانوا من أخلاط العرب الذين غزوا سوف، وأثاروا بها القلاقل والفتن⁽²⁾.

ولكن النصارى المجاورين لهم سعوا إلى التبشير بدينهم في الجردانية، وهذا أثار حفيظة عرب عدوان فأخرجوهم، ثم لاحقوهم إلى جلهمة⁽³⁾ وسكنوا بجوارهم، وبنوا أول مسجد للعرب بوادي سوف في النصف الأول من القرن السابع الهجري. وعندما قدم إليهم جماعة من أخلاط العرب وفيهم أتباع أبي العافية المكناسيين، انزعج النصارى، وفروا إلى الجردانية مرة ثانية، واشتعلت الحرب بين العدوانيين والمكناسيين وأشياهم في حدود سنة 655هـ/1258م، وانتهت بجلاء المكناسيين إلى المغرب الأقصى، وتم تطهير جلهمة من كل الغرباء.⁽⁴⁾ وبقيت المعالم الدينية شاهدة على أهلها.

ب) التنافس بين عدوان وطرود على الجردانية: دخلت قبيلة طرود إلى شمال سوف في حدود عام 690هـ/1292م، وكانوا يتنقلون بين عقلة الطرودي والجردانية⁽⁵⁾. ولكن التنافس مع بني عمومتهم - بني عدوان - كان حاداً، وأسبابه متعددة، وهو الصراع على مصادر المياه، والمراعي الخصبة، والمواقع الواسعة، لأن المجتمعات البدوية تتطلع إلى الفضاء الواسع، وتشاء من ضيق مكان الإقامة أو التزاحم على العمران المتقارب، لأن نمط معيشتهم يتطلب مساحة شاسعة حول خيامهم المنصوبة أو مساكنهم المشيدة. وكان سعيهم الحثيث موجهاً إلى توفير مجال تسرح فيه المواشي وتنقل الإبل والأنعام بحرية، وهذا أحدث تدافعا بين قبيلتي طرود وعدوان في الجردانية. مما جعل طرود تفضل مغادرة المكان بعد إقامة قصيرة دامت خمس عشرة سنة، وفضلوا الانسحاب إلى الجنوب نحو مدينة الوادي، وسكنوا قرب تكسبت القديمة في حدود سنة 800هـ/1398م. وانتشرت خيامهم كالقطع المتناثرة، وكانوا يتنقلون بسرعة من الوادي إلى الأطراف القريبة⁽⁶⁾.

ج) عدوان تسكن في اللجة: بعد مغادرة قبيلة عدوان للجردانية في شمال سوف، نزلوا في

1- إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، مخ، ج 1، ص 65.

2- أنظر: تاريخ العدواني، ص 150، 309.

3- جلهمة: هي موضع تاغزوت الحالية تقريبا.

4- إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، مخ، ج 1، ص 65-66.

5- إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 149.

6- نفسه، ص 161.

اللجة،⁽¹⁾ واستوطنوها في حدود سنة 815هـ/1411م⁽²⁾. وحينئذ كانت عدوان تسكن في قريتين هما الرقوبة والثانية تسمى سيدي خضير، ثم خربتا، وحينئذ انتقل السكان إلى موضع الزقم الحالي⁽³⁾.

د) الاستقرار النهائي لبني عدوان: الظاهر أن انتقال عدوان إلى بلدة الزقم واستقرارهم النهائي بها، كان بعد ظهور غراسة النخيل بالوادي في حدود سنة 946هـ/1540م⁽⁴⁾ وحتى نهاية القرن السادس عشر، لم يرد أي ذكر للزقم، بل غلب عليها اسم اللجة، وهذا ما ذكره العدواني عند زيارة سيدي المسعود الشابي لسوف في حدود عام 1597، والتقى بسيدي أحمد بن عزيز اللجي وغيره من الرجال⁽⁵⁾. ولما خربت القريتان السابقتان، انتقل أهلها إلى الزقم الحالية في حدود سنة 1196هـ/1782م⁽⁶⁾، وأطلقوا عليها هذا الاسم. وهو غير واضح عند الناس لأن شيخ اللجة أحمد بن عزيز يوم وفاته، أشرف على تغسيله، وتهيئته الشيخ الولي الزقام⁽⁷⁾ وبسبب صلاحه سميت البلدة الجديدة على اسمه حفظا لذكراه. وما ذكر من تأخر في زمن الزقم، لعله كان موقعا قديما في زراعة النخيل، وحديثا في تشييد البنيان.

- أصول قبيلة طرود ومسار هجرتها إلى وادي سوف:

1- أصول القبيلة ومكانتها:

تنتسب قبيلة طرود إلى طرود بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان⁽⁸⁾. وهي قبيلة عريقة عرفت برجالها على مستوى الحياة الأدبية والدينية وتولي السلطة، وبرز منها أصحاب الخطوة في العهد الجاهلي والإسلامي، في بلاد المشرق والمغرب الإسلامي. ويمكن الوقوف على بعض رجالها الفاعلين:

الشاعر ثابت بن جابر بن سفيان الفهمي، وهو أحد شعراء الجاهلية الصعاليك، الذي اشتهر باسم «تأبط شرا». وقيل في سر هذا اللقب أنه خرج ذات يوم للغزو، ووضع سكيناً

1 - اللجة: وهي إحدى البرك المائية التي خلفها النهر المائي الذي بدأ في الجفاف، فانتشرت اللجج المتعددة في ضفافه، ومنها لجة الزقم، وتقع في غرب الزقم الحالية قريبا من حساني عبد الكريم أو البهيمة.

2 - محمد العدواني، تاريخ العدواني، ص 96-103.

3 - إبراهيم العوامر المرجع السابق، ص 318.

4 - نفسه، ص 184.

5 - تاريخ العدواني، ص 111.

6 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 213.

7 - محمد العدواني، ص 322-323.

8 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 270.

تحت إبطه وغادر البيت، فسئلت عنه أمه، فقالت: لا أدري، إنه تأبط شرا وخرج، فلقب بهذا الوصف العابر. ونسجت حوله الأساطير، وكان عداءً سريعاً، وأشد الغزاة فتكاً. وله شعر مبثوث في كتب الأدب، وأكثره يصف فيه أحواله، والغارات التي قام بها، وحياة التشرد. ولكنه شخصية قوية، ورجل الجود والكرم، الذي يؤثر أضيافه على نفسه، كما عبر في هذه المقطوعة:

يابسُ الجنينِ من غيرِ بؤس * وَنَدِي الكَفَّيْنِ شَهْمٌ مُدَلٌّ
ظَاعِنٌ بِالْحَزْمِ حَتَّى إِذَا مَا * حَلَّ حَلَّ الحَزْمِ حَيْثُ يَحَلُّ
عَيْثُ مُزْنٍ غَامِرٌ حَيْثُ يُجْدِي * وَإِذَا يَسْطُو فَلَئِنَّ أَبَلَ

وقعت بينه وبين بني لحيان من هذيل خصومة، انتهت بقتله ورميه في غار، وذلك في حدود سنة 530م⁽¹⁾.

الشاعر أبو الخطاب، إياس بن عامر بن سليم بن عامر الطرودي. وكان رجلاً ناسكاً ورعاً زاهداً، وبسبب ضعف بصره اشتهر باسم ((أعشى طرود))، وكف بصره في كبره، ومن شعره:

إن الحبيب الذي أمسيت أهجره * عن غير مقلية مني ولا غضب
أصد عنه ارتقاباً إن ألم به * ومن يخف قالة الواشين يرتقب

كانت منازل قومه في أرض نجد، وقيل توفي في حدود عام 60 هـ/680م⁽²⁾.

الصحابي أبو ثور الفهمي، والذي لا يعرف اسمه ولا اسم أبيه، وحديثه عند أهل مصر. روي عن يزيد بن عمرو المعافري، عن أبي ثور الفهمي قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوتي بثوب من ثياب معافر. فقال أبو سفيان: لعن الله هذا الثوب، ولعن من عمله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تلعنهم فإنهم مني وأنا منهم). أخرجه أحمد في المسند،⁽³⁾ وصاحب كنز العمال والطبراني والحاكم⁽⁴⁾.

خالد بن ثابت بن طاعن بن العجلان الفهمي، هو جد عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، أمير مصر، شيخ الليث، وذكر ابن يونس أنه شهد فتح مصر. وقال ابن حجر العسقلاني: وذكرته في هذا القسم - يعني القسم الأول من حرف الخاء المعجمة - اعتماداً على ما مضى أنهم ما كانوا لا يؤمرون في الفتوح إلا الصحابة. وروى الليث أن عمر بن الخطاب بعث خالد بن

1 - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي "الأدب القديم"، دار الجليل بيروت، دت، ص 170.

2 - الزركلي، الأعلام، ج2، ص 33.

3 - ضعف الحديث شعيب الأرنؤوط، وحسنه الهيتمي في مجمع الزوائد.

4 - أسد الغابة، المصدر السابق، ج6، ص 44.

ثابت الفهمي على جيش، وعمر بن الخطاب بالجابية. وقال ابن يونس: ولي خالد بن ثابت بحر مصر سنة إحدى وخمسين، وقال خليفة بن خياط: أغزاه مسلمة بن مخلد إفريقية سنة أربع وخمسين⁽¹⁾.

عليم بن سلمة الفهمي، وهو من أدرك النبي صلى الله عليه وسلم فوق عشرين سنة. وكان من القادة الشجعان وسكن مصر، ثم خرج إلى علي بن أبي طالب وصحبه، وشهد معه حروبه، وعاد إلى مصر مع محمد بن أبي بكر. ثم شفع له معاوية بن خديج، فعفا عنه معاوية.

ولما تطورت الأحداث، وقف عليم ضد الأمويين مرة أخرى، وقاد الجيش ضد مروان بن الحكم في يوم الخندق قرب الفسطاط، فأهدر مروان دمه. ولكن أهل مصر حكموا العقل وحقنوا الدماء، وصالحوا مروان، وبايعوه سنة 65هـ. وحينها غادرها مروان بعد تولية ابنه عبد العزيز على مصر. ويومئذ لم تعد مصر موطنًا آمنًا لعليم بن سلمة، فخرج خائفًا نحو برقة، وأقام بها إلى يوم وفاته وقد بلغ الثمانين من عمره⁽²⁾. وكانت وفاته في حدود سنة 68هـ / 688م⁽³⁾.

طريف بن أبان بن سلمة بن جارية بن فهم، وهو من الأصحاب، وحفيده جفينة بن قيس بن مسلمة بن طريف، قتل مع الحسين بن علي⁽⁴⁾ بكر بلاء يوم 12 محرم 61هـ / 12 أكتوبر 680م⁽⁵⁾.

وقد أشاد **الصحابي هوذة بن الحارث السلمي** بقبيلة رياح وطرود وعدهم من الملوك، وعد نفسه وقومه من العبيد. وهذا عندما قدمهم عمر بن الخطاب على قومه في العطايا، فقال هوذة:

أيدعى جُثَيْمٌ والشريدُ إِمَامُنَا * ويدعى رِيَاحٌ قَبَلَنَا وطرُودُ
فإن كان هذا في الكتاب فَهَمُ إِذَا * ملوكُ بَنِي حُرٍ ونحن عِيْدُ

وبعدها دعاه عمر وأعطاه⁽⁶⁾. وهذا يدل على مكانة القبيلة عند الصحابة عليهم الرضوان. **الوليد بن رفاعة بن خالد الفهمي**، أحد الأمراء في مصر، وتولى عدة مناصب عليا خلفا لأخيه عبد الأعلى بن خالد الفهمي⁽⁷⁾. وتولى الوليد على جهاز الشرطة والأمن بمصر، ثم عزل

1 ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج2، ص ص 194-195.

2 - نفسه، ج5، ص 106.

3 - الزركلي، المرجع السابق، ج5، ص 35.

4 - ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج3، ص 420.

5 - محمد بك الحضري، الدولة الاموية، عالم الكتب، ط1، بيروت، 2002، ج1، ص 364.

6 - ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج6، ص 439.

7 - ابن عمر محمد بن يوسف الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، تهذيب وتصحيح رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908، ص ص 60 - 64.

عنها سنة 97هـ. ثم أستدعي مرة ثانية حين ولاه الخليفة هشام بن عبد الملك الإمارة بمصر سنة 109هـ/ 727م، وجعل على شرطته أحد أفراد قبيلته عبد الله بن أبي سمير الفهمي، ثم عزله وولى عبد الرحمان بن خالد بن مسافر الفهمي. وفي ولايته أقبلت قبائل قيس عيلان على الهجرة نحو مصر، بدعم من السلطة في دمشق (1).

وبلغ من تسامح الوليد الإذن للنصارى ببناء كنيسة في الحمراء، عرفت بكنيسة أبي مينا. وهذا ما أثار بعض المسلمين، وخرج على الوليد وهيب اليحصبي الذي قاد القراء والعامّة، وفيها قتل وهيب، فازدادت الثورة اشتعالاً. ولكن الوليد تمكن من إخمادها بحكمة وروية، بالقبض على قتلة وهيب. وحينها استقرت الأمور ووئدت الفتنة (2). واستمر الوليد في ولاية مصر إلى أن توفي بها يوم الثلاثاء 01 جمادى الآخرة سنة 117هـ/ 735م (3). فاستخلف هشام بن عبد الملك عليها أبو الوليد، عبد الرحمن بن خالد بن مسافر بن خالد بن ثابت الفهمي، فاستعان في الشرطة بقريبه عبد الله بن يسار الفهمي، ولكن ولاية عبد الرحمن كانت قصيرة، نحو سبعة أشهر (4). وكل ما سبق يدل على النفوذ الذي عرفته هذه القبيلة، وتعداه إلى تولي القضاء والبروز في العلم.

القاضي الإمام الليث بن سعد، وهو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمان الفهمي (5). وهو من موالي أمير مصر السابق الذكر، خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمي، لذا يُنسب الليث إلى بني فهم بسبب الولاء. وأصله من الفرس من أهل أصبهان. ولد بقرية قرقشندة، وهي قرية بأرض مصر (6) في شعبان سنة 93هـ / 713م (7). ويعتبر إمام أهل مصر في الفقه والحديث معاً. وقد فاق أهل زمانه في البذل والعطاء، والكرم والسخاء. فلا يحدثه أحد إلا أعطاه بدون حساب. فإذا خرج من عنده، أمده بالزاد الذي يوصله إلى وطنه بدون حاجة (8). وله قصص في الكرم، وصلة أصحاب الدين والعلم عجيبة، لا يتسع المجال لسردها. ولم تجب عليه الزكاة

1 - ابن عمر محمد الكندي، المصدر السابق، ص ص 75-76.

2 - نفسه، ص 79.

3 - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1929، ص 265.

4 - ابن عمر محمد الكندي، المصدر السابق، ص 80.

5 - ابن الجوزي، صفة الصفوة، تح أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، 2000، ج 2، ص 439.

6 - ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، تح محب الدين بن سعيد العموري، دار الفكر، ط 1، دمشق، 1997، ج 50، ص 348.

7 - ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج 2، ص 439.

8 - أبي سعيد السمعي، الأنساب، تقديم عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، ط 1، بيروت، 1988، ج 4، ص 413.

رغم غناه الشديد، لأنه يتصدق كثيراً، بل يُحَوِّلُ عليه الحول وقد ركبته الديون. قال محمد بن ربح: (كان دَخُلُ الليث بن سعد في كل سنة ألف دينار وما وجب لله تعالى عليه زكاة قط)⁽¹⁾. وأما علمه فقد ربطته صلة علمية وصدّاقة ومحبة بالإمام مالك بن أنس. وعلم الليث يوازي علم مالك، ولكن طلبته لم ينشروه. وقال ابن وهب: (لولا مالك والليث، لضل الناس). وكان يصل مالك بائنة دينار في السنة، فكتب إليه مالك، عليّ دين، فبعث إليه بخمس مائة دينار. قال الشافعي: (الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به)⁽²⁾.

وكان الليث مسموع الكلمة، مما جعل ولاية مصر وقضاتها يرجعون إليه. وتولى القضاء مدة، وجلس للفتوى. وكانت رسالة منه تكفي لعزل أحد الولاة أو تنصيب آخر⁽³⁾. توفي بالفسطاط في النصف من شعبان سنة 175هـ / 791م⁽⁴⁾.

أبو الربيع، سليمان بن حارث بن هارون الفهمي: من أهل سرقسطة. رحل إلى المشرق وحج ولقي عبد الحق الفقيه وغيره. حدث عنه القاضي أبو علي الصديقي وقال فيه: رجل صالح من الأبدال⁽⁵⁾. وهو من فقهاء سرقسطة المعروفين. توفي بالإسكندرية سنة 481 هـ / 1088م⁽⁶⁾.

أبو الحسن، علي بن أحمد بن محمد بن أشج الفهمي المقيري من أهل طليطلة. روى عن أبي عبد الله المغامي وأبي الحسن بن الإلبيري وأبي داود المقيري ومحمد بن مفرج وغيرهم. وكان رجلاً فاضلاً قديماً الطلب وافر الأدب. وتوفي بالعدوة الأندلسية سنة 513هـ / 1119م⁽⁷⁾.

أبو زيد، عبد الرحمان بن أحمد بن عبد الرحمان بن العاصي الفهمي: من أهل قرطبة، ولكنه سكن بلدة المريّة، وكان من أهل العناية بالأدب. ورحل إلى المغرب الأقصى، وتوفي بها سنة 477هـ / 1084م⁽⁸⁾ وابنه محمد بن عبد الرحمان الفهمي. تأثر بوالده وأخذ عنه العلم،

1 - ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج2، ص 441.

2 - الذهبي، المصدر السابق، ج8، ص ص 148-156.

3 - أحمد فرج عقيلان، أبطال ومواقف، دار المعراج الدولية، ط2، الرياض، 1997، ص 210.

4 - أبو سعيد السمعي، الأنساب، ج4، ص 413.

5 - ابن بشكوال، الصلة، تح إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1989، ج1، ص 320.

6 - الضبي، بغية المتمعن في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1989، ج2، ص 382.

7 - ابن بشكوال، الصلة، ج2، ص 617.

8 - ابن بشكوال، الصلة، ج1، ص ص 504-505.

وكان مشهورًا بالنحوي. قال ابن الزبير: كان أحد الأسانيد النحاة الأدباء الأجلّة. مات نحو سنة 530هـ/1135م⁽¹⁾.

أحمد بن محمد بن أشح أبو إسحاق الفهمي: من أهل قرطبة. كان من أهل المعرفة والخير من عباد الله الصالحين. استقضاه المهدي في مدته بحاضرة جيان ثم استعفى عن ذلك. وتوفي سنة 414هـ/1023م، ودفن بالربض. وكان يؤذن بمسجده ويقيم.

المجاهد الجزائري الهاشمي طرودي⁽²⁾ أصيل وادي سوف، والمولود بسكرة سنة 1926. درس بالكتاب والمدرسة الفرنسية، وبدأ نشاطه المهني والنضالي مبكرا. وتعرف على محمد العربي بن مهيدي، وصار صديقا له في النضال في إطار الحركة الوطنية. وساهم في عملية تخزين السلاح والذخيرة القادمة من وادي سوف، كما شارك في الثورة التحريرية، وتعرض للسجن والاعتقال. وبعد الاستقلال مارس نشاطه العادي، واعتكف على القراءة والكتابة، فأصدر كتابه الأول عام 1991، ((محمد العربي بن مهيدي رجل المواعيد الكبرى)) والثاني سنة 2009 ((على طريق الحرية))⁽³⁾.

مما سبق يتضح الامتداد الكبير لقبيلة طرود في بلاد المغرب الإسلامي في ليبيا وتونس والجزائر، والعدوة الأندلسية.

2- هجرة قبيلة طرود من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد المغرب الإسلامي:

كانت مساكن قبيلة طرود⁽⁴⁾ الأولى في شبه الجزيرة العربية، في فضاء واسع بإقليم الحجاز يمتد بين ثقيف شمالا والجدالة⁽⁵⁾ غربا. ومهنتهم تربية المواشي والجمال. وهم أقرب في أنسابهم إلى قريش. وقد اشتهروا بالفصاحة. ولهجتهم أقرب اللهجات إلى العربية الفصحى⁽⁶⁾. ولكن ابن خلدون ذكر أن موطنهم الأصلي هو إقليم ((نجد))، والظاهر أن تلك القبائل البدوية

1 - جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط1، 1995، ج1، ص 153.

2 - محمد الهاشمي الطرودي التونسي: ويعرف بالشيخ، مناضل وسياسي وإعلامي. ولد بنفطة بجنوب تونس سنة 1944، وتقلد تعليمه بها ثم بالجامعة الزيتونية. ومارس المعارضة السياسية، وناضل في الصحافة عن التعددية والعلمانية والحرية، وأصدر عدة كتب منها ((أساسة بغداد)) و((أضواء على اليسار التونسي)) و((المشهد السياسي بتونس 1960-2015)). توفي يوم 6 نوفمبر 2015. راجع: ويكيبيديا الموسوعة الحرة، تم الاطلاع يوم الجمعة 2020/05/29 على الساعة العاشرة صباحا.

3 - محمد الصالح حثروبي، هجرات سكان وادي سوف إلى مدينة بسكرة خلال القرن العشرين، تق علي غنابزية، دار الهدى، عين مليلة - الجزائر، 2019، ص ص 226-230.

4 - يتنسبون إلى طرود بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

5 - الجدالة: قبيلة عريقة من كنانة ومعظمها في مكة المكرمة وجنوبها.

6 - سمي عبد الرزاق القطب، أنساب العرب، منشورات دار الحياة، ط1، بيروت، 1968، ص ص 65، 66.

كانت تنتقل باستمرار مما يصعب على المؤرخ تحديد مواقعها بدقة متناهية. كما أن بلاد نجد متاخمة لإقليم الحجاز وقد تتداخل معها في الحدود وليس هناك أي مانع لتلك القبائل التي تربطها أوامر القرابة أو المصالح أن تتجاوز في بعض الأحيان. قال صاحب العبر: ((وهم بطن متسع كانوا بأرض نجد، وليس منهم الآن⁽¹⁾ بها أحد))⁽²⁾.

هجرة طرود إلى مصر: هاجرت فئة معتبرة من قبيلة طرود زمن الفتح الإسلامي من موطنها الأصلي بشبه الجزيرة العربية، واتجهت نحو مصر واتخذتها مستقراً لها⁽³⁾، بينما بقي معظم أفرادها بالحجاز والشام واليمن. ثم انتقل آخرون منهم في حدود عام 90هـ / 708م واستقروا بمصر واتخذوها موطناً مؤقتاً. وكانت لهم مكانة وقيادة تولاها أبرز أفرادهم، الوليد بن رفاعة الفهمي الطرودي في حدود سنة 109هـ / 727م⁽⁴⁾.

- **هجرة طرود إلى طرابلس الليبية:** خرجت عدة قبائل من مصر، ومنهم بنو مخزوم. ورافقتهم طرود في مسيرهم، ونزلوا عدة مواطن وهي: برقة، ثم الجبل الأخضر. وانتهى بهم الأمر إلى طرابلس، ولكن استقرارهم بها كان مؤقتاً. وبسبب الخلافات مع أهلها، اضطروا إلى مغادرتها مرغمين، وكانت وجهتهم بلاد المغرب الأدنى (تونس)⁽⁵⁾.

- **هجرة طرود إلى المغرب الأدنى:** حينما وصلت جموع قبيلة طرود إلى تونس، وجدوا ترحيباً من حاكم بلدة قابس، ولكنهم أثروا التنقل على عاداتهم البدوية، فانتقلوا إلى القيروان والمهدية⁽⁶⁾ ثم صفاقس وقفصة، وانتقل آخرون إلى نواحي باجة⁽⁷⁾، بينما فضل بعض القوم الهجرة إلى مشارف وادي سوف لتبدأ مرحلة جديدة في حياتهم بالصحراء.

3- دخول قبيلة طرود إلى وادي سوف ومراحل الاستقرار:

أ- هجرة طرود إلى مشارف وادي سوف: بدأ أول اتصال لطرود بمنطقة سوف الشمالية، وكانت المراعي الخصبة في مواقع عقلة الطرودي وبودخان والميتة هي المجال الحيوي لهم

1 - وهو عصر ابن خلدون في حدود القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي.

2 - ابن خلدون المرجع السابق، ج2، ص 305.

3 - سمير عبد الرزاق القطب، المرجع السابق، ص 215.

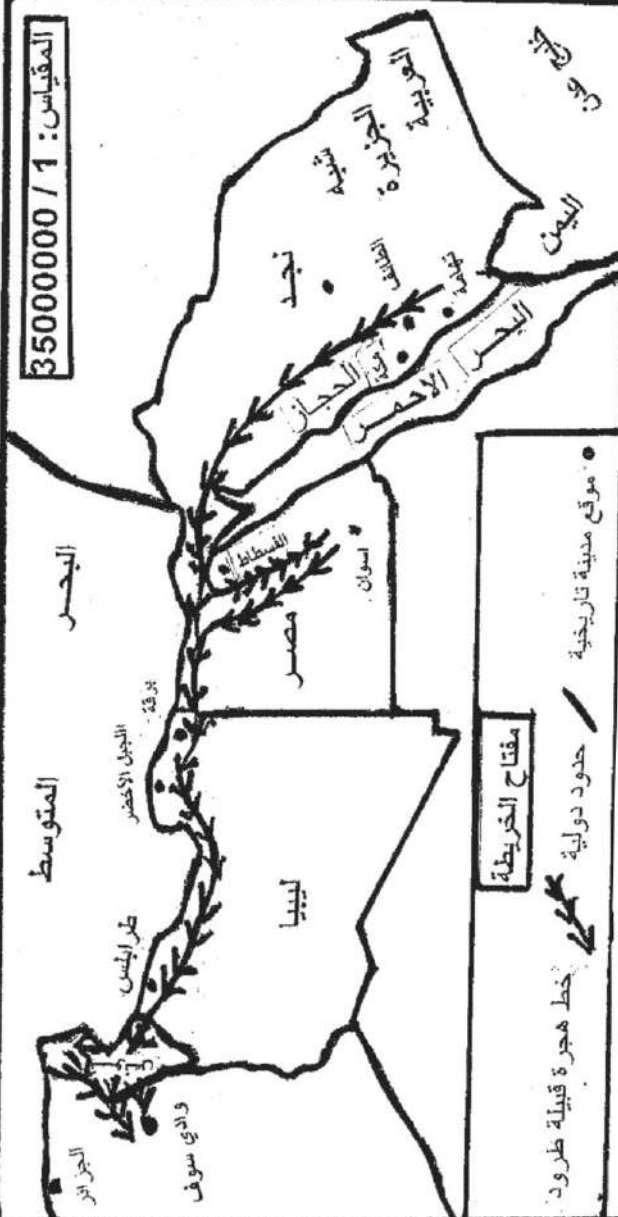
4 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 121، 122.

5 - انظر: محمد العدواني، المرجع السابق، ص ص 84-85. مصطفى سالمي، الدر المصفي، جمع وتصنيف وتحقيق علي غنابزي، مخ، 1999، ص 100.

6 - انظر: محمد العدواني، ص ص 85-87. الدر المصفي، ص 100.

7 - محمد العدواني، ص ص 93-192.

المقياس: 1 / 35000000



مفتاح الخريطة

● موقع مدينة تاريخية
/ حدود دولية
خط هجرة قبيلة طرود

- المراجع:
- 1- الأطلس العالمي، المعهد الوطني للتربوي، الجزائر، ص 41.
 - 2- إبراهيم العوامر، الصروف، الصفحات، 122-121.
 - 3- ابن خلدون، كتاب العبير، ج 2، ص 305.
 - 4- محمد العدواني، تاريخ العدواني، ص 84-85.
 - 5- مصطفى سالم، الدر المصطفى، ص 100.

خط هجرة قبيلة طرود من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد المغرب الإسلامي،

عندما جاوروا قبيلة عدوان واستوطنوا المنطقة مؤقتاً بنخيامهم في حدود سنة 690هـ/1292م. وبعد مدة لحق بهم الذين تخلفوا في باجة. وكان الفضاء الذي عاشوا فيه يومئذ يمتدما بين فركان⁽¹⁾ ونقرين⁽²⁾ وأطراف الزاب الشرقي وجنوب الصحراء الواقعة بين نفطة التونسية والجردانية السوفية⁽³⁾.

ب - التدافع بين طرود وعدوان في الجردانية: استقرت طرود سنة 797هـ/1394م في عقلة الطرودي ونواحي بودخان. وأضحوا يعتمدون على ماء وادي تاقرارت وعلى الآبار السبعة التي حفروها. إذ كانوا أغنياء، يملكون الكثير من الإبل والغنم والمواشي، وهم في تنقل مستمر بحثاً عن المراعي الخصبة في الزاب والجريد والصحراء المجاورة⁽⁴⁾. وأعجبوا بقصور عدوان، فزاحموهم عليها، وتقاتلوا معهم⁽⁵⁾، ولكن طروداً سلموا بالأمر الواقع. وفضاً للنزاع، بدأوا في الانسحاب جنوباً نحو تكسبت القديمة بأرض زناتة، وهي أصل مدينة الوادي.

ج - دخول طرود إلى مدينة الوادي: كانت مدينة الوادي في القرن التاسع الهجري أرضاً واسعة يقطعها وادي الماء ويوفر للمقيمين بها الظروف الحسنة للعيش، فاسترعت انتباه قبيلة طرود فدخلتها في حدود عام 800هـ (1398م). وأول من استقر منهم، قبيلة أولاد أحمد. ونزلوا قرب سيدي مستور، بجوار بربر زناتة في تكسبت القديمة، ثم انتشروا في بقية المنطقة. ولحق بهم بقية أهلهم من طرود، أو من الأخلاط من مختلف النواحي⁽⁶⁾.

1 - فركان: وتسمى أيضاً أفيركان أو أفركان، وهي تقع في الشمال الشرقي قرب النمامشة وتبعد عن وادي سوف جوا بنحو 150 كم.

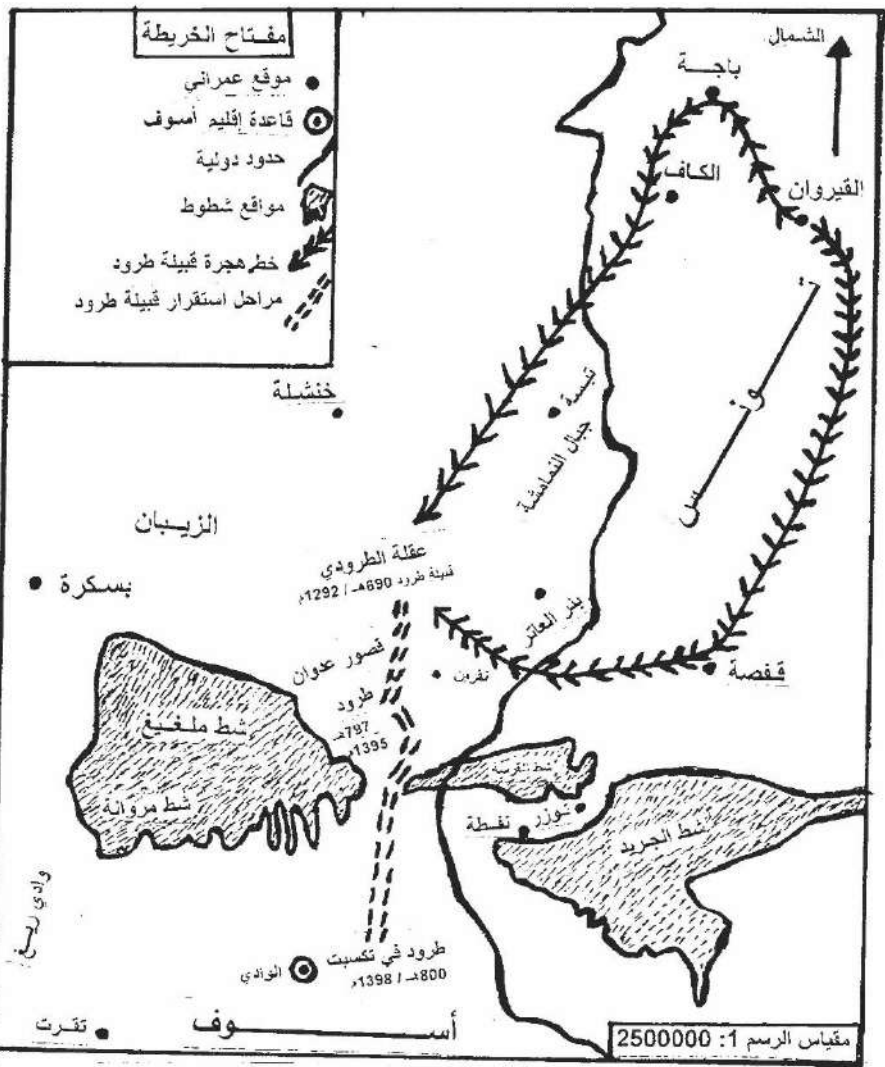
2 - نقرين: وهي تقع في الشمال الشرقي من وادي سوف وتبعد عنها جوا بنحو 163 كم.

3 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 147، 149.

4 - نفسه، ص ص 155.

5 - محمد العدواني، المرجع السابق، ص ص 96-100.

6 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 160، 161.



المراجع:

- 1- الأطلس العالمي، المعهد الوطني للتربوي، الجزائر، ص 16.
- 2- إبراهيم العوامر، الصروف، ص ص 149-155-160-161.
- 3- محمد العدواني، تاريخ العدواني، ص ص 96-100.
- 4- سالم مصطفي، الدر المصفي، ص 100.

خط هجرة قبيلة طرود ومراحل استقرارها بوادي سوف

خامسا: الإطار السكاني لوادي سوف:

أ) النمو السكاني:

شهد مجتمع وادي سوف نموا سكانية معتبرا منذ التاريخ القديم بسبب الزيادة الطبيعية (التزاوج والمصاهرة). إلا أن العامل الأساسي في حركة التعمير والنمو هو (الهجرة) الداخلية والخارجية.

- **الهجرة الخارجية:** ونقصد بها الهجرات الوافدة من خارج المغرب الأوسط (الجزائر)، والتي قدمت من البلدان المجاورة . وهي ثلاث هجرات أساسية، وأغلبها تم بصفة فردية وارتبطت بكثير من الحوادث، وبعضها كان بشكل جماعي، بقدم القبائل أو العائلات.

* **الهجرة من طرابلس الليبية:** كانت طرابلس الغرب معبراً لقبائل بني هلال وبني سليم عند اجتياحها لبلدان الشمال الإفريقي، ومعبرا لقبائل عدوان وطرود عند مسيرتها أثناء البحث عن مستقر آمن.

ولكن توجد بعض الحوادث الاجتماعية اضطرت بعض الأشخاص إلى الهجرة الفردية هربا من القتل مثلما وقع لجد أولاد شبل المدعو «العربي»، وهو من محاميد عرب طرابلس. قدم لاجئا إلى سوف، واستقر قرب أولاد أحمد. وبعد مدة لحق به صديقه جد «العلاقة». ثم تزوج العربي من عائشة، وعلاق من فاطمة وهما بنتا أبناء سيدي مستور. وقد هاجر جد «أولاد ميلود» من غدامس الليبية ونزل على أولاد يوسف، وتزوج منهم واستقر عندهم⁽¹⁾. كما أن الحميدة وأولاد جامع⁽²⁾ يرجع أصلهم إلى طرابلس.

* **الهجرة من الأراضي التونسية:** هاجرت كثير من العائلات أو الأفراد من تونس إلى وادي سوف واتخذوها لهم موطناً نهائياً، فتزوجوا واندمجوا كلياً في قبائلها.

فوجد على سبيل المثال سيدي محمد الجديدي، القيرواني الأصل، بعد هجرته إلى سوف، سكن عند قبيلة أولاد أحمد، وانتسب إلى عميرة⁽³⁾ السوفية، وتزوج ابنتهم مسعودة. كما هاجر بالقاسم الحداد (جد أولاد العبيدي) من بير العاتر ونزل عند أحد أبناء سيدي مستور الذي زوجه ابنته مبروكة. وهاجر النوابلية من بلدة نابل التونسية⁽⁴⁾، والعوينيون وينتسبون إلى عوينة

1 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 278، 280.

2 - قيل ينتسبون إلى جامع بن عمون بن عبد الله والي طرابلس سنة 602هـ/1206م. هاجروا إلى تونس أولا ومنها انتقلوا إلى وادي سوف. انظر إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 304.

3 - العميرة: عند علماء الأنساب هي الأقسام التي تنفرع من القبيلة.

4 - نابل: وتقع في نواحي سوسة، وهي ميناء هام يقع شمالي خليج الحمامات، وهي منتجع سياحي.

دوز بجنوب شط الجريد⁽¹⁾، وأولاد اميهي من نفوسة قابس، والشوامس من إقليم نفاوة المتاخمة لوادي سوف من ناحية الجنوب.

وانتسب إلى المصاعبة⁽²⁾ من المهاجرين التونسيين كل من: الشراردة والأعليات. قدموا إلى سوف من توزر، والمطرية من بلدة ماطر⁽³⁾، والعمودي من نفطة، والرضوين من قفصة ومصغونة من القيروان، والشرايطة من همامة تونس، والغرايسة من صفاقس.

أما عرش الأعشاش، فنجد منهم العش بن عمر اليربوعي، وهو أصل العرش في مدينة الوادي. وكان شخصية سياسية مرموقة في قرية من قرى نفاوة، يقال لها تلمين الكبرى، فوقت له مشكلة سياسية مع حاكم البلدة، فاضطر إلى الفرار بأهله وماله إلى سوف⁽⁴⁾.

*** الهجرة من المغرب الأقصى:** شهدت المنطقة هجرة بعض العائلات المغربية، وأغلبهم ينتسبون إلى الأشراف⁽⁵⁾، ومن أشهرهم العزال وأبناؤه⁽⁶⁾، وسيدي علي بن خزان مؤسس بلدة الدبيلة، وسيدي عون بن مهلهل، جد ومؤسس البلدة الشهيرة⁽⁷⁾. كما أن أصل آباء القوارير الأوائل من أشراف المغرب القادريين الذين هاجروا نحو إقليم توات⁽⁸⁾، ومنه هاجروا إلى وادي سوف⁽⁹⁾.

- **الهجرة الداخلية:** استقبلت وادي سوف هجرات بشرية كثيرة من مناطق متعددة ببلاد الجزائر، من المناطق التلية من الجزائر الشمالية حينا، ومن المناطق الصحراوية المجاورة أو النائية حينا آخر، وتعددت الدوافع والأسباب التي شجعت تلك العائلات على اتخاذ مجتمع وادي سوف موطنًا للاستقرار النهائي. ويعتبر البحث عن الحياة الآمنة المطمئنة والعيش الحر الكريم من أبرز تلك الدوافع.

1 - **عويبة دوز:** وهي قرية من قرى نفاوة قريبة من أرض سوف، وهي تابعة لمنطقة قبلي.

2 - **المصاعبة:** وهم شعب كبير يضم أربع قبائل وهي: الشباطة، والقرافين، والعزازلة، والشعابنة.

3 - **ماطر:** وتقع شمال غرب العاصمة تونس، وتبعد عنها بنحو 66 كم.

4 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 278، 307.

5 - **الأشراف:** وهم الذين يرتفع نسبهم إلى الدوحة النبوية الشريفة، وإلى نسل فاطمة الزهراء وزوجها الإمام علي بن أبي طالب عليهم الرضوان، ويلحق بهم من كان من نسل الصحابة الكرام.

6 - **العزازلة السبعة:** توجد أضرحتهم في حي التزلة والتي صارت تحمل اسم نزلة العزازلة في الجنوب من نزلة ضواي روجه بوسط مدينة الوادي، مقابل محطة الملاح.

7 - **عون الأكبر:** توفي سنة 1195 هـ / 1781 م. بينما مؤسس البلدة هو حفيده عون بن أحمد الراشد بن عون الأكبر.

8 - **إقليم توات:** يقع في العرق الغربي الكبير، في غرب الصحراء الجزائرية، وبالتحديد في منطقة ادرار.

9 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 329، 334.

فقد هاجر على سبيل المثال من عرش المصاعبة أولاد إسماعيل (السواكرية) من غرداية، والشعابنة من متليلي وورقلة، والصوالح من ورقلة. وهاجر إلى كوينين أولاد بلحسن قادمون من عين ماضي.

وأولاد تواتي من قبيلة العزازلة الذين هاجروا من منطقة توات، والقوارير من قورارة بالصحراء الجزائرية. كما هاجر غوالين البهيمه من وادي ريغ المجاورة لسوف. والجدير بالذكر أن الهجرة ظلت متواصلة عبر الزمن ولم تتوقف. فنجد مثلا قبيلة الشعابنة السابقة الذكر، هاجرت عائلات منها، وهم أولاد عمران، من ورقلة في حدود سنة 1886⁽¹⁾. وفي نفس الوقت تقريبا قدم أولاد الشريف القادريون.

ب) عناصر السكان:

عمرت وادي سوف منذ عصور قديمة موعلة في أعماق الزمن، ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ. وشهدت حينئذ حركة متواصلة توافدت فيها مختلف العناصر السكانية، وتعددت الهجرات من سائر البلدان القريبة والنائية، وكونت في الأخير التركيبة البشرية للمجتمع منذ القدم والتي يمكن حصر عناصرها التالية:

- الجنس البربري:

وهو أول من سكن بلاد الشمال الإفريقي منذ عصور ما قبل التاريخ. وكانت وادي سوف من المناطق التي وصل إلى فضائها الشاسع الجنس البربري وعمرها. واستمر تواجد بها إلى القرن الخامس عشر الميلادي⁽²⁾. ويعود سبب الاختفاء إلى عاملين بارزين:

1- اندماج العنصر البربري في أصله العربي المهاجر إلى بلاد المغرب الأوسط (الجزائر)، وتمثل ذلك في العناصر الكنعانية⁽³⁾ والعمالقة⁽⁴⁾ الذين سكنوا في شمال سوف⁽⁵⁾، فضلا عن العرب القحطانية اليمينية من التبابعة⁽⁶⁾. وذهب ابن قتيبة في كتاب «المعارف» إلى القول: (أن ياسر بن عمرو ملك اليمن «250-275م») الملقب بياسر أنعم لإنعامه عليهم، لما سار غازيا

1 - Cauvet. op. cit, P, 63 .

2 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 172.

3 - الكنعانيون: هم شعب سامي استوطن في الألف الثالث ق. م. أرض فلسطين، وهاجر جزء منهم إلى بلاد شمال إفريقيا منذ 1300 ق. م.

4 - وهم أبناء عمليق بن لاوذ بن سام. كان موطنهم الأصلي بين العراق والعقبة، واشتهروا بطول الأجسام. ويذهب التاريخ الشعبي إلى تحديد مساكنهم بسوف بوادي الجردانية، وكانوا يبارسون الرعي.

5 - تاريخ العدواني، المرجع السابق. ص 134.

6 - أشار ابن خلدون إلى غزو بلاد المغرب من طرف إفريقيش بن قيس بن صيفي من التبابعة، وكان يقود البربر.

نحو المغرب بلغ واديا يقال له وادي الرمل، فلما بلغ إليه، لم يجد فيه مجازا لكثرة الرمل. وعبر بعض أصحابه فلم يرجعوا، فأمر بنصب صنم من نحاس على صخرة في شفير الوادي، وكتب على صدره بالخط المسند: هذا الصنم لياسر أنعم الحميري، ليس وراءه مذهب، فلا ذلك فيعطب، ورجع⁽¹⁾. ويحتمل أن يكون قومه وصلوا إلى سوف واستوطنوها قبل مجيء العرب الفاتحين.

2. كان الجنس البربري متمثلا في بقايا قبيلة زناتة. ولكن الصراع المرير بينها وبين العرب الوافدين، بسبب التنافس على المياه والمراعي، جعل الغلبة لقبيلة طرود، ففضلت زناتة الانسحاب خارج وادي سوف إلى الأطراف المجاورة، واستقرت في نفطة التونسية ووادي ريغ وورقلة في حدود سنة 818هـ/1416م⁽²⁾.

- الجنس العربي:

ينتمي معظم سكان وادي سوف إلى هذا الجنس، وهم ينتسبون إلى العرب العدنانية⁽³⁾ من ذرية سيدنا إسماعيل، عليه السلام. وعاشوا في خط يمتد من شمال شبه الجزيرة العربية إلى جنوبها، ما بين بلاد الحجاز،⁽⁴⁾ وإقليم نجد⁽⁵⁾ ومنطقة تهامة⁽⁶⁾. ومن أحفاد عدنان مضر⁽⁷⁾، وهو الجد المشترك بين النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم وأهل سوف⁽⁸⁾. وقد أنجب مضر قيس عيلان⁽⁹⁾، وهو والد أكثر القبائل العربية التي سكنت في مجتمع وادي سوف وما جاوره من النواحي.

1 - انظر: ابن قتيبة الدينوري، المعارف، ص 347. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 116.

2 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 172.

3 - عدنان: أبناؤه هم معد، ونزار بن معد، ومن نزار، مضر وربيعة ومنهم تفرقت بطون كثيرة.

4 - الحجاز: إقليم يقع غربي نجد، ومجاذبي البحر الأحمر، ويمتد من خليج العقبة شمالا وحتى عسير جنوبا، وقاعدته مكة المكرمة، وأهم مدنه: المدينة المنورة والطائف وجدة وتبوك.

5 - نجد: ويقع هذا الإقليم في وسط الجزيرة العربية، شرقي إقليم الحجاز. ويمتد من صحراء النفوذ الكبرى والربع الخالي. ويحده اليمن من الجنوب. وقاعدته هي الرياض.

6 - تهامة: وهي إقليم ساحلي ضيق يقع غرب الجزيرة العربية، والإقليم محصور بين جبال السراة والبحر الأحمر، ويمتد ما بين الحجاز واليمن.

7 - مضر: من أبناؤه قيس عيلان، وإلياس.

8 - نسبه الشريف: محمد صلى الله عليه وسلم بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر (وهو قريش) بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان. انظر: تهذيب سيرة ابن هشام. تح عبد السلام هارون. دار التراث العربي، بيروت، (ب ت)، ص 17.

9 - هو قيس عيلان بن مضر واسمه (التأس) ولقبه (قيس: أي رجل الشدة والتحمل في الحروب). أما عيلان: فهو أسم الشخص الذي كفل قيس ورباه.

والجددير بالملاحظة أن قبائل وادي سوف وعروشها التي استقرت في وقت مبكر وعلى مراحل زمنية متباعدة، يصعب على الدارس أن يميزها عن بعضها بدقة متناهية، لأنها شديدة التشابك والتداخل والتماسك والاختلاط بسبب أوامر المصاهرة، والتزاوج الواسع مع التمسك بأحكام الشريعة الإسلامية. فذابت كل الفوارق، وصار التعامل المشترك هو قوله سبحانه: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)⁽¹⁾.

- الجنس الزنجي:

وهم أصحاب البشرة السوداء أو (الوصفان)⁽²⁾. وأصلهم من إفريقيا جنوب الصحراء، وخاصة إفريقيا الغربية. وينتمون إلى عدة بلدان ومناطق مشهورة مثل: بلاد السودان والسنغال والنيجر وتمبكتو المالية وكانو النيجرية. ويمثلون معظم القبائل التي تعيش هناك، ومنها: الهاوسا، والفولاني، والبرنوان. و جلبوا من طرف التوارق إلى غدامس، وغات، وتاغيت، وجانيت⁽³⁾. وكان تجار سوف في القديم يجلبون العبيد من تلك الأسواق إلى المنطقة، فاندمجوا في العائلات السوفية كخدم في البيوت⁽⁴⁾. وأغلب المجلوين أتوا بهم في سن الصبا، مما جعلهم يجهلون أصولهم الأولى، فانتما إلى العائلات السوفية التي تربوا وعاشوا فيها جل حياتهم، وحملوا في المستقبل ألقابها وأسماءها، وصاروا جزء من السكان لا يختلفون عنهم في كل مظاهر حياتهم، ووصل عدد أولئك الزوج في سنة 1850 نحو 5000 زنجي أسود⁽⁵⁾.

والخلاصة حول عناصر السكان، تؤكد أن الأجناس في مجتمع وادي سوف منذ القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، صارت محصورة في العنصر العربي المسلم بطرفيه: الجنس الأبيض والأسود اللذين كونا في رحاب القيم الدينية انسجاما، توحدت فيه الصفوف، وتألقت فيه القلوب على البر والتقوى.

1 - الآية 13. من سورة الحجرات.

2 - يطلق أهل سوف على الجنس الأسود اسم الوصفان، ويعنون بهم العبيد من كلا الجنسين، ثم تطور اللفظ وأصبح يطلق على الأسود عموما.

3 - C. Roger Leselle, les Noirs du Souf, **Supplément au bulletin de liaison saharien**, sd, P P 5-7.

4 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 166.

5 - André Voisin, Op. cit, p 108 .

ج) التوزيع السكاني:

كانت الكثافة السكانية - في التاريخ القديم - لمجتمع وادي سوف متفاوتة بين أطراف الإقليم، فتزداد ارتفاعا باستمرار في مناطق جلب السكان، وهي التي تتميز بالاستقرار البشري والتطور العمراني. بينما يصعب ضبطها في المجال الحيوي لعيش العناصر البدوية التي اعتادت التنقل خلال فصول السنة بحثا عن المراعي الخصبة والمياه لحيواناتها التي تمثل العمود الفقري في تلك الحياة.

والجدير بالملاحظة أن الاستقرار السكاني في المجتمع خضع لعدة عوامل، ومر بثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى: إن معظم السكان في وادي سوف فضلوا المناطق الشمالية كمواطن للسكن والعمران. ثم امتد العمران نحو الجنوب حتى وصل إلى مدينة الوادي. والسبب في ذلك يرجع إلى البيئة الطبيعية وما جادت به من غطاء نباتي كثيف، ومياه سطحية على ضفاف وادي الجردانية، أو قرب البرك والغدائر الناشئة من النهر السابق الذي شهد خط سيره حركة الاستقرار الأولى لبربر زناتة ومن بعدهم قبيلة بني عدوان في مناطق الجردانية وما حولها من مراعي، وخاصة مناطق اللجج⁽¹⁾ أو الغدائر في الزقم والبهيمة وما جاورهما⁽²⁾. وتمتد جنوبا إلى مدينة الوادي التي كانت مستقرا قديما لزناتة البربرية في تكسبت القديمة قرب ضواي روجه بسبب وجود الماء في (الغديرة الوسطى)، وهي مدينة الوادي الحالية، وجنوبها (الغديرة السفلى)⁽³⁾ وتقع عند انتهاء الوادي.

المرحلة الثانية: صار الاستقرار معتمدا على المياه الجوفية القريبة من السطح، لأن نمط الحياة الاقتصادي تغير بعد ازدهار حركة زراعة النخيل، وخصوصا بعد جلب فساتله وانتشار زراعته في القرن العاشر الهجري. وهذا العامل الاقتصادي الهام في حياة السكان جعل بعض المناطق المهجورة تتحول إلى مناطق جلب للسكان - رغم كثرة رمالها وبعدها عن العمران البشري - لأن الماء قريب من السطح، وهذا ما سهل على الفلاح عمله، ووفر له عملية السقي.

1 - اللجج: مفردا لجة وتعني في اللغة معظم الماء أو جانب الوادي. وسأها العدواني في تاريخه الغدائر المائية ومواطنها تمتد تقريبا في نواحي بلدة الزقم وسيدي عون والبهيمة، وفي مدينة الوادي بعد ضعف النهر، وتمثل منطقة الشط في نزلة ضواي روجه إحداهما. وبمرور الزمن حملت الكلمة معنى محليا (مصطلح) فصارت اللجج تطلق على ضواحي سوف المختلفة وهي المعبر عنها بالفرنسية (Les Environs du Souf).

2 - تاريخ العدواني، المصدر السابق، ص 131.

3 - نفسه، ص ص 161، 136.

وهذا جعل بعض المناطق تعمر بسبب ذلك، ومنها: عميش ووادي العلندة وما جاورهما من الضواحي.

المرحة الثالثة: وكان توسع الحركة التعميرية قد اتجه نحو شمال وادي سوف، وظهر ذلك جليا عند تعمير بلدة المقرن والرقبية وما جاورهما من ضواحي، وشجعهم على ذلك قلة المال وقرب الماء وغزارته، مما سهل عليهم غراسة النخيل التي تعتبر أساس العيش في هذا المجتمع النائي. وعموما فإن حركة التعمير شملت الأطراف الأربعة لوادي سوف، ما عدا الجهة الجنوبية التي تكاد تكون خالية من السكان إلا منطقة عميش (في الجهة الجنوبية الشرقية). بينما تركز معظم السكان بداية من مدينة الوادي (قاعدة الإقليم) وحتى أقصى المناطق الشمالية والتي مثلت الكثافة المعتبرة عبر الزمن. ورغم الهجرة الكبيرة نحو المدن بعد الاستقلال بحثا عن العلم أو العمل، إلا أن الهجرة نحو الأرياف بقيت مستمرة إلى اليوم، وتساهم في تغيير خريطة التوزيع السكاني للمجتمع.

سادسا: الإطار الاقتصادي:

منذ عصور ما قبل التاريخ تطورت الحياة الاقتصادية في مجتمع وادي سوف حتى بلغت شأوا عظيما في التاريخ المعاصر، وتجلت ذلك التطور في المظاهر المتنوعة، والوسائل المختلفة للتنمية.

ظهرت الحياة الاقتصادية الأولى في حالة بدائية بسيطة، يعتمد فيها الأفراد على الصيد والرعي، ويعيشون في مجموعات أو عائلات (نظام الأسر). ثم ظهرت الحياة المستقرة عند اكتشاف الزراعة وممارسة الصناعة، والتعامل مع الخارج بالتجارة. ويمكن تتبع أهم المظاهر الاقتصادية تاريخيا:

أ) الصيد البري:

اعتمد الأفراد في مجتمع وادي سوف منذ عصور ما قبل التاريخ على الصيد البري، وكانت لحوم الحيوانات والطيور هي الغذاء الأساسي، مع استغلالهم بقية أجزاء الحيوانات - من جلود وعظام وأنياب وريش - في شؤونهم العامة. وذلك شأن الأمازيغ والعرب على حد سواء، بالاعتماد على الصيد الذي مثل جل طعامهم، إضافة إلى التمر في وقت لاحق.

ويخضع الصيد لتنظيم خاص بهم باتخاذ الكلاب⁽¹⁾ المدربة على اقتناص الفرائس وملاحقة الطرائد، ونصب الفخاخ في الأماكن التي ترتادها الحيوانات البرية، بالقرب من الأشجار

1 - ويدعى الكلب المخصص للصيد (السلوقي) ويطلق عليه العرب اسم الهجرع والخفيف.

الصحراوية والموارد المائية، وخاصة ضفاف وادي سوف القديم أو الغدران⁽¹⁾ المائية المتواجدة على أطرافه في خط سير الوادي الممتد من الشمال الشرقي نحو الجنوب عموماً.

ب) الرعي وحياة البداوة:

كانت حياة البداوة هي السمة الغالبة على المجتمع القديم الذي ارتكز اقتصاده على الرعي، واتخذ الخيام مأوى، لأنه يسهل حملها أثناء التنقل المستمر، والرحلات المتواصلة بسبب الظروف المناخية. وكان الاستقرار بصفة مؤقتة في أماكن تواجد الكلاً والماء. وحدد سقوط الأمطار بسخاء مدة الإقامة في المناطق الرملية الجنوبية، بينما تفضل القبائل التوجه نحو المناطق الشمالية لقربها من الإقليم التلي الذي يمتاز بغطاء نباتي كثيف يوفر حاجات الأنعام من الكلاً باستمرار أثناء فترة الإقامة.

أما المياه التي تحتاجها الحياة الرعوية فهي متوفرة بعدة أشكال منها: مياه ((وادي سوف)) الرقراق، والغدائر أو (اللجج) المتولدة عن النهر القديم، وهي متناثرة نحو الجنوب حول مدينة الوادي، فضلاً عن الآبار التي يحفرها الرعاة لضمان العيش لأنفسهم ودوابهم.

وتمثل المراعي الخصبة مكسباً هاماً في حياة الرعاة، مما جعل القبائل تتنافس حولها وتتزاحم، وأدى ذلك إلى التدافع المفضي إلى التناحر والقتال، كما حدث في قصة قدوم قبيلة طرود وصراعهم مع بني عدوان في عقلة الطرودي⁽²⁾، ومع بربر زناتة في تكسبت القديمة بمدينة الوادي⁽³⁾. وتلك هي طبيعة الجنس العربي الذي يسعى دوماً للتغلب على البسائط الخضراء كما أكد ابن خلدون:

((... وأما البسائط متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة، فهي نهب لهم وطعمة لآكلهم، يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم، إلى أن يصبح أهلها مغلّين لهم، ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة، إلى أن ينقرض عمرانهم...))⁽⁴⁾. ويعتمد الرعاة في مجتمع وادي سوف القديم على الحيوانات الأليفة التالية:

1 - وهي برك مائية نشأت من جراء فيضان مياه الوادي في أوقات الأمطار، وصارت تلك المياه المتجمعة بمثابة بحيرات صغيرة ترتادها الحيوانات ويتجمع حولها السكان.

2 - تاريخ العدواني، المصدر السابق، ص 100.

3 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 172.

4 - مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1993، ص 117.

- الإبل: (1) وكانت الوسيلة الأساسية للركوب وحمل الأثقال، لأنها تتحمل السير في
المفاوز وتتخذ مراكب أثناء الحروب، فضلا عن منافعها المادية، بالاعتماد على لحومها وألبانها،
وجلودها ووبرها وعظامها.

- الماشية: وهي الأغنام وقطعان الماعز وتمثل مصدرا مهما للغذاء (اللحوم والألبان)
واللباس (الجلود والصوف).

ويتخذ الرعاة بعض البغال والأحصنة للعدو والحراسة، والبحث عن المراعي أو تفقد
الحيوانات التي تبتعد عن الخيام أو تنفرد عن القطيع.

ج) النشاط الزراعي:

تعتبر مهنة الزراعة من أقدم الممارسات الاقتصادية في المغرب الأوسط، وتعود جذورها
الأولى إلى عصور ما قبل الميلاد - بجانب الصيد والرعي - لأنها شديدة الارتباط بالاستقرار
العمرائي، وهي الزراعة البدائية. وأهم أنواعها في وادي سوف منذ القرون الأولى:

- غراسة النخيل: وتأثرت بالبلدان القريبة في الجريد التونسي وبلاد الزاب، وأقدم خبر
عن وجود النخلة في وادي سوف، ما ذكره العدواني بوجود الحشان⁽²⁾ في معرض حديثه عند
تنازع طرود وعدوان في بداية القرن التاسع الهجري (800هـ)⁽³⁾. وكان التمر يومئذ أحد
الأغذية الشائعة في تلك المواطن⁽⁴⁾. بينما بدأت غراسته في مدينة الوادي في غوط سيدي
مستور، وبإشارة منه في حدود عام 800هـ/1398م⁽⁵⁾. ثم انتشرت زراعته وعمت مدينة
الوادي (عاصمة الإقليم) في أواخر القرن العاشر الهجري في حدود سنة 946هـ/1540م من
طرف أبناء سيدي مستور.

واستطاعت قبيلة طرود في وقت محدود يتجاوز قرنا من الزمان، أن تجعل من المنطقة خطا
أخضر من النخيل الباسق يسر الناظرين، ويسترعي انتباه الرحالة المسافرين⁽⁶⁾ القادمين من
جهة الغرب المحاذي لوادي ريغ، والمتجهين في رحلتهم نحو الشرق الملاصق لبلاد الجريد.

1 - ظهر الجمل بالقطر الجزائري في حدود سنة 66 ق م.

2 - الحشان: مفردها حشانة وهي النخلة الصغيرة في مراحل فتوتها الأولى ونضجها. انظر: تاريخ العدواني، المصدر السابق، ص
101.

3 - ذكر العدواني أن أول من غرس النخيل في سوف يدعى عمار البغدادي في قرية تدعى السبطي، يسكنها رجال من التوارق وهي
في سوف. انظر العدواني، المصدر السابق، ص 144.

4 - نفس المصدر، ص 101.

5 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 161.

6 - أبو سليم العياشي، ماء الموائد أو رحلة العياشي، وقد حل العياشي بسوف في حدود عام 1662م.

- زراعة القمح: وتواجدت بشكل محدود في منطقة النازية بشمال وادي سوف. وكانت منطقة ثماد صالحة للحرث، واستمرت إلى القرن التاسع عشر الميلادي⁽¹⁾.

- زراعة الخضر والفواكه: وهي كثيرة وتقوم عليها معيشة السكان، ومن أنواعها المشهورة على مر الزمن الكابو (اليقطين) والقرع واللفت والسنارية (الجزر) والخردل والدنجال (الباذنجان) والقناوية والبطاطا والطماطم والفلفل والمعدنوس والبصل والسلق والفواكه الصيفية، ومنها الفقوس والبطيخ، وهو فقوس ناضج، والدلاع⁽²⁾.

- زراعة الأشجار المختلفة: وأهمها العنب والرمان والبرتقال والزيتون.

د) النشاط الصناعي:

بدأت الصناعة قديماً في شكلها البدائي البسيط الذي يلبي حاجة الناس الآتية، وأخذت تتطور بسبب الحاجة الملحة والضرورة الضاغطة. وكان للتجربة النصيب الأوفى في عملية التطوير والرقي في سلم الصناعات التقليدية أولاً، والصناعات الحديثة في القرن العشرين. وتعتمد معظم الصناعات على مواد أولية محلية، مصدرها الطبيعة (كالخشب والحلفاء والحجارة) أو الحيوانات (كالصوف والوبر والجلد) أو أجزاء النخيل (كالجريد والليف والسعف والكرناف).

وأهم الصناعات التقليدية:

- صناعات تعتمد أجزاء النخلة: ومنها:

* **المصنوعات السعفية:** وتعتمد على مادة السعف، ومن أشكالها القفة والمنشة والزنبيل. وعندما يضاف إليها التيق، تصير صالحة لصنع السلالات ذات الاستعمالات المنزلية مثل: الطبق والمثرد والقنينة.

* **المصنوعات العسوية:** وتعتمد على عصي النخيل، ومنها الحمارة والسدة والدوح وعصي النيرة في مجال آلة النسيج.

* **المصنوعات الليفية:** وتعتمد على مادة الليف، ويصنع منها الحبال والعرابي (المقابض) للقفاف، وأغطية الأواني الفخارية.

1 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 66.. p 17. Ahmed Nadah, op. cit,

2 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 57، 66.

***المصنوعات الكرنافية:** وتعتمد على مادة الكرناف، وتستغل في صناعة قوس (كرة الشعر) وإطار الفخاخ الصبانية الخاصة بصيد العصافير، كما يصنع منها (المحكة) لتسوية المنسوجات الصوفية بعد إنجازها.

- **الصناعات النسيجية:** وهي عديدة ومنها صناعة الزرابي والحايك والحوالي والبرنوس والقندورة والقشايية والعراقية والعفان والغرارة والقטיפفة والمحزمة.

- **الصناعات الجلدية:** ومنها السيور والأكياس كالقربة والركوة والرقعة والعمورة.

- **الصناعات الجبسية:** وتتم على مراحل، وتبدأ بجمع الحجارة من نوع (التافزة)، ثم يوقد عليها النار في الحاروق أو داخل الكوشة. وبعد نضج الحجارة، تدق بقوة حتى تصير ملساء، وتصبح مادة أولية صالحة للبناء تدعى (الجبس).

واستمرت الصناعة اليدوية البسيطة إلى القرن العشرين، إلا أن تعقد الحياة وتطور العمران فتح آفاقا جديدة للتطور الصناعي مثلما أشار ابن خلدون: «في أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته. والسبب في ذلك أن الناس ما لم يُستوفَ العمران الحضري وتتمدن المدينة إنما همهم في الضروري من المعاش، وهو تحصيل الأوقات من الخنطة وغيرها. فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه، صُرف الزائد حينئذ إلى الكمالات من المعاش»⁽¹⁾.

وساهمت الصناعات التقليدية القديمة في تلبية حاجات الناس من لباس وأثاث وأدوات مختلفة ومنشآت عمرانية لمدة طويلة. ولكن المدينة الحديثة أثناء التواجد الاستعماري سهلت جلب الآلات المتنوعة، فتطورت حياة الحرفيين وأصحاب المحلات في جوانب الحدادة والنجارة والبناء لكنها لا ترقى إلى الشكل المطلوب، إلا في فترة الاستقلال حينما تطورت الورشات وتنوعت الخدمات الحديثة، وتوجت في الثمانينيات بالتطور العمراني الذي من خصائصه الأساسية تطوير جوانب الحياة حسب النظرية الخلدونية، «... وعلى مقدار عمران البلد، تكون جودة الصنائع للتأق فيها حينئذ، واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة»⁽²⁾.

1 - مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 315.

2 - المصدر السابق، ص 315.

هـ - النشاط التجاري:

كانت القبائل التي سكنت الصحراء تنتقل بسهولة في الفضاء الواسع وهذا مكنها من اعتماد الرحلة والسفر الذي كان الأساس الأول للنشاط التجاري، الموغل في القدم، وكان التبادل يتم مع البلاد المجاورة، فيسافر الرجال إلى بلاد الزاب للتزود من طعام أهلها، وإلى بلاد الجريد القريبة لجلب التمر، وإلى وادي ريغ لاقتناء المواد الأولية للملابس الصوفية. وقد أكد العدواني بقوله: ((الزاب للطعام، والجريد للتمر، ووادي ريغ للصوف))⁽¹⁾. ثم صارت النخلة المحور الاقتصادي في مجتمع وادي سوف، بضمن «الأمن الغذائي»، وتنشيط الحركة التجارية مع العالم الخارجي، وتصدير الفائض من التمور الجيدة، وخصوصا (دقلة نور) ذات الشهرة العالمية.

أما النشاط التجاري الواسع فقد انطلق في وقت مبكر بفاعلية وبساطة في الممارسة، ولكنه كشف عن صفات عظيمة ميزت الفرد السوفي، مثلما عبرت عنها النظرية الخلدونية عند تحليل الظواهر التاريخية، ومن تلك الصفات:

(1) جلب السلع الضرورية، التي تتطلبها حياة السكان. لأن «التاجر البصير بالتجارة، لا ينقل من السلع إلا ما تهم الحاجة إليه من الغني والفقر والسلطان والسوق». إذ في ذلك نفاق سلعته)⁽²⁾.

فكان التاجر السوفي قديما يستورد الصوف والحريير والسكر والشاي والقهوة والحبوب والأواني الخزفية، ويصدر مقابل ذلك للمجتمعات الأخرى المنتجات المحلية، كالتمر والتبغ والملابس الصوفية والزرايب وخل النخيل... الخ.

(2) تحمل أخطار السفر إلى الآفاق البعيدة ذات المسالك الخطيرة في إفريقيا جنوب الصحراء وغدامس الليبية وبلاد الجريد التونسية، فضلا عن المناطق المجاورة كبلاد النمامشة ووادي ريغ وبلاد الزاب، وعد ذلك الدكتور أبو القاسم سعد الله من السمات الهامة لهذا المجتمع (...). ولكن بعضهم لم يذهب إلى المدن ليعيش عيشة الحضر ويعمل في التجارة ونحوها، بل اتجه إلى حياة أقسى من حياته في رمال سوف، ولكنها أكثر شهامة وفتوة وثروة. ذلك أن بعض أهل سوف اتجهوا إلى المغامرة وحب الغزو، خصوصا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فكانوا يقودون القوافل التجارية بين محطات معينة في الصحراء، ويربطون بينها وبين بعض المدن المغربية. وهكذا نجدهم يتاجرون بين الوادي والحقار وتبكتو وغدامس والجريد التونسي

1 - محمد العدواني، المصدر السابق، ص 147.

2 - مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 312.

وبسكرة وتقرت إلخ. وكانت بعض السلع تهرب تهريبا. وكانت مخاطر الطرق أصعب من أن توصف⁽¹⁾. كما أن ابن خلدون يشيد بذلك الدور الريادي لأولئك المغامرين الشجعان الذين أرسوا أرضية للسلوك التجاري الفعال، فيقول: «وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة، أو شدة الخطر في الطرقات، يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحا وأكفل بحوالة الأسواق...». ولما كان الفرد السوفي أهم عنصر في عملية الاتصال بين الشمال والجنوب، فإن النظرية الخلدونية تثنى ذلك الدور الفعال فيقول مثنيا على التجار نحو الآفاق البعيدة ببلاد السودان (وهي إفريقيا جنوب الصحراء):

((... ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم أموالا، لبعدهم طريقهم ومشقته واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش، لا يوجد فيها الماء إلا في أماكن معلومة، يهتدي إليها أدلاء الركب، فلا يرتكب خطر هذا الطريق وبعده إلا الأقل من الناس. فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا، فتختص بالغلاء، وكذلك سلعنا لديهم. فتعظم بضائع التجار من تناقلها ويسرع إليهم الغنى والثروة من أجل ذلك. وكذلك المسافرون من بلادنا إلى المشرق لبعده الشقة أيضا. وأما المترددون في الأفق الواحد، ما بين أمصاره وبلدانه، ففائدتهم قليلة وأرباحهم تافهة، لكثرة السلع وكثرة ناقلها))⁽²⁾.

وعملية جلب السلع وتوفير حاجات الناس الضرورية المفقودة، سلوك يباركه الله سبحانه كما أشار إلى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ((الجالب مرزوق))⁽³⁾.

واستمر هذا السلوك التجاري وازداد تجسيدا في واقع المجتمع عبر الزمان، فوجدنا في عهد السبعينيات من القرن العشرين، جزء من سوق مدينة الوادي يسمى ((سوق ليبيا))، حيث يضم مختلف السلع المجلوبة من هذا البلد الشقيق. وخلال فترة الثمانينيات جزء آخر يسمى ((سوق تونس)) لأنه يضم السلع المستوردة من هذا البلد الصديق، وحمل جانبا من السوق المذكور اسم ((سوق دبي)) منذ التسعينيات لأن التجار بلغوا تلك الآفاق الرحبة في بلدان الخليج وأهمها دولة ((الإمارات العربية)) و((المملكة العربية السعودية)). وأثبتوا في ظل التحرر الاقتصادي، الحيوية والنشاط الفعال حينها وصلوا إلى بلاد الشرق الأقصى نحو بلدان ماليزيا والصين وتايوان، وآسيا نحو تركيا، فضلا عن البلدان الأوروبية وعلى رأسها فرنسا.

1 - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1990، ج3 ص 103.

2 - مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص 312.

3 - حديث شريف رواه ابن ماجه والحاكم.

الفصل الثاني

الوجود البشري القديم بوادي سوف

المبحث الأول:

المظاهر الطبيعية وملامح الحياة الأولى في عصر ما قبل التاريخ في وادي سوف

المبحث الثاني:

السكان الأوائل في صحراء وادي سوف

المبحث الثالث:

أوضاع وادي سوف في عهد الاحتلال الأوروبي القديم

الوجود البشري القديم بوادي سوف

تمهيد:

عرفت منطقة وادي سوف، وعلى غرار المناطق المجاورة لها في الصحراء، مظاهر الحياة في العصور العتيقة، وبرزت في مخلفات الإنسان الحجري القديم ولاسيما في أطراف الإقليم التي يمكن جمع حثياتها الدالة على آثاره ومنجزاته. وخصوصا مظاهر حياته البدائية والبدوية التي تعتمد أساسا على الرعي والتنقل مما جعل استقراره محدودا، وفي مرحلة عابرة لعدد من القبائل التي مرت بالمنطقة في فترات متباعدة، مثل قبائل الجيتول والأفوراس والجرمانت والليوس والطوارق والبربر الذين مثلوا النواة الأولى للمجتمعات الصحراوية في الجنوب الشرقي. كما عرفت المنطقة كل أشكال الاحتلال الأوروبي القديم، ولو في أطرافها أو عبورا لأراضيها، بداية من الفينيقيين القرطاجنيين والرومان والوندال، وأخيرا الروم البيزنطيون الذين أنهت وجودهم جحافل الفاتحين المسلمين.

ويعتبر العنصر البربري الزناتي أهم عنصر ارتبط بالصحراء وقام بتعميرها، حتى نسبت إليه. واستقر في حوضها الدافئ، وصنع مراحل تاريخها البعيد، ولاسيما الفئة الإباضية التي التجأت إلى وادي سوف في وقت مبكر، طلبا للاستقرار والهدوء، وهروبا من المضايقات والمتابعات في بلدانهم الأولى، وابتعادا عن المشاكل السياسية. لذلك طبع (مجتمع أسوف) بفكرهم وانتمائهم لمدة معتبرة. ولعل الموارد الاقتصادية كانت شحيحة وفقيرة لم تشجع على الهجرة نحو المنطقة. واستمر ذلك إلى أواخر القرن الرابع عشر، عندما استقرت بها القبائل العربية والرهبان المسيحيون، ولكن الغلبة كانت للعرب الذين شكلوا مع البربر القدامى كتلة واحدة اندمجت مع بعضها، وصارت وادي سوف مجتمعا حضريا، له مواقع وقرى متناثرة، توالى عليها أجيال عديدة، حافظت على الملامح الجديدة للمجتمع.

المبحث الاول

المظاهر الطبيعية وملامح الحياة الأولى في عصر ما قبل التاريخ في وادي سوف.
تمهيد:

تنتمي منطقة وادي سوف جغرافيا إلى الصحراء الجزائرية، وتعتبر جزء هاماً من الصحراء الكبرى، وعرفت تغيرات طبيعية مختلفة، جيولوجية ومناخية، فضلاً عن الملامح الأولى للإنسان وإنجازاته في عصور ما قبل التاريخ. ويمكن الوقوف عند عدد من المظاهر والدلالات التالية:

1) المظاهر الطبيعية بصحراء وادي سوف:

تنتمي منطقة وادي سوف جغرافيا إلى الصحراء الجزائرية - التي تعتبر جزء هاماً من الصحراء الكبرى - والتي حدثت بها التحولات المختلفة.

أ) التحولات الجيولوجية: تنتمي جيولوجيا إلى الكتلة القديمة البلورية التي تكونت أثناء العصور الأولى من تاريخ الأرض الجيولوجي، منذ الملايين من السنين. وتتألف هذه الكتلة القديمة من الجرانيت والنييس والميكاشيست والكوارتزيت. وإثر تعرض بعض سلاسلها الجبلية لعوامل التعرية، اجتاحتها مياه البحار القديمة الأولى، فكادت تغمر كامل الرقعة الصحراوية الحالية. ولكن المياه البحرية انحسرت أثناء العصر الفحمي بسبب الحركة الهرسينية، وحينئذ تكونت الالتواءات الضخمة التي تأثرت بعوامل التعرية في الزمن الجيولوجي الثاني، وعاد إليها البحر مرة ثانية. وأثناء عصر الأيوسين (بدء الحياة الحديثة)، وخلال الزمن الجيولوجي الثالث، تعرضت الصحراء لعوامل التعرية الجوية، فغيرت من مظاهرها التضاريسية، وطبعتها بطابعها المميز السائد في العصر الحالي⁽¹⁾.

وحسب اعتقاد بعض الباحثين، كانت الصحراء الكبرى موقعا لنشأة الإنسان الأول الذي هاجر بعد الجفاف الذي أصابها في نهاية الزمن الجيولوجي الرابع، فاستقر الإنسان قرب المسطحات المائية في شمال القارة الإفريقية، بينما اتجه الآخرون نحو مناطق الجنوب في أعالي نهر النيجر والمناطق الاستوائية⁽²⁾.

1 - محمد الطاهر العدواني، الجزائر منذ نشأة الحضارة، في كتاب، الجزائر في التاريخ (1)، وزارة الثقافة والسياحة المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 31.

2 - محمد الصغير غانم، مواقع حضارات ما قبل التاريخ في بلاد المغرب القديم، دار الهدى، عين مليلة، 2003، ص 12.

وما ورد عن علماء الإغريق والرومان، أن الصحراء في حدود القرن الخامس قبل الميلاد كانت في مرحلة البيوسة. وتحدث هيرودوت الذي عاش في تلك الفترة عن وجود كثنان رملية تمتد من طيبة في مصر إلى مضيق جبل طارق ووحدات وأقاليم مأهولة وتلال الملح بين التل والصحراء (1).

ب) التغيرات المناخية: شهدت المنطقة الصحراوية تغيرات مناخية هائلة خلال المليون سنة الأخير، ومنذ نشأة الجنس البشري، عندما مثلت الزراعة وصيد الحيوانات والأسماك أعمالاً مزدهرة نسبياً⁽²⁾، لأنها كانت تتمتع بمناخ يشبه مناخ البحر المتوسط، مع وفرة الأمطار الغزيرة، وكثافة الغطاء النباتي⁽³⁾. وإن بقايا الحيوانات المتحجرة، ومخلفات الأشجار، فيه دلالة على المناخ الرطب الذي ساد الصحراء، ويختلف عن مناخها الحالي، لأن الرطوبة كانت أكثر مما هي الآن وخصوصاً في الزمن الجيولوجي الرابع⁽⁴⁾.

ج) المسطحات المائية: إن المعالم التضاريسية الباقية في الصحراء ذات دلالة واضحة على وجود أحاديث كانت في العصور القديمة، وهي المجاري المائية للأندلس والأودية الصحراوية، فضلاً عن المنخفضات والوهاد التي احتوت مياه المسطحات والبحيرات التي توغلت نحو اليابسة⁽⁵⁾، وهي من تأثيرات المناخ التي عرفت بتساقط الأمطار الوفيرة، ونتج عنها وجود المسطحات المائية المختلفة. وهي من أهم البراهين الدالة على وجود مظاهر الحياة - في العصور القديمة - بالصحراء، ومنها منطقة وادي سوف. وإن أبرز المسطحات المائية:

- **المجري المائية (الأنهار):** إن بقايا مجاري الوديان القديمة ومنها التي ما زالت موجودة، مثل وادي الساورة، ووادي تفاسيت، وكلاهما يمران نحو الشمال، ووادي إغزر الذي يتجه نحو الشمال ماراً بواحة تقرت، وصار مصبه في شط ملغيغ⁽⁶⁾ بشمال وادي سوف، ونهر التريتون الكبير الذي يصب في بحيرة التريتونيس⁽⁷⁾.

1 - تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، مراجعة أحمد العساف، حمد بن صراي، نشر المجمع الثقافي، شركة أبي ظبي للطباعة والنشر، الإمارات العربية المتحدة، 2001، ص 363.

2 - ريمون فيرون، الصحراء الكبرى، ترجمة جمال الدين الديناصوري، ومراجعة شكري نصري، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1963، ص ص 45-46.

3 - محمد طهار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخراج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 23.

4 - محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص ص 12-13.

5 - عبد القادر زبادية، (نبذة عن ماضي الصحراء الكبرى قبل التاريخ)، مجلة الأصالة، الجزائر، العدد الثالث، أوت 1971، ص 107.

6 - محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 12.

7 - هيرودوت، المصدر السابق، ص 362.

- بحيرة التريتون (التريتونيس): تحدث هيرودوت عن هذه البحيرة ضمن الأراضي الليبية⁽¹⁾ وسماها «بحيرة تريتون»⁽²⁾ وتقع في شالها. ويحتلط وصفها عنده بالجانب الأسطوري حول تاريخ الإغريق⁽³⁾. ويحدد بأنها بحيرة واسعة وذات مياه ضحلة، تتوسطها جزيرة تدعى الفلا. وذكر خلالها قصة جاسون الذي عبرها مع أصحابه بسفينة تاهت داخلها، ولكن نهر تريتون دهم على منفذ الخروج والنجاة. كما ربطها بالندور التي تقدم للآلهة⁽⁴⁾.

وتمتد هذه البحيرة من خليج قابس مرورا بشط الجريد في الشرق، وتستمر إلى شط ملغيغ في الغرب⁽⁵⁾. وتقع وادي سوف يومئذ في الفضاء الواسع جنوب هذه البحيرة التي أظهرت البحوث عن وجود سكان العصر الحجري في منطقة الحرشة، والغرافة، وبيير الحديد، وبيير الصف. وهي مواقع وآبار توجد في جنوب وادي سوف في اتجاه الطريق الصحراوي نحو غدامس الليبية. وقد جمع الجنرال لاكيار (Laquière) في حدود عام 1906 بعض رؤوس السهام، والسنارات المضاعفة. وكلها مستعملة للصيد، ولاسيما الأسماك الضخمة التي كانت تعيش بدون شك في مياه البرك والمستنقعات في الفضاء الجنوبي، وهي تناسب فم الأسماك، وتشدد بصفدع يتخذ كطعم لمسكها جيدا. كما أن الرحالة دوفيريبي "Duveyrier" أثناء توجهه نحو غدامس عام 1860، عثر على أصداف في موقع بير الزونايت⁽⁶⁾. أما في موقع متقدم وقريب من غدامس، أسفل غرود معمر، فقد كشف التراب الأبيض الصابوني، وهو بدون شك يدل على عمق المستنقع القديم، مما يؤكد على وجود شبكة من المسطحات المائية بين الوادي وغماس والتي تسبح بها العديد من الكائنات البحرية والأسماك المختلفة⁽⁷⁾.

- 1 - ذكرها هيرودوت باسم ليبيا بوصفها القارة الثالثة من قارات العالم الأهل. وتمتد من حدود مصر الغربية بما يلي بحيرة مريوط إلى رأس سولوجوس (رأس كانتن أو سبارتل) جنوبي طنجة على المحيط الاطلنطي. انظر: مصطفى كمال عبد العليم، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، المطبعة الأهلية بني غازي، يناير 1966، ص 01.
- 2 - عبد الجليل الطاهر، المجتمع الليبي دراسات اجتماعية وأنتروبولوجية، المكتبة العصرية، بيروت، 1969، ص 09.
- 3 - ظهر هيرودوت بتاريخه في القرن الخامس ق م، وحاول أن يكتب تاريخ عصره بموضوعية، ولكن اختلط بكثير من الخرافات والتعميمات الساذجة. انظر: حسين الشيخ، دراسات في تاريخ الحضارات القديمة (1) اليونان، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، (ب ت)، ص ص 86-87.
- 4 - هيرودوت، المصدر السابق، ص 362.

5 - Ahmed Nadjah, op- Cit, P.28 .

6 - هي بئر مطمورة تقع على الطريق بين الوادي وبيير الصف.

7 - Cauvet: " Notes sur le Souf et les Souafa ", (B. S. G), d'Alger, 1934, PP.36-38 .

د) بحيرة التريتون ومشروع البحر الداخلي:

بناء على الأخبار التاريخية حول بحيرة التريتون، تنبتهت فرنسا إلى إقامة مشروع استعماري يقوم في نفس البحر السابق بإنجاز بحر داخلي يمتد من خليج قابس، مروراً بالشطوط التونسية، وهي: شط الحامة وشط فجيج وشط الغرسة. ويوصل مع الشطوط الجزائرية الواقعة شمال الصحراء، وهي: شط ملغيغ وشط مروانة. والمشروع بدأ التفكير فيه بعد احتلال الجزائر⁽¹⁾. ومر المشروع بالمراحل التالية:

المرحلة الأولى (مبادرة القبطان رودير Roudaire):⁽²⁾ اقترح شق قناة من خليج قابس إلى شط الحامة. وحينها تتدفق مياه البحر المتوسط إلى بقية الشطوط المنخفضة عن مستوى سطح البحر، فيتكون بحر يربط الجزائر بتونس، فيلطف الأجواء الصحراوية بزيادة الرطوبة وسقوط الأمطار، مما يجعل الصحراء صالحة للزراعة، ويقضي على جفافها وحرارتها. وقد وافق البرلمان الفرنسي على المشروع، مما دفع رودير إلى الشروع في دراسته الميدانية بداية من عام 1873، ولكنه وجد أن الشطوط الجزائرية تقع تحت مستوى سطح البحر⁽³⁾، لأن شط مروانة 31م تحت المستوى، وملغيغ 26م⁽⁴⁾، بينما وجد أن شط الجريد مرتفع عن سطح البحر، فاقترح أن تطول القناة وتمتد شمال شط الجريد. واستمرت الدراسات إلى عام 1876م. ولكن خبراء أكاديمية العلوم حذروا المسؤولين من حدوث كارثة قد تقضي على واحات خضراء، ولاسيما وادي سوف⁽⁵⁾. وبقي الجدل محتدماً بين الهيئات السياسية والعلمية، وتضاربت الآراء، ولكنها أفضت سنة 1878م بموافقة البرلمان الفرنسي على تخصيص اعتماد مالي جديد، والقيام بدراسات جيولوجية في تلك المناطق. وتشكلت لجنة رسمية سنة 1881م لتولاهادي ليسبس، وسافر مع رودير عام 1883م إلى منطقة قابس لدراسة المشروع على الطبيعة. وكانت النتيجة أن تكاليف المشروع تزيد عن ثلاثة مليارات، وأن ما سيحفر من التربة يزيد على ستة أضعاف ما حفر في قناة السويس. ولهذا عارض البرلمان المشروع وتوقف⁽⁶⁾. وأهمل ولاسيما بعد وفاة

1 - محمد المرزوقي، قابس جنة الدنيا، مكتبة الخانجي، مصر، ومكتبة المثني، بغداد، 1962، ص 55.

2 - الضابط رودير: هو ضابط الأركان العامة، الفرنسي فرانسوا رودير، والذي تشجع بعد نجاح فرديناند دو ليسبس في حفر قناة السويس، ولهذا وطد علاقته معه. وتكونت هيئة في فرنسا لدراسة المشروع الذي يسهل لفرنسا عملية التوسع الاستعماري، والاستغلال الاقتصادي لإمكانيات الصحراء مادياً وبشريا. انظر: يحيى بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البعث، ط1، قسنطينة - الجزائر، 1980، ص 277.

3 - محمد المرزوقي: قابس جنة الدنيا، ص 55.

4 - André Voisin, Op-Cit, p 40.

5 - محمد المرزوقي: قابس جنة الدنيا، ص 55-56.

6 - يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص 277.

صاحبه رودير سنة 1883م⁽¹⁾. وحاول دي ليسبس إقناع رئيس الوزراء جول فيري وغيره، ولكن لم يجد أي استجابة. وبقي المشروع معلقا إلى سنة 1896م، حينما طرح للنقاش مرة أخرى، لكن المخاوف السابقة حالت دون حدوث أي تقدم⁽²⁾.

- المرحلة الثانية (إحياء مشروع رودير 1952): كان اكتشاف البترول والتنقيب عنه في الصحراء سببا في إحياء المشروع مرة أخرى سنة 1952. فقد اكتشفت شركات البترول القائمة بالحفر أن هناك ارتباطا بين منطقة الشطوط وبين البحر المتوسط في العصر الجليدي، وأن البحر كان يمتد إلى منطقة الشطوط، ولكن مياه البحر انخفضت عبر العصور مما أدى إلى ظهور حاجز قابس الصخري، بينما تحولت المياه إلى سبخات مالحة⁽³⁾.

تألفت سنة 1957 جمعية الأبحاث التقنية لدراسة البحر الداخلي الصحراوي، وتمكنت من إيصال الملف إلى مكتب الجنرال ديغول عام 1958، واقترحت استعمال بعض القنابل الهيدروجينية (50 قنبلة) لشق قناة هذا البحر، تكون بين الواحدة والأخرى بعض ثواني. ويتم إنجاز القناة في بضعة أشهر عكس ما خطط رودير لمدة ثماني سنوات. ولكن المشروع عاد مرة أخرى للرفوف لعدة اعتبارات:

- انشغال فرنسا بالثورة الجزائرية⁽⁴⁾ التي استمرت إلى الاستقلال.

- التخوف من التغير الأيكولوجي الكبير، وربما تزداد الملوحة على قلة المياه. ومن جهة أخرى تغمر شمال وادي سوف بالمياه، وهل ستحولها إلى مناطق خصبة؟⁽⁵⁾ رغم أن المحاذير في التأثير على زراعتها أمر وارد، وخضع للدراسة في القرن التاسع عشر⁽⁶⁾. ومن خلال الدراسات التاريخية السابقة، يبقى مشروع البحث الداخلي، وارتباطه ببحيرة التيرتون في نطاق الأمل الذي يراود الناس، وربما يُحدث التطور العلمي في المستقبل الزاهر.

1 - محمد المرزوقي: قابس جنة الدنيا، ص ص 56.

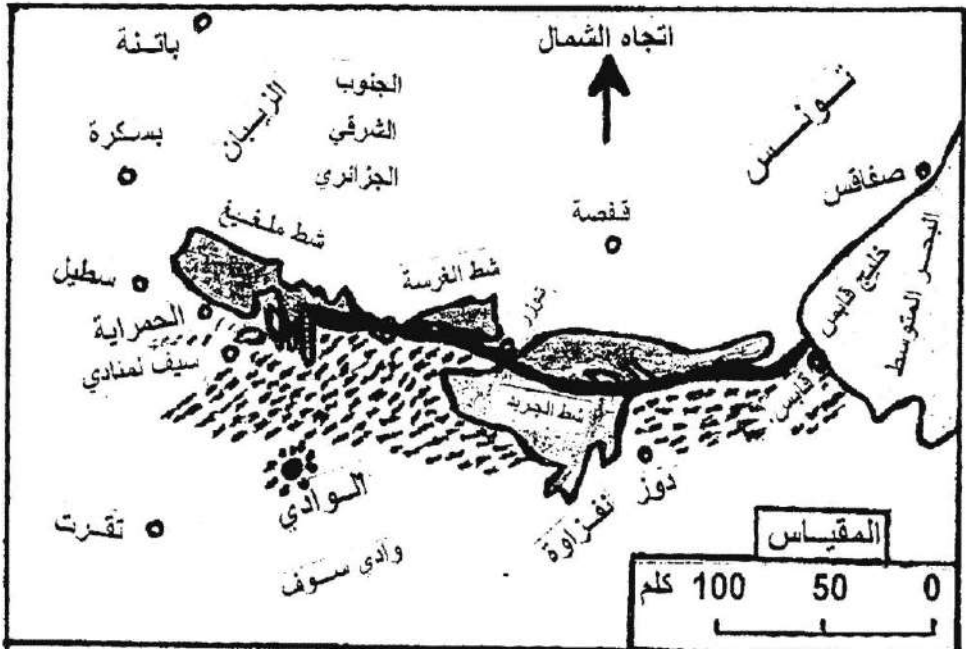
2 - يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص 282.

3 - محمد المرزوقي: قابس جنة الدنيا، ص ص 56.

4 - يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص 282-283.

5 - André Voisin, Op-Cit, p 41 .

6 - A Poitou-Duplessy, *La Mer de Chotts, ou Mer Intérieure D'Algérie*, Liriont, 1882 ,p 13.



مفتاح الخريطة

- موقع مدينة
- ☀ قاعدة وادي سوف
- ☉ مواقع شطوط
- ☁ بداية امتداد مياه البحر الداخلي
- قناة وصل مياه البحر بالشطوط

المراجع:

- André Voisin, Le Souf, Mns, Op-Cit, p 23.
- André Voisin, Le Souf, ed :el-walid, Op-Cit, p 56.
- C. BATAILLON , LE SOUF, p 08.

مشروع البحر الداخلي الصحراوي شمال وادي سوف

2) ملامح الحياة الأولية بصحراء وادي سوف:

تتعدد البراهين الدالة على وجود مظاهر الحياة - في العصور القديمة - بالصحراء، والتي منها منطقة وادي سوف، كوجود الماء وانتشار الأعشاب، والتي وفرت أسباب الحياة لعيش الحيوانات، فضلا عن الإنسان في الأطوار المتقدمة تاريخيا:

أ) الغطاء النباتي: عرفت الصحراء وجود الغطاء النباتي الكثيف في شمال بحر التريتون، ولاسيما الغابات الكثيفة حول مرتفعات الزيبان والأوراس والنامشة. ويؤكد ابن خلدون، أن السكان في بعض العصور كانوا يستظلون تحت الأشجار أثناء رحلاتهم من طرابلس إلى الزيبان⁽¹⁾. ولعل حرق الكاهنة لتلك المناطق إبان الفتح الإسلامي، قد مثل إحدى المؤشرات الدالة على ذلك. والجدير بالذكر أن الجيولوجيين يتفقون أن الصحراء من أقدم أقسام القشرة الأرضية، بدليل أن عوامل التعرية والنحت قد أحالت معظم صخورها إلى رمال وأتربة أكثر من أي منطقة أخرى على سطح الأرض. وهذا ما جعل مخزونها من النفط ومشتقاته من آثار تحلل المواد العضوية الحيوانية والنباتية التي وجدت بها في عهود خصوبتها⁽²⁾ مثلما بينت البحوث المختلفة.

ب. القطاع الحيواني: إن جود الماء وانتشار الأعشاب، سهل أسباب الحياة لعيش الحيوانات مثل النعام والحلزون⁽³⁾ و فرس الماء والزرافة والفيل⁽⁴⁾ في أعماق الصحراء الكبرى. وقد ترك إنسان العصر الحجري الحديث آثاره في الصور الصخرية، وتجسدت في مواقع لبيبة والتاسيلي والهقار. ويمكن مشاهدة الرسوم المحفورة على الصخر للحيوانات التي كانت تعيش بصحراء العرق الشرقي في حواف المسطحات المائية القديمة، ومنها: الزراف ووحيد القرن وابن أوى والجاموس و فرس الماء والفيلة. وتظهر بعض الصور استعمال السهام لاصطيادها مع وجود النعام والحلزون كما تدل عليها بقايا عظام الحيوانات المتحجرة⁽⁵⁾. وقد عثر في سنة 1957 في

1 - الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تح محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة، 1994، ص 48.

2 - عبد القادر زيادية، المرجع السابق، ص 107.

3 - محمد علي بلحولة، قصة قديما وحديثا، شركة JMS، تونس، 1990، ص 46.

4 - محمد طهار، المرجع السابق، ص 23.

5 - مصطفى كمال عبد العليم، المرجع السابق، ص 07. محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 12-13. محمد علي بلحولة: قصة قديما وحديثا، ص 46.

شرق حاسي خليفة⁽¹⁾ على هيكل عظمي لفيل الماموث كان في حالة جيدة. وتم نقله إلى متحف باردو بالجزائر⁽²⁾. كما عثر على رأس فيل متحجر في سنة 1959 في قارة الطير⁽³⁾، وتم اكتشافه من طرف طابور المهاريست التابع لفرقة العرق الشرقي الكبير⁽⁴⁾.

ج - وجود الإنسان: إن الظروف السابقة أكدت الوجود الفعلي للإنسان في العرق الشرقي الكبير. وكان مستقرا في غرب بحر التريتون بين السفوح والوهاد، في منازل وأكواخ. وكانت مساكنهم مستديرة أو مربعة الشكل، أقيمت بالقصب والأخشاب، وطليت في بعض الأحيان بالطين أو التراب⁽⁵⁾ وكان الإنسان يشتغل بزراعة الأرض، بينما فضلت الغالبية - في شرق التريتون - حياة البداوة والترحال، والتنقل بحثا عن الكلاً لحيواناتهم، والاعتماد على الصيد البري والبحري، بتلك الآلات الحجرية لتوفير الغذاء الكافي⁽⁶⁾.

وكان سكان سوف من الفئة البدوية الكثيرة الحركة في العرق الصحراوي الشرقي، من أجل البحث عن المراعي الخصبة أو ممارسة الصيد بشتى أنواعه. ويؤكد على ذلك كثرة انتشار الأصداف والرخويات وقشور بيض النعام في الفضاء الصحراوي الممتد من شط ملغيغ إلى جنوب العرق الشرقي، وإن بيضة كاملة اكتشفت متحجرة على عمق ستة أمتار، تم العثور عليها في غوط بمنطقة "هبة"⁽⁷⁾ أثناء الحفر لزراعة النخيل، وتم عرضها في المتحف الصغير بالوادي⁽⁸⁾. ولعلمهم اتخذوا منها أوعيتهم، وصنعوا من قشورها الخلي، مثلما فعلوا بالأصداف والحصى المثقوبة التي عثر عليها بمناطق مختلفة⁽⁹⁾.

1 - حاسي خليفة: تقع شرق وادي سوف، وتبعد عن مدينة الوادي بحوالي 30 كم.

2 - Ahmed Nadjah, Op- Cit, p26 .

3 - قارة الطير: تقع في الشمال الشرقي لوادي سوف، وتبعد عن مدينة الوادي بحوالي 80 كم.

4 - C. A. Woisard: Un éléphant Fossile au Nord-Est d'El-oued, (BLS), N: 33, Mars 1959 .

5 - انظر: عثمان الكعك، موجز التاريخ العام للجزائر، تقديم ومراجعة أبو القاسم سعد الله وآخرون، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2003، ص 16. محمد علي بلحلول، المرجع السابق، ص 46. مصطفى كمال عبد العليم، المرجع السابق، ص 01.

6 - انظر: عبد الجليل الطاهر، المرجع السابق، ص 06. محمد علي بلحلول، المرجع السابق، ص 54. مصطفى كمال عبد العليم، المرجع السابق، ص 01.

7 - هبة: قرية تابعة لبلدية الرقيبة، تقع الشمال الشرقي لوادي سوف، وتبعد عن مدينة الوادي بحوالي 30 كم.

8 - Ahmed Nadjah, Op- Cit, pp26-27 .

9 - عثمان الكعك، المرجع السابق، ص 17.

وقد أشار الكاتب فورو " F. Foureau " في بحثه عن العرق الكبير، وخصوصا في الفضاء التابع لسوف، في بئر مويث عيسى⁽¹⁾ أن آثارا وهياكل دفنت في تلك المواقع، وبقي طرف من حجارة الحصن (من الصلصال الرملي الجيري المغاري). كما عثر على بقايا الخزف وعظام الموتى. ويعتقد الأهالي أنها آثار مدينة قديمة دفنت بالرمال، وأن قوما يدعون الليلية،⁽²⁾ هم الذين حفروا بئر مويث عيسى⁽³⁾. ولكن التحدي الكبير في وادي سوف، هو صعوبة دراسة عصور ما قبل التاريخ بسبب التحولات التي مست البيئة الطبيعية، والتراكبات الرملية التي تخفي أسراراً عديدة لحياة ما قبل التاريخ، ويتعدى ذلك إلى العصور التاريخية القريبة.

3) مواقع ومحطات ما قبل التاريخ بصحراء وادي سوف:

إن محطات ما قبل التاريخ بوادي سوف لا يمكن إحصاؤها. ففي كل مكان ينتشر الصوان المشذب والأدوات المختلفة الأنواع والأحجام، كرؤوس السهام المصنوعة بدقة ومن مختلف العصور التي تشهد على العصر الحجري في سوف⁽⁴⁾. ويمكن تحديد بعض المحطات والمواقع البارزة:

أ- الحضارة القفصية: وسميت بهذا الاسم من قبل دي مرغان سنة 1905، وهي نسبة إلى منطقة قفصة بالتراب التونسي - القريبة من سوف⁽⁵⁾ - والتي تكثر المواقع التابعة لها⁽⁶⁾. وتمثل وادي سوف الحد الجنوبي للامتداد القفصي⁽⁷⁾. وصناعاته جميلة، ومن أنواعها: السيوف الكبيرة بما فيها السكاكين والشفرات، والشظايا والهياكل الصغيرة للصوان. وقد عرفت محطة للقفصي المتطور (5000 إلى 4000 ق م) في منطقة سيف لمنادي⁽⁸⁾ وبير العضل وغيرهما من المواقع⁽⁹⁾.

1 - مويث عيسى: وهو موقع في الشمال الغربي بالقرب من غرود الدار أو غرود الغول.

2 - هناك اعتقاد آخر أنها محرفة عن كلمة الهلالية، وحينئذ تكون الآثار من مخلفات العرب الذين حفروها، ورغم تلف المخلفات فإنها نسبيا حديثة العهد.

3 - Cauvet, Op- Cit, pp36-37 .

4 - Ahmed Nadjah, Op- Cit, pp26-27 .

5 - تبعد مدينة قفصة التونسية عن وادي سوف، وبالتحديد قاعدته مدينة الوادي، بمسافة تصل إلى 220 كم، بينما على الحدود أقل من ذلك، ولا تتجاوز 130 كلم تقريبا، وهذا يجعل الانتقال في مظاهر الحضارة أمرا طبيعيا.

6 - محمد سحنوني، ما قبل التاريخ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1990، ص 119 .

7 - Lionel Balout: **Algérie Préhistoire**, ed Art et Graphique, paris, Mars 1958, p 105 .

8 - سيف لمنادي: تقع في شمال سوف بالقرب من الفولية على الطريق الوطني بين بسكرة والوادي.

9 - André Voisin, Op-Cit, P.52.

ويسود القفصي غالبا في شمال سوف، بينما يسجل النيوليتي حضوره بصفة أوضح في جنوب العرق⁽¹⁾.

ب- الحضارة النيوليتية: أو النيوليتي ذو التقاليد القفصية. وقد أثر الطور القفصي فيما تعاقب بعده. فكان العصر الحجري الحديث (النيوليتي) متداخلا مع القفصي الأعلى في أواخر العصر الحجري القديم، وانتقل الإنسان حينئذ من حالة التوحش إلى حالة أفضل جعلت الجماعات البشرية تتفاعل مع الطبيعة بعد أن كانت عالة عليها⁽²⁾. ويعتبر النيوليتي من المظاهر القفصية في الصحراء التي تمثل وادي سوف إحدى محطاتها في هذا المجال⁽³⁾. وقد جعل من سوف موطنًا لحضارة ما قبل التاريخ منذ 6000 سنة. وتتفاوت صناعاته الحجرية، وتتمثل في الشظايا الصوانية الصغيرة، مثل: السهام المثلثية ورؤوس الأسنة والأسنة بدون سيقان والسهام غير المتساوية والكلاليب والفؤوس الدائرية.

وتنتشر السهام في طريق غدامس في مواقع بير العادل وبير الجهلي، والصوان المنحوت في سيف لمنادي، وزمول المرخ، وحماة البومة، وبير المجير، والقوارير، والزقوق، وبير الدبدابة. ووجدت أسنة الرماح في المقبرة والرقيبة، والغرافة، ونوع من الرحي في طريق برج مسعودة نحو غدامس⁽⁴⁾.

أما النيوليتي الأوسط (4000 سنة ق م)، فقد ظهرت السهول المعشوشبة التي عاشت فيها الحيوانات المختلفة مثل: الفيل والزرافة والنعام والضباء. ومارس الإنسان الزراعة، وبدأ يربي الحيوانات الأليفة⁽⁵⁾.

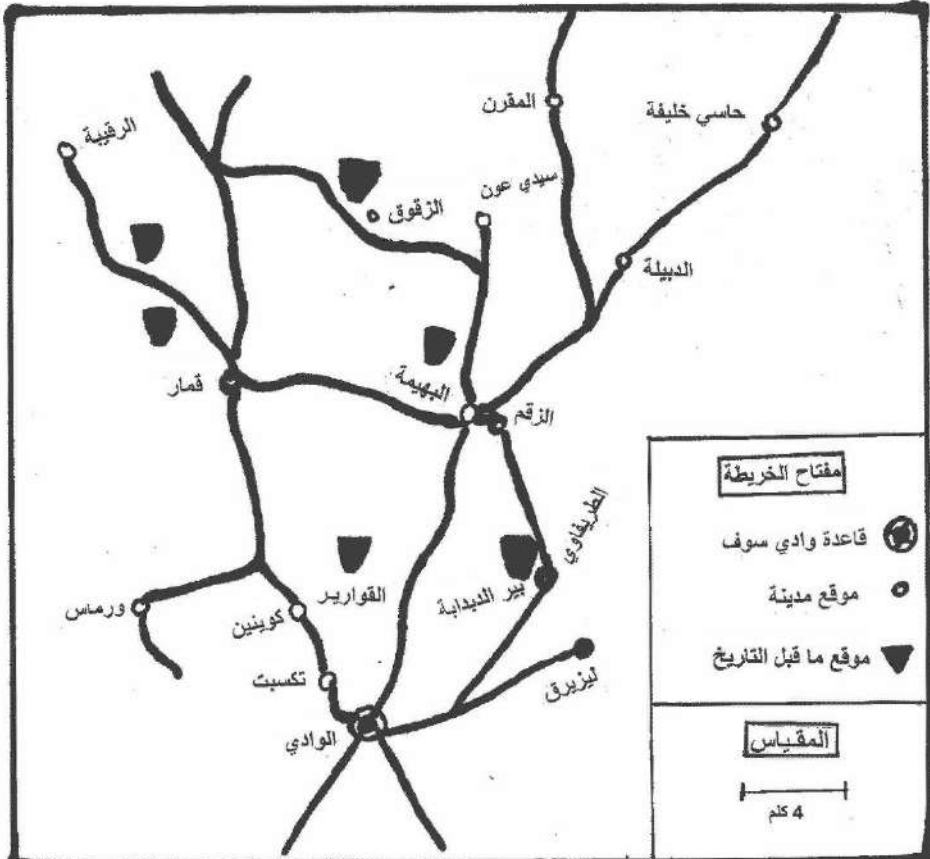
1- Ahmed Nadjah, Op- Cit, p 27 .

2 - انظر: محمد علي بلحلولة، المرجع السابق، ص 44.

3 - G. Gamps: **Le Néolithique de Tradition Capsienne au Sahara**, (T. I. R. S), T: 26, 1967, PP. 89-90 .

4 - André Voisin, Op-Cit, PP.52-53 .

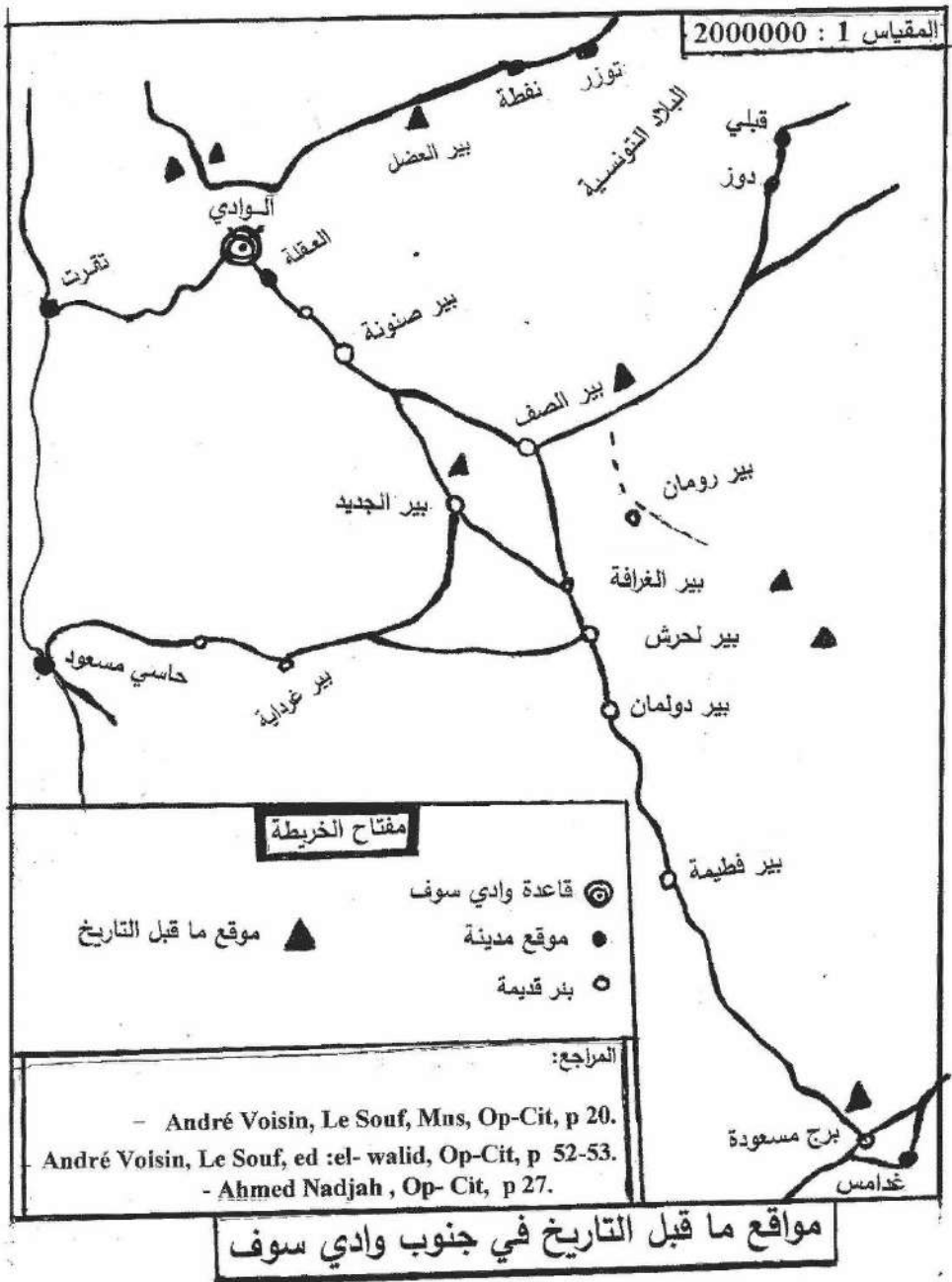
5 - Ibid, p 53 .



المراجع:

- André Voisin, Le Souf, Mns, Op-Cit, p 32.
- André Voisin, Le Souf, ed :el- walid, Op-Cit, p 56.
- Ahmed Nadjah , Op- Cit, p 27.

مواقع ما قبل التاريخ في شمال وادي سوف



ولكن في آخر العصر النيوليتي (1000 سنة ق م) أخذت وادي سوف الهيئة التي هي عليها الآن - وهي لا تعني الإنسان - بل المظاهر الطبيعية ولاسيما المناخ، فانقرضت بعض الحيوانات كالفيلة، واختفت النباتات بالحرق أو الاستئصال، وحينئذ فقد البدو والحضر على حد سواء تلك الأشجار الوارفة الظلال⁽¹⁾.

ولكن بقي الجمل⁽²⁾ متميزا يجوب المنطقة طولا وعرضا يبعث في الصحراء روح الحياة وحيويتها لدى الساكنة من مختلف الفئات.

1 - André Voisin, Lo-Cit

2 - ظهر الجمل في بلاد الشمال الافريقي منذ سنة 66 ق م. انظر: عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 43.

المبحث الثاني

السكان الأوائل في صحراء وادي سوف

تمثل الصحراء الجزائرية خزاناً بشرياً هاماً، عرف بتاريخه القديم، منذ عصور ما قبل التاريخ، وقد تم التطرق إليه فيما سبق. ولكن الآثار المادية قليلة في هذا الشأن، ولا سيما في منطقة العروق الرملية. فلا توجد منشآت عمرانية فوق الأرض. ولا يعني هذا خلوها الدائم من الإنسان؛ ولكنه كان يمر بها ويستقر لفترة معينة، ويعيش حياة البداوة التي ترتبط بالخيمة التي ينقلها كيفما شاء. والمنطقة عموماً تكتسبها الرمال، وربما شيدت المباني ولكن غمرتها الرمال الكثيفة والعميقة الغور في طبقات الأرض، والتي تحتاج إلى حملات التنقيب عما تخفيه طبقتها القريبة من سطحها، وهذا ما زال بعيد المنال حالياً. كما أن المنطقة لا تتوفر أراضيها على الصخور الصلبة والحجارة المصقولة، والتي يمكنها مقاومة الظواهر الطبيعية وعوادي الزمن، وعوامل التعرية، والتحولات الجيولوجية والإيكولوجية، والتي غيرت من طبيعتها السطحية. ومن دون شك فإن التغيرات كلها أثرت على الخط التاريخي لسكانها القدامى الذين مروا بها، وتركوا أخباراً سجلها التاريخ. ويمكن الوقوف على أهم العناصر السكانية القديمة التي عاشت في الفضاء الصحراوي بالعرق الشرقي جنوب وادي سوف، وتفاعلوا مع أرضها في حركة وتنقلات متواصلة أدى إلى استقرار بعضهم في مدة غير معروفة بالتحديد.

أولاً: العناصر السكانية الأولى بوادي سوف:

سكن وادي سوف منذ تاريخها العريق - كغيرها من المدن الجزائرية - عدة أجناس، تعاقبت عليها في فترات متفاوتة من الزمن. وقد تحدث المؤرخون اليونان أمثال هيرودوت وسالوست وهانون عن الشعوب التي قطنت الفضاء الصحراوي في جنوب الجزائر، وهم الليبيون والأثيوبيون والحيثول. وكانوا يعيشون حياة البداوة المعتمدة على التنقل بحثاً عن الكلاً لحيواناتهم⁽¹⁾.

1. الليبيون (Libous):

كان هيرودوت - الذي عاش في القرن الخامس ق م - يطلق اسم «الليبيين» (Libous) على كل سكان شمال إفريقيا⁽²⁾. وقد جعل هيرودوت بحيرة تريتونيس حداً فاصلاً بين

1 - Ahmed Nadjah, Op- Cit, p 27 .

2 - محفوظ قداش، الجزائر في العصور القديمة، ترجمة صالح عباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1993، ص

مجموعتين من الليبيين؛ إحداهما تعيش إلى الغرب من هذه البحيرة وتتألف من الزراع الذين اعتادوا حياة الاستقرار، والثانية تعيش في شرق البحيرة وسكانها من البدو الرعاة⁽¹⁾. وما نقله عن هيرودوت: «إن البلاد هنا، وبقية البقاع غرب ليبيا، والحيوانات البرية مما لا نظير له في المناطق التي يسكنها البدو. وهذه المنطقة، عنيت شرق ليبيا، أرض واطئة ورملية، حتى يبلغ المرء نهر تريتون، بينما تتميز المنطقة الزراعية بكثرة مرتفعاتها وغاباتها وأحراجها وحيواناتها. فهناك تصادف الأفاعي الضخمة والأسود والفيلة والدببة والحيات السوداء والحمير ذات القرون»⁽²⁾.

وظل مصطلح «الليبيين» مستعملا عند الإغريق إلى أواخر العصور العتيقة، في حدود القرن التاسع قبل الميلاد⁽³⁾. ووقع جدل كبير بين المؤرخين في كون الليبيين كل القبائل التي تسكن السواحل الشمالية لإفريقيا من مصر حتى المحيط الأطلسي. ويرى آخرون أنهم السكان الأصليون الخاضعون لقرطاجة⁽⁴⁾.

2. الجرامانت (Garamante):

كان شعب الجرامانت (Garamante) منتشرًا في شمال شرق الصحراء، ويعود إلى نهاية الألفية الثانية وبداية الألفية الأولى قبل الميلاد، حين استقر هؤلاء الجرميون فوق الجبال وعلى المرتفعات والتلال في فزان بالصحراء الليبية، وأطلقوا على البلدة التي سكنوها غرمة أو (جرمة). والاسم مأخوذ من اسم القصر في بلدهم وهو (اغرام)، ثم صار اسما على البلدة وسكانها، وهي المدينة الأولى في وادي الآجال بفزان. وأكدت الأبحاث الأثرية أن تاريخها يرجع إلى حقبة ما بين 400-200 ق م⁽⁵⁾.

ووصفهم هيرودوت في تاريخه: «ويعيش هنا الجرامانت، وهم كثيرو العدد ويعملون في الزراعة، وأسلوبهم في ذلك مد طبقات من التربة فوق الملح ثم نثر البذور عليها... وتتميز

1 - مصطفى كمال عبد العليم، المرجع السابق، ص 01.

2 - تاريخ هيرودوت، المصدر السابق، ص 367.

3 - محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، مؤسسة تالوت الثقافية، كاليفورنيا، 2010، ج 1، ص 13.

4 - محمد الهادي حارش، التاريخ المغربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1992، ص ص 12-24.

5 - مبروكة سعد الفاخري، «العلاقات السياسية بين المملكة الجرمنية في الجنوب الليبي والمدن الرومانية على الساحل الليبي (منذ القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادي)»، مجلة جامعة سبها للعلوم الإنسانية، العدد الثاني، 2013، ص 01.

الماشية عند هؤلاء بأنها تسير في الرعي القهقري، والسر في عاداتها الغريبة هذه هي قرونها المعقوفة إلى الخلف... وهؤلاء الجرامانت يطاردون سكان الكهوف الأثيوبية، ويستخدمون في مطارداتهم عربات تجرها أربعة جياذ، ليتمكنوا من ملاحقة هؤلاء القوم الذين يتسمون بسرعة الركض، ولا يجاريهم في ذلك أي من الأقوام المعروفة...⁽¹⁾. ويغلب على حياتهم الصفة البدوية أو شبه البدوية. ويسكنون الخيام الجلدية أو الأكواخ، ويتنقلون بين المراعي لتوفير غذاء ماشيتهم وأبقارهم التي تعتبر مصدر رزقهم الأساسي⁽²⁾.

وأسسوا مملكة هامة تدعى (جراما) (Garama) أو (Djerma)⁽³⁾ بداية من الأراضي الطرابلسية. وظهرت مملكتهم في الكتابات الكلاسيكية بوصفها الدولة الوحيدة المنظمة داخل الصحراء الإفريقية، لأنها امتلكت المقومات التي استطاعت بها الوقوف في وجه الشعوب القريبة منها. إذ مارس شعبها الغزو وحارب الشعوب المجاورة مثل الفينيقيين والرومان. كما عملت على تأمين الطرق التجارية لقوافل الأمم السابقة في الصحراء⁽⁴⁾. وقد احتكر الجرميون وسائل النقل العابرة لإفريقيا في عدة طرق واتجاهات، ومنها نحو الصحراء. وتظهر عرباتهم منقوشة على الصخور⁽⁵⁾. ولكن التساؤل المطروح: كيف كانوا يؤمنون الماء لشرب الخيول في الصحراء، ولو كانت في وقتنا هذا، لأضحت مشكلة، فما بالك في تلك العصور الغابرة؟ ولكن الدلائل والنقوش الصخرية تشير إلى ذلك العصر - قبل 3000 سنة - كانت الصحراء الإفريقية أكثر رطوبة مما عليها الآن، وبها مناطق خضراء ومراع ومصادر كثيرة للمياه مما يوفر العلف والماء للخيول. كما ساهمت في عملية التصدير والاستيراد في معاملتها مع فينيقيي قرطاجة⁽⁶⁾.

1 - تاريخ هيرودوت، المصدر السابق، ص 364.

2 - André Voisin, Op-Cit, p-60 .

3 - Ibid, PP.59-60 .

4 - André Voisin, Op-Cit, p-60 .

5 - ولا تزال جبال أكاكوس بجنوب ليبيا تحتفظ بنقوشهم في الكهوف والمغارات وصور عرباتهم على الأحجار. انظر:

محمد سعيد القشاط، صحراء العرب الكبرى، دار الملتقى، دار الرواد، ط1، طرابلس، 1994 ص 122.

6 - جان مازيل، تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، تر ربا الخش، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، 1998، ص 197-198.

3. الجيتول (Gétules):

عُرفت العناصر السابقة الذكر - فيما بعد - باسم جديد هو «الجيتول» (Gétules)⁽¹⁾. ومواقعهم هي الجنوب التونسي، والشرق الجزائري، وصحراء طرابلس وشمال الصحراء الكبرى⁽²⁾. وكانت لهم مظاهر مدنية أطلق عليها اسم «الصناعة الجيتولية» أو القفصية. وأثارها تبتدئ من قابس شرقا وحتى قفصة جنوبا، ومنها تستمر إلى الغرب، وتنتهي عند نواحي سطيف بالجزائر وتمثل عصر ما قبل التاريخ⁽³⁾.

للباحث محمد البشير الشنيتي رأي آخر في تسميتهم وعصرهم. ومما ذكره في هذا المضمار في تحقيقه لكتاب الكعك: «هذه التسمية غير صحيحة علميا [يعني الصناعة الجيتولية] لأن الجيتولين قوم ظهروا في بلاد المغرب في العصور التاريخية ولا علاقة لهم بصناعة حجرية متميزة عشر على نأذجها لأول مرة في إقليم مدينة قفصة فنسبت إليها اصطلاحا»⁽⁴⁾.

والصحراء عموما أطلقوا عليها اسم جيتوليا، وعلى سكانها البربر اسم الجيتولين⁽⁵⁾. والذين كانت تربطهم علاقات مع العناصر المجاورة لهم في مناطق الشمال وهم النوميديون⁽⁶⁾.

4. التوارق:

تشير الكتابات الفرنسية إلى تواجد العناصر التارقية البربرية في سوف منذ القدم⁽⁷⁾. وهو أمر طبيعي، لأن التوارق اختلطوا وتزاوجوا بالشعوب المجاورة لهم وهم الليبيون والجرامنت والجيتول⁽⁸⁾. وهم ينتشرون في مساحات واسعة في الصحراء الكبرى، ومنها جنوب غربي ليبيا في غدامس ودرج، وجنوب شرقي الجزائر، وفي تامنغاست وجانت⁽⁹⁾. وهذا سهل عليهم

1 - André Voisin, Op-Cit, P.59 .

2 - عثمان الكعك، المرجع السابق، ص 18.

3 - عبد الله شريط، محمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ط1، مكتبة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1965، ص 14.

4 - عثمان الكعك، المرجع السابق، ص 18.

5 - محمد علي ديبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج1، ص 14.

6 - محفوظ قداش، المرجع السابق، ص 40.

7- René Pottier, « Au Sahara...L'Ethnographie et la Crois », *Revue LA CROIS*, N: 16729, 27 Aout 1937, Paris .

8 - Capitaine Aymand, *Les Touareg*, librairie Hachette, Paris, 1911, p14 .

9 - هم يسكنون في مالي وموريطانيا والسودان والنيجر وتشاد، وليبيا والجزائر. انظر: محمد سعيد القشاط، التوارق عرب الصحراء الكبرى، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، مطابع أديتار، ط2، كاليري - إيطاليا، 1989، ص 17.

التواصل مع شعوب الصحراء ومنها منطقة وادي سوف، حتى أن بعض الأسماء التارقية فيها إشارة إلى سوف (1).

والخلاف في نسبهم معروف لدى المؤرخين. ويؤكد الفرنسيون كثيرا على أصولهم البربرية (2). وهم ينتمون إلى قبيلة صنهاجة التي قال عنها ابن خلدون: «هذه الطبقة من صنهاجة هم المثلثون المواطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، أبعدها في المجالات هناك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها، فأصحروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد. وهجروا التلول وجفوها واعتاضوا عنها بالبان الأنعام ولحومها انتبازاً عن العمران واستئناسا بالانفراد وتوحشا بالعز عن الغلبة والقهر... واتخذوا اللثام خطأً تميزوا بشعاره بين الأمم، وعفوا عن تلك البلاد وكثروا، وتعددت قبائلهم من كذالة، ولمتونة، فمسوفة، فوتريكة، فناوكا، فزغاوة. ثم لمطة أخوة صنهاجة كلهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبيلة طرابلس وبرقة...» (3). ويجعل ابن خلدون صنهاجة أقرب إلى العرب اعتماداً على علماء الانساب: «... ولا خلاف بين نسابة العرب أن شعوب البربر الذين قدمنا ذكرهم كلهم من البربر إلا صنهاجة وكتامة فإن بين نسابة العرب خلافاً والمشهور أنهم من اليمينية. وأن إفريقش لما غزا إفريقية، أنزلهم بها...» (4). وهناك من أطلق عليها البربر المستعربة والتي اختلطت بالعرب وأصبحت عربية لغة وأخلاقاً وعوائد، ومنها قبيلة صنهاجة (5).

1 - يوجد واد مشهور في منطقة بني وليد بليبيا يدعى (سوف الجين) من كلمة تارقية، ومعناه وادي الجن. انظر: محمد سعيد القشاط، التوارق عرب الصحراء الكبرى، المرجع السابق، ص 18.

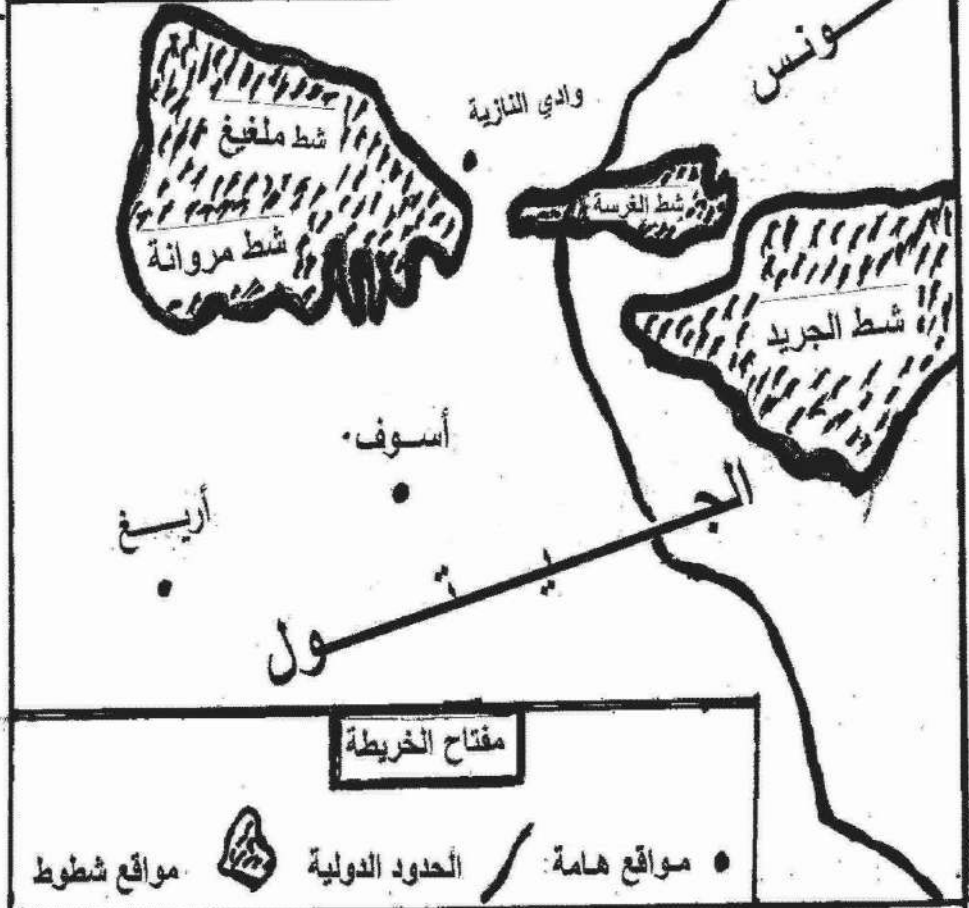
2 - Capitaine Aymand, Op-Cit, p 1 .

3 - تاريخ ابن خلدون، المصدر السابق، مج 6، ص ص 370-371.

4 - نفسه، ص 192.

5 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 171.

المقياس 1 : 2 500 000



- المراجع:
- 1- الاطلس العالمي، المعهد الوطني التربوي، الجزائر، ص 16.
 - 2- عادل أنورخضر، اطلس الجزائر، ص ص 30-31.
 - 3- عثمان الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص 18
 - 4- محمد علي ديبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج 1، ص 14.

وادي سوف ضمن فضاء أراضي الجيتول

وتعتبر قبيلة ((أفوراس)) التارقية قبيلة عربية⁽¹⁾ يرجع نسبها إلى الحسن بن علي - رضي الله عنه - خرج جد القبيلة محمد المختار من المغرب، وهو من الأشراف، ويتهيئ نسبه إلى الحسن ابن علي، ووصل إلى منطقة الصحراء واستقر بها، وتزوج امرأة تارقية. وكانت عادة التوارق القديمة أن الولد ينسب إلى أمه، فصار أولاده هم أفوراس. وتكرر أمر الزواج في حالات عديدة⁽²⁾. وعلى نفس المنوال صيغت قصة متداولة، تحدثت عن زواج تم بين أحد رجال زناتة بوادي سوف، مع الملكة العرجاء ((تيكسي))⁽³⁾ التي مات زوجها، وأنجبت أبناء هم قبيلة ((ماسوفة)) التارقية. ويروج أنها وحدثت بين التوارق وسكان سوف. وتغنى بها صاحب الإلياذة قائلا:

وكم كان سوف لضم الصفوف وجمع الشتات الحريص الضمين
لتحفظ زناتة أرحام تيكسي ويرع الطوارق عهد البنين⁽⁴⁾

ولا يستبعد أن يكون هناك اتصال لسوف مع التوارق الذين تواجدوا في الأراضي الليبية بغدامس المحاذية في الجنوب، وفي الصحراء الجزائرية عموما، وشكلت جزء من نسيجها البشري القديم، والذي يغلب عليه اسم البربر.

ثانيا: البربر (الأمازيغ) في وادي سوف القديمة:

البربر هم أصل السكان في بلاد المغرب القديم، وهم العنصر الذي قامت عليه الحياة في مختلف أصقاعه، ولهم جذورهم التاريخية، وعرفوا بحواضرهم التي انتشرت في مختلف أقاليمه التلية والصحراوية، ومنها إقليم وادي سوف العريق.

1 - وكلمة أفوراس باللغة التارقية تعني (أشعل النار). وتوطن القبيلة في منطقة "كيدال" شمال مالي في المنطقة الجبلية قرب الحدود (ادغاغ)، وجزء منها يقيم بغدامس الليبية. وهي قبيلة محاربة، لها صولات وجولات في التاريخ العربي الإسلامي في المنطقة. انظر: محمد سعيد القشاط، صحراء العرب الكبرى، ص 101.

2 - حدثت نفس الأمر لجد قبيلة "ريقناتن"، وهي قبيلة كبيرة تعيش في منطقة مالي، خرج جدها مع محمد المختار، وقيل هو تلميذه، واستقر بالملي، وتزوج مثل أستاذه بامرأة تارقية، وأصبحت ذريته توارق باسم تلك القبيلة. انظر: محمد سعيد القشاط، التوارق عرب الصحراء الكبرى، المرجع السابق، ص 24.

3 - الملكة تيكسي: ذكر أنها أم قبائل الجيتول؛ ولم نجد مصدرا يعول عليه في هذا المجال. ومنهم من يعتبرها ((تك بنت سبت)) التي يرجع إليها أصول تكسبت القديمة. ولكن الشيخ العدواني في تاريخه يذكر أنها امرأة عابدة، انعزلت عن قومها وفضلت التبتل والعزوف عن الزواج. انظر: محمد العدواني، المرجع السابق، ص 114.

4 - مفدي زكرياء، إلياذة الجزائر، منشورات المعهد التربوي الوطني، وزارة التربية الوطنية، الجزائر، ب ت ن، ص 60.

أ- تسمية البربر: المشهور عند المؤرخين، أن كلمة البربر من وضع اليونان، عبروا بها عن الإنسان الأجنبي عن قومهم وطبائعهم، والذي لا يتكلم بلغتهم الإغريقية. فلغته بربرية، أي غريبة عما عهدوه من فهم ووضوح⁽¹⁾.

وهي كلمة (barbarus) التي استعملها الرومان للدلالة على الشعوب التي وجدوها متخلفة عن ركبهم الحضاري، ومستواهم الثقافي⁽²⁾. وهم كل الذين لا يتكلمون لغتهم اللاتينية⁽³⁾.

وعند العرب، نجد ما أورده الطبري في تاريخه، أن إفريقيش بن قيس، لما كان متوجها إلى إفريقية من سواحل الشام، كانوا معهم، فافتتح البلاد، وقتل الحاكم جرجير، وأسكن أولئك الكنعانيين في البلاد. قال الطبري: ((... قال وإنما سموا بربرا، لأن إفريقيش قال لهم: ما أكثر بربرتكم! فسموا لذلك بربراً))⁽⁴⁾. وذكر أن إفريقيش قال في ذلك من أمرهم شعرا، وهو قوله⁽⁵⁾:

بربرت كنعان لما سقتها * من أراضي الهلك للعيش العجيب.

وعندما فتح العرب المسلمون بلاد المغرب القديم، تركوا التسمية على حالها، لشيوعها، ولكونها صارت نعتا عليهم، ومصطلحا معهودا عند الناس. فضلا عن ورود الكلمة في لغتهم، ومما ذكر من شعر امرئ القيس قوله: ⁽⁶⁾

على كل مقصوص الذنابي معاود * يريد السرى بالليل من خيل بربرا

أما كلمة الأمازيغ: فقد أطلقت على البربر، نسبة إلى جدتهم مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح⁽⁷⁾.

1 - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 35.

2 - عثمان سعدي، عروبة الجزائر عبر التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 36.

3 - محفوظ قداش، الجزائر في العصور القديمة، ص 27.

4 - أي أن أصواتهم غير مفهومة وغريبة. كما قال ابن خلدون: ((والبربرة بلسان العرب هي اختلال الأصوات غير المفهومة، ومنه يقال: بربر الأسد إذا زار بأصوات غير مفهومة)). انظر: تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 117.

5 - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط 2، مصر، 1968، ص 242.

6 - أحمد المقري التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، دار صادر، ط 2، بيروت، د ت ط، مج 3، ص 540.

7 - أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 40.

والأمازيغ يعرفون بالسادة الأحرار، ومنهم من يرى أن الكتلة الأمازيغية الكبرى هي التي لم تندمج كلياً في العرب، والتي تتواجد في جبال جرجرة، أو بلاد القبائل الكبرى، وأهم قبائلها ((زواوة))⁽¹⁾.

أما مصطلح القبائل: فمنهم من يطلقه على البربر في منطقة القبائل في شمال الجزائر، وكأنهم وحدهم سكان الجزائر، والحقيقة أنهم جزء من سكانها، عاشت بها القبائل البربرية، ومنهم الشاوية في الشرق، والطوارق في الهقار جنوباً، والمزابية والرواغة في الصحراء⁽²⁾، وزناتة في وادي سوف. ولعل ذلك التمييز لعنصر واحد فقط، مما روج له المستعمر الفرنسي، بغرض بث الفرقة، والسعي لتجزئة المجتمع الجزائري. وقد استعملوا هذا المصطلح عشية احتلالهم للبلاد ولاسيما سنة 1858⁽³⁾ باستخدام عبارة "Kebail, Berbères" في كتبهم ومعاجمهم. ومما ورد فيها ((الجزائر تعرف باسم أرض البربر أو القبائل))⁽⁴⁾.

ومما سبق اتضح الخط التاريخي لتطور المصطلح حول هؤلاء السكان الذين اقترح الشيخ الجيلالي لفظاً جامعاً لهم، هو ((الجنس المغربي)) البعيد عن كل تأويل، ويتطابق مع بعده الجغرافي وبيئته السائدة⁽⁵⁾.

ب - أصول البربر: لا يمكن الجزم بنقاء جنس بعينه في رقعة جغرافية عاش فيها أزماناً مديدة، واختلط بغيره من الأجناس الوافدة، وحينها جمعت بينهم الروابط الاقتصادية والاجتماعية، ووقع التزاوج، واختلطت الدماء. ولعل من بين العوامل التي أثرت على الجنس البربري، الهجرات المتتالية من آسيا وأوروبا أثناء الاستعمار القديم، وأخيراً ما صاحب الفتوحات الإسلامية من هجرة العرب واستقرارهم، واندماجهم في أسرة واحدة، تظللهم راية الوحدة والأخوة. وهذا الذي جعل النظريات المطروحة في أصول السكان كثيرة، ومتناقضة أحياناً. ولكن التمهيص والمقاربة تجعلان الجمع بينها أمراً ممكناً، لأن المسار التاريخي مبني على مراحل لكل منها خصوصياتها في إعطاء شكل للسكان، والذي نشأ من

1 - تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 123.

2 - عثمان سعدي، المرجع السابق، ص 37.

3 - M. O. Mac Carthy, **Dictionnaire Géographique ; Économique et Politique de L'Algérie**, Dubos Frères, Imprimera Libraires, Alger, 1858, pp 135-136 .

4 - Ibid, p 32 .

5 - عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 1، ص 35.

خلال التمازج المتعدد الأصول، انصهر في بوتقة جامعة ميزت العنصر البربري الذي عمر المغرب القديم منذ فجر التاريخ.

وحاول بعض المؤرخين الجمع بين الآراء، كما فعل أبو الحسن الوزان⁽¹⁾، أو ما ذكره الكعك في العبارات المختصرة الجامعة: «وقد ذهب العلماء كل مذهب في نسبة البربر إلى جذر من الجذور البشرية. فمنهم من قال أنهم ساميون، وزعم قوم أنهم حاميون، وقال آخرون أنهم آريون»⁽²⁾. وقد استعرض ابن خلدون الآراء، وناقشها عند علماء الأنساب، وانتصر إلى الرأي القائل أنهم حاميون مشاركة، فقال: «والحق الذي لا ينبغي التعديل على غيره في شأنهم، أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح كما تقدم في أنساب الخليفة. وأن اسم أبيهم مازيغ»⁽³⁾.

وعلى هذا الأساس، انتقلوا من الشام إلى إفريقية في أزمان قديمة. وكانت هجرتهم ما قبل التاريخ⁽⁴⁾ عن طريق مصر حوالي سنة 1300 ق م. ثم تابعت الهجرات الكنعانية في فترات متعاقبة⁽⁵⁾. ومن هذا المنطلق، فالبربر هم أول سكان هذه البلاد، هاجروا من آسيا عبر مصر وليبيا، وهم أبناء عم العرب مع الفينيقيين⁽⁶⁾.

ج - أقسام البربر في الجزائر:

البربر جنس تمتد قبائله في مواقع عديدة من بلدان المغرب. وهم يتوزعون في الجزائر إلى قسمين هامين: البربر البتر والبرانس. وقيل ينتسبون إلى أب واحد، ويقول آخرون غير ذلك:

- البربر البتر: وينتسبون إلى مادغيس، الملقب بالأبتر، وهو من ولد مازيغ بن كنعان. وعند اليونان يسمون (بوتروس)، وتعني الرعاة أصحاب المواشي والإبل. وهم أهل البادية الذين عمروا الصحراء بالجنوب. وأهم قبائلهم: لواتة. ومن بطونها: زناتة وزوارة. والثانية ضريسة.

- البربر البرانس: هم أبناء برنس من ولد مازيغ بن كنعان، وعند اليونانية (برانوس) وتعني سكان الحضر والسواحل بالخصوص. وأهم قبائلهم: كتامة وعجيسة وازداجة وصنهاجة⁽⁷⁾.

1 - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ص 35.

2 - عثمان الكعك، المرجع السابق، ص 23.

3 - تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 127.

4 - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج 1، ص ص 90-91.

5 - عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 1، ص 36.

6 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 23.

7 - انظر: عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 1، ص ص 40-41، أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص

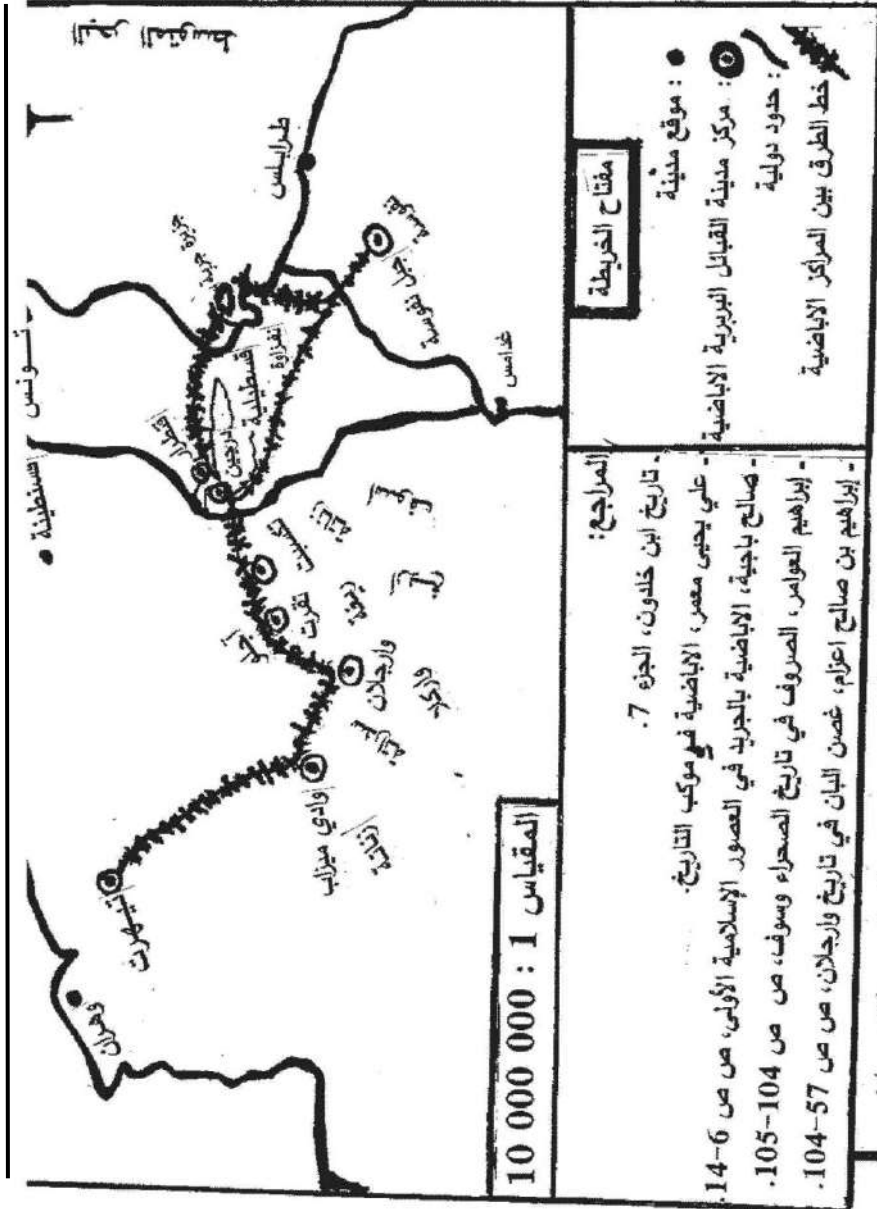
د. مراكز القبائل البربرية الإباضية في جنوب بلاد المغرب الإسلامي:

كان لقبائل البربر دورهم السياسي والاجتماعي والثقافي في المناطق الجنوبية في بلدان المغرب الإسلامي بالمغربيين الأدنى والأوسط. ويمكن إحصاء نحو ثمانية مراكز تاريخية للقبائل الإباضية، بداية من القرن الأول الهجري. وكانت في سلسلة متتابعة ضمن عقد موزع في تلك البلدان. وعرفت حياتهم التواصل والتعاون المادي، وتبادل المعارف، وتمتين الروابط في إطار المذهب، وحماية الذات من الاندثار، واستطاعوا المحافظة على تاريخهم. ويمكن تتبع المراكز، والإشارة إلى سير بعض علمائها الذين عاشوا حياة الترحال في المحاضن الاجتماعية، والحلقات العلمية، والواحات الصحراوية، ولاسيما ببلاد المغرب الأوسط. وأهم مراكزهم:

- **جبل نفوسة:** وهو جزء من جبال الأطلس، ويقع في الأراضي الليبية الغربية، وهو متاخم للصحراء. وسكانه من البربر البتر، ومنهم قبيلة نفوسة التي إليها تنسب المنطقة، ومعها لواتة ومزاتة، كما توجد قبائل أخرى كهوارة وزناتة⁽¹⁾.

ودخل المذهب الإباضي إلى الجبل في تسعينيات القرن الهجري، السابع الميلادي⁽²⁾، واستقطب الجبل الإباضية من مختلف البلاد الليبية بعد سقوط الدولة الرستمية⁽³⁾. وكانت علاقاتهم حسنة بإخوانهم في جزيرة جربة وبلاد الجريد التي يقصدونها لطلب العلم⁽⁴⁾. كما شاركوا في الأحداث السياسية والثورات، ومارسوا الدعوة، وتمكنوا من الجانب العلمي والثقافي. وبسبب القحط والمجاعات التي مست الجبل، هاجر بعضهم إلى تونس وصحراء المغرب الأوسط وتيهرت، والتحقوا بإخوانهم حتى تستمر حركة الدعوة⁽⁵⁾. وبرز في التأريخ لسير أئمتهم، أحمد بن سعيد أبو عثمان بن عبد الواحد بدر الدين الشماخي، الذي توفي سنة 928هـ / 1522م. وهو من بلدة يفرن بجبل نفوسة، وقصد في مرحلة تلقيه العلم تطاوين وتلالت بجبل دمر في تونس. ولخص ممن سبقه أخبار الأئمة والعلماء من الإباضية في كتابه⁽⁶⁾ بعنوان ((كتاب السير))⁽⁷⁾.

- 1 - مسعود مزهودي، جبل نفوسة في العصر الإسلامي الوسيط (21-442هـ / 642-1053م)، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 2010، ص ص 29، 35، 36، 48.
- 2 - نفسه، ص 73.
- 3 - علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية - الإباضية في ليبيا، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، ص 180.
- 4 - محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الإباضية، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1999، ج2، ص 10.
- 5 - مسعود مزهودي، المرجع السابق، ص 228.
- 6 - معجم أعلام الإباضية، ج2، ص 44.
- 7 - أبو العباس أحمد، كتاب السير، تع، محمد حسن، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2009، ج2.



خريطة مراكز القبائل البربرية والاباضية في جنوب المغرب الإسلامي

- جزيرة جربة: تقع إلى الشرق من قابس التونسية. وسكنتها القبائل البربرية ومنها: قبيلة «أفار» وقبيلة لماية وزواغة وهوارة ولواتة وكتامة⁽¹⁾. ودخلها الإسلام سنة 47هـ/667م على يد الصحابي رويغ بن ثابت الأنصاري. وظلت تابعة لولاية طرابلس الذين قادوا الحركة الإباضية، وكانت تابعة للدولة الرستمية لمدة قرن كامل⁽²⁾.

ويعتبر الشيخ يوسف بن محمد الباروني، المولود بها سنة 1929، من أبرز من كتب في تاريخها. وبذل مجهودا معتبرا في التنقل في مراكز الإباضية في ليبيا والجزائر بحثا عن الوثائق والمخطوطات. وتوفي بجربة عام 1997م. وكتابه «جزيرة جربة في موكب التاريخ» كتاب جامع لأهم محطاتها التاريخية، وارتباط سكانها بالمراكز الإباضية في بلاد المغرب الإسلامي⁽³⁾.

- إقليم قسطلية: وهي بلاد الجريد⁽⁴⁾ بالجنوب التونسي. وأغلب قبائله البربرية ترجع إلى قبيلة نفاوة. وانتشر المذهب الإباضي في نفطة في العصور الإسلامية الأولى. ومن المواقع الهامة بها «درجين». واتجه إليها الإباضيون مهاجرين من جبل نفوسة في القرنين الثاني والثالث الهجريين بعد هزيمتهم أمام الأغالبة. وكانت عاصمة الجريد تدعى «قنطرار»، وتقع شرقي درجين. ومثلت مركزا للدعوة، وكثر فيها العلماء، وازدهرت فيها الحركة العلمية، وبقيت مقصدا لعلماء الإباضية إلى أواسط القرن الخامس الهجري. ولكن درجين خربت تماما في عهد الدولة الصنهاجية سنة 410هـ/1019م، ولكن بقي المذهب الإباضي إلى أن صفي في عهد الدولة الموحدية في القرن السادس الهجري⁽⁵⁾.

وكان الشيخ أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني، ذائع الصيت، وخلد ذكرها بكتابه الجامع في ذكر المشايخ. وعاش في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. يرجع أصل

1 - يوسف بن محمد الباروني، جزيرة جربة في موكب التاريخ، تح سعيد بن يوسف الباروني 07. كتاب إلكتروني تم الاطلاع عليه يوم 2020/12/16، الرابط: <http://elbarounia.com>.

2 - علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثالثة - الإباضية في تونس، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، ص ص 621-622.

3 - يوسف بن محمد الباروني، المرجع السابق، ص 197.

4 - عند ابن خلدون يشمل إقليم الجريد تحديدا نفطة وتوزر وقفصة وبلاد نفاوة. انظر: صالح باجية، الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى، دار بوسلامة للطباعة والنشر، ط1، تونس، 1976، ص 07.

5 - المرجع السابق، ص ص 6-14.

عائلته البربرية إلى تمجار، وسط جبل نفوسة. وقد هاجر جده الأعلى الحاج يخلف إلى بلاد الجريد. ورحل أبو العباس سنة 616هـ إلى ورجلان وهو في سن البلوغ لطلب العلم. وواصله بتوزر. ثم نظر في كتب التاريخ وتعمق في أخبارها، وحط رحاله في جزيرة جربة التي نصحه الأفاضل في تأليف كتابه طبقات المشايخ بالمغرب الذي جمع فيه بين التاريخ والسير والفقهاء. وفيه معلومات قيمة عن واحات الجزائر والمراكز التي نحن بصدد التعريف بها (1).

- **وادي أسوف:** ويقع إلى الغرب من بلاد قسطيلية ((بلاد الجريد التونسي)). وهو الإقليم الأول في الجنوب الجزائري في الشرق. وعمرت به قبيلة زناتة (2) التي لها وجود كبير في المغرب الأوسط. كما ذكر ابن خلدون: ((... ومواطنهم في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب... والأكثر منهم بالمغرب الأوسط، حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناتة)) (3). ودخلها الإباضيون الزناتيون من فرع بني مريم، قادمين إليها من الزاب. وكان نزولهم بمدينة ((الوادي)) عام 522هـ / 1129م، ولحق بهم آخرون عام 530هـ / 1136م من قسطيلية، وآريغ، ووارجلان، وشيدوا بلدة لهم في الجردانية (4).

ومن أبرز علمائها الأجلاء أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي المارغني، في القرن السادس الهجري، وهو من علماء العقيدة. وعرف بكتابه السؤالات في هذا العلم العريق (5).

- **وادي أريغ:** ويقع في الغرب من أسوف، وكان أهلا بقبيلة زناتة البربرية، ومن فروعها ((الرواغة)) الذين ينتسبون إلى قبيلتي ريغة وسنجاس المغراويين (6) وقد أخذ الإقليم تسميته منها. قال ابن خلدون: ((كثرت في قصورها العمران من ريغة هؤلاء وبهم تعرف إلى هذا العهد،

1 - انظر: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص ص 45-46. صالح باجية، المرجع السابق، ص 206-207.

2 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 104-105.

3 - تاريخ ابن خلدون، ج7، ص 02.

4 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 136-138.

5 - انظر: أبا العباس الشاخي، كتاب السير، دراسة وتحقيق محمد حسن، دار المدار الإسلامي، ط1، ليبيا، 2009، ج2، ص ص 623-694. معجم أعلام الإباضية، ج2، ص ص 287-288.

6 - عبد الحميد قادري، التعريف بوادي ريغ، منشورات جمعية الوفاء للشهيد بتقوت، مطبعة الرمال، ط1، الوادي - الجزائر، 1999، ص 24.

وهم أكثرها ومن بني سنجاس وبني فرن وغيرهم من قبائل زناتة⁽¹⁾. وكان للإباضية وجود في المنطقة منذ العهد الرستمي، وشيدوا فيها مدنا هامة، كتقرت، وتاندلات، وتوغلانت، وأهما آجلو وتينسلي أو «بني يسلي»⁽²⁾. وصارت آجلو مقصدا علميا، ومدرسة للتربية على التماسك الاجتماعي، منذ استقرار الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر الفرستائي النفوسي، الذي أسس نظام حلقة العزابة، وشرع في تطبيق مبادئه في أول حلقة له في غار في بني يسلي سنة 409هـ/1018م⁽³⁾.

ومن العلماء الذين ارتبطوا بها أبو الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني، الذي كان نشطا سنة 557هـ/1161م، وينتسب إلى بني واسين، وهي فرع من قبيلة زناتة، وكانت ولادته بقسطيلية، ولكن نشأته وتعلمه في آجلو من وادي أريغ، وقضى فترة هامة في وارجلان، وكان حافظا للسيرة والآثار والتاريخ والأخبار، وله كتابه في هذا الشأن⁽⁴⁾.

- إقليم وارجلان: وارجلان مدينة صحراوية تقع في الجنوب الغربي من أريغ، وسكنتها قبائل بربرية من زناتة ومزاتة وبني يفرن ومغراوة⁽⁵⁾. قال ابن خلدون: «(بنو واركلان إحدى بطون زناتة... وكانت مواطنهم قبلة الزاب، واختطوا المصر المعروف بهم لهذا العهد على ثمان مراحل من بسكرة في القبلة)»⁽⁶⁾.

1 - أنظر: تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص 64.

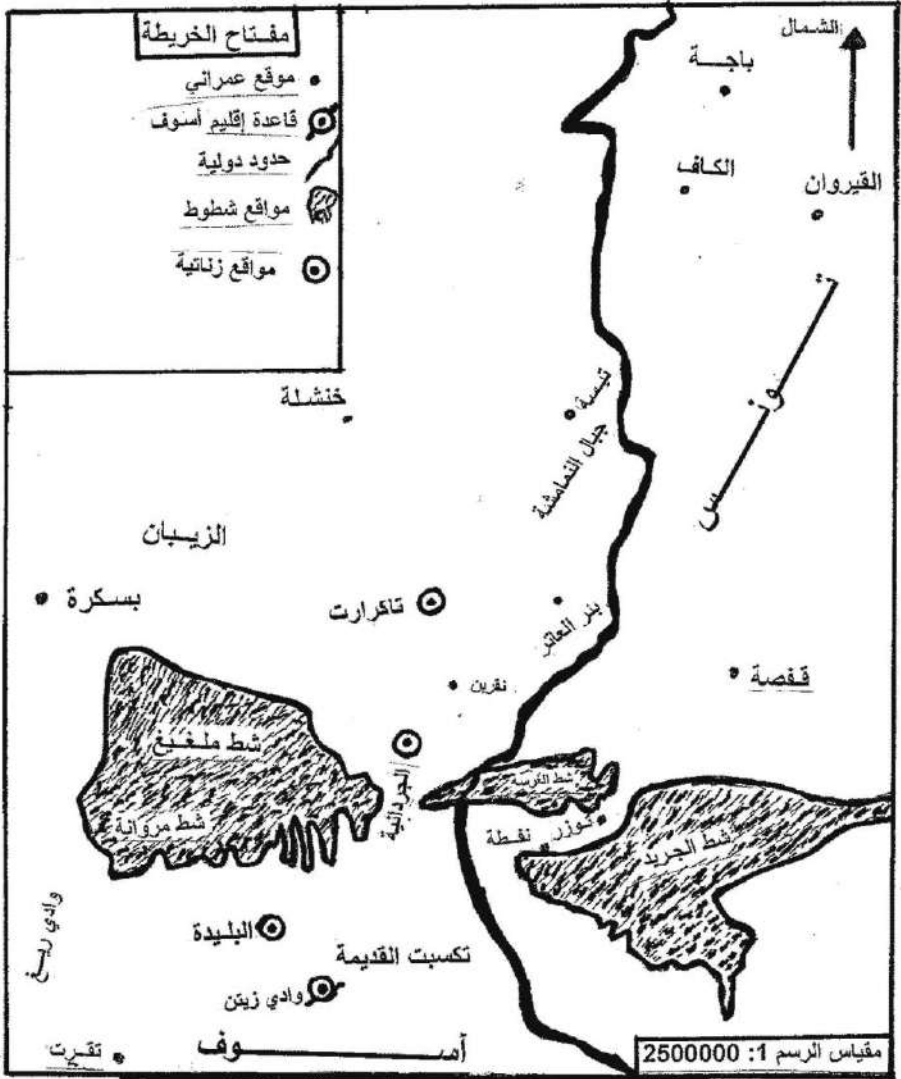
2 - وهي بلدة عمر ونواحيها القديمة والحديثة، أنظر: عبد القادر ميهوبي السائحي، ومضات تاريخية واجتماعية لمدن وادي ريغ وميزاب وورقلة والطيبات والعلية والحجيرة، دار البصائر، الجزائر، 2011، ص 35 .

3 - أنظر: معجم أعلام الإباضية، ج 2، ص 368.

4 - أنظر: معجم أعلام الإباضية، ج 2، ص 204. أبو الربيع الوسياني، سير مشايخ المغرب، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1985، ج 2 .

5 - إبراهيم بن صالح بابا محو اعزام، غصن البان في تاريخ ورجلان، تحقيق إبراهيم بحاز، سليمان بومعقل، مطبعة العالمية، ط 1، غرداية-الجزائر، 2013، ص ص 57، 99، 104.

6 - تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص 69.



- المراجع:
- 1- الأطلس العالمي، المعهد الوطني التربوي، الجزائر، ص 16.
 - 2- إبراهيم العوامر، الصروف، ص ص 105-106.
 - 3- Caid Hocine Zoubéidi: Les Berbères . Zénètes dans le Souf , p 333.
 - 4- محمد بن عميرة، دور زناتة في الحركة المذهبية، ص 21-22.

خريطة مواقع قبيلة زناتة البربرية بوادي سوف

وسكنها البربر من الإباضية بداية من القرن الثاني، وازدهرت بالعلم والعلماء ما بين عامي 101هـ - 450هـ / 720-1058م⁽¹⁾. كما استقر الإمام يعقوب بن أفلح بمدينة سدراته بعد سنة 297هـ / 909م، عندما قدم الفاطميون إلى تيهرت. وبقيت عامرة إلى منتصف القرن الثامن الهجري/ الثالث عشر الميلادي، حين هجرها السكان إلى بادية بني مصعب، فاندثرت المدينة وغمرتها الرمال⁽²⁾.

وأشهر مؤرخيها، أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر بن سعيد اليهراسني الوارجلاني، الذي ولد بها، وتلقى العلم في أريغ، وكانت له حلقة علم في آجلو. وبقي مهتماً بالعلم والعمل في الزراعة إلى وفاته حوالي سنة 471هـ/1078م، واشتغل بالتاريخ، وألف كتاباً هاماً في أخبار قومه، «السير وأخبار الأئمة»⁽³⁾.

- **وادي ميزاب:** وهو إقليم هام يقع إلى الغرب من وارجلان، وإلى الجنوب الشرقي من تاهرت، وسكنته قبائل بربرية زناتية. وتحدث ابن خلدون عن «بني واسين» الذين اختطوها: «ومن بني واسين هؤلاء بقصور مصاب... وهذا الاسم للقوم الذين اختطوها ونزلوها من شعوب بني بادين... ومصاب وبني زردال فيمن انضاف إليهم من شعوب زناتة»⁽⁴⁾.

بدأ الإباضيون يتجمعون في وادي ميزاب في أوائل القرن الخامس الهجري⁽⁵⁾. وبعد سقوط «تيهرت»، صاروا مزيجاً من القبائل، ولاسيما الإباضية المهاجرة إليها من جبل نفوسة وجربة ووادي سوف ووادي ريف ووارجلان وتيهرت وغيرها⁽⁶⁾.

وكانت مراكز الإباضية في القرن التاسع الهجري، التي تمتد أراضيها من وارجلان وحتى وادي سوف، تكافح من أجل الإبقاء على نفسها ومذهبها، وبعضها كان يلفظ أنفاسه الأخيرة. بينما تفتنت وادي ميزاب لحفظ حالها، ومضت في نهضة وانطلاقة جديدة، وأسرعت إلى

1 - إبراهيم بن صالح بابا حو اعزام، المرجع السابق، ص 99، 104.

2 - انظر: معجم أعلام الإباضية، ج 2، ص 273. عبد القادر ميهوبي السائحي، ومضات تاريخية واجتماعية، ص 157.

3 - انظر: معجم أعلام الإباضية، ج 2، ص 451-452. أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 2، الجزائر، 1984.

4 - تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص 80.

5 - علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الرابعة - الإباضية في الجزائر، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، ص 197.

6 - عبد القادر ميهوبي السائحي، ومضات تاريخية واجتماعية، ص 115.

استقدام علماء من ((جربة)) و((جبل نفوسة)) كان لهم الفضل في نهضة المجتمع وازدهاره⁽¹⁾ وهم العلماء الثلاثة:

- الشيخ عمي سعيد بن علي الخيري الجربي الذي اتجه إلى غرداية.

- الشيخ بالحاج محمد بن سعيد النفوسي الذي استقر في بني يزقن.

- الشيخ دحمان النفوسي الذي استقر في بنورة.

وقام هؤلاء بنشر العلم، وتبليغ الدين، وحث الناس على الخلق الكريم، وكان لعملهم أثر في تماسك المجتمع وتميزه⁽²⁾.

- مدينة تيهرت: ⁽³⁾ وهي المدينة التي أسسها عبد الرحمان بن رستم بعد سنة 155هـ/ 771م، واتخذها عاصمة لدولته، التي أعلنها فيها عام 160هـ / 777م. ويومئذ هاجر إليها الإباضية من بلاد المغرب الإسلامي، من قبيلة نفوسة والجريد، ومن المغرب الأوسط لأن أراضيها امتدت إلى تلك الأصقاع النائية. واستمرت الدولة قائمة لمدة قرن وثلث، وانتهت علي يد أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ/ 909م، ولم يسلم من الأسرة الرستمية إلا من هرب إلى وارجلان واتخذها مستقرا⁽⁴⁾.

ويعتبر ابن الصغير المالكي مؤرخ الدولة الرستمية. وقد وفد إلى البلاد في حدود 281هـ/ 894م، وسجل أخبار الأئمة الرستميين في كتابه ((أخبار الأئمة الرستميين)) أو ((تاريخ ابن الصغير)). وجعل القسم الأول مجموعة من الأخبار والروايات التي نقلها عن وثق بهم من الإباضية، والقسم الثاني من مشاهداته الخاصة⁽⁵⁾.

وهكذا كانت المواطن الإباضية، في مختلف مواطنها، مترابطة، ولها صلات مودة وتواصل فيما بينها، ولاسيما مع وادي سوف.

هـ- العادات والتقاليد المشتركة بين البربر والعرب في وادي سوف:

رغم الاختلاف الكبير بين المؤرخين في أصل البربر، وزمن قدومهم للشمال الإفريقي، فإن

1 - علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الرابعة- الإباضية في الجزائر، ص ص 325-328.

2 - علي يحيى معمر، المرجع السابق، ص 226.

3 - تبعد تيهرت عن مدينة تيارت اليوم بمسافة 9 كلم. أنظر: إبراهيم بحاز، الدولة الرستمية 160-296هـ / 777-909م، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، نشر جمعية التراث، ط2، غرداية، الجزائر، 1993، ص 86.

4 - نفسه، ص ص 84-128.

5 - انظر: مقدمة المحققين لكتاب ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تح محمد ناصر، إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص ص 90-91.

لهم تشابهاً كبيراً مع العرب، وذلك راجع للامتزاج بين الجنسين عن طريق المصاهرة، وذلك جعل أصولهم أقرب إلى عرب شبه الجزيرة العربية. وذكر ابن خلدون أن مساكنهم قرب بلاد الجريد التونسية وحتى طرابلس والمغرب الأوسط، فقال: «وأما إفريقية كلها إلى طرابلس فبسائط كانت دياراً لنفزاوة وبني يفرن ونفوسة وما لا يحصى من قبائل البربر»⁽¹⁾.

وكان لقبيلة زناتة الانتشار الواسع في جنوب الصحراء. وهم من البدو الرحل، وجل اعتماد حياتهم على سكن الخيام واتخاذ الإبل، ويجمعون في قبائل يحكم كل قبيلة شيخ، وبعض منهم يستقرون لبعض الوقت، ويجمعون في أنماط معيشتهم بين الزراعة والرعي في آن واحد.⁽²⁾ وقد شيد الزناتيون عدة أماكن بوادي سوف، ومنها الجردانية،⁽³⁾ والبليدة، وتكسبت القديمة، وتاكرارت.⁽⁴⁾

وعند استقراء الشواهد التاريخية الكثيرة، يتضح أن وادي سوف اكتسبت بعض العادات والتقاليد من البربر القدامى، واستمرت تلك المظاهر بعد اختفاء العنصر البربري، وبرز الجنس العربي على الإطلاق، والذي اتصف بالمظاهر المتشابهة مع البربر، ونذكر منها في هذا السياق:

- 1) اتصاف الفرد الأمازيغي بالاستقلال والتعصب والانتماء الشديد لعشيرته، والتمسك بقوميته، والدفاع عن أهله، ولهذا وجدت بعض ملامحه في وادي سوف.
- 2) أهمية المرأة، ودورها الفعال في المجتمع الأمازيغي، وانتساب بعض القبائل إلى المرأة مثل زناتة،⁽⁵⁾ كذلك انتسب أهل تكسبت القديمة بمدينة الوادي إلى امرأة تدعى «تك بنت سبت»، ومثلها بلدة «حزوة» الواقعة شرق سوف في الحدود التونسية، وترجع تسميتها إلى امرأة من بقية زناتة.⁽⁶⁾

1 - تاريخ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 103.

2 - محمد بن عميرة، دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 21-22.

3 - الجردانية: وهي منطقة وادي الجردانية التي تبعد بنحو 50 كم شمال سوف في طريق نقرين. وقد حفظت - وإلى وقت قريب - الآثار العديدة لبربر زناتة، وتمثلت في قطع البناء التي اكتشفت من طرف الرعاة، ولكنها دفنت تحت الرمال، واكتشف أثناء العمل في الغيطان بجنوب غوط الصلاحة في مدينة الوادي، بقايا السور القديم.

Caid Hocine Zoubéidi: Les Berbères Zénètes dans le Souf, (BLS), N: 40, Déc 1960, P. 333 .

4 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 105-106.

5 - عبد الرحمان الجيلالي، المصدر السابق، ج1، ص 42.

6 - محمد العدواني: المرجع السابق، ص 114-165.

(3) اتخذهم الصوف لباسا، فصنعوا منه البرنس «البرنوس» والقشايية، وذكر ابن خلدون عن زناته، أنهم يرتدون العمام،⁽¹⁾ وهي اللباس المشهور عند رجال سوف إلى عهد قريب.

(4) جعلوا الكسكس طعاما أساسيا، وهو نفسه أكلة البربر المفضلة، وهو طعام أصيل في إفريقية الشمالية بدون شك إذ لم تعرفه شعوب المشرق،⁽²⁾ وهم يستعملونه غالبا في وجبة العشاء، وقد أثروا على عرب الجزائر في جعله قوتا، فصاروا سواسية في اعتياده غذاء لأبدانهم⁽³⁾.

(5) عرفت لهجاتهم تشابها في عدة عبارات مثل: اخلالث (الخلالة)، اسوريث (السورية) أي القميص، ايملحفت (اللحاف)، اخلخال (الخلخال)، الخواثيم (الخواتم)، الشرك أي العقد في العنق، امان (الماء) اقاشبيث (القشايية)، يعرّم (العرام)، ازمالت (الزمالة) أي العمامة⁽⁴⁾

(6) عرفت بعض أنواع التمور في وادي سوف بأسمائها البربرية، مثل: تنصليت، تفزوين، تفرزايث، تاشلويت، تنسين، تكرمست⁽⁵⁾.

(7) عرفت بعض القرى في وادي سوف بأسمائها البربرية، مثل: الزقم، وتاغزوت⁽⁶⁾، وتكسبت وتاقرارت.

(8) تخليد بعض الزناتيين ضمن أسماء القرى والمواقع التي شهدت بعض الأحداث المتعلقة بهم، مثل: عميش، نسبة لرجل أعمش من زناته قصدها، ونسبت بلدة ورماس لأحد وجهاء زناته بسبب موته في نطاقها، ومنطقة وازيتن بالوادي نسبة لأحد العبيد الزناتيين الذي غرق في مصب وادي النازية. وكذلك بلدة حاسبي خليفة التي تنسب إلى خليفة الزناتي الذي عرف بشجاعته وحروبه مع بني هلال⁽⁷⁾. واستمر وجود بربر زناته في وادي سوف إلى بداية القرن الخامس عشر الميلادي (حوالي سنة 1416م). وحيث شدوا رحالهم نهائيا إلى المناطق المجاورة

1 - مبارك الميلي، المرجع السابق، ج1، ص ص 112، 113.

2 - محفوظ قداش، المرجع السابق، ص 29.

3 - مبارك الميلي، المرجع السابق، ج1، ص 113.

4 - عثمان سعدي، المرجع السابق، ص ص 48-53.

5 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 65.

6 - André Voisin, Op-Cit, PP.88-89 .

7 - Caid Hocine Zoubeidi, Op-Cit, p 334 .

في نفطة ببلاد الجريد التونسية، وتقرت وورقلة بالجزائر⁽¹⁾.

لقد ظهر جليا أن البربر سكنوا مختلف المناطق ببلاد المغرب الأوسط (الجزائر)، وعمروا صحراءها في ظروف متفاوتة فرضتها الأحداث السياسية الصعبة من فتن وحروب ومطاردات، جعلتهم يطلبون اللجوء السياسي الآمن، أو أثناء التنقل في طرق التجارة، فيستهيهم المكان الهادئ، ويكون مهجرا ومقاما طلبا للاستقرار ضمن الحياة البدوية التي تقوم على الرعي والصيد.

والبربر في سوف عاشوا فترة قصيرة مع العرب ثم غادروها، ولم يبق لهم بها أي أثر مادي ملموس إلا الإشارات السابقة التي حافظت عليها العادات والتقاليد في بعض مظاهر الآثار العمرانية المدفونة تحت الرمال والأسماء في بعض المواقع الباقية.

والجدير بالذكر أن قبيلة زناتة وفرعها من بني مرين، ربطوا علاقاتهم ووطدوها مع بني قومهم في المناطق المجاورة، والذين جمع بينهم الانتماء إلى المذهب الإباضي الذي ساهم في تمييز العلاقات، وجسدتها الحركة العلمية والثقافية التي ربطت وادي سوف مع درجين، ووادي ريغ، ووارجلان.

وعموما، فإن البربر في التاريخ القديم، أو ما حدث من غزو للبلاد، كانوا فاعلين في مقاومة المعتدين الرومان والفندال والبيزنطيين، ومتعاونين مع الذين ربطتهم أو اصر النسب الكنعاني والعربي من الفينيقيين والعرب الفاتحين، وانصهروا في بوتقة واحدة، زادت من صيتهم، ورفعت مكانتهم عالية بين الشعوب والأمم.

ثالثا: الفينيقيون (القرطاجيون) في وادي سوف (880-146 ق م):

كان الأمازيغ الأحرار يسكنون بلاد المغرب القديم قبل مجيء الفينيقيين وغيرهم من الشعوب الوافدة على المنطقة. وشكل البربر عشائر متعددة، وممالك محلية متناثرة⁽²⁾. وقدم الفينيقيون المشاركة إلى البلاد، وتطورت تسمياتهم إلى القرطاجيين، والبونيقيين. وكان لهم بعض الأثر، ووصل بعضهم إلى تخوم الصحراء، وحدث تفاعل معهم في تلك العصور.

1 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 172.

2 - أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ص 49.

1- تسمية وأصول الفينيقيين:

- **الفينيقيون:** قوم من الكنعانيين ينتسبون إلى موطنهم الأصلي ((فينيقيا))⁽¹⁾ بقارة آسيا، غرب بلاد الشام، وعلى ساحل البحر المتوسط⁽²⁾. وقد أسس الفينيقيون مدنا ساحلية هامة، ومراسي للسفن في بيروت وطرابلس الشام وصيدا وصور. وكانت متطورة في العمران والتجارة⁽³⁾ والسفر المستمر في البحار، بامتلاكهم أسطولا ضخما، مكنهم من التواجد في مختلف البحار والقارات، وجعلهم يفرضون سيادتهم على مواقع عدة، ولاسيما في البحر المتوسط في حدود سنة 1215 ق م، حين بدأت تتكثف هجرتهم إلى أفريقيا، وأسسوا مراكز ومدنا كثيرة، وخصوصا في القطر الجزائري، ومنها:

- **المدن الساحلية:** مدينة إيكوسيم (الجزائر)، وصلداي (بجاية)، وروسكادي (سكيكدة)، وهبو أو بونة (عنابة)، وشولو (القل)، وبول (شرشال)، وانجيجلي (جيجل)، وتادل (دلس).
- **المدن الداخلية:** منها مدروس (مداوروش)، وتاقست (سوق اهراس)، وتيفيست (تبسة)، ومدن أخرى في سواحل تونس والمغرب الأقصى⁽⁴⁾.

- **القرطاجيون:** نسبة إلى المدينة الشهيرة (قرطاجنة) التي أسسها الفينيقيون في مدخل خليج تونس. واختلف في تاريخ التأسيس، في حدود القرن التاسع قبل الميلاد⁽⁵⁾. وتم من قبل الأميرة الفينيقية (عليشة ديدو)⁽⁶⁾ الكنعانية الأصل، من مدينة صور، والتي قدمت رفقة حاشيتها، وأسست المدينة بمساعدة الكنعانيين من بني قومها الذين استقروا قديما بالسواحل

-
- 1 - **فينيقيا:** كلمة يونانية الأصل (فينيكس) وتعني النخيل واللون الأحمر، لأن القوم يستعملون اللون الأحمر الزاهي في ملابسهم، ورسم النخيل على نقودهم. انظر: عبد الرحمان الجليلي، المصدر السابق، ج 1، ص 48.
 - 2 - وتضم حاليا الساحل السوري واللبناني والفلسطيني في منطقة تمتد من مصب نهر العاصي شمالا إلى مدينة غزة جنوبا. انظر عثمان الكعك، المرجع السابق، المحقق ص 35.
 - 3 - أنظر: عبد الرحمن الجليلي، المصدر السابق، ج 1، الجليلي، المرجع السابق، ص 48، عثمان الكعك، المرجع السابق، ص 35.
 - 4 - عبد الرحمان الجليلي، المصدر السابق، ج 1، ص ص 49-50.
 - 5 - توجد أقاليم متعددة حصرت التأسيس ما بين 414 إلى 880 ق م. انظر: عبد الرحمان الجليلي، المصدر السابق، ج 1، ص ص 49-50.
 - 6 - **عليشة:** اسمها بالفينيقية (علشت) وديدون، ويسميتها العرب (ديدو). فهو اسم صفة ومعناه بالفينيقية الفارة أي الهاربة. انظر: عثمان الكعك، موجز التاريخ العام للجزائر، تعليق المحقق محمد البشير شنييتي، المرجع السابق، ص 39.

التونسية. وتطورت المدينة حتى صارت دولة قوية لها امتدادها الجغرافي في حوض المتوسط من طرابلس إلى جبل طارق⁽¹⁾.

- **الأميرة الكنعانية:** اختلف في اسمها قبيل هي الأميرة (جونو)، وقيل عليسة أو عليشة (ديدو)، وعموما هي أرملة (أسرياس) رئيس كهنة مدينة صور الفينيقية، والتي تعرضت للكيد من أخيها (بغاليون) الذي حكم البلاد تسلطا، وحرمها من ثروة زوجها، وكان ذلك دافعا لها للهجرة إلى الساحل التونسي، واستطاعت شراء قطعة أرض من ملك البلاد البربري (أيارياس). وشرعت في تأسيس المدينة المسماة باسمها (كورت جونر) وعرفت فيما بعد باسم قرطاجنة⁽²⁾، وقيل هي (قرطة حدثت) أي القرية الحديثة، وحرفت إلى قرطاجنة⁽³⁾.

- **البونيقيون:** وهم الفينيقيون في لغة الرومان واللاتين، والذين خاضوا حروبا دامت قرونا ما بين (536-146 ق م) مع اليونان والرومان، ثم مع البربر في الجزائر. وانتهت حروبهم بالخسائر الفادحة التي تكبدوها في قرطاجنة، وانتهت بانهارها⁽⁴⁾.

- **النوميديون:** وهم سكان الجزائر في العهد القرطاجني، وعرفوا بالنوميد، لأنهم رعاة ورحالة. ولكنهم تمكنوا من تأسيس ممالك بربرية، وكان ولاؤهم موزعا بين قرطاجنة وبين الرومان. ولكن وقوف البربر مع الرومان كان سببا في سقوط قرطاجنة سنة 146 ق م⁽⁵⁾.

2- الفينيقيون في داخل البلاد:

القرطاجنيون أمة بحرية تجارية، لم يتجاوز حكمها السواحل التي أقاموا عليها الموانئ في الجزائر. وأما توغلهم في الداخل فلم يكن بصفة مباشرة، بل كانت إدارته عن طريق أهل البلاد الأفارقة⁽⁶⁾، لأنها لم تكن تملك جيشا وطنيا نظاميا، بل يتكون جيشها من الجنود المرتزقة الذين يفقدون الإخلاص لوطنهم، بل يُستأجرون للدفاع عنها وقت الضرورة، وهذا أحد أسباب انهيارها وزوالها⁽⁷⁾.

1 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 26.

2 - عبد الرحمان الجيلالي، المصدر السابق، ج 1، ص 50.

3 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 50.

4 - عبد الرحمان الجيلالي، المصدر السابق، ج 1، ص 56.

5 - نفسه، ص 60.

6 - نفسه، ص 52.

7 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 26.

ولهذا لم تبلغ قرطاجنة أقصى الصحراء بنفسها، بل عن طريق قبائل البربر الذين كانوا وكلاء لها، ويتاجرون باسمها⁽¹⁾. وكل المظاهر التي يمكن ملاحظتها ترجع لهم، ولكن تطلق عليها المؤثرات القرطاجنية، لأنها في فترة وجودهم وحكمهم.

3- الفينيقيون في داخل الصحراء الجزائرية:

وقد مكنت الظروف السابقة، القرطاجنيين من التوغل في الأراضي الجزائرية الشرقية، وكانوا يعرفون بالبونيقيين، وكانت لهم مدنهم العديدة⁽²⁾ وواصلوا حركة التمركز. وكان آخر موقع يستولون عليه بالجزائر سنة 250 ق م، وهو مدينة تبسة بالجنوب الشرقي النوميدي⁽³⁾. وقد ربط القرطاجنيون علاقات تجارية برية مع بلاد السودان. وكان الطريق الذي يعبرون به الصحراء يمر بالعرق الشرقي الكبير في الناحية الشرقية من وادي سوف. كما كانت القوافل اللبية تنقل السلع الإفريقية من بلاد السودان، وتحمل المواد المختلفة مثل العاج والذهب والزمرد وريش النعام والعبيد. وكانت تلك القوافل خاضعة لمراقبة قبائل الجرامانت مقابل ضرائب وإتاوات يدفعونها لتأمين الطريق. وقد عثر على قطع نقدية ذهبية قرطاجية تحت الرمال بمنطقة حاسي حجار في نواحي المنيع بالصحراء الجزائرية. وقد اتخذ التجار القرطاجنيون لأنفسهم وكلاء في غدامس اللبية⁽⁴⁾، وهذا جعلهم يتواجدون في بعض نواحي وادي سوف، واستقر بعضهم في أرضها. فكانت مساكنهم في وادي الجردانية في الشمال الشرقي لوادي سوف، وفي منطقة البليدة القديمة قرب سيف لمنادي في الجهة الشمالية للوادي. وطالت إقامتهم بها، وكانوا يمارسون في مواقعهم المذكورة الرعي والتجارة⁽⁵⁾.

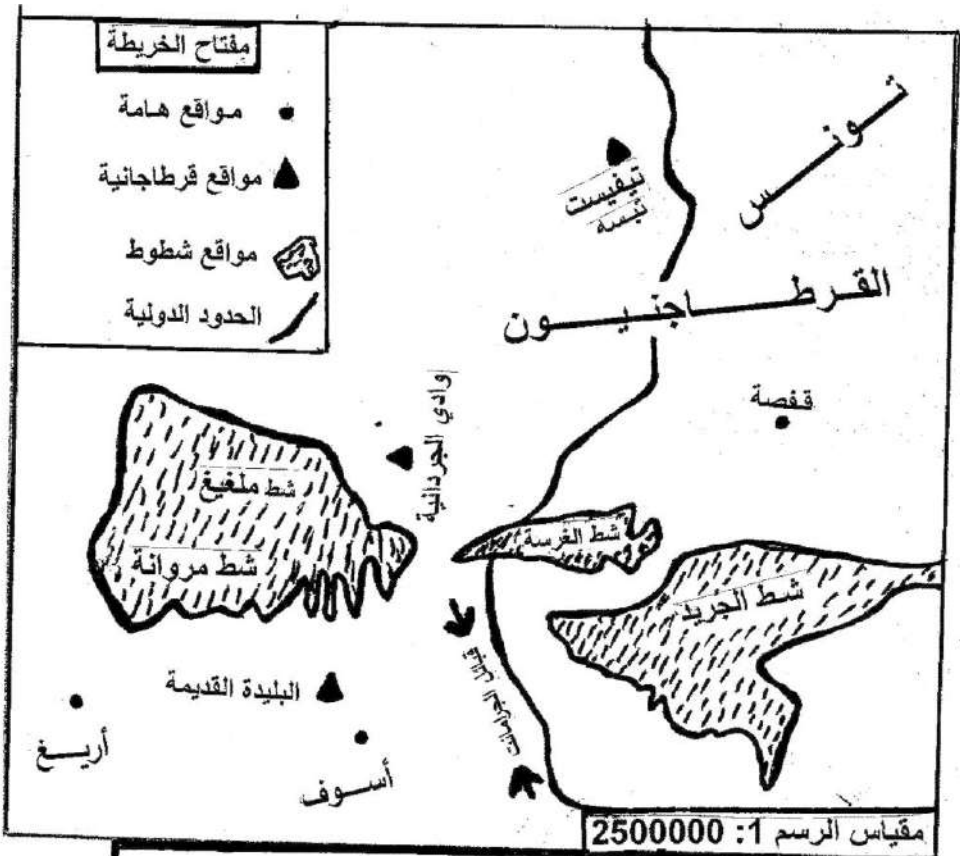
1 - عثمان الكعك، المرجع السابق، ص 38.

2 - وهي هبو (عنابة)، وروسكادي (سكيكدة)، وتنس. واستولوا على الناحية الشمالية من قسنطينة نحو رأس بوقوعون وجهة عين مليلة. انظر: عثمان الكعك، المرجع السابق، ص 37.

3 - مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 1، ص 134.

4 - André voisin, Op-Cit, p 60. Cauvet, Op- Cit, p41 .

5 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 108.



- المراجع:
- 1- الأطلس العالمي، المعهد الوطني التربوي، الجزائر، ص 16.
 - 2- إبراهيم العوامر، الصروف، ص 108.
 - 3- عادل أتور خضر، أطلس تاريخ الجزائر، ص ص 16-25.
 - 4- C.Bataillon , Le SOUF, p 08..
 - 5- مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 1، ص 134.

خريطة مواقع بوادي سوف أثناء عهد القرطاجنيين

المبحث الثالث أوضاع وادي سوف في عهد الاحتلال الأوربي القديم

تعرضت بلاد الجزائر - منذ سنة 146 ق م- وإلى زمن اندحار القوات البيزنطية سنة 647م - إلى ثلاثة أشكال من الاحتلال الأوربي هي: الرومان والوندال والروم البيزنطيون. وكان لتلك الهيمنة آثارها الكبيرة في تلك الحقبة الطويلة. وتركت انعكاساتها على مختلف المدن والقرى الجزائرية، ومنها منطقة وادي سوف التي شهدت آثار الاحتلال في المظاهر التالية.

أولا: الاحتلال الروماني بوادي سوف (214 ق م - 431 م):

أ - تسمية الرومان وأصولهم: الرومان أمة أوروبية الأصل، ينتسبون إلى عاصمة دولتهم (روما) في وسط إيطاليا. وهي المدينة التي أسسها (رومولوس) سنة 753 ق م⁽¹⁾. أما أصولهم، فهم أمة آرية، تجمعت من عدة شعوب، منهم: الغال والأتروسك والإغريق واللاتين. وظلت روما عاصمة لهم لأكثر من عشرة قرون. واستطاعت غزو العالم شرقا وغربا⁽²⁾. وقد تطورت إلى امبراطورية كبرى، وبلغت ولاياتها سبع عشرة، منها عشر ولايات بأوروبا، وخمس بآسيا، واثنان بإفريقية⁽³⁾.

ب - الصراع الروماني القرطاجني: كانت روما تعاني من أزمات اقتصادية شديدة، فالتجأت إلى إرسال جاليات من الفقراء والفلاحين إلى الولايات الرومانية، ومنها قرطاجنة من أجل تعميرها. ووضع موطن قدم لها ضمن أراضيها. ثم خاضت روما حروبا مريعة مع قرطاجنة، وانتهت الحرب البونيقية الثالثة بالقضاء على قرطاجنة وتخريبها، والاستيلاء عليها. وأطلقوا عليها اسم (مملكة الرومان بإفريقية). وجعلوا على هذه المملكة أو الولاية واليارومانيا مقره عوتيقة وهي جزء من البلاد التونسية⁽⁴⁾. وهذا الانتصار على قرطاجنة الذي أدى إلى تدميرها عام 146 ق م، دفعهم إلى تكوين مستعمرتهم الإفريقية في شمال البحر المتوسط. وبقيت كثير من المناطق الجنوبية خارج نطاق هيمنتهم في بادئ الأمر⁽⁵⁾، لأنهم اكتفوا باعتراف

1 - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 1، ص 242.

2 - عبد الرحمان الجيلالي، المصدر السابق، ج 1، ص 64.

3 - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 1، ص 246.

4 - نفسه، ص ص 252-253.

5 - محمد البشير شنيتي، سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146 ق م

- 40 م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 55.

ملوك البربر بالسيادة الاسمية عليهم ريثما تلين قناتهم وتضعف شوكتهم⁽¹⁾. وخلال تلك الظروف العسكرية والسياسية، تم الاحتلال الروماني للجزائر.

ج - الاحتلال الروماني للجزائر: بدأت علاقة الرومان بالجزائر منذ سنة 213 ق م. ثم امتدت إليها أيديهم، وشرعوا يتدخلون في شؤونها سنة 104 ق م. ثم استولوا على نواميديا سنة 46 ق م⁽²⁾. وأطلقوا عليها اسم إفريقية الجديدة، أو نواميديا الحديثة. ومنحت نواميديا الوسطى (قرطة والمدن التابعة لها) لستيوس، وأطلق عليها (مستعمرة سوتيسوس). وهذا حتى يتمكنوا في المرحلة الانتقالية من ضمها إلى مستعمرتهم، كما ضمت فيما بعد نواميديا الغربية (قسم سطيف)⁽³⁾.

وكان الاحتلال الروماني احتلال تسلط واستيطان، لأنهم يستولون على أخصب الأراضي وأحسنها. وينال الجندي الروماني امتيازات مالية، بينما البربري المسكين يعاني من الحاجة والفقر، بل يستأجر قطعة الأرض من الروماني المحتل حتى يستثمرها للحصول على قوت عياله⁽⁴⁾. ولكن المناطق التي احتلها الرومان ظلت في ثورة دائمة، فانطلقت الثورة الشعبية ضدهم ولاسيما عام 429 م. وهي التي قوضت سلطانهم قبل أن يجهز عليهم الوندال⁽⁵⁾ الذين احتلوا في ديسمبر 431م مدينة بونة (غنابة) آخر معقل للرومان بالجزائر⁽⁶⁾.

د - الرومان في الجنوب الجزائري: كانت المناطق التالية أكثر مناطق استقرار الرومان بالجزائر. وإذا اضطروا إلى التوغل في الجنوب، فإنها هي محطات حربية خلف الحدود، تتخذ للحراسة، والتي تقدموا بها في الصحراء المقابلة لنواديديا (صحراء قسنطينة)، ودخلوها من ناحية الأوراس. ورغم ذلك، بقيت الصحراء خارج نفوذهم بسبب جهلهم بالصحراء، وانشغالهم بالمناطق التالية⁽⁷⁾. ومع ذلك، سجل لهم بعض الحضور في الجنوب الجزائري، سواء بتنقل جنودهم للحراسة، أو عبور الصحراء للتجارة، أو بواسطة البربر الذين يحسب نشاطهم لهذا العهد.

1 - مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 1، ص ص 252-253.

2 - عبد الرحمان الجيلالي، المصدر السابق، ج 1، ص 68.

3 - مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 1، ص ص 254.

4 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص ص 30-31.

5 - محمد الميلي، عبد الله شريط، الجزائر في مرآة التاريخ، مكتبة البعث، قسنطينة - الجزائر، 1965، ص ص 38-39.

6 - عبد الرحمان الجيلالي، المصدر السابق، ج 1، ص 83.

7 - مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 1، ص 257.

كما أن تغير الظروف جعلهم يراجعون مخططهم، وبدأوا في عملية التوسع في الأراضي الداخلية، ولاسيما أعماق الصحراء، فيما وراء ((خط الليميس)) الحصين الذي يمتد من طرابلس إلى جنوب الرباط. وهو عبارة عن سلسلة من الثكنات ومراكز المراقبة التي تسهر على توفير الأمن للمستعمرة الرومانية⁽¹⁾. وكانت لهم دوافع للتوسع نحو الجنوب الصحراوي، ومنها: (1) اتخاذ الجنوب الجزائري مجالا حيويا لإسكان الشعب الروماني المهاجر من إيطاليا⁽²⁾، ويدخل هذا ضمن سياسة الاستيطان الاستعمارية.

(2) تمسك البربر - القاطنون في الصحراء - بنزعتهم البدوية، وطبيعتهم القوية التي مكنتهم من المساهمة الفعالة في الثورة، وتحولوا إلى عامل إزعاج للشمال الخاضع للهيمنة الرومانية⁽³⁾. ويومئذ كانت الصحراء موطناً لقبائل صعبة الانقياد، ولا تركز إلى الاستقرار، وترفض الخضوع بسهولة للسيطرة الأجنبية المفروضة عليها⁽⁴⁾.

(3) كانت الصحراء عمقا ثوريا، وملجأ آمنا لبربر الشمال - عندما تضطربهم الظروف - لأن المناطق الصحراوية صعبة الاجتياز بسبب مسالكها الوعرة وطبيعتها القاسية⁽⁵⁾.

هـ - الرومان في وادي سوف:

كانت وادي سوف ضمن الفضاء الصحراوي الذي بدأ الرومان يقتحمون أراضيه في الفترة ما بين سنتي 19-22 ق م⁽⁶⁾. وعملوا على مد الطرق نحو الجنوب، مثل الطريق الذي ينطلق من تدرت مارا ببئر محمد بن يونس حتى يصل إلى الوادي ثم تقرت، وطريق آخر ينطلق من باديس عبر هنشير حمامة حتى يصل إلى الوادي، وطريق في الناحية الشرقية لسوف ينطلق من نفطة التونسية عبر بير رومان ويتجه نحو غدامس⁽⁷⁾.

1 - عبد الرحمان الجيلالي، المصدر السابق، ج 1، ص 68.

2 - مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 1، ص 253.

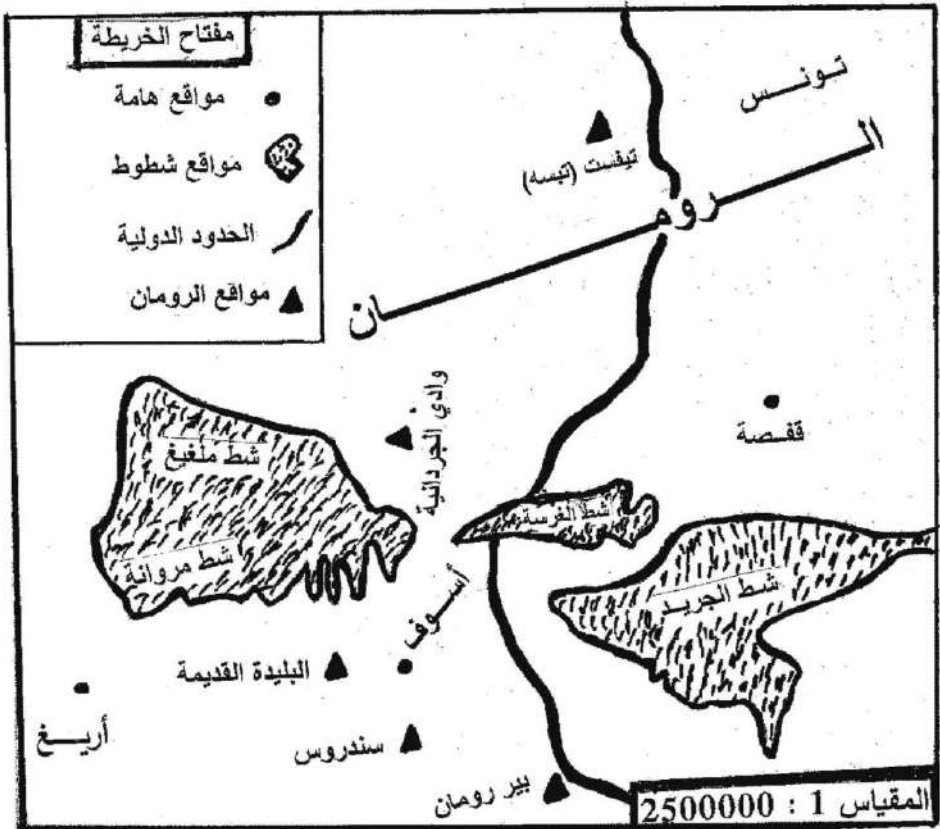
3 - رشيد الناضوري، تاريخ المغرب الكبير (العصور القديمة أسسها التاريخية الحضارية والسياسية)، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ج 1، ص 326.

4 - محمد البشير شنيطي، المرجع السابق، ص 80.

5 - رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص 326.

6 - إبراهيم مياشي، المرجع السابق، ص 204.

7 - محمد البشير شنيطي، ((التوسع الروماني نحو الجنوب وآثاره الاقتصادية والاجتماعية))، مجلة الأصالة، الجزائر، العدد 41، جانفي 1977، ص 11.



المراجع:

- 1- الاطلس العالمي، المعهد الوطني التربوي، الجزائر، ص 16.
- 2- إبراهيم العوامر، الصروف، ص 109.
- 3- عادل أنور خضر، أطلس تاريخ الجزائر، ص ص 33-45.
- 4- André Voisin, Le Souf, Ed :el-walid, p 63.
- 5- محمد البشير شنيقي، التوسع الروماني نحو الجنوب، الاصاله، ص 16.

خريطة مواقع بوادي سوف أثناء عهد الرومان

وقد أقام الرومان زراعة راقية ومنشآت للري في تخوم الصحراء، وشجعوا زراعة الحبوب، ونقلوا شجرة الزيتون إلى المناطق الصحراوية التي تمثل زحفا على المراعي لا يقل مفعوله أهمية عن زحف الجيش الروماني، لأنها ساهمت في استقرار البدو بجوار مزارع المعمرين، والعمل فيها وترك حياة الترحال التي تهدد المنشآت الرومانية بالزوال. كما ساهمت تلك الزراعة في الحد من قساوة المناخ، ووفرت مادة الزيت في الأسواق الصحراوية⁽¹⁾. وحينئذ سكن الرومان عند قدومهم لوادي سوف في مناطق يتوفر فيها الماء والتربة الخصبة، وهما الجردانية والبليدة. كما عثر على آثارهم في عدة مناطق أخرى مثل: قمار والرقبية وغرد الوصيف⁽²⁾. ورغم غزارة الرمال التي دفنت مخلفات الرومان في هذه المنطقة الهامة، إلا أن بعض الآثار تدل على الوجود الفعلي للرومان بوادي سوف، ومن تلك الدلائل:

1- آثار زملة سندروس (Zemlet Sendrous): يظهر من تسميتها أنها لفظة رومانية⁽³⁾ يجهل معناها، وسبب إطلاقها على المكان⁽⁴⁾. وهي آثار خفية تحت الرمال المتراكمة، وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة الوادي. وبدأ ظهور أخبارها في سنة 1930 عند حفر الغيطان في مكانها، فضلا عن أخبار الرعاة من الشيوخ الكبار⁽⁵⁾

1 - محمد البشير شنيبي، المرجع السابق، ص ص 21-22.

2 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 109.

3 - ذكر القايد زيدي الحسين، احتمال كونها لفظة رومانية، أو اسما بربريا، لأن الألفاظ الرومانية أو البيزنطية تنتهي غالبا بحرف في OUS أو OS. Voir . André Voisin, Op-Cit, P. 63

Pierre Bataillon, Les Romains Etaient -Ils Etablis Dans Le Souf?, (BLS), N: 11, Déc 1952, p 41.

4 - ربما كانت إحدى المحطات الرومانية العسكرية، وشيدت لأخذ الجنود قسطا من الراحة. وذكر محمد الحميري في كتابه الروض المعطار في خبر الأقطار، خبرا تغلب عليه الأسطورة عن جزيرة ((سندروس)) بالبحر المحيط، وقد يكون أحد الجنود الرومان على معرفة بها أو من سكانها، وربما يكون أطلق الاسم عليها عند تواجده بأرضها. كما تطلق اللفظة على المادة الصمغية التي تفرزها أغصان النبات والتي تتمركز في قشور الأغصان. أما نبات السندروس فيوجد في الشمال الإفريقي ولاسيا الجزائر والمغرب، وهو عبارة عن شجيرات ذات أوراق متقابلة منحنية عند قمتها إلى الأسفل، وتوجد الأزهار في نهاية أغصانها.

(5) تم حفر مزرعتين في أسفل الزملة، وخلال عشرات السنين اتسعت عملية إنجاز الغيطان على امتداد 5 كيلومترات، وفصلت سندروس عن العقلة بغيطانها القديمة. وتذكر الأخبار الشعبية عند حفر الغيطان، عن كشف العمال عن أنقاض جدران شيدت بالحجارة، وبعض الآثار الأخرى، وأثناء البحث سنة 1952 من طرف الفرنسي بيار باطايون، =

2- آثار بير رومان: ومن تسميتها يعتقد أنها بنيت من طرفهم. وتقع على بعد 180 كم جنوب شرق سوف. وبنيت البئر من الحجر المنحوت في الطريق بين نقطة إلى غدامس⁽¹⁾ لتأمين القوافل وتوفير الماء الضروري للعابرين لصحراء صعبة المسالك يتعرض للموت كل من فقد فيها الماء ولاسيما في فصل الحرارة الشديد.

3 - قطع النقود الرومانية: التي عثر عليها بكثرة في مختلف النواحي بالمنطقة. ووجد في أحد وجوها صورة الإمبراطور قسطنطين، وهي تثبت تواجدهم أو خضوع المنطقة لهم في القرن الرابع⁽²⁾. كما عثر على نقود كثيرة⁽³⁾ في غرد الوصيف التي تقع جنوب سحبان، وتبعد عن الوادي بنحو أربعين كيلومترا جنوب غرب الوادي. بينما كانت القطع التي عثر عليها بقمار، تعود إلى عهد الملك البربرية، ومنها القطع التي تعود إلى الملك ماسينيسا، وإلى الأباطرة نيرون (54-68 م) وترجان (98-117 م)، وأخرى للعهد النوميدي، عند يوغرطة ويوبا الثاني، وهذا جعل وادي سوف مستقرا لتلك الفئات المختلفة⁽⁴⁾.

ثانيا: الاحتلال الوندالي في وادي سوف (431—534م):

أ - التسمية وأصولهم البشرية: الوندال قوم نسبوا إلى بلاد الأندلس التي استقروا بها، وأسسوا بها دولتهم العظيمة، وكانت تعرف حينئذ باسم ((واندلسيا))⁽⁵⁾ وقيل

= لم يعثر على شيء منها ما عدا الأخبار التي رواها له أحد ملاك الغيطان الأولى، الساسي بن قدير الحمدي الذي يعرف المكان التقريبي لتلك الآثار التي بينها له قبل 1930 اثنان من قدماء الشيوخ، وذكر أحدهما أنه كان أثناء شبابه يرى الغنم في تلك الجهة، ويقضي القيلولة تحت تلك الجدران، وتبعد إحدهما عن الأخرى بنحو 200 م.

Pierre Bataillon, Les Romains Etaient -Ils Etablis Dans Le Souf?, (BLS), N: 11, Déc 1952, p 40.

1 - André Voisin, Op-Cit, P.63 .

2 - CL.. Bataillon: Le Souf Etude de Géographie Humaine, Université d'Alger, Institut de Recherches Sahariennes, M: 02, P. 97 .

3 - وعدادها نحو 60 قطعة نقدية فضية رومانية، تم اكتشافها سنة 1951 من طرف شيخ كبير، هو والد عبد الله القطاوي، الدليل الصحراوي المعروف عند كبار الوادي، وهذا الاكتشاف يدل عن إقامة الرومان في سوف، وهي من أثر التعامل التجاري، وربما كانت في كيس أحد التجار الرومان الذين عبروا المنطقة قديما.

Chalumeau: Les Romains dans le Souf?, (BLS), N: 12, Avr 1953, p18.

4 - Ahmed Nadjah, Op- Cit, p 28-29 .

5 - أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، ص 54.

((فاندولوسيا)) وعلى هذا الأساس يسمون الفندال، فصار أول اسمهم بين الواو والفاء.

أما أصولهم، فهي جرمانية، ويتسبون إلى أمة القوط الغربية التي سكنت شمال نهر الدانوب في القرن الثالث ق م، وعلى سواحل بحر البلطيق. وهم من السلالة الصقلبية - السلافية، وأثناء القرنين الخامس والسادس الميلاديين، انتشروا في أوروبا، واستولوا على فرنسا، ثم إسبانيا واحتلوها سنة 409م⁽¹⁾.

ب - احتلال الوندال للجزائر: وجد الملك الوندالي ((جنسريق)) نفسه قادرا على غزو الرومان في إفريقية، بسبب ضعف الرومان واختلافهم وصراعهم فيما بينهم. فتقدم بجيوشه إلى نوميديا، وحاصر بونة(عنابة)، وهزم الرومان عام 431م، وعقد معهم معاهدة لكسب الوقت، وتمكن في هجومه المفاجئ من احتلال قرطاجنة في 19 أكتوبر 439م⁽²⁾. واتخذها عاصمة له سنة 455م وسيطر منها على الجزائر، ولكنه لم يحدث أي تغيير في نظمها الإدارية، وإنما اكتفى بالاستبداد في مصادرة الأراضي، وتوزيعها على أفرادهم، وفي المقابل فرض الضرائب الباهظة على سكان البلاد وأرهبهم. وقاموا بتهديم الأسوار، وكسروا الحصون⁽³⁾، وقام الوندال بقتل من وجدوه فيها من الرومان. بل هدموا الصوامع والكنائس، وأجلوا أصحابها من الرهبان إلى الجنوب الصحراوي⁽⁴⁾. وحينئذ استقر بعضهم في منطقة سحبان غرب الوادي، وفي جلهمة بين قمار وتاغزوت⁽⁵⁾ لحماية أنفسهم، ومقدرتهم على ممارسة الزراعة بالموطن الجديد.

1 - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 94.

2 - محمد المليبي، عبد الله شريط، المرجع السابق، ص 40.

3 - عبد الرحمان الجيلالي، المصدر السابق، ج 1، ص 84-94.

4 - كان الوندال وثنيين يعبدون الشمس والقمر وغيرها من الآلهة، واعتنق بعضهم المسيحية على مذهب أريوس الإسكندري، وهو مذهب الحكومة. واضطهدوا أتباع بقية المذاهب كالدوناتيين والكاثوليك والأرثوذكس. وهذا ما حمل رجال الكنيسة الأرثوذكسية أن طلبوا من امبراطور بيزنطة أن يبعث حملة لتخليص إفريقية من ظلمهم. انظر: عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 95.

5 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 112-113.

وكانت سياسة جنسريق مع البربر قائمة على إرضائهم والتحكم فيهم بشتى الطرق⁽¹⁾. لكن بعد وفاته سنة 477 م، لم يحسن خلفاؤه معاملتهم. فأعلنوا ضدهم الثورات ومنها ثورة 480م التي اندلع هيبها في جبل أوراس وجبل راشد وامتدت إلى طرابلس غربا، واستمرت معاركها إلى سنة 483 م، وكان النصر حليف البربر الذين استطاعوا تحرير مدينة تيمقاد وباغاية وتبسة وغيرها من الوطن الجزائري⁽²⁾. ولا يستبعد مشاركة البربر - اللاجئين بالصحراء - في تلك الثورات كرد فعل وطني، وانتقامهم ممن قهرهم وشردهم في تلك الأصقاع البعيدة.

ج - الوندال في وادي سوف:

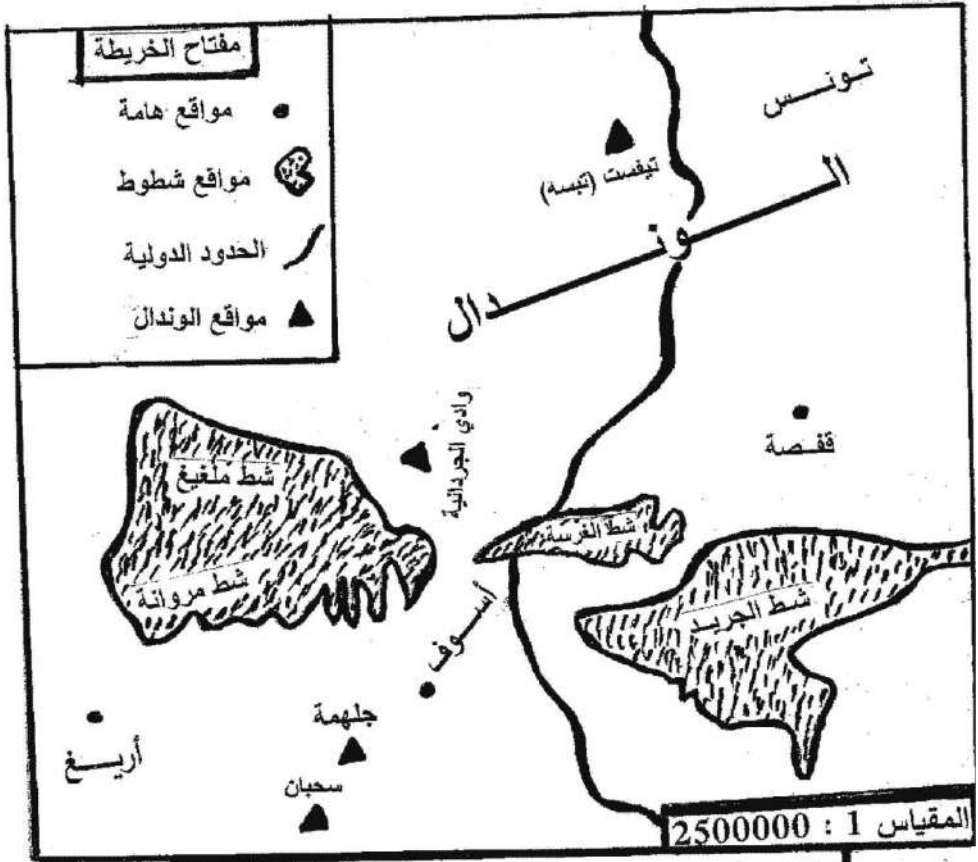
مما سبق ذكره، تبين أن الاجتياح الوندالي لم يتجاوز - في الجنوب الصحراوي - المنطقة الواقعة بين باتنة وتوزر بالجنوب التونسي. ورغم أن الوندال لم يصلوا بأنفسهم لمنطقة سوف، فإنهم كانوا سببا في جعلها كسابق عهدها موطننا حاميا للفارين والمطرودين واللاجئين والمضطهدين من الرهبان المسيحيين الذين التجأوا إليها. واستقر بعضهم في منطقة سحبان غرب الوادي، وفي جلهمة بين قمار وتاغزوت⁽³⁾، ومثلت خير مستقر لهم. كما استقطبت في نفس الوقت المهاجرين من البدو الأفوراس القادمين من أدرار بعد مرورهم بغدامس⁽⁴⁾.

1 André Voisin, Op-Cit, P.64.

2 - عبد الرحمان الجيلالي، المصدر السابق، ج 1، ص 96.

3 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 112-113.

4 - André Voisin, Op-Cit, PP.63-64 .



- المراجع:
- 1- الأطلس العالمي، المعهد الوطني التربوي، الجزائر، ص 16.
 - 2- إبراهيم العوامر، الصروف، ص 112-113.
 - 3- عادل أنور خضر، أطلس تاريخ الجزائر، ص 47-49.
 - 4- André Voisin, Le Souf, Ed : el-walid, p 63-64.

خريطة مواقع بوادي سوف أثناء عهد الوندال

ثالثا: الاحتلال البيزنطي في وادي سوف (534-647م):

أ - التسمية والأصول التاريخية: يتسبب الروم البيزنطيون إلى عاصمتهم بيزنطة. وهي مدينة تقع على البوسفور، أسسها بيزانس رئيس الماغريين سنة 1200 ق م، وقيل بنيت سنة 658 ق م. وعندما تضخمت الإمبراطورية الرومانية، قام الإمبراطور قسطنطين بتحويل عاصمتها إليها سنة 330 م، وجدد بناءها وصارت تعرف بالقسطنطينية، نسبة إلى الإمبراطور قسطنطين. ثم انقسمت الإمبراطورية إلى شطرين في سنة 395م: الإمبراطورية الغربية وعاصمتها روما، والشرقية وعاصمتها بيزنطة. وقدر لبيزنطة منذ عهد أركاديوس عام 395 م أن ترث عرش روما. واستمر ذلك إلى الفتح العثماني لها سنة 1453 م. وكان سكانها مزيجا من الرومان واللاتين واليونان وهم الإفرنج، فأطلق عليهم العرب اسم الروم البيزنطيين. وكانوا يسيطرون على رقعة جغرافية تمتد من البوسفور إلى نهر الفرات⁽¹⁾.

ب - احتلال الروم للجزائر: كانت الجزائر تحت حكم الوندال تعيش القلاقل والفتن والضعف في التسيير. واشتد الخلاف في البيت الوندالي، مما دفع على إزاحة الملك «هلدريق» من حكمه. وحينها استعد للانتقام من خصمه المستولي على السلطة، فاستنجد بقيصر بيزنطة الذي تقدم بجيوشه لاحتلال البلاد⁽²⁾.

لقد جهز الإمبراطور البيزنطي⁽³⁾ جستنيان (527-566 م) جيشا لغزو إفريقية بقيادة «بليسير» الذي استطاع احتلال قرطاجنة وطهرها من الوندال سنة 534 م. ثم شرع الروم في توسيع رقعة احتلالهم التي ضمت شمال الجزائر، وتبعها تشييد سلسلة من الاستحكامات والحصون لفصل السواحل عن داخل البلاد. وأوجب جستنيان على السكان سنة 535 م اعتناق المذهب الكاثوليكي، رغم أن سكان الجزائر يدينون بالمذهب الأرثوذكسي. وانتشرت المسيحية في نواحي نوميديا ومنطقة الشلف وتلمسان والأوراس وبلاد الزاب⁽⁴⁾ ووادي سوف⁽⁵⁾. وحينئذ ثار نزاع كبير وخلاف شديد بين الطوائف المسيحية. ولما كان الجدل محتدما فاجأهم هرقل الأول سنة 631 م بإصدار قانون يفرض عليهم تعاليم جديدة. فقابله السكان

1 - انظر: عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 81. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 100.

2 - عبد الرحمان الجيلالي، المصدر السابق، ج 1، ص ص 98.

3 - انظر: عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 81. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 100.

4 - عبد الرحمان الجيلالي، المصدر السابق، ج 1، ص ص 98-103.

بالفرض . وبدأت القلاقل، وفضل آخرون الهروب من ظلم السلطات البيزنطية⁽¹⁾ .

ج - البيزنطيون بوادي سوف:

تأثرت وادي سوف بالوجود البيزنطي في الجزائر، والذي بلغت آثاره إلى المنطقة، والتي نستخلصها من بعض الوقائع التاريخية الدالة عليهم:

(1) كانت منطقة وادي سوف في تلك الظروف السابقة مأوى للمسيحيين، ولاسيما الرهبان من الروم الذين التجأوا إليها فرارا بدينهم، والتخلص من الظلم والاضطهاد الذي كان مفروضا عليهم في الشمال. وكان نزولهم عند من سبقوهم من الرومان بجلهمة وسحبان التي بنوا فيها أماكن للعزلة والعبادة⁽²⁾، وصوامع للتبتل. وذكر العدواني في تاريخه قصور الرهبان بقوله: «... كان فيما مضى سبعة رهبان من النصارى، بنى كل واحد قصرا لنفسه؟؟...»⁽³⁾ وكانت قرية جلجمة أو (جلهمة) قرب قمار، ذات أهمية دينية بالغة، مما جعلها مقرا للأسقفية الدينية في سوف.

(2) شهدت منطقة سوف انتشارا واسعا للقطع النقدية البرونزية البيزنطية، ولم ينقطع أثرها من رمال العرق إلا خلال الحرب العالمية الأولى بسبب تحويلها من طرف الصائغين إلى حلي للنساء، وبقيت عند العائلات كملكية خاصة⁽⁴⁾.

(3) المشاركة الجماعية في تحرير البلاد، فرغم محاولة البيزنطيين إحكام سيطرتهم على السكان، فإن قبائل نوميديا المستقرة فجرت نيران الثورة العارمة، ومثلها فعلت القبائل الصحراوية المتنقلة⁽⁵⁾. وقد شارك فرسان سوف في تلك المقاومة الشعبية ضد خط الدفاع البيزنطي الذي كان ممتدا من قفصة إلى تبسة ولميز. وقاد الثورات زعماء البربر الذين أضعفوا الحكم البيزنطي فتهاوى بسهولة. وسقط عند قدوم الفاتحين من العرب المسلمين⁽⁶⁾.

وما يمكن استخلاصه في آخر هذا الفصل:

- أن وادي سوف منذ عصور ما قبل التاريخ وفجر الحضارة وإلى آخر العصور القديمة - عند انتهاء الوجود البيزنطي بالبلاد - عرفت مظاهر زاخرة لحياة الإنسان القديم، وعاشت

1 - عبد الرحمان الجيلالي، المصدر السابق، ج 1، ص 103.

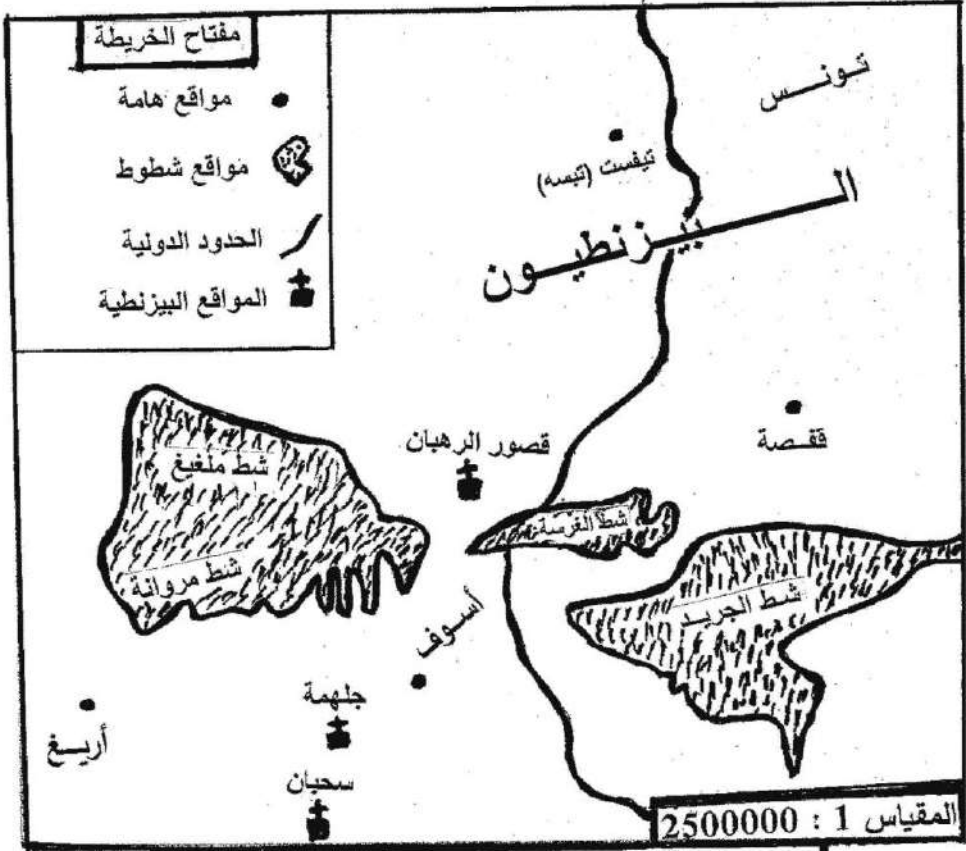
2 - إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 114.

3 - محمد العدواني، المرجع السابق، ص 91.

4 - André Voisin, Op-Cit, p 64 .

5 - عبد الله شريط، محمد الميلي، المرجع السابق، ص 43.

6 - André Voisin, Op-Cit, p 65 .



المراجع:

- 1- الاطلس العالمي، المعهد الوطني التربوي، الجزائر، ص 16.
- 2- إبراهيم العوامر، الصروف، ص 114.
- 3- عادل أنور خضر، أطلس تاريخ الجزائر، ص ص 50-52.
- 4- André Voisin, Le Souf, Ed : el-walid, p 64-65.
- 5- محمد الميلي، عبد الله شريط، المرجع السابق، ص 43.

خريطة مواقع بوادي سوف أثناء العهد البيزنطي

وقائع تاريخية هامة في حوافها الحدودية، أو في صحرائها الممتدة إلى أعماق العرق الشرقي بالجنوب.

- إن المنطقة سكنت من عدة أجناس، وقصدتها فئات بشرية في أوقات متفاوتة، ومنهم الليبيون، والجيتول، والزيقون، والأفوراس، وماسوفا من ذوي الأصول التارقية، إضافة إلى شعب الجرامانت، والأمازيغ من قبيلة زناتة البربرية.

- كانت حياة سكانها بسيطة، سواء في الحجم الديمغرافي أو الأشكال العمرانية، والتي مثلتها بعض الأكواخ من الطين والتراب عند شبه الرحل، أو العيش تحت الخيام في معظم الأحيان عند البدو، مما جعل الآثار العمرانية محدودة ومتناثرة في أراضيها الشاسعة على ضفاف النهر المائي القديم.

- كانت أنماط المعيشة مركزة في الرعي بالدرجة الأولى في أطراف الوادي الرقراق لتوفر المياه العذبة التي كانت سببا في جلب المهاجرين إليها آنذاك، فضلا عن صيد الحيوانات البرية، والأسماك في البرك والمستنقعات الجنوبية في التريتون. وتطورت طريقتهم في زراعة الأراضي حبوبا أو زيتونا في الشمال بالجردانية وعيون النازية، وداخلها في البليدة القديمة، وجلهمة، وغرد الوصيف. كما كان لهم دورهم في التجارة وقيادة القوافل وتأمين مسالكها في مجاهل الصحراء، وربط علاقات متينة بين الشعوب.

- إن المعتقدات الدينية بوادي سوف القديمة جسدها وجود المسيحية بشكل بارز، لأن الطوائف المسيحية في الشمال، من الروم أو البربر، عانت الاضطهاد والقهر في عهدي الوندال والروم البيزنطيين، فوجدوا في وادي سوف ملاذا آمنا، فشيّدوا صوامعهم، وأقاموا كنائسهم، وفتحوا أسقفيتهم بكل حرية، ومارسوا طقوسهم الدينية، وعبادتهم بكل راحة وطمأنينة.

- رغم بعد أراضي وادي سوف في أعماق الصحراء، فإن آثار الاستعمار القديم - الذي مس الجزائر الشمالية - خلف مظاهره في تاريخها، فاتخذت ملجأً سياسيا للمضطهدين، وشهدت وقائع للرومان والوندال والروم البيزنطيين، حينما اتخذت طرقا ومحطات تجارية، وشيدت الآبار لتوفير الراحة للقوافل. ويومئذ سقطت النقود (والتي التقطت في أوقات متباعدة)، وبقيت شاهدة على تلك النشاطات الاقتصادية.

- اشتهرت الشعوب التي سكنت أو تنقلت في محيط وادي سوف القديم بروح المقاومة، والتمسك بالقبيلة والأهل، والدفاع عنهم، كما ظهر جليا عند الأمازيغ. ورغم احتضانها للوافدين واللاجئين وحسن ضيافتهم، فقد ساهمت معهم في محاربة الغزاة المحتلين، ومثلوا المشاركة الجماعية - مع غيرهم من سكان المدن والقرى المجاورة - في تحرير البلاد التي صارت حرة مستقلة عند قدوم المسلمين.

الفصل الثالث

تاريخ وادي سوف منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية عصر الولاية بإفريقية

المبحث الأول:

حالة وادي سوف في بدايات الفتح الإسلامي لبلاد إفريقية

المبحث الثاني:

المسارات التاريخية للفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأوسط ووادي سوف

المبحث الثالث:

عصر الولاية بإفريقية وأثره على المغرب الأوسط ووادي سوف

تاريخ وادي سوف منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية عصر الولاية بإفريقية

وقفنا في الفصل السابق على أحوال بلاد المغرب القديم، وما سادها من أنظمة محلية بعيدة عن سبل الحضارة، وهي إلى البداوة أقرب، وأنظمة متحكمة طاغية، وفدت عليها بالتتابع، واحتلت أرضها، واستعبدت شعبها، وسامتة شتى أنواع الاستبداد والطغيان، واستغلت خيراته المادية إلى أقصى الحدود. ويومئذ كانت الرغبة الملحة هي البحث عن حياة الحرية والاستقرار، والأمن والطمأنينة، والتي تجلت ببزوغ فجر «الإسلام» الذي لاح نجمه في الأفق العربي، وانتقل نوره إلى بلاد المغرب، وعم بلاد الجزائر، وحينها سعدت وادي سوف كغيرها بهذا النور الجديد.

فكانت أيام الفتح الأولى زاخرة بالأحداث والحروب والثورات. وتطلبت حالة الاستقرار الجهود الجمة التي بذلها الدعاة الذين قادوا مسارات الفتح والتي كلفتهم أوقاتهم واعمارهم، وسقط منهم الشهداء، الذين ضمخوا الأرض بدماء شريفة، أينعت حب الله ورسوله، عندها شع النور في قلوب السكان من البربر وبقايا البيزنطيين.

وقد أتى حين من الدهر على بلاد المغرب الإسلامي، والتي تعاقب عليها الولاية، الذين أرسوا منارات الشريعة الغراء، وخاضوا الحروب، وقاوموا الثورات. وحينها كانت وادي سوف شاهدة على ذلك التاريخ من خلال حركة البدو الرحل، والقوافل التجارية التي كانت تجوب الصحراء طولا وعرضا، وتتصل بالحواضر المتاخمة لوادي سوف، فضلا عن الرحالة من رجالها الذين اعتادوا على خوض غمار تلك الفجاج، وعبورا تلك المسارات والدروب الصحراوية الموغلة. وحينها سمعوا عن الحوادث السياسية المتعاقبة.

المبحث الأول

حالة وادي سوف في بدايات الفتح الإسلامي لبلاد إفريقية

أ- ظهور الإسلام وانتشاره في الأرض:

كانت البشرية تعيش في غيبوبة كبرى، وغفلة شديدة أبعدهم عن عالم القيم والمبادئ، وانتشرت فيهم عادات وتقاليد التخلف والجمود، والظلم والجحود. وانتظر الناس من يخلصهم من حالهم المزرية، ويرفع عنهم حجاب الغبن الشديد، والمصير المجهول، حتى شع نور الإسلام ببعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فأقام كيانا قويا للإسلام في المدينة المنورة، ونشر الإسلام في كامل شبه الجزيرة العربية، وبدأ يتطلع إلى أراض أبعد منها. ولكن الإمبراطوريات القوية، المجاورة للدولة الجديدة، انتفضت خوفا من غزوها فكريا قبل اجتياحها عسكريا، وتمثل ذلك في دولتي فارس في الشرق، ودولة الروم البيزنطيين في الغرب. وكانت هذه الأخيرة تحتل أرضا واسعة تمتد من بلاد الشام ومصر إلى بلاد إفريقية التي تتواصل مع طنجة والمحيط الأطلسي.

وكانت غاية المسلمين هي إيصال نور الإسلام إلى قلوب الناس، حتى يدخلوا في الدين الجديد أفواجا. وبداية من السنة السادسة الهجرية، تواصل النبي صلى الله عليه وسلم مع ملوك الأرض وحكامها، يدعوهم - بكل عزة وقوة - إلى الإسلام الذي ينعمون في كنفه ويسعدون. وكان قيصر الروم (هرقل) من أوائل الذين وصلتهم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان نص رسالته إليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فإني أدعوك بدعوة الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت، فإن عليك إثم الأريسيين ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران: 64. (1)

ولما قرأ هرقل الكتاب، سأل حاشيته عن إمكانية وجود رجل من قوم محمد من التجار في بلاده، فجيء له بقوم من التجار العرب، أبرزهم من أهل الحرم، أبو سفيان بن حرب، فسأله

1 - محمد الخضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، تح سمي أحمد العطار، دار الحديث، القاهرة، 2003، ص 170.

مليا عن أحواله كلها، وتؤكد أنه نبي مرسل من عند الله، وقال هرقل كلمته المشهورة لأبي سفيان: ((وإن كان كما كلمتني به حقاً، فسيملك موضع قدمي هاتين. ولو أعلم أني أخلص إليه، لتكلفت ذلك))⁽¹⁾.

ولكن الروم في أطراف دولة الإسلام لم يتقادوا للدين الجديد، بل عادوه وخاصموه، ووقع صدام لهم مع المسلمين. وكانت أول غزوة لهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، في السنة الثامنة من الهجرة. وكانت غزوة مؤتة، وهي أرض قريبة من الكرك في مشارف بلاد الشام، وهي الموقعة التي خرج فيها زيد بن حارثة قائداً، وقامت معركة شديدة استشهد فيها ثلاثة من القادة، ومن أفضل الصحابة (زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة). ورجع خالد بن الوليد ببقية الجيش إلى المدينة⁽²⁾.

وأصر النبي صلى الله عليه وسلم على الانتقام لشهداء مؤتة. وسمع المسلمون في رجب من السنة التاسعة للهجرة بعزم الروم على غزو بلاد المسلمين، وجمعوا حشوداً كبيرة، فخرج إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فيما عرف بغزوة تبوك في رجب من السنة التاسعة للهجرة، وكانت جموع الروم كبيرة، ولكن لم يقع قتال. فلما وصل النبي صلى الله عليه وسلم لتبوك، لم يجد حرباً، وإنما صالح أهلها، وكتب لهم كتاب الأمان، ورجع منتصراً إلى مدينته⁽³⁾. ولكن نيته في تأديبهم وكسر شوكتهم بقيت في نفسه، ولاسيما الانتصار لشهداء مؤتة، والذي عقد لواء الحرب لأسماء بن زيد في شهر محرم، وأمره أن يقتحم أرض البلقاء والداروم من أرض فلسطين. ولكن الجيش تأخر بسبب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته. ولكن الجيش خرج في خلافة أبي بكر الصديق وبلغ بلاد الروم، ورجع منتصراً⁽⁴⁾ بعد أن حقق رغبة النبي صلى الله عليه وسلم. وبعدها بدأت صفحة جديدة لفتوحات الإسلامية.

ب - طلائع الفتح الإسلامي وانتشاره في بلاد إفريقية:

كان عمر الإسلام سنين عدداً حينها قرر المسلمون الانتشار في الأرض، وتبليغ دعوة الله في العالمين، تحذوهم هممة عالية، وحجة بالغة، وسند فوي من الحق، تؤازره راية الجهاد الخفاقة

1 - محمد الخضري، المرجع السابق، ص 171.

2 - محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، أيام العرب في الإسلام، دار الجيل، بيروت، 1988، ص ص 88-91.

3 - نفسه، ص ص 123-127.

4 - ابن كثير، البداية والنهاية، تح أبو الفضل الدمياطي، عبد الرحمان فهمي الزواوي، دار الغد الجديد، ط 1، القاهرة، 2007، ج 7، ص ص 44-46.

في عهد الخلافة الراشدة. واستطاعوا في عهد عمر بن الخطاب أن يفتحوا بلاد فارس والعراق وأطرافها في جهة الشرق، وطهروا بلاد الشام من الروم الذين انصاعوا للحق مرغمين، ودفعوا الجزية صاغرين. وعبر الفاتحون إلى قارة إفريقيا. وكانت مصر أول بلد يدخله نور الحق، عندما وصلها عمرو بن العاص فاتحاً في 10 ذي الحجة سنة 18هـ/12 ديسمبر عام 639م، واستمر الفتح نحو سنتين⁽¹⁾. واندحر الروم، ووافق أهلها على الصلح، ودفعوا الجزية بالتوافق⁽²⁾. وأراد عمرو بن العاص أن يواصل الفتح ويتوغل في غرب مصر، ولكن الشأن متعلق باستشارة الخليفة، فاستأذن عمر في الأمر، ولكنه نهاه عن التماهي في الفتح، قائلاً له في كتابه الذي أرسله إليه: «إنها ليست بإفريقيا، ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها، وذلك لأن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئاً فكانوا يغدرون به كثيراً. وكان ملك الأندلس صالحهم ثم غدر بهم، لا يغزوها أحد ما بقيت»⁽³⁾. والمفهوم من موقف عمر هو الدعوة إلى التريث، وترك المجازفة بالمسلمين في حرب مجهولة العواقب، والرأفة بهم. ويرى أن الوقت لا يناسب، والإمكانات قليلة. وعندما تتوفر الظروف، يمكن مواصلة الفتح لما وراء برقة وطرابلس. ولما تولى سيدنا عثمان الخلافة، وأصبح عبد الله بن سعد بن أبي السرح⁽⁴⁾ والياً على مصر في 25هـ/646م، وجد الفرصة سانحة، فعرض أمر فتح إفريقيا على الخليفة. وبعد تقليب الأمر على وجوهه، أمره بالمضي قدماً نحو الفتح، بل جمع له جيشاً كبيراً بالمدينة، ضم مشاهير

1 - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، تح عبد المنعم عامر، الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، (ب ت)، ص 85.

2 - نفسه، ص 104.

3 - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص 122.

4 - عبد الله بن سعد: هو عبد بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري، أخو عثمان بن عفان من الرضاع، أسلم قديماً قبل فتح مكة، وهاجر مع المسلمين الأوائل، وكان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وافتتن في دينه مدة، ثم رجع إلى الإسلام. كان مع جيوش المسلمين في فتح بلاد الشام، وكان قائداً على ميمنة جيش عمرو بن العاص في فتح مصر. وكان عمرو يبعثه إلى أطراف أفريقية غازياً ويمده بالجنود فيعود ظافراً غانماً. ولاه عمر بن الخطاب على صعيد مصر، ولما تولى عثمان ولاه على مصر كلها سنة 25هـ. وكان له الفضل في غزو أفريقية وفتحها كما كان له الفضل في فتح قبرص والنوبة، وأفريقية مرة ثانية سنة 33هـ. كما انتصر في معركة ذات الصواري على الروم. وبعد مقتل عثمان، عزله علي بن أبي طالب عن ولاية مصر. ووقعت الفتنة فاعتزلها عبد الله، وسار إلى أرض فلسطين، ولم يمكث كثيراً، وتوفي بها سنة 36هـ/656م. أنظر: محمود شيت خطاب، قادة فتح المغرب العربي، دار الفكر، ط 8، بيروت، 2002، ج 1، ص 51-65.

الصحابة وأبنائهم، و عرف بجيش العبادلة⁽¹⁾.

ارتحل الجيش من المدينة في شهر المحرم سنة 27هـ/ أكتوبر عام 647م. ولما وصل إلى مصر، تولى قيادته واليها عبد الله بن سعد الذي استخلف عليها عقبة بن عامر الجهني⁽²⁾. وتقدم جيش الفتح البالغ عشرين ألف جندي، حتى وصل إلى مشارف (قمونية)⁽³⁾ والتقى بالوالي البيزنطي ((جرجير))، حاكم سيطة⁽⁴⁾، وتفاوض معه على الصلح. ولكن بآت كل المحاولات بالفشل، واحتكم الطرفان للسلح الذي حسم المعركة بانتصار المسلمين، وقتل الحاكم الرومي، وتم فتح سيطة وقفصة وقصر الجم، وإبرام الصلح مع الحاكم (جناحة) الذي اختير خلفا لجرجير⁽⁵⁾. وغنم المسلمون أموالا طائلة، شجعتهم على العودة إلى ولاية مصر، وتركوا بلاد إفريقية على حالها من السلوك السابق والخلق القديم. ودخلت البلاد في شغب واضطرابات بين البيزنطيين، وصحبها مقتل الخليفة عثمان. فانشغل المسلمون في دار الخلافة عما هو خارجها، ريثما تستتب الأمور، ويعود الاهتمام بالأراضي المفتوحة⁽⁶⁾.

ج - مراحل الفتح الإسلامي الأولى في بلاد إفريقية:

كانت بلاد إفريقية في العهد البيزنطي تطلق على الأراضي التابعة لهم من برقة إلى طنجة غربا، واستعمل العرب نفس المدلول في بادئ الامر⁽⁷⁾. ولما علم الإمبراطور البيزنطي ما حدث من غزوها، وإبرام الصلح مع المسلمين على الأموال، اغتاز كثيرا. وأرسل قوة عسكرية، وفرض سيطرته على السكان، وأحكم قبضته على البلاد، وعزل خليفة جرجير، وأرجع الحكم للروم إلى سابق عهدهم. ووقعت عدة حوادث عجلت بإعادة فتحها من المسلمين مرة أخرى، وأهمها:

- 1 - جيش العبادلة: كان في الجيش عبد الله بن العباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، والحسن والحسين. انظر: محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ص 56.
- 2 - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص 123.
- 3 - قمونية: أو هي قمودة، ولعلها كابوت فاذا (Caput Vada)، وتمثل الميناء البيزنطي المعروف. انظر: عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص 123. وعند ياقوت: قمونية مدينة بإفريقية كانت موضع القيروان قبل أن تمصر القيروان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج 4، ص 399.
- 4 - سيطة: مدينة هامة في العهد الروماني، وتقع في وسط غربي تونس، بولاية القصرين.
- 5 - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص 124.
- 6 - محمد المي
- لي عبد الله شريط، المرجع السابق، ص 53.
- 7 - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص 121.

-التجاء الحاكم المعزول إلى الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وحرصه على البيزنطيين، ووعده بإمدادهم بكل المعلومات التي تساعدهم في عملية الغزو.

-مهاجمة الأسطول البيزنطي للإسكندرية، وحينها وقعت معركة ذات الصواري الشهيرة سنة 31هـ/651م، في عهد عبد الله بن سعد، وتكبد فيها الروم هزيمة نكراء.

- اتصال زعماء من البربر بدار الخلافة يستنجدون، ويحثون المسلمين على العودة لإفريقية، واستئناف الفتح تخلصا من حالة الشدة والإرهاق والفتن المتعاقبة.

وأمام تلك الظروف، أصدر الخليفة معاوية بن أبي سفيان أمره إلى والي مصر بغزو إفريقية مرة أخرى، فكانت الغزوات كما يلي:

- **حملة معاوية بن حديج:** (1) وكان واليا على مصر وحاكمها. فخرج بجيشه في عشرة آلاف مجاهد سنة 45هـ، 666م، وفيه الكثير من أبناء الصحابة والأنصار. فلما وصلها، وجدها تضطرم نارا، فنزل بجيشه على بلدة (قمونية) قرب القيروان، وقاتل الروم، وهزمهم عند حصن الجمل، ثم بعث السرايا في البلاد، ففتحت سوسة وبنزرت وجربة وجالولاء. ثم استقر في جبل القرن واتخذ مقر له. وبقي ثلاث سنين، وبنى مساكن سماها قيروان، وحفر الآبار، عرفت بآبار حديج، خارج باب تونس (2).

- **حملة عقبة بن نافع الأولى:** (3) كان عقبة جنديا في جيش عمرو بن العاص في فتوحاته. كما عين أميراً على ما فتح فيها. وقد أعجب به معاوية، فعينه واليا على إفريقية لأول مرة في تاريخها

1 - **معاوية بن حديج:** هو معاوية بن حديج السكوني، من كندة. صحب النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير، لذلك لم يشهد غزواته. ولكنه شهد فتح مصر، وكان رسوله بالبشارة بفتح الإسكندرية إلى عمر بن الخطاب. كما شهد فتح النوبة تحت لواء عبد الله بن سعد، وكذلك شارك في غزو إفريقية ثلاث مرات. وهو أول من غزا جزيرة صقلية. توفي بمصر سنة 52هـ/672م. انظر: محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج1، ص ص 75-78.

2 - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج1، ص ص 125-126. محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج1، ص ص 78-80.

3 - **عقبة بن نافع الفهري:** هو عقبة بن نافع الفهري القرشي، أحد المجاهدين، وأبرز الفاتحين الأوائل في بلاد إفريقية. دخل إلى برقة سنة 23 هـ مع ابن خالته عمرو بن العاص، وكان عمره آنذاك أربعة عشر عاما، وظل مرابطا بها لمدة ربع قرن قبل ولايته على إفريقية. وقد بعثه عمرو بن العاص إلى زويلة وبرقة، فغنم كثيرا، فكلفه بالولاية عليها. كما بعثه إلى النوبة، وبذلك كان له فضل كبير في تأمين الحدود الغربية الجنوبية لمصر. وشارك في القتال في حملات عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وولاية معاوية بن حديج. وكانت ولاية عقبة الأولى على المغرب ما بين 50-55 هـ / 670-675 م. وظل مجاهدا في إفريقية حتى استشهد في تهودة. انظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، (ب ت)، ص ص 38-39. محمود شيت خطاب، المرجع السابق ص ص 90-107.

سنة 50هـ، 670م، فسار إليها في عشرة آلاف جندي، وانضم إليه كل من أسلم من أهل البلاد، وفتح بها بلادا عديدة منها غدامس وبرقة وفزان وودان وقفصة وقسطيلية والقيروان، وأصبحت المنطقة الممتدة من برقة إلى القيروان خالصة للمسلمين. وقد تجنب السواحل لأنها حصون بيزنطية محكمة، واكتفى بالمناطق الصحراوية والداخلية⁽¹⁾.

ولما استتب الأمر لعقبة، ورأى أحوال الناس مع الدين، وابتعادهم عن هديه ونوره المبين، قرر إنشاء قاعدة ثابتة للمسلمين في تلك الديار، فشيّد مدينة «القيروان» لثبيت الإيمان في النفوس، ومحاربة ظاهرة الارتداد، ودامت ولايته خمس سنوات. ثم عزل عن الولاية التي أسندت إلى أبي المهاجر دينار، لتبدأ مرحلة أخرى في عملية الفتح في بلاد المغرب الأوسط (الجزائر)⁽²⁾.

ومثلت وادي سوف - في تلك الأثناء - فضاء واسعاً، تشابكت أحداثه، وتغيرت معالمه وحدوده باستمرار، بسبب وقوعه بين بلاد الجريد بالمغرب الأدنى، وبلاد الزاب بالمغرب الأوسط، وغماس بطرابلس الغرب. ونتساءل عن علاقة وادي سوف بأحداث ذلك الفتح؟ والمعروف أن جحافل الفتح الإسلامي وصلت فعليا إلى نواحيه وأطرافه - في وقت مبكر - منذ وصول والي مصر عمرو بن العاص إلى طرابلس وفتحها سنة 23 هـ⁽³⁾. وبسط عبد الله ابن سعد نفوذه على مناطق في البلاد التونسية قريبة جدا من وادي سوف، ومنها سببلة وقفصة وقصر الجم. وأضيف إليها في فتوحات معاوية بن حديج مناطق أخرى قريبة، هي سوسة، وبنزرت، وجربة، وجالولاء.

وكان عقبة بن نافع أحد القادة البارزين في تلك الحملات، وتولى الجيش الذي أخضع قبيلة لواتة بتلك النواحي، وظل بعد ذلك يحارب في الصحراء الجنوبية الليبية، في فزان وودان وما وراءها من الواحات الجنوبية⁽⁴⁾، واستطاع فتح غدامس سنة 42 هـ⁽⁵⁾.

-
- 1 - محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج 1، ص 97-102. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 126.
 - 2 - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 126-127.
 - 3 - انظر: ابن عبد الحكم، المرجع السابق، ص 230. محمد بن خليل غلبون الطرابلسي، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان فيها من الأخيار (تاريخ طرابلس الغرب)، تعليق الطاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ، ص 14.
 - 4 - أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص 38-39.
 - 5 - ابن عبد الحكم، المرجع السابق، ص 264. حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (ب ت)، ص 131.

ونظرا لجهاده الكبير، وتجربته الرائدة، عينه معاوية بن أبي سفيان واليا على إفريقية سنة 50هـ⁽¹⁾، فتوجه عقبة نحو إقليم قسطنطينية، وهي بلاد الجريد المحاذية لوادي سوف، وعلى خط التماس⁽²⁾ وبسط عليها نفوذه⁽³⁾. ((وهذا يفيد أن عقبة أو قومه وصلوا إلى سوف وفتحوا قراها))⁽⁴⁾.

-
- 1 - انظر: البلاذري، **فتوح البلدان**، تح عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعاني للطباعة والنشر، بيروت، 1987، ص 320. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص 38.
 - 2 - وهي بلاد الجريد التونسي، والمسافة الفاصلة بين الجريد ووادي سوف لا تتجاوز تسعين كيلومترا.
 - 3 - انظر: ابن عبد الحكم، المرجع السابق، ص 264. موسى لقبال، **عقبة بن نافع**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 30.
 - 4 - إبراهيم بن عامر، الصروف في تاريخ سوف، مخطوط (نسخة أحمد مفتاح القماري)، ج 1، ص 48.

المبحث الثاني

المسارات التاريخية للفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأوسط ووضعية وادي سوف

كانت بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) تحت الاحتلال البيزنطي، وسكانها من البربر في ضيق شديد من الاحتلال الذي مكن جنوده من أخصب الأراضي، واستمال بعض رؤساء القبائل، ومنحهم ألقابا شرفية، وأعطاهم منحا ومرتبات سنوية. وكان يستهدفهم من أجل إحكام السيطرة على البلاد. ومع ذلك، انتفض السكان، وثار قبائل نوميديا المستقرة، وثار القبائل الصحراوية المتنقلة. وترعم الثورة أبطال أقوياء من البربر مثل «بيداس» الذي كان على جبل أوراس، و«أرتياس» الذي ثار في غربي الأوراس وحتى منطقة الحضنة، و«يناس» في شرقي الأوراس. وتمتع الثلاثة بالاستقلال في نواحيهم، وتمكنوا من استرجاع كثير من الأراضي المغصوبة، ورفعوا شعار «أرض البربر للبربر». ولم تقف أمامهم الحصون والقلاع والأسوار البيزنطية التي تهاوت في سيرتا وقيصرية وتيمقاد وسطيف وميلة وقلمة ومداوروش وتبسة⁽¹⁾. وأغلبها مناطق موازية للجنوب الصحراوي، ومنها منطقة وادي سوف التي كان بدوها الرحل يتناقلون أخبار تلك الثورات، وربما شاركوا فيها. ويتابعون أخبار الفتح الإسلامي التي تواصلت بنفس جديد.

أما في دار الخلافة، فكانت النية معقودة على مواصلة الفتح غربا. ويومها ولى معاوية على مصر وبلاد المغرب مسلمة بن مخلد الأنصاري⁽²⁾ الذي تعذر عليه جمع تلك المهام الثقيلة، فاكتفى بالاستقرار في مصر، وأشرف على متابعة قادته وتوجيههم. ووجه حملته الأولى نحو المغرب الأوسط:

أ - حملة أبي المهاجر دينار أول فاتح للمغرب الأوسط:

أرسل مسلمة بن مخلد مولاه أبا المهاجر دينار⁽³⁾ إلى بلاد إفريقية اعترافا له بخدماته، ومكافأة له على أعماله، وقال: «إن أبا المهاجر صبر علينا في غير ولاية، ولا كبير ميل، فنحن

1 - محمد الملي، عبد الله شريط، المرجع السابق، ص 42-43.

2 - مسلمة بن مخلد: هو مسلمة بن مخلد بن صامت الأنصاري الحزرجي، الصحابي. أحد الأمراء الذين اتصلوا بمعاوية، وشهد معه معركة صفين، فحفظ له ذلك، فجعله واليا على مصر سنة 47هـ، وأضاف إليه المغرب. فأقام بمصر، ومنها بعث إليها الفاتحين. انظر: محمد الملي، عبد الله شريط، المرجع السابق، ص 42-43.

3 - أبو المهاجر دينار: كان مولى لوالي مصر، مسلمة بن مخلد، الذي كانت تحت إمرته كل إفريقية. فانصب أبو المهاجر سنة 55 هـ/ 675 م، واستمر في ولاية إفريقية سبع سنوات. وكان سياسيا بارعا، تعامل مع البربر بحكمة ولين، فكسب =

نحب أن نكافئه)). وكان أبو المهاجر أول أمير مسلم فاتح وطئت أقدامه أرض الجزائر. وتولى أمرها بعد عقبة بن نافع⁽¹⁾، وأقام بها سبع سنين (55-62هـ/674-682م)⁽²⁾.

وسار أبو المهاجر غربا مع الساحل، حتى وصل إلى مدينة «أميلة» ففتحها، وجعلها مستقرا ودارا لإمارته لأنها أحسن مكان يراقب به السكان من البربر والروم، وجعلها ملاصقة للجامع، وأقام بها سنتين. وفي مسيرته حارب البربر، وكان ينشر الإسلام فيهم، ويدعوهم إلى التوحيد والخلال الكريمة، وحينها مكن للإسلام في ربوع البلاد. ووصل في فتوحه إلى الأوراس وبلاد الزاب المتاخمة لوادي سوف، ووصل في فتوحه غربا إلى تلمسان⁽³⁾.

وكانت الزعامة في المغرب لقبيلة «أوربة»، ورئيسها كسيلة بن لمزم. وكان نصرانيا متمسكا بدينه وبلاده، فجمع الجموع الكبيرة لقتال المسلمين، ووقعت معركة كبرى في تلمسان، انتصر فيها المسلمون، وأخذ كسيلة أسيرا إلى أبي المهاجر الذي قربه إليه، وعامله معاملة الملوك، وأظهر كسيلة الإسلام، وصارت علاقته حسنة مع القائد أبي المهاجر الذي صالح أهل إفريقية، ثم رجع إلى القيروان، وأقام بها⁽⁴⁾. لأن نيته كانت إتمام الفتح وبسط روح الإسلام، والتمكين للدين في كامل الأراضي المفتوحة.

ب - حملة عقبة بن نافع الثانية على المغرب الأوسط:

عندما تولى الخلافة يزيد بن معاوية، أعاد عقبة بن نافع لولاية إفريقية سنة 62هـ/682م، ووصل إليها في عشرة آلاف فارس، وكانت أعماله التالية:

= قلوبهم، واستمال قاداتهم بعد محاربتهم، ونجحت سياسته نجاحا كبيرا، فدخلوا في الإسلام أفواجا، وعلى رأسهم كسيلة البرنسي الذي كان حليفا للبيزنطيين ضد العرب، وفي سنة 62 هـ توفي معاوية، وانتقل الحكم إلى ابنه يزيد فعزل أبو المهاجر، وأعاد عقبة إلى ولايته للمرة الثانية.

انظر: ابن عبد الحكم، المرجع السابق، ص 264-267. عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص 127-128. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص 39-40.

1 - عزل عقبة من ولايته، وحينها أساء إليه أبو المهاجر، واستخف به، وقيده في الحديد، وسجنه عدة شهور. ثم أطلق سراحه بأمر من الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي طلب إرساله إلى العاصمة دمشق. ولما وصل عقبة، ذكر للخليفة المعاملة السيئة التي تلقاها من أبي المهاجر، فاعتذر إليه معاوية، ووعد أن يعيده إلى ولايته عندما تتحسن الظروف. انظر: محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ص 106-107.

2 - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص 127.

3 - انظر: ابن عبد الحكم، المرجع السابق، ص 264. عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص 127-128. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص 39-40.

4 - انظر: محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ص 139-141.

- اعتنى بالقيروان من جديد، فأعاد عمرانها، ونقل إليها الناس، فعمرت وازدهرت، وعظم شأنها، ثم ترك بها بعض الجند، واستخلف عليها زهير بن قيس البلوي، وتقدم غربا.
- أخذ عقبة أبا المهاجر، وحبسه وقيده في الحديد ردا لاعتباره، ومعاملة له بالمثل، وحمله معه في غزوته حتى وصل إلى مدينة ((باغاية)) وقاتل الروم وهزمهم. ثم واصل إلى الزاب، وأهم مدنه ((أرية))، وحوها ثلاثائة وستون قرية كلها عامرة. فتحصن بها الروم والنصارى، وهرب بعضهم إلى الجبال، ولكن كانت الهزيمة في صفوفهم⁽¹⁾. وكانت وادي سوف في القسم الجنوبي من الزاب، هي إحدى تلك القرى الجنوبية من الإقليم. وكانت المعارك قاب قوسين من وادي سوف.

ثم تقدم عقبة نحو ((تاهرت)) وهزم الروم وغنم ما عندهم، واستمر في غزوه حتى بلغ مدينة طنجة، وانتهى إلى السوس الأدنى، حتى انتهى به الزحف أخيرا إلى المحيط الأطلسي⁽²⁾، وبلغت حوافر فرسه الماء، بل وصل إلى نحره، وعبر عن رغبته في خوض المعارك أبعد من المحيط، لولا أمر الله وقدرته. كل ذلك غيرة على الدين. ومما قاله عقبة:

((اللهم إني أشهدك ألا مجاز، ولو وجدت مجازاً لجزت))⁽³⁾. وفي رواية أخرى قال: ((اللهم أشهد إني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد دونك))⁽⁴⁾.

ولما كلل جهاده بالنصر، رجع عقبة منتشيا جذلا، ومعه كسيلة مكبلا في الحديد، وعامله بفضاضة. وعلم أبو المهاجر بتلك الإهانة التي مست هذا القائد البربري، فقال لعقبة ناصحا ومحذرا: ((أصلح الله الأمير، ما هذا الذي صنعت؟ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة الأرض كالأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن، وأنت تجيء إلى رجل هو خيار قومه في دار عزه قريب عهد بالكفر فتفسد قلبه؟ توثق من الرجل فيني أخاف

1 - انظر: عبد الرحمن الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص 128. مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 25.

2 - محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ص ص 109-110.

3 - ابن الأبار، الحلة السرياء، نشر حسين مؤنس، دار المعارف، ط 2، القاهرة، 1958، ج 2، ص 329.

4 - أبا بكر عبد الله المالكي، رياض النفوس، نشر حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ط 1، القاهرة، 1951، ج 1، ص 25.

فتكه»⁽¹⁾. ولما وصل إلى مدينة «طبنة»⁽²⁾، أمر جنده أن يسبقوه إلى القيروان، لأنه لم يبق أحد يخشاه في هذه البلاد. وتوجه عقبه نحو «تهودة»⁽³⁾ ومعه ثلاثمائة فارس فقط. فلما رآه الروم في تلك القلة، تربصوا به، واتصلوا بكسيلة الذي أفلت من قبضة عقبه، وجمع قومه، والتقى الجمعان. وكان جيش كسيلة يزيد عن الخمسين ألف مقاتل، فأطلق عقبه أبو المهاجر⁽⁴⁾ وقال له: «الحق [بالقيروان] وقم بأمر المسلمين، وأنا أعتنم الشهادة» فقال أبو المهاجر: «وأنا أعتنم الشهادة مثلك»⁽⁵⁾.

وكانت معركة غير متكافئة، استشهد فيها عقبه وأبو المهاجر ومعهم نحو ثلاثمائة من أجلاء الصحابة والتابعين، وذلك في حدود سنة 64 هـ / 683 م⁽⁶⁾. وتوجه كسيلة إلى القيروان، وكان حاكمها زهير بن قيس البلوي الذي فضل الانسحاب بعد التشاور مع أتباعه، وانتقل منها سنة 65 هـ / 684 م، واستقر ببرقة، وترك أفريقية للبربر. فحكمها كسيلة مدة أربع سنوات (687-690 م)، وأنشأ حكماً بربرياً شمل الأوراس والجزء الجنوبي من قسنطينة، والجزء الأكبر من البلاد التونسية⁽⁷⁾. وبقيت المنطقة في انتظار فاتح جديد، يعيد إليها استقرارها في ظل الإسلام الحنيف.

ج - حملة زهير بن قيس البلوي في بلاد إفريقية:

إن الظروف التي مرت بها بلاد إفريقية عموماً، ومراحل الغزو السابقة، جعلت المغرب الأوسط تحت رحمة البربر المعادين بزعامة كسيلة، وتعاونوا مع الروم الذين يحرصون على مصالحهم. وتكبدت المنطقة الانتكاسات، وضعف الدين في النفوس. ورغم انشغال الخليفة عبد الملك بن مروان بالفتن الداخلية في الولايات الشرقية، فإنه أمر بتولية زهير بن قيس

1 - انظر: أبا بكر عبد الله المالكي: المرجع السابق، ج 1، ص 26. عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ج 1، ص 129.

2 - طبنة: تعرف الآن بمدينة بركة التابعة لولاية باتنة.

3 - تهودة: موقع المعركة الفاصلة لعقبة، قرب بسكرة، وتقع في مدينة سيدي عقبه الحالية، وتبعد عنها بنحو 6 كم.

4 - انظر: محمود شيت خطاب: المرجع السابق، ص 111. مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 26.

5 - أبا بكر عبد الله المالكي، المرجع السابق، ج 1، ص 27.

6 - انظر: ابن عبد الحكم: المرجع السابق، ص 267. أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص 41. حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ص 198-199.

7 - عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ج 1، ص 133.

البلوي، (1) أميراً على إفريقية سنة 69هـ/688م، وكان مقبياً في برقة في بادئ الأمر، وأمدته الخليفة بجيش قوامه أربعة آلاف جندي، وكان جيش زهير يبلغ الألفين من البربر (2). وقد جمع كسيلة جيشاً كبيراً من الروم والبربر، وابتعد عن القيروان في موقع يدعى ((مس)) (3) فوافاه زهير بن قيس، وانهمز كسيلة وقتل، وأصاب البربر ذل كبير، واطمحل الروم، ولم يعد لهم شأن يذكر يومذاك. وعاد زهير إلى القيروان فرحاً بنصره، فرأى بها ملكاً عظيماً، ولكنه فضل الإقامة خارجها، تورعاً وخوفاً من فتنة الدنيا، وقال: ((إني ما قدمت إلا للجهاد، وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك)). ولكن الروم جمعوا شتاتهم، وتلقوا الإمداد بقوة عظيمة أنجدهم من القسطنطينية وجزيرة صقلية، وأدركوا زهيراً في برقة، وقامت معركة كبرى استشهد فيها زهير وأشرف قومه من العرب المسلمين في حدود سنة 76هـ/695م (4).

د- حملة حسان بن النعمان الغساني في بلاد المغرب الأوسط:

أثبتت الوقائع السابقة خطر الروم في بلاد إفريقية، والذي عجل بنهاية الوالي زهير بن قيس الذي أفضى إلى ربه شهيداً. ونزل الخبر على الخليفة عبد الملك بن مروان كالصاعقة، وذكره بمصيبة عقبه وأصحابه القريية العهد (5). وفكر الخليفة في الأمر، وقال: ((ما أعلم أحداً أكفاً بإفريقية من حسان بن النعمان (6) الغساني)). وكانت ولاية حسان على إفريقية من قبل الخليفة

- 1 - زهير بن قيس: هو زهير بن قيس البلوي، أحد الصحابة بالمولد، ومن الذين شهدوا فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص. وغزا إفريقية، واستخلفه عقبه على القيروان عندما كان يفتح البلاد الغربية. ولما استشهد عقبه، فضل زهير الاستقرار في برقة. ولما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة، سيره إلى إفريقية فاتحاً. فقاتل البربر، وتخلص من كسيلة، ثم رجع إلى برقة، فجمع عليه الروم ولاسيما الذين قدموا بحراً من القسطنطينية وصقلية، وأغاروا على برقة، وقاتل المسلمون إلى آخر رمق، ولكن القائد زهير كان ضمن الشهداء ومعه الأشراف من العرب. انظر: أبا بكر عبد الله المالكي، المرجع السابق، ج 1، ص 30-31. محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج 1، ص 150-151.
- 2 - عبد الرحمان الجليلي: المرجع السابق، ج 1، ص 130-131.
- 3 - ممس: أو ممش، مدينة بيزنطية حصينة، تقع جنوب سيبية، في الجنوب الشرقي من الأوراس. انظر: عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص 133. محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج 1، ص 155.
- 4 - أنظر: أبو بكر عبد الله المالكي، المرجع السابق، ج 1، ص 30-31. محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج 1، ص 155-162.
- 5 - انظر: عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص 134. محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج 1، ص 173.
- 6 - حسان بن النعمان: هو حسان بن النعمان بن عدي الأزدي الغساني، أهله من الغساسنة ملوك الشام ممن كانوا موالين للروم. وهو أحد التابعين، وقد حدث عن عمر بن الخطاب، وكانت له مكانة ومنزلة عند بني أمية، حتى أطلق عليه لقب (الشيخ أمين). وكلف بولاية إفريقية، فأبلى البلاء الحسن في تأديب البربر والروم، ووطد الإسلام في البلاد. ولكنه عزل في آخر عهده وعاد إلى الشام، ولفقت له بعض التهم حول المال، ولكنه كان ورعاً، واحتاط لنفسه ممن يبحثون عن =

عبد الملك بن مروان في حدود سنة 76هـ/695م، ودعمه بجيش قوامه أربعون ألفاً، وكان أعظم جيش عرفته إفريقية منذ بدء الفتح⁽¹⁾. ولما وصل جيشه إلى إفريقية، سأل عن أخطر ملك، فأشاروا إلى قرطاجنة، وكان المسلمون قبله يكتفون بحصارها، ويفرضون على أهلها المال فقط. فقاتل حسان من فيها من الروم والبربر، حتى لولا فارين في مراكبهم إلى صقلية، وبعضهم نحو الأندلس، ففتحها قتالاً، وهدمها، وغنم ما فيها⁽²⁾.

ثم بلغه أن الخطر الثاني في إفريقية هو الكاهنة⁽³⁾ ملكة قبيلة جراوة البربرية. وبعد أخذ ورد بين الطرفين، وقعت معركة كبرى قرب نهر ((نينى))⁽⁴⁾ فتكبد المسلمون الهزيمة النكراء، حتى عرف اليوم بيوم البلاء، وأطلق على النهر نهر البلاء⁽⁵⁾. ولاحتقمت الكاهنة، فانسحب حسان إلى قابس، وأسرت من أصحابه ثمانين رجلاً، أهمهم خالد بن يزيد⁽⁶⁾ الذي تبنته حتى يكون سندا لولديها عند المسلمين مستقبلاً. واستخلف حسان على إفريقية أبا صالح، وانسحب إلى نواحي برقة، وشيد قصورا، عرفت بقصور حسان، وراسل الخليفة، فأمره أن يقيم في مكانه، فطالت الإقامة إلى خمس سنوات⁽⁷⁾.

=سبب لتخوينه، فلما كان في ولايته، قال لأتباعه: (اتتوني بقرب الماء) فملأها بالفضة والذهب والجواهر، ولما وقف بين يدي الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، أفرغها أمامه، فتعجب الوليد وقال له: (جزاك الله خيراً يا حسان). فقال: يا أمير المؤمنين! إنها خرجت مجاهداً في سبيل الله، وليس مثلي يخون الله ولا الخليفة). فقال له الوليد: (أنا أردك إلى عمك، وأحسن إليك، وأتوه بك). فقال حسان: (لا ألي لبني أمية أبداً). واعتزل حسان السياسة والإمارة وبقي في بيته. ولكنه لبى نداء الجهاد جندياً في أرض الروم حتى استشهد. انظر: محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج1، ص ص 172-205.

- 1 - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج1، ص 134.
- 2 - محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج1، ص ص 177-183.
- 3 - الكاهنة: هي ملكة بربرية اسمها دهبيا بنت تابنت بن تيفان، كانت متزوجة من أحد رؤساء قبيلة جراوة من البربر البتر، وكانت تدعي معرفة الغيب والتكهن، ولها صنم من الخشب يحمل بين يديها، وقيل كانت يهودية، وصارت ملكة على قومها بعد وفاة زوجها. وحاربت المسلمين في أكثر من موقع وانتصرت، وقيل أن لها دخل في مقتل عقبة فأغرقت به البربر، ولكن نهايتها كانت على يد حسان بن النعمان. أنظر: الرقيق القيرواني، المرجع السابق، ص ص 46-47. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ص 242-243. عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج1، ص ص 148-149.
- 4 - نهر نينى: يقع بين عين البيضاء وتبسة. أنظر: عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج1، ص 135.
- 5 - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج1، ص 135.
- 6 - قالت الكاهنة لخالد بن يزيد: (ما رأيت من الرجال أجمل منك ولا أشجع! وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخوا لولدي). فعجنت دقيق الشعير مع الزيت وجعلته على ثديها ودعت ولديها وقالت: (كلام معي على ثدي) ففعلاً، فقالت: (قد صرتم أخوة). أنظر: محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج1، ص ص 183-184.
- 7 - محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج1، ص ص 183-187.

وحينها اعتقدت الكاهنة أن العرب يطلبون الدنيا من عملية الفتح، وقالت لقومها: (إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها حتى يبأس منها العرب). وكانت إفريقية ظلاً متواصلاً من طرابلس إلى طنجة، كلها قرى متصلة؛ فأمرت قومها بتنفيذ سياسة الأرض المحروقة، بحرق أشجار الزيتون والكروم مصدر الثروة بها. وهدمت المدن والحصون والقرى، حتى صارت إفريقية خراباً⁽¹⁾ ومنها منطقة وادي سوف المحاذية لتلك المواقع الشمالية⁽²⁾، ولكن عملها هذا ترك استياء عند الروم والبربر، بل أسرع بعض أهلها إلى الاستغاثة بحسان، وطلبوا قدومه لإنقاذ بلادهم. ويومها أذن الخليفة سنة 81هـ / 700م بقتال الكاهنة التي رحلت إلى جبال أوراس، وأيقنت بنهاية حياتها، فقالت لخالد بن يزيد: ((إني كنت تبنيك لمثل هذا اليوم، أنا مقتولة، فأوصيك بأخويك هذين خيراً، فانطلق فخذ لهما أماناً)). فانطلق خالد والتقى بحسان، وأخذ لهما الأمان كما تمت. وقامت المعركة التي انهزمت فيها الكاهنة، وتبعها حسان ولاحق فلولها المولية إلى منطقة عند بئر الكاهنة، حتى قتلها عند منطقة بئر العاتر⁽³⁾ سنة 82هـ / 701م⁽⁴⁾.

وطلب البربر الأمان على الإسلام والطاعة، وأن يكون فيهم اثنا عشر ألفاً يجاهدون معه. وفعلاً حسن إسلامهم وجهادهم. كما عين الولد الأكبر للكاهنة قائداً على قومه من جراوة وعلى جبل أوراس، وكان ذلك كله في رمضان سنة 82هـ / 1 أكتوبر 701م⁽⁵⁾. وخرج ولداها مع تلك الجموع من البربر إلى بلاد المغرب يجاهدون في سبيل الله في سنة 84هـ / 703م⁽⁶⁾. وما ساعد حسان في جهاده، ما لقيه من أهل إفريقية عند سيره إلى الكاهنة، فلقية أهل قابس بالأموال والطاعة. وسار إلى قفصة وضمها، ثم إلى قسطيلية ونفزاوة. وكان البربر في تلك الجهات يطلبون الأمان، وينقادون يبسر إلى المسلمين⁽⁷⁾. وحينها كانت تلك المناطق كمثمل

-
- 1 - انظر: أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص 43-44. حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 248-249.
 - 2 - إبراهيم بن عامر، الصروف في تاريخ سوف، مخ، المرجع السابق، ج 1، ص 49.
 - 3 - بئر العاتر: وسميت بئر العاطر، وبئر الكاهنة لمقتلها فيها، وتقع ضمن أراضي تبسة، وتبعد عنها 90 كم، وتقع في الشمال الشرقي من وادي سوف، وتبعد عنها بنحو 220 كم. انظر: إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 119.
 - 4 - انظر: أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص 49. حسين مؤنس: المرجع السابق، ص 259.
 - 5 - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 137.
 - 6 - انظر: إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 119. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 137.
 - 7 - محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج 1، ص 197.

الهلال المحيط بوادي سوف، ومواطن تنقلهم وتجارتهم، وشهودهم للقتال. وعاد حسان بعد تلك المعركة الفاصلة إلى القيروان للراحة والاستعداد لمواصلة رسالة الفتح.

وكان الخطر الثالث، هو قرطاجنة مرة أخرى، والتي عاد إليها الروم، لأن الإمبراطور الجديد «ليونتيوس» الذي خلف جستنيان الثاني سنة 76هـ/695م، قد انزعج من سقوطها في يد المسلمين، فأرسل لها حملة، واختار لها حاكما هو البطريق يوحنا، وأعد أسطولا كبيرا نقل به الجنود إلى إفريقية سنة 78هـ/697م. وتمكن من الاستيلاء على المدينة، وطرده المسلمين الذين كانوا تحت قيادة أبي صالح. وكان عمل يوحنا هو إعادة الحياة إلى قرطاجنة، فحصنها، وأعاد ما تهدم من أسوارها. فأدركها حسان، وهزم يوحنا الذي انسحب بجنوده منهزما نحو بيزنطة، ولم يبق بها إلا الملك المسمى مرياف وأهله وولده، فطلب الأمان، فأقره حسان عليه. وهكذا استقامت إفريقية كلها لحسان سنة 82هـ/701م. وبدأ حسان يبحث عن موضع مناسب على البحر حتى ينشئ عليه الميناء الجديد، ويكون آمنا محصنا. فوقع اختياره على قرية صغيرة جنوب قرطاجنة تدعى «ترشيش» فيها الأوصاف المطلوبة، ولم يبق فيها إلا دير يقيم فيه بعض الرهبان. فنزل بها المسلمون، وشرعوا في إصلاحها وتهيتها للشأن الجديد. وأثناء الليل كانوا يسمعون بعض رهبان الدير يرددون صلواتهم، فيستأنسون بهم، فقالوا: هذه البقعة تؤنس. ولهذا صارت تعرف باسم «تونس» التي كان الفضل لحسان في إقامتها مدينة ثانية بإفريقية بعد القيروان. واستعان في ذلك بالخليفة ووالي مصر، فأمدوه بكل ما طلب. ولما قامت مدينة تونس، حالت بين الروم وبين إفريقية⁽¹⁾ فلم يقدرُوا على النزول إلى أرضها. فأمن العرب والمسلمون من شرهم إلى غير رجعة.

إن الانتصارات المظفرة التي حققها حسان بن النعمان في بلاد المغرب الأوسط، ومنها وادي سوف، استحق بها أن يلقب بالفاتح الحقيقي، وناشر لواء الإسلام في تلك الربوع الشاسعة⁽²⁾.

هـ - حملة موسى بن نصير في بلاد المغرب الإسلامي والأندلس:

حققت حملة حسان نتائج هامة في تاريخ فتح المغرب الإسلامي، وتطلب الأمر أن يختار للمنصب من تتوفر فيه خصال القيادة الحكيمة. وهذا جعل والي مصر عبد العزيز بن مروان

1 - محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج1، ص 191.

2 - موسى لقبال، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر، 1981، ص 70.

يختار خلفا له على إفريقية والمغرب، القائد موسى بن نصير⁽¹⁾ في حدود سنة 85هـ/704م. ولما وصل موسى إلى بلاد إفريقية التي ترك في رعايتها حسان خلفا له أبا صالح، وجد البربر قد استحوذوا على البلاد. ويومها أوضح موسى سياسته لجيشه في عملية الفتح، وتتمثل في قتال العدو القريب، ويليهما التغلغل بالتدرج لمتابعة العدو البعيد. وشرع في تنفيذ خطته باستعادة جبل زغوان. ثم وجه ولديه إلى نواحي إفريقية، فرجعا غانمين. واستطاع في وقت محدود إخضاع البربر، وأعاد القيروان إلى هيبتها القديمة، وجعلها قاعدة آمنة، واتخذها منطلقا لتنفيذ خطته العسكرية في المغرب الأوسط والأقصى⁽²⁾.

بدأت فتوحات موسى باستعادة المغرب الأوسط، بمقاتلة القبائل المتمردة مثل هوارة وزناتة. واشتبك مع كتامة وصنهاجة وغيرها من الفروع، واستطاع إخضاع كل القبائل التي تمردت بعد رحيل حسان إلى المشرق.

وكانت الخطوة الموالية هي إرسال ابنه مروان إلى السوس الأقصى، وسير قائده زرعة بن أبي مدرك إلى بربر مصمودة في جبال الأطلس العليا، وكللت غزواته بالنصر والظفر. كما فتح طنجة التي كانت خاضعة للأمير الرومي جوليان منذ أيام عقبة بن نافع، وبهذا الفتح انتهت خيله إلى السوس الأدنى، وانتصر وعين عليه واليا. كما هاجم سبتة، ولكنها استعصت عليه. وعاد موسى إلى القيروان بعدما ولى على طنجة ونواحيها مولاه طارق بن زياد، وترك معه بعض العرب المسلمين المتفقهين ليعلموا البربر القرآن الكريم وفرائض الإسلام الحنيف⁽³⁾.

1 - موسى بن نصير: هو موسى بن نصير اللخمي، أصله عربي، وكانت لوالده خدمات لدى الأمويين. ولد سنة 19هـ/640م، في خلافة عمر بن الخطاب، فنشأ على صلة بالجنديّة، وعاش بداياته قريبا من قادة الفتح. وقد ولاه معاوية القيادة في البحر، فغزا قبرص وشيد بها الحصون. كما شهد معركة مرج راهط مع الضحّاك بن قيس الفهري سنة 64هـ، الذي كان يدعو سرا لعبد الله بن الزبير. فلما قتل الضحّاك، لجأ موسى إلى عبد العزيز بن مروان، فوقف معه فأنقذه، وحينئذ بدأت الصلة تتوطد معه. ولما تولى عبد العزيز بن مروان ولاية مصر، كان موسى وزيره ومستشاره. وفي عهد خلافة عبد الملك بن مروان، ولى أخاه بشر بن مروان على الكوفة والبصرة، وكان حديث السن، فجعل معه موسى بن نصير عوناً له ومستشاراً. ولما عين موسى والياً على إفريقية، استعاد المغرب الأوسط والأقصى، وخاض المعارك في البر والبحر، وفتح الجزر العديدة، آخرها بلاد الأندلس التي عزل عنها سنة 96هـ/715م. ولما حج الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك سنة 97هـ/716م، حج معه موسى، ولكنه توفي في وادي القرى، وعمره 78 سنة. انظر: محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج1، ص ص 221-298.

2 - انظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب، مكتبة صادر، بيروت، 1950، ج1، ص ص 31-32. محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج1، ص ص 226-232.

3 - انظر: ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 36. محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج1، ص ص 226-232.

ورأى موسى حالة الروم في الضفة الأخرى هم في أمس الحاجة إلى الدين القويم. فحفز جيشه وأكابر القوم لخوض المعارك في البحر. وأخبرهم أنه راكب بنفسه، ولكنه عقد لواء الحرب لابنه عبد الله بن موسى، فاستجاب القوم، وعرفت غزوته بغزوة الأشراف. وهي أول غزوة تمت في البحر المتوسط. وكانت سلسلة من المعارك وما تبعها من فتوحات وصل فيها جيشه إلى صقلية وسرقوسة وسردانية، كما افتتح جزيرتي ميورقة ومنورقة⁽¹⁾.

- فتح بلاد الأندلس: يظهر الاختلاف بين قادة فتح إفريقية عموماً. ويعتبر موسى بن نصير متميزاً عنهم بفكره الاستراتيجي البعيد المدى، وإقدامه بدون تردد، والذي مكنه من فتح بلاد الأندلس، وهو المنطلق الطبيعي لاستكمال فتح المغرب الإسلامي. لأن الأندلس تمثل الجناح الغربي للمغرب، ومثلت الأندلس العمق الإسلامي في بلاد الأفرنج. وكانت البداية، عندما عرض حاكم سبتة يوليان على موسى تسليمه سبتة للمسلمين، ودعاه إلى فتح إسبانيا. فاستشار موسى الخليفة في دمشق الوليد بن عبد الملك، فأمره أن يختبرها بالسرايا، ولا يغرر بالمسلمين. فأرسل رجلاً من البربر يدعى طريف بن مالك، فنزل في ساحل الأندلس فيما يوازي طنجة، والذي عرف مكانه فيما بعد باسم (جزيرة طريف)، لأنه أصاب سيبا ومالا، ورجع سالماً في رمضان سنة 91هـ/710م⁽²⁾.

- فتوح طارق بن زياد: جهز موسى سبعة آلاف مقاتل تحت قيادة طارق بن زياد الليثي في رجب 91هـ/أفريل 710م، فعبر البحر على متن سفن يوليان من سبتة وعبر جبل طارق، وتوالت انتصاراته، فاستولى على قرطاجنة الجزيرة، وفتح الجزيرة الخضراء. وقامت معركة فاصلة في وادي لكّة، ومنها فتحت أبواب الأندلس للمسلمين في أنحاء كثيرة⁽³⁾. وتدعيماً لانتصارات طارق، عبر موسى بن نصير إلى عدوة الأندلس في رمضان 93هـ/712م انطلاقاً من طنجة، وعلى رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألفاً من قريش والعرب والأشراف. وأخذ يفتح المدن، ومنها قرطبة. ثم تقدم إلى أكبر المدن، إشبيلية وحاصرها، وتمكن من فتحها. ثم رأى تطهير الجزء الشمالي من غرب الأندلس الذي تجمع فيه القوط وعلى رأسهم ملكهم لودزريق. وقاد المقاومة لمواجهة الفتح، ومحاولة استرجاع إشبيلية. ولكن المعركة

1 - هما جزيرتان بين صقلية والأندلس. انظر: محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج1، ص ص 238-240.

2 - انظر: ابن عذارى المراكشي، ج1، ص ص 37-38. محمود شيت خطاب: المرجع السابق، ج1، ص ص 243-245.

3 - محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج1، ص ص 245-251.

كانت لصالح المسلمين، وقتل لوزريق، وكانت هزيمة القوط نكراء. كما دخل المسلمون إلى طليطلة سنة 94هـ، وتم فتح مدن الشمال حتى وصلت خيولهم إلى أراضي فرنسا. كما سير موسى جيشا بقيادة ابنه عبد العزيز بن موسى لفتح الغرب (البرتغال الحالية) في الوقت الذي رجع فيه موسى بن نصير إلى دمشق⁽¹⁾ بطلب من الخليفة الوليد بن عبد الملك. رجع موسى ومعه طارق بن زياد سنة 95هـ/714م، بعد أن استخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس، واتخذ إشبيلية عاصمة له لاتصالها بالبحر. وولى على إفريقية ابنه عبد الله، وعلى طنجة ابنه عبد الملك، وحمل موسى معه الغنائم النفيسة ومئات الرجال وملوك القوط، ووصل دمشق سنة 96هـ/715م. فعزل عن الأندلس بسبب طموحه الكبير، وخوفا من الاستقلال على الخلافة في تلك البلاد البعيدة⁽²⁾.

وخلاصة الفتح في هذه المرحلة التي دامت من عهد أبي المهاجر سنة (55هـ/674م) في المغرب الأوسط، واستمرت إلى عهد موسى بن نصير سنة 95هـ/714م ببلاد المغرب الإسلامي والأندلس، على مدار أربعين سنة. ومما وقفنا عليه من حقائق عامة:

- إدراك أهمية الفتح الذي كان جهده كبيرا، وثمرته باهظا بما سقط من أشرف الشهداء من أجله الصحابة والتابعين، وفيهم أعظم القادة الذين عاشوا في كنف الإسلام، عقبة بن نافع وزهير البلوي. فقد ضحوا بدمائهم من أجل الأرض التي فتحوها للإسلام، ولهم في كل وطن حسنة من أهل هذه البلاد الممتدة من برقة إلى إشبيلية.

- ربط بلاد إفريقية (المغرب الإسلامي) بولاية مصر، وانسحاب كل فاتح إليها بعد انتهاء عملية الغزو التي تظهر كأنها جولة عسكرية لجمع الغنائم. ورغم تأسيس عقبة للقيروان، وأبي المهاجر لمدينة ميلة، واستشهادهما، لكن بقيت مشكلة الاستقرار مطروحة إلى عهد موسى بن نصير حين استدرك هذا الأمر. وصارت المغرب ولاية مستقلة عن مصر، قائمة بذاتها. ولكن في نهاية المطاف، عزل حاكمها، مثل من سبقه في سلسلة القادة الفاتحين. وكل هذا أثر على السكان، ولاسيما البربر الذين بقي الإسلام ضعيفا في نفوسهم.

- استجابة البربر للإسلام، وقبولهم بالدين دون تردد، كلما وجدوا المعاملات الحسنة، مثلما وقع لكسيلة في بادئ الأمر. ولكن ردة فعله كانت مناوئة بسبب المعاملة السيئة والسجن والتعذيب. وحتى الكاهنة التي حاربت المسلمين إلى آخر رمق في حياتها، أوصت بولديها

1 - محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج1، ص ص 255-273.

2 - انظر: ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 39. محمود شيت خطاب، المرجع السابق، ج1، ص ص 257-284.

خيرا، وطلبت لها الأمان، وحسن إسلامهما، وصارا من القادة الفاتحين، لأنها أدركت أن المستقبل للإسلام في بلاد المغرب الأوسط وما حوله.

- لما عين موسى بن نصير واليا على إفريقية، جعل عمالا على أهم مدنها، تنحصر مهمتهم في جمع الضرائب والسهر على أمن السكان، وبقيت المناطق النائية تتمتع بنظمها التقليدية فلم يتغير فيها شيء على ما كانت عليه سوى استجابتها للإسلام بصفة جماعية⁽¹⁾. ونتج عن هذه السياسة المرنة توفير كثير من المتاعب والمشاق على المسلمين. فانتشر الأمن وعمت الطمأنينة في البلاد⁽²⁾.

وهكذا صار المغرب الأوسط بعد حركة الفتح الواسعة الانتشار، بلادا مفتوحة للدين واللغة العربية، ينتظر المعاملة الحكيمة والاستقرار الآمن، والذي كان مطلبا لعامة الناس. ولكن الحركات المذهبية جعلت الفتن والخلافات تؤجج الصراعات العسكرية التي مست معظم المدن والقرى.

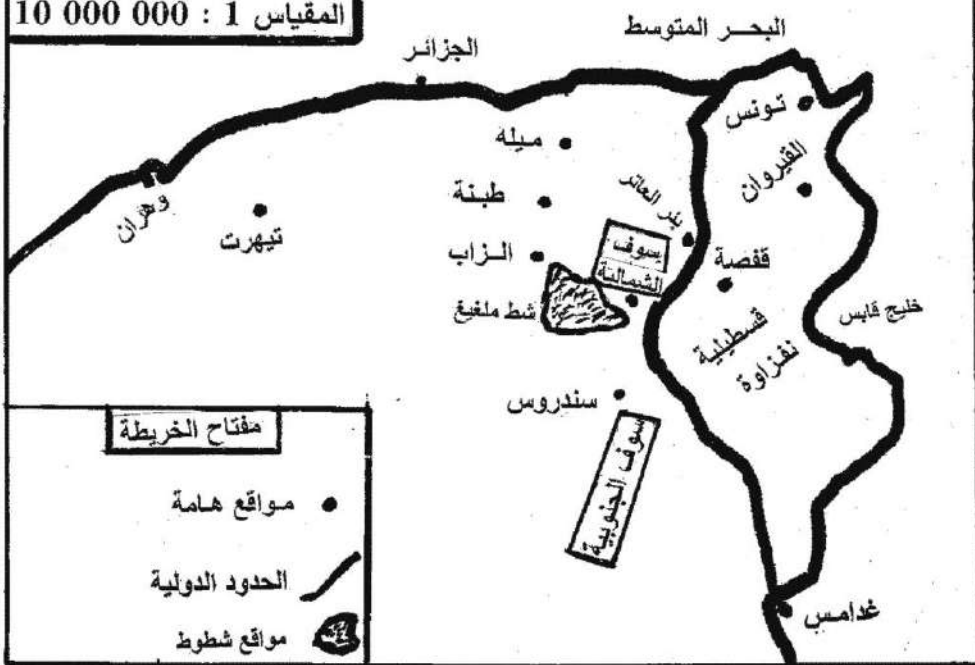
- كانت منطقة وادي سوف كغيرها من القرى النائية في الجبال والصحراء لا تكاد تذكر، ولكنها عامرة بالبربر الذين عاشوا حياة البداوة والترحال، وصارت مأوى آمنا، يلجأ إليها الناس للاستقرار حول نهرها الرقراق، وخصوصا في وادي سوف الشمالية، عند وادي النازية جنوب خنشلة، في مواطن الميثة وبودخان، وتمتد أراضيها غربا إلى بلاد الزاب، وشرقا إلى بلاد الجريد ونفزاوة، وكلها مناطق للكر والفر من جنود الفتح الإسلامي. ولا يستبعد أن بعض أهل سوف وقفوا على أحوال الفاتحين، أو شاركوا في تلك الوقائع. وبدأ الإسلام يمسهم من قريب، لأن بعض العرب - من بقايا الفاتحين الأوائل أو المهاجرين من المشرق - فضلوا المرور بأرض سوف والاستقرار لبعض الوقت في نواحيها، ومنهم العرب الذين تركهم موسى بن نصير في بلاد طنجة. فهاجر بعضهم إلى الصحراء، واستقروا في سوف بنواحي سندروس جنوبا في حدود سنة 88هـ/707م، ووقعت لهم بعض المناوشات الخفيفة مع البربر⁽³⁾، ويومها حدث التأثير بين الطرفين في الأخلاق والمعاملات.

1 - عبد الحميد حاجيات، الجزائر من الفتح الإسلامي إلى تأسيس الدولة الرستمية، الجزائر في التاريخ (3)، وزارة الثقافة والسياحة المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص 58-59.

2 - نفسه، ص 55.

3 - إبراهيم بن عامر، الصروف في تاريخ سوف، مخ، المرجع السابق، ج 1، ص 50.

المقياس 1 : 10 000 000



مفتاح الخريطة

- مواقع هامة
- الحدود الدولية
- ☉ مواقع شطوط

المراجع:

- 1- الأطلس العالمي، المعهد الوطني التربوي، الجزائر، ص 12.
- 2- إبراهيم بن عامر، الصروف، مخ، ج 1، ص ص 48-50.
- 3- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص 264.
- 4- ان عذارى المراكشي، البيان المغرب، ج 1، ص ص 88-90.
- 5- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص 31.
- 6- محمود شيت خطاب، قادة فتح المغرب العربي، ج 1، ص ص 97-102.

وادي سوف اثناء العهد الإسلامي ببلاد افريقية

المبحث الثالث

عصر الولاية بإفريقية وأثره على المغرب الأوسط ووادي سوف

إن اتساع رقعة الفتح الإسلامي ببلاد إفريقية والأندلس، حققت استتباب الأمن والاستقرار النسبي في الولاية الجديدة، مع محاولة المسلمين القضاء على كل المقاومات المحلية البيزنطية والبربرية. ويمكن اعتبار ولاية موسى بن نصير في إفريقية، وطارق بن زياد في الأندلس، نهاية مرحلة تكوين الولاية الجديدة التي عرفت باسم ((ولاية إفريقية))، وعاصمتها ((القيروان)) والتي أخذت على عاتقها تنظيم الولاية إداريا، وحمايتها عسكريا، ودعوة سكانها من البربر والوثنيين والنصارى إلى الدين الإسلامي، ونشره في ربوع البلاد على نطاق واسع. كان والي إفريقية هو نائب الخليفة في تسيير الإدارة المدنية، بمثابة ((الرئيس)) مع توليه الأعمال العسكرية ((قائد الجيش))، والقضايا الدينية ((إمامة الصلاة))، وجمع المسؤوليات والمهام في سلطة مركزية شاملة⁽¹⁾.

وكان رحيل موسى عن الولاية نهائيا في حدود سنة 95هـ. وحينها أسند الخليفة سليمان بن عبد الملك شؤون الولاية في مرحلتها الانتقالية إلى ((عبد الله بن كرز))، وكانت ولايته ممتدة من برقة إلى السودان والمغرب وبحر ((الزقاق))⁽²⁾ وبلاد الأندلس. وأذعن له البربر والنصارى، ودفعوا ما عليهم من الجزية⁽³⁾.

ولكن المؤرخين يعتبرون البداية الحقيقية لهذا العصر هي ولاية محمد بن يزيد القرشي، كأول ولاية إفريقية الإسلامية. وقد حرص على نشر الألفة كما أوصاه الخليفة سليمان بن عبد الملك⁽⁴⁾. واستمر العهد طويلا، حتى بعد قيام الدول في بلاد المغرب الإسلامي، وأولها الدولة الرستمية سنة 160هـ. وآخر الولاية هو محمد بن مقاتل بن حكيم العكي (181-184هـ)⁽⁵⁾.

1 - موسى لقبال، المغرب الاسلامي، المرجع السابق، ص 108.

2 - الاسم القديم لمضيق جبل طارق.

3 - ابن أبي دينار، المونس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، ط1، تونس، 1286 هـ، ص 36. عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال إفريقية من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الاغلبية، جمع وتحقيق أحمد بن ميلاد، محمد إدريسي، مراجعة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1990، ص 117-118.

4 - موسى لقبال، المرجع السابق، ص 103.

5 - ابن الاثير، الكامل في التاريخ، راجعه محمد بن يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1987، ج5، ص ص 312-313.

وعلى هذا الأساس، يكون هذا العصر قد امتد في الفترة ما بين (97-184هـ). أي أربع وثمانين سنة في عهد الدولتين الأموية والعباسية، والتي يرسل الخلفاء منها تباعاً من دمشق أو العراق.

أ- ولاية إفريقية في العهد الأموي وأثرهم على المغرب الأوسط (97-129هـ):

عرفت بلاد المغرب الإسلامي عدداً معتبراً من الولاة في عهد الأمويين، وهم لا يختلفون عمن سبقهم من ولاة مرحلة الفتح إلا في الشكل والانتساب، وارتباطهم بمركز الخلافة، الممثلة في الأسرة مروانية⁽¹⁾ وتعيينهم منها مباشرة. ولكن كانت لهؤلاء الولاة مميزات التالية:

- عُرف بعض الولاة بتعصبهم الشديد للعنصر العربي، وتقديمه عن البربر في تولي المسؤوليات، وفي المعاملات العامة. واعتبروهم مصدراً لجمع الجزية، ولم يراعوا إسلامهم، ولو كان فيه بعض الدخن. وكل هذا تحت نظر وموافقة أو سكوت السلطة المركزية في دار الخلافة. وهذا التمييز العنصري أو غر صدور البربر ضد الولاة، وخلف ردود فعل عنيفة، وآثاراً دموية.

- خلفت سياسة التعصب والتمييز بين الجنسين العربي والبربري بروز ظاهرة الخروج المستمر على السلطة الحاكمة في ولاية إفريقية. وعرفت كثرة الانتفاضات، وحركات التمرد على الولاة، وتطور الأمر - في بعض الأحيان - إلى قتل عدد منهم، أو طردهم من البلاد، وتولية ولاة جدد باقتراح الثائرين. وتزعم أغلب تلك الثورات الخوارج من الصفرية والإباضية.

- تركزت كثير من الأحداث والمعارك، ما بين بلاد الزاب في المغرب الأوسط، أو في المغرب الأدنى، ولاسيما في مناطق قفصة وقسطيلية ونفزاوة، وكلها مرتبطة جغرافياً واجتماعياً واقتصادياً بوادي سوف التي لا تحفى عليها الأخبار السياسية والعسكرية، والتي مست الولاة خلال حكمهم للبلاد التي ينتمون إليها، وتنقلهم في أرجائها.

- كان للولاة مطلق الحرية في ولاياتهم. كما أن ما يحصلون عليه من مال، كان مشجعاً على فكرة الاستقلال والانفصال. وهذا جعل الخلفاء في دمشق يعزلون الولاة قبل تمكنهم من تحقيق أهدافهم. فكانت مدة ولايتهم قصيرة جداً⁽²⁾، ولا يترك لهم الوقت الكافي لإحكام البنية

1 - الخلفاء من ذرية عبد الملك بن مروان.

2 - يوجد اختلاف بين المصادر والكتابات المختلفة في تاريخ تعيين الوالي، وهذا راجع للتولية قد تكون في آخر السنة، ولا يتمكن الوالي من الوصول إلا بعد دخول السنة الثانية. وكذلك الفترة التي يكون فيها فراغ، ويستمر في الولاية خليفة الوالي الذي انتهت ولايته، أو من عينه أهل القيروان مؤقتاً ريثما يصل الوالي الجديد.

القاعدية للولاية وتنميتها، ورفع مستواها الحضاري. كما كان للوالي في إفريقية حرية اختيار من يخلفه في ولايته عند رحيله إلى المشرق، أو عند القيام بالغزو البحري أو البري، أو في حال المرض الشديد⁽¹⁾. وأهم الولاة، وأبرز أعمالهم في هذه الفترة الأموية:

1- ولاية محمد بن يزيد القرشي (97-99هـ):

وكان من موالي قریش، وله مكانته. واختاره سليمان بن عبد الملك لولاية إفريقية، وأوصاه قائلاً: «يا محمد بن يزيد! اتق الله وحده لا شريك له! وقم فيما وليتك بالحق والعدل. وقد وليتك إفريقية والمغرب كله». فانصرف وهو يقول: «ما لي عذر عند الله إن لم أعدل»⁽²⁾. واستقر محمد بن يزيد في ولايته سنة 97هـ / 715م⁽³⁾. وحرص على نشر الألفة كما أوصاه سليمان بن عبد الملك⁽⁴⁾. ولكنه عاقب - بأمر من سليمان - أبناء موسى بن نصير، وخلع بعض العمال، وعين آخرين في إفريقية والأندلس. واستمرت ولايته إلى وفاة سليمان سنة 99هـ / 717م⁽⁵⁾.

2- ولاية إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر (100-101هـ):

ولاه عمر بن عبد العزيز سنة 100هـ / 718م. وهو من موالي بني مخزوم⁽⁶⁾، ومن أحسن الولاة سيرة واستقامة. عرف بالعدل والتقوى. وكان عهده مزدهراً. انتشر فيه الدين، وقدم إلى ولايته عشرة من الفقهاء أرسلهم عمر بن عبد العزيز برئاسة أبي عبد الرحمن بن عبد الله الحبلي، فعلموا الناس الإسلام، وفتح القلوب بأضعاف ما فتح السيف بالقوة. واشتهرت بالبلاد حواضر علمية عديدة هي: القيروان وتونس وبجاية وتلمسان وأشبيلية⁽⁷⁾. واستمر والياً إلى وفاة عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة سنة 101هـ⁽⁸⁾.

1 - موسى لقبال، المرجع السابق، ص 108-109.

2 - ابن عذارى المراكشي، المرجع السابق، ج 1، ص 44.

3 - انظر: ابن الأثير، الكامل، ج 4، ص 300. ابن الأبار، الحلية السراء، ج 2، ص 337. ابن عذارى المراكشي، ج 1، ص 44.

4 - موسى لقبال، المرجع السابق، ص 103.

5 - ابن عذارى المراكشي، ج 1، ص 45.

6 - ابن الأثير، الكامل، ج 4، ص 323.

7 - انظر: ابن عذارى المراكشي، ج 1، ص 45-46. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 118-119.

8 - انظر: ابن الأثير، الكامل، ج 4، ص 338. ابن الأبار، الحلية السراء، ج 2، ص 335. ابن عذارى المراكشي، ج 1، ص 46.

3- ولاية يزيد بن أبي مسلم (102-103هـ):

كان الخلفاء فور تسلمهم الحكم، يجرون تعديلات في الولايات البعيدة. فلما تولى يزيد بن عبد الملك، عمل على تطبيق سياسة الدولة، وتقريب المخلصين لسلطته، والمتعصبين للعرب، فوقع اختياره لولاية إفريقية على يزيد بن أبي مسلم، مولى الحجاج بن يوسف الثقفي وكتابه السابق، وبينهما أخوة من الرضاع⁽¹⁾.

قدم الوالي الجديد يزيد إلى إفريقية سنة 102هـ/720م⁽²⁾. وكان يزيد متعصبا للعرب. ورغم حنكته الإدارية، فلم يحسن التصرف. وأراد إرجاع البربر إلى حالتهم قبل إسلامهم. فأخذ الجزية منهم بالقوة، فانتقم البربر منه، وقتلوه ليلا في مسجد القيروان، لأنه طبق سياسة التمييز اقتداء بولي نعمته الحجاج. وأعاد البربر مكانه الوالي السابق، محمد بن يزيد القرشي، وكتبوا للخليفة يزيد، وشرحوا حالهم، وأكدوا على تمسكهم بعهدهم مع الدولة. فأقر تعيينهم محمد بن يزيد. ولما هذأت الأحوال، أرسل لهم واليا جديدا⁽³⁾.

4- ولاية بشر بن صفوان الكلبي (103-109هـ):

هو بشر بن صفوان بن نوفل الكلبي. تمت توليته من قبل يزيد بن عبد الملك. فلما توفي وخلفه هشام بن عبد الملك، أقره على الولاية. فواصل عمله، وأمره بتطبيق سياسة تقديم العرب على غيرهم. ولكن بقي متحفظا من نتائجها، وتوجس شرا من تطبيقها، حتى توفي بالقيروان سنة 109هـ/727م⁽⁴⁾. فتولى خلفا له ابن قرط الكلبي الذي عرف بتعصبه الشديد للعرب. وقبل بتنفيذ مخطط تأخير البربر. ولكن ذلك خلف تدمرا واضطرابا كبيرا في الولاية، وثار سكانها، وهذا دفع هشام إلى عزله حتى لا تنتشر الفتنة أكثر.

5- ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (110-114هـ):

وصل إلى ولايته سنة 110هـ، واستمر في السياسة العنصرية. ولكنه شغل الناس عن معارضته، وصرفهم إلى الاهتمام بالجهاد، ومواصلة الفتح خارج الولاية، ولاسيما غزوه

1 - انظر: ابن الأبار، الحلية السيرة، ج 2، ص 336. ابن عذارى المراكشي، ج 1، ص 45-46. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 121.

2 - انظر: ابن الأثير، الكامل، ج 4، ص 354. ابن عذارى المراكشي، ج 1، ص 46.

3 - أنظر: ابن الأبار، الحلية السيرة، ج 2، ص 336. ابن عذارى المراكشي، ج 1، ص 45-46. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 121.

4 - انظر: ابن الأثير، الكامل، ج 4، ص 383. ابن عذارى المراكشي، ج 1، ص 48. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 121-122.

لصقلية⁽¹⁾. كما قام بعدة تعديلات في صف العمال في الأقاليم ببلاد المغرب والأندلس، ولكن سيرته السيئة سبقتة إلى دار الخلافة، وشكاه أهل البلاد، فعزله هشام في شوال 114هـ. واستخلف مكانه عقبة بن قدامة⁽²⁾ ريثما يعين واليا جديدا أكثر قدرة على تسيير هذه الولاية المضطربة بسبب تلك السياسة العرجاء.

6- ولاية عبيد الله بن الحبحاب السلولي (116-123هـ):

تم تعيين عبيد الله بن الحبحاب واليا على إفريقية سنة 115هـ/734م، من قبل هشام بن عبد الملك، وكان مولى لعقبة بن الحجاج السلولي القيسي، وسبق له الولاية على مصر⁽³⁾. وعرف ابن الحبحاب بنبهه وقدرته الإدارية. ولكنه كان منحازا للعرب، وطبق سياسة العصبية، وزعم أن البربري فيئ للمسلمين. وهذا دفع البربر إلى الاحتجاج والشكوى، وأرسلوا وفدا إلى دار الخلافة. ولكن هشام بن عبد الملك أخرجهم سنة كاملة ولم يستقبلهم. ولما رجعوا، انتهجوا مذهب الخوارج الصفرية، وبايعوا ميسرة بن مطغري بالخلافة، وتعاهدوا على محاربة العرب كمرتدين عن الدين. وجندوا البربر للأخذ بالتأثر، واستولوا على طنجة والسوس، وقاتلوا في كل مكان. وتعطلت بسببهم الفتوحات، ونشبت الفتنة، وكثر الظلم. وهذا أزعج ابن الحبحاب عن الولاية سنة 123هـ/740م، وطلب منه الخليفة الحضور إلى مركز الدولة⁽⁴⁾.

7- ولاية كلثوم بن عياض القشيري (123-124هـ):

عين هذا الوالي سنة 123هـ/740م⁽⁵⁾. وكان هدف الخليفة وسعيه الأول، هو الانتقام من البربر، وقال: «لأغضبني للعرب غضبة مضرية، وأسير جيشا للبربر يكون أوله عندهم وآخرهم عندي». وجهاز الخليفة جيشا عدته 12 ألف مقاتل. ولكن الخلاف الداخلي أوغر الصدور، وآل إلى عاقبة الأمور السيئة من الفتنة. وحارب كلثوم البربر والصفرية، ولكنه قتل في إحدى المعارك مع عدد من قاداته، بل وصل عدد القتلى إلى ثمانين ألفا. وتفرق الناس، فذهب

1 - عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص ص 122-123.

2 - انظر: ابن الأثير، الكامل، ج4، ص 391. ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 49-50.

3 - انظر: ابن الأثير، الكامل، ج4، ص 411. ابن الأبار، الحلية السيرة، ج2، ص 336.

4 - انظر: ابن الأثير، الكامل، ج4، ص 417. ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 51-55. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 131-139.

5 - ابن الأثير، الكامل، ج4، ص 417.

جند مصر إلى إفريقية، وجند الشام إلى الأندلس، وانفرد البربر بالبلاد، وتقلص حكم السلطنة الأموية على إفريقية والمغرب⁽¹⁾.

8- ولاية حنظلة بن صفوان الكلبي (124-129هـ):

عندما وصلت أخبار مقتل الوالي كلثوم إلى مسامع الخليفة هشام بن عبد الملك، سارع إلى إرسال واليه على مصر، حنظلة بن صفوان - أخابش بن صفوان - فوصل إلى القيروان في ربيع الأول سنة 124هـ/742م. وفور وصوله إلى القيروان، زحفت عليه جيوش الصفرية. وقامت معارك شديدة قتل فيها عدد كبير لا يكاد يحصى، ولم يسجل مثله في حروب الفتوحات السابقة، وعجزوا عن إحصاء القتلى، ووصل عدده في حدود 180 ألف⁽²⁾.

وأعلن عبد الرحمان بن حبيب بن أبي عبيدة العصيان، وخرج على الوالي الذي اضطر إلى مغادرة الولاية إلى المشرق. وتجمع حول عبد الرحمان العرب والبربر المسلمون. فدخل بهم القيروان سنة 129هـ/747م، وأعلن استقلاله عن دار الخلافة. وحجته منع انقسام العرب والبربر. ولكن الحروب المشتعلة، والطاعون الشديد الذي دام سبع سنين، أبقى الأمور على حالها، ولم تتدخل دار الخلافة في الأمر⁽³⁾.

9- ولاية عبد الرحمان بن حبيب الفهري (129-137هـ):

عندما جلس مروان بن محمد بن مروان الجعدي على عرش الخلافة الأموية، أقر عبد الرحمان بن حبيب الفهري على ولاية إفريقية. فتمكن من إخماد الفتن الدائرة بين العرب والبربر، وقضى على كل الخارجين عن حكمه. ولما بلغه مقتل مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية سنة 132هـ، وانتقال الخلافة للعباسيين ببيعة أبي العباس السفاح في الكوفة، سارع عبد الرحمان إلى الاعتراف بالخلافة الجديدة⁽⁴⁾. وكانت لعبد الرحمان غزوات ومواقع سنة 135هـ، خارجيا في صقلية وسردانية، وصالحهم على الجزية، وداخليا وصلت إلى تلمسان قاعدة قبيلة زناتة⁽⁵⁾.

1 - انظر: ابن الأثير، الكامل، ج4، ص 417. ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 56-59. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 139-141.

2 - انظر: ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 62-64. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 141-143.

3 - نفسه، ج1، ص 65-66. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 160-162.

4 - نفسه، ج1، ص 66. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 161-164.

5 - نفسه، ج1، ص 73.

ولما تولى أبو جعفر المنصور، أقره على ولاية إفريقية⁽¹⁾. ولكن وقع خلاف بينهما على إرسال الجوارى والمال إلى العراق، فرفض عبد الرحمان، وكتب للخليفة قائلاً: «إن إفريقية صارت اليوم كلها دار إسلام، وقد انقطع السبي والجزية». ثم خلع عبد الرحمان بيعته من العباسيين. ولكن أخاه إلياس اغتتم فرصة الخلاف، ودبر مؤامرة مع أخيه عبد الوارث، ونفذت عملية قتل عبد الرحمان في شهر ذي الحجة 137هـ/ماي 755م. وكادت الخلافات تعصف بأسرته وولده وأخويه، ثم اصططحوا وتقاسموا الحكم في الولاية:

- تولى ابنه حبيب بن عبد الرحمان ولاية قفصة وقسطيلية ونفزاوة.

- تولى عمران بن حبيب تونس وصفورة وجزيرة شريك.

- وتولى إلياس بن حبيب ولاية إفريقية⁽²⁾.

وهكذا كانت ولاية عبد الرحمان بن حبيب ولاية انتقالية - فرضها الأمر الواقع - ومشتركة بين عهدين أو آخر الدولة الأموية، وبداية حكم العباسيين. وبدأت سلسلة أخرى من الولاة في العهد الجديد. وكما عرفنا من خلافات وعدم استقرار الحكم، فالتاريخ غاب حتى في الحواضر الكبيرة، فما بالك بمنطقة وادي سوف النائية والبدوية، فأقل ما عرفته تتبعها الأحداث السابقة من التجار، والقبائل المتنقلة مع المغرب الأدنى.

ب - ولاية إفريقية في العهد العباسي وأثرها على المغرب الأوسط (137-184هـ):

استمر تعيين الولاة في العهد العباسي بنفس الطريقة السابقة تقريباً. وابتدأ التعيين من عهد إلياس بن حبيب سنة 138هـ، وانتهى بعهد محمد بن مقاتل العكي سنة 181هـ. واتصف بالخصائص التالية:

- كان بعض الولاة يفرضون أنفسهم بالقوة العسكرية، ويستولون على حكم الولاية، ويعتزمون ضعف الدولة، أو وجود خلافات سياسية تشغل الخلافة عنهم؛ ولكنهم يطلبون التزكية من مركز الخلافة، ويظهرون دعمهم للخليفة الحاكم، ويجددون بيعتهم، ويقدمون كل عبارات الولاء والطاعة. ويقابل الخليفة ذلك بإقرارهم، ويوافق على مواصلة حكمهم ريثما تستتب له الأمور، ويرسل والياً جديداً.

1 - عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 164.

2 - انظر: ابن الأثير، الكامل، ج4، ص 501. ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 77. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 165.

- بروز صراعات على حكم الولاية من أبناء العائلة الواحدة، مثلما وقع في عائلة الفهري. ويؤول الأمر إلى الحرب أو حبك المؤامرات، والقتل غدرا، والاستحواذ على الحكم بالقوة، واتباع سياسة ظالمة على الرعية المقهورة. الأمر الذي جعل القبائل والطوائف تستنجد بمن يملك القوة في أطراف الولاية، ويؤدي ذلك إلى نشوب حروب دامية، تعصف بالثائرين، أو يتغلب أحدهم، وينصب نفسه واليا. ولكن يبقى الأمن العام مضطربا إلى حين تدخل الخلافة، وإرسال وال جديد لا يمكث إلا وقتا محدودا، وتعاد الأحداث مرة أخرى بشكل متشابه.

- تولى حكم الولاية عدد متتابع من عائلة المهلب، من ذرية قبيصة بن أبي صفرة، بداية من عمر بن حفص المهلبي سنة 151هـ، إلى ولاية الفضل بن روح سنة 178هـ، آخر ولاية هذه العائلة. ودامت مدة حكمهم نحو ثلاثة عقود. وشهد عهدهم عدة انتفاضات وحروب، ولم تعرف البلاد الاستقرار الذي أثر على تطور المجتمع ومؤسساته.

- بروز أهمية منطقة الزاب المتاخمة لوادي سوف، وكذلك بلاد الجريد (قسطيلية) ونفزاوة. وتجلت حالها في تعيين حكام يسهرون على تحقيق الأمن في نواحيها وفي بلاد المغرب الأوسط، وكلهم تحت سلطة والي القيروان. وأشهر من تولى في الزاب نصر بن حبيب المهلبي، وإبراهيم بن الأغلب الذي قام بدوره في نصرة الوالي وحمائته. ورغم الحزم في إدارة شؤونها، عرفت الزاب وبلاد الجريد بعض الثورات من البربر الساخطين على سوء المعاملة. الأمر الذي أدى بهم إلى التفكير في تأسيس دولة بربرية مستقلة؛ ولاسيما ثورة قبيلة ورفجومة التي اشتعلت سنة 164هـ. ولهذا عندما عين هارون الرشيد على إفريقية روح بن حاتم بن قبيصة سنة 172هـ/789م، وأمره بالخروج لولايته، وشيعة الرشيد بنفسه، وأوصاه قائلاً: ((عليك بالزاب، املاءه خيلا ورجلا))⁽¹⁾. فهو تكليف بتأديب البربر بأسلوب القمع والانتقام. وحينذاك كانت أصداء الحوادث في الزاب وقسطيلية لا تخفى على نظر ومسامع أهل وادي سوف.

- عرف العهد العباسي باشتداد الفرقة، وتفشي الاختلافات، وظهور الطوائف من الخوارج والشيعة والمعتزلة والأداسية⁽²⁾ وغيرهم. وانعكس هذا على الولايات المترامية الأطراف. فصار الوالي يعمل بالدرجة الأولى في نطاق طائفته بتمكينها، ومحاربة مخالفيه. ويمكن الوقوف عند أهم الولاية في هذا العهد:

1 - ابن الأبار، الحلية السيرة، ج 2، ص 358.

2 - ابن عذارى المراكشي، ج 1، ص 71.

1- ولاية إلياس بن حبيب الفهري (137-138هـ):

تولى إلياس حكم الولاية في ظروف سياسية مضطربة، وخلافات عائلية، وتنافس عدائي في تولي حكم الولاية. ولكن لما استقر إلياس في الولاية، بعث بالطاعة للخليفة أبي جعفر المنصور مع وفد من أكابر أهل القيروان. ولكن لم يطل عهد ولايته، لأن حبيب بن عبد الرحمان لم ينس ما فعله إلياس بوالده، فدبر المؤامرة، وجمع جيشه، وكادت الحرب تشتعل. ثم طلب المبارزة مع عمه، وانتهت بمقتل إلياس. ودخل حبيب القيروان منتصرا، وجلس على كرسي الولاية بالقوة⁽¹⁾.

2- ولاية حبيب بن عبد الرحمان الفهري (138-140هـ):

حكم حبيب الولاية مثل سابقه. ولكن سرعان ما ساءت الأحوال، وظهرت المعارضة العسكرية التي قادها عمه عبد الوارث. وقامت عدة معارك في عدة مناطق تفوق فيها حبيب بن عبد الرحمان الذي دخل القيروان منتصرا سنة 140هـ/757م. ولكن عبد الوارث لم يستسلم، واستنجد بقبيلة ورفجومة البربرية التي عاثت في البلاد فسادا وقتلا وتشريدا، مع استحلال المحارم، وأنهت ذلك بقتل الوالي حبيب⁽²⁾.

وتلك الأحداث ولدت حمية واستنكارا لدى إباضية طرابلس. فخرج لنجدة الولاية أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري بجيشه، وأدب القبيلة الثائرة بشدة، ورجع إلى طرابلس، واستخلف على إفريقية عبد الرحمان بن رستم الإباضي في صفر سنة 141هـ/758م⁽³⁾.

3- ولاية محمد بن الأشعث الخزاعي (143-148هـ):

استولى الإباضية على الحكم، وخرجوا على الدولة خروجا بينا. وحينها أرسل المنصور محمد بن الأشعث من مصر إلى إفريقية أميرا عليها سنة 143هـ. ووصلها في خمسين ألف مقاتل، ودعمه بالأغلب بن سالم التميمي. ووقعت معارك عديدة قتل فيها أبو الخطاب وأغلب أصحابه في صفر سنة 144هـ، وبلغ الخبر إلى عبد الرحمان بن رستم، فخرج هاربا إلى موضع تيهرت، واختطها ونزل بها. وقام ابن الأشعث بعدة أعمال تنظيمية، فرتب شؤون عمال

1 - انظر: ابن الأثير، الكامل، ج4، ص 502. ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 80. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 165-166.

2 - انظر: ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 80-81. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 166-167.

3 - انظر: ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 81-82. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 168-169.

الأقاليم، وبنى سور القيروان سنة 146هـ، ولاحق البربر الخارجين عن السلطة في كل مكان (1). ولكن الجند ثاروا على محمد بن الأشعث سنة 148هـ، وطلبوا منه الخروج، فلبى النداء وغادر الولاية (2).

4- ولاية الأغلب بن سالم التميمي (148-150هـ):

أرسل المنصور في ربيع الأول سنة 148هـ إلى الأغلب بن سالم بولاية إفريقية (3)، وكان الأغلب من أصحاب الرأي السديد والمشورة والحكمة. ولكن عهد الطمأنينة لم يطل كثيرا، فعاد البربر إلى ثورتهم، فخرج عليه سنة 150هـ/767م أبو قرعة الصفري، فقاتله في الزاب واستولى عليها، وسار إلى تلمسان. ولكن الأغلب قتل في إحدى المعارك فعرف بالشهيد (4).

5- ولاية عمر بن حفص المهلي (151-154هـ):

هو عمر بن حفص بن قبيصة بن أبي صفرة. وهذا الأخير هو أخو المهلب بن أبي صفرة، فنسب عمر إلى بني المهلب لشهرته، وتولى على إفريقية سنة 151هـ (5). وقدم إلى القيروان يقود جيشا قوامه خمسمائة فارس، ومكث بولايته نحو ثلاث سنوات وبعض الأشهر. استقامت له الأمور فيها، وخرج إلى الزاب بأمر من المنصور لبناء مدينة طبنة. وترك بالقيروان حبيب بن حبيب بن يزيد المهلي، فاغتمم البربر خلو القيروان من الجند، وأرادوا التخلص من حكم العرب وتأسيس دولة بربرية، وتلك حالهم من عهد كسيلة. فثاروا على حبيب وقتلوه. ثم جمع البربر جيشا كبيرا من الخوارج الصفرية والإباضية وصل عدده نحو 300 ألف مقاتل، وأثاروا فتنا وحروبا مريرة، وقاتلهم عمر بن حفص حتى استشهد في منتصف شهر ذي الحجة سنة 154هـ/771م، فقام بالأمر مكانه أخوه لأمه حميد بن صخر (6).

6- ولاية يزيد بن حاتم بن أبي صفرة (155-171هـ):

وصل خبر استشهاد عمر بن حفص إلى الخليفة المنصور، فسارع إلى إرسال يزيد بن حاتم

1 - انظر: ابن الأثير، الكامل، ج4، ص 503-505. ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 84-85. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 165-166.

2 - ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 85.

3 - ابن الأثير، الكامل، ج4، ص 505.

4 - انظر: ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 86-87. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 176-177.

5 - انظر: ابن الأثير، الكامل، ج5، ص 196. ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 88.

6 - انظر: ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 88-90. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 179-183.

واليا مكانه، ودعّمه بجيش قوامه ستون ألف فارس سنة 154هـ⁽¹⁾. كما أمده بالمال الكثير، وأوصاه بعدم الفتك بالبربر، فوصل إلى ولايته في عام 155هـ/772م. وأول عمل قام به في طريقه بطرابلس، هو قتال الخوارج، وأولهم أبو حاتم وأهل نصرته، وكانوا ثلاثين ألفا. ثم تقدم نحو القيروان فدخلها منتصرا، وقام فيها بإصلاحات هامة⁽²⁾.

ولكن البربر استيقظت عندهم نزعة الاحتلال، فثاروا عليه، وخرجوا على عماله في الأقاليم، ولاسيما الخوارج الصفرية في سجلماسة⁽³⁾ وطبنة⁽⁴⁾ وقبيلة كتامة وطرابلس. ولما استقر الحال في الولاية، قام بتجديد بناء مسجد القيروان، ومكث في الولاية نحو خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر. وعمل مع أربعة خلفاء من بني العباس⁽⁵⁾. ولكن في شهر رمضان سنة 171هـ/788م أصابته وعكة صحية، فاستخلف ولده داود، وتوفي إثر ذلك. وتمكن في فترة حكمه من قمع البربر، وصرّهم عن الثورة إلى الأعمال النافعة من التعمير والزراعة وتنمية الثروة وإنعاش البلاد⁽⁶⁾.

7- ولاية داود بن يزيد بن حاتم بن أبي صفرة (171-172هـ):

استخلف داود على إفريقية من قبل والده يزيد بن حاتم، ولكن الولاية في عهده لم تشهد الهدوء والاستقرار، فخرجت عليه الإباضية من البربر، فقَاتلهم في كل مواقعهم، ووصل عدد قتلاهم إلى عشرة آلاف. ولكن مدة حكمه كانت قصيرة، نحو تسعة أشهر ونصف في أحسن الأحوال، وعندها اختار الرشيد بدلا عنه عمه روح بن حاتم⁽⁷⁾.

8 - ولاية روح بن حاتم المهلبى (172-174هـ):

عين الوالي الجديد روح بن حاتم أخا يزيد بن حاتم سنة 172هـ/788م. وكان رجل سياسة ودولة، وله رصيد في الإدارة والقيادة، وتقلد عدة ولايات في أقاليم مختلفة كان آخرها واليا على فلسطين. ولكن كبر السن، والضعف البدني، أثرا عليه في إدارة ولاية إفريقية

1 - ابن الأثير، الكامل، ج 5، ص 197.

2 - انظر: ابن عذارى المراكشي، ج 1، ص 93-94. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 183.

3 - سجلماسة: مدينة تقع جنوب الأطلس الكبير، شرق مراكش، وجنوب فاس. وهي ثاني مدينة إسلامية بالمغرب الإسلامي بعد القيروان.

4 - طبنة: مدينة رومانية قديمة، تقع قرب بريكة في الشرق الجزائري.

5 - الخلفاء الذين أقروه على ولايته هم: أبو جعفر المنصور، والمهدي، والهادي، وأخيرا هارون الرشيد.

6 - انظر: ابن عذارى المراكشي، ج 1، ص 94-98. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 183-186.

7 - انظر: ابن عذارى المراكشي، ج 1، ص 99. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 187.

المضطربة بالثورات. وهي تحتاج رجلا قويا في إدارة المعارك وخوض المعامع. ولم ينتظره الموت طويلا فتوفي بولايته يوم 22 رمضان سنة 174هـ/791م، ودفن بالقيروان إلى جانب أخيه يزيد⁽¹⁾. ومما ذكره ابن الأبار: «وطريف الآثار أن المنصور وجه يزيد بن حاتم إلى إفريقية، وروحا أخاه إلى السند، فقبل له: يا أمير المؤمنين لقد باعدت بين قبريهما! ففضى أن ماتا جميعا بالقيروان، ودفنا بباب سلم، وعليها سارية مكتوب فيها اسمهما»⁽²⁾.

9- ولاية نصر بن حبيب المهلبى (174-176هـ):

كان لنصر بن حبيب تجربة إدارية سابقة، وعلم الرشيد بضعف روح بن حاتم، فاستقر رأيه على تولية نصر مكانه، وأرسل سرا في ذلك، وكان نصر يومها عاملا على بلاد الزاب، فبلغه الخبر في رمضان 174هـ، ولكنه لم يمكث طويلا في ولايته التي دامت نحو سنتين وثلاثة أشهر، كان فيها حسن السيرة، عدلا في أحكامه⁽³⁾.

10- ولاية الفضل بن روح المهلبى (177-178هـ):

ولى الرشيد الفضل بن روح سنة 176هـ، ولكنه وصل إلى القيروان سنة 177هـ/793م، ولكنه كان قليل التجربة، بعيدا عن الحكمة في تدبير الأمور وسياستها بالحسنى. وهذا دفعه إلى الاستخفاف بجنده، فاستعانوا عليه بعبد الله بن الجارود،⁽⁴⁾ الذي قاد الجنود، وخرج على الوالى الفضل، وتمكن من قتله سنة 178هـ/794م، فكانت ولايته سنة واحدة وخمسة أشهر. وبوفاته انتهت عهدة الولاية في أسرة آل المهلب التي دامت قرابة ثلاثة عقود⁽⁵⁾.

11- ولاية هرثمة بن أعين (179-181هـ):

وهو أحد أقطاب الدولة العباسية الذي كانت تسند إليه المهام الصعبة، ومنها تكليفه بولاية إفريقية، لعله يجد حلا ملائما للقضاء على الفتن التي طالت وأضررت. فوصل القيروان في ربيع

1 - انظر: ابن الأثير، الكامل، ج5، ص 282. ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 103. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 188.

2 - ابن الأبار، الحلة السراء، ج2، ص 358.

3 - انظر: ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 104-105. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 189.

4 - ابن الجارود: هو عبد الله بن عبد ربه بن الجارود، ويعرف بعبد ربه الأنباري. كان أحد قادة الجيش الخرسانية في القيروان، ولما ثار الجند على الفضل بن روح، اختاروه قائدا لهم في تمردهم، وتسبب في مقتل الفضل، وحكم القيروان سبعة أشهر. والتقى ابن الجارود بهرثمة بن أعين فسيره إلى الرشيد، وأودعه السجن في بغداد جزاء خيانتة للدولة. أنظر:

ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 104-105. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 189-194.

5 - أنظر: ابن الأثير، الكامل، ج5، ص 297. ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 107-109. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 189-191.

الأول سنة 179هـ/795م، بعد انتهاء فتنة ابن الجارود.

وافتح عهده بتعيين إبراهيم بن الأغلب عاملا في الزاب، وشيد رباط المنستير، وشيد سور طرابلس مما يلي البحر سنة 180هـ. وبالرغم من عدله، خرج عليه عياض بن وهب الهواري، وكليب بن جميع الكلبي، فقاتلها وهزمها. ولما رأى هرثمة، كثرة الانشقاق، وانتشار الخلافات، طلب الاستعفاء من منصبه، فوافق الخليفة. ورحل هرثمة في رمضان سنة 181هـ/797م. ولما وصل، عينه الرشيد أميرا على حرس الخلافة⁽¹⁾.

12- ولاية محمد بن مقاتل بن حكيم العكي (181-184هـ):

وهو أخو الخليفة هارون الرشيد من الرضاع. كان والده من كبار رجال الدولة العباسية، وباشر حكم الولاية في رمضان سنة 181هـ. ولكنه عُرف بالحمق وضعف الرأي، فخرج عليه الكثير من الثوار العرب والبربر. واستطاع تمام بن تميم التميمي، عامل تونس، الدخول إلى القيروان عام 183هـ/799م، وأخرج منها العكي إلى طرابلس ثم العراق. ولكن لما بلغ ذلك إبراهيم بن الأغلب، سارع إلى إخراج تمام من القيروان، وأرجع إليها العكي. ولكن الناس كانوا يكرهون العكي، فطلبوا من إبراهيم مراسلة هارون الرشيد حتى يعينه على إفريقية. فكتب إبراهيم كتابا أبدى فيه تنازله عن نفقات الولاية الآتية إليها سنويا من مصر، ومقدارها 100 ألف دينار. بل وعد أن يحمل سنويا لدار الخلافة أربعين ألف دينار. فشاور الرشيد أهل مجلسه، فأشار عليه هرثمة أن يوليها إبراهيم بن الأغلب، ويجعلها وراثية في عقبه. وذكر له ما رأى فيه من العقل والتمسك بالدين والكفاية والقدرة على التسيير. ففعلا ولاه الرشيد في أواسط جمادى الآخرة سنة 184هـ/800م، وأمر بإرجاع العكي إلى العراق⁽²⁾.

ج - أهم الأعمال في عهد ولاية إفريقية في مرحلة تأسيس المجتمع الجديد:

حرص أغلب الولاة على تحقيق الأمن والاستقرار في ولاية إفريقية، وبناء أسس المجتمع الجديد في بلاد المغرب، وتطلب منهم بالدرجة الأولى حل المشاكل السياسية، وإعطاء الدين والعقيدة نصيبا كبيرا من الاهتمام. وأهم الأعمال الأولية التي ظهرت في مرحلة تأسيس المجتمع الجديد:

- الدعوة إلى الإسلام ونشره بين البربر. وقد فعل ذلك عقبة بن نافع منذ وجوده في برقة وصحرائها، وبعد تأسيس القيروان لتكون قاعدة ومنطلقا لتبليغ الدين الحنيف. ومما عرف

1 - انظر: ابن عذارى المراكشي، ج1، ص 110. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 194-195.

2 - نفسه، ج1، ص 111-116. عبد العزيز الثعالبي، المرجع السابق، ص 195-198.

عنه، ذلك الدعاء الذي رفعه وهو يدور حول القيروان ومعه العسكر والعباد: «يا رب املأها علما وفقها، واعمرها بالمطيعين والعابدین، واجعلها عزا لدينك، وذلا لمن كفر بك، وأعز بها الإسلام، وامنعها من جبابرة الأرض»⁽¹⁾.

- تثبيت الدين الإسلامي في نفوس البربر الذين كانوا يدينون بالمسيحية، وتنتشر عند بعضهم العقائد الوثنية، والذين دخلوا الإسلام أثناء حركة الفتح خوفا أو مداهنة أو ولاء ظاهريا. ويفسر ارتداد القبائل فور رجوع الفاتحين إلى الشرق. وكما ذكر ابن خلدون: «إن البربر ارتدوا اثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة...». ومعنى الارتداد لا يدل على الواقع التاريخي الحق، لأن فترة كل حاكم من الولاة يقضي أغلب أيامها في الاهتمام بالحروب، ومنع الفتن، وإخماد نار الثورات التي تزيد البربر ابتعادا عن روح الدين، ولا توفر المحيط السليم لنشر الدعوة، وملازمة القلوب، وحتى الذين يدخلون في الدين. يكون الدين عندهم مجرد كلمة ينطقون بها، لكن ينقصها التربية والوعي بأحكام الدين التي تبقى ظاهرة، وسرعان ما تتلاشى من أصحابها عند أول هبة دنيوية. وهذا جعل كل فاتح جديد يعاني من خوض المعارك وإسالة الدماء التي أودت بحياة بعض القادة كعقبة بن نافع، وزهير بن قيس البلوي. واستمر ذلك الوضع إلى عهد موسى بن نصير. وحينئذ «... استقر الإسلام بالمغرب، وأذعن البربر لحكمه، ورسخت فيهم كلمة الإسلام، وتناسوا الردة»⁽²⁾، وأقبلوا على الدين بحب ورغبة. وأرادوا تأسيس دولة بربرية للإسلام مثلما كانت نية الزعيم البربري سولات بن مزمار⁽³⁾. ولعل معاملة الولاة القاسية هي التي تركتهم يريدون الاستقلال تحت راية دولة مستقلة⁽⁴⁾. وهذا أثر على حياتهم المذهبية في المستقبل.

- إرسال الفقهاء، وتنظيم حركة العلماء لتعليم البربر في فترات متعددة. وقد أرسل عمر بن

1 - انظر: الرقيق القيرواني، المرجع السابق، ص 41. موسى لقبال، المغرب الإسلامي، ص 129.

2 - تاريخ ابن خلدون، المرجع السابق، ج 6، ص 144.

3 - سولات بن مزمار: وعند ابن خلدون هو وزمار بن صقلاب جد بني خزر. وكان أمير قبيلة مغراوة وسائر زناتة. أسر أثناء عملية الفتح، وأخذ إلى الخليفة عثمان بن عفان فأسلم على يديه، فأطلقه، وولاه على رئاسة قبيلته، فأصبحت قبيلته إسلامية بربرية. انظر: ابن خلدون، المرجع السابق، ج 6، ص 141. عثمان الكعك، المرجع السابق، ص 106.

4 - عثمان الكعك، المرجع السابق، ص 106-107.

عبد العزيز عشرة من فقهاء التابعين⁽¹⁾، وكانوا تحت رئاسة أبي عبد الرحمن الحبلي⁽²⁾. وقاموا بتعليم البربر أصول الدين القويم، وتحفيظهم القرآن الكريم⁽³⁾. وبواسطة الفقهاء - القادمين من المشرق إلى المغرب - انتشرت التيارات الثقافية، والمذاهب الدينية، وطرق الاجتهاد، وحياة الزهد والتقشف⁽⁴⁾.

- وكان للعلماء دورهم الفعال في التصدي لكل المعضلات. فلما ثار الخوارج على الوالي حنظلة بن صفوان بطنجة، جمع حنظلة علماء إفريقية الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز، فكتبوا له رسالة وعظية توجيهية حتى يقتدي بها المسلمون، ويعتقدوا بما فيها⁽⁵⁾. وليس هذا وقوفاً مع الحكام، بل كانوا ينصحون الحكام في مجالسهم بدون حرج، ولو أغضبت نصائحهم الوالي، مثلما فعل الشيخ علي بن رباح اللخمي مع موسى بن نصير⁽⁶⁾. لأن العلماء اندمجوا فيما هو مشترك مع الرعية، وخرجوا في صفوف الجهاد مع الفاتحين في البر والبحر. أما عند الفتن، وفراغ منصب الوالي بسبب الثورة عليه أو قتله، يكون موقفهم اقتراح وإل جديد، ويبادرون إلى اختيار صاحب الدين والحزم، مثلما فعلوا بعد مقتل يزيد بن أبي مسلم في القيروان، اجتمع أهل الدين والفضل، واختاروا المغيرة ولكنه اعتذر⁽⁷⁾.

والجدير بالذكر أن المذاهب والعقائد الكثيرة التي انتشرت بالمشرق الإسلامي، كان لها أسبابها السياسية وظروفها التاريخية كالخوارج⁽⁸⁾ والشيعية والمعتزلة، أو مبرراتها الفقهية،

1 - الفقهاء العشرة: هم: أبو عبد الرحمن الحبلي، أبو مسعود سعد التجيبي، إسماعيل بن عبيد الله الأنصاري، أبو الجهم رافع التنوخي، موهب بن حي المعافري، حيان بن أبي جبلة القرشي، أبو ثمامة بكر بن سوادة الجذامي، أبو سعيد جعثل بن هاعان البتور، إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي، طلق بن جابان الفارسي. انظر: رياض النفوس، ج 1، 64-76.

2 - أبو عبد الرحمن الحبلي: واسمه عبد الله بن يزيد المعافري. كان فاضلاً صالحاً، روى عن الصحابة وغيرهم، واستطاع بث العلم الكثير. توفي بالقيروان سنة 100هـ، ودفن بباب تونس. انظر: رياض النفوس، ج 1، ص 64-65.

3 - أبو العرب القيرواني، طبقات علماء إفريقية وتونس، تح علي الشابي، نعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس بالتعاون مع المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، ط 2، 1985، ص 20.

4 - موسى لقبال، المغرب الإسلامي، ص 132.

5 - رياض النفوس، ج 1، ص 67.

6 - نفسه، ج 1، ص 77.

7 - نفسه، ج 1، ص 81.

8 - الخوارج: اسم طائفة من المسلمين بايعوا علياً بن أبي طالب، ثم خرجوا عليه بالسيف بعد التحكيم الذي وقع بعد معركة صفين. فحاول إرجاعهم بالحسنى، ولكن فريقاً منهم أصر على رأيه فحاربهم. واستمرت فكرتهم، وتحوّلت إلى مذهب سياسي لتنظيم الدولة والمجتمع، وتطورت إلى عقيدة دينية، ومذهب فقهي مدون. وتعددت فرقهم التي وصلت إلى 27 فرقة، وأكبر فرقهم ستة هي: الأزارقة والنجدات والعجاردة، والصفيرية والإباضية والثعالبة. انظر: =

وضرورتها العلمية كالحنفية والمالكية. وحينذاك انتشر فكر الخوارج وعم مذهبهم في مجال واسع من بلاد المغرب الإسلامي، وأهم مواقع تغلغلهم في الصحراء والبادي التي وفرت لهم الأمن، مثل وادي سوف وورجلان وبلاد ريغ وغيرها.

وكانت دوافع تغلغل الفكر الخارجي في بلاد المغرب كثيرة، وتسببت فيها المشاكل السياسية المتعددة، واصطدامهم بالأمويين، وفشل ثوراتهم بالشرق، ومتابعاتهم واضطهادهم، والتضييق على مذهبهم. فوجدوا في بلاد المغرب البعيدة - عن مركز الخلافة - موطنًا آمنًا، فالتجئوا إليه، ولمسوا القبول من سكانه، لالتقائهم في هدف واحد، وهو السخط على ولاية الخلافة. كما أن الخوارج لا يشترطون القرشية في الخلافة، وهذا صادف هوى في نفوس البربر الذين يطمحون في الحكم أو الاستقلال⁽¹⁾.

وبدأ نشر الفكر الخارجي عن طريق حركة الدعوة، وأهمهم سلمة بن سعد⁽²⁾ الذي يدعو إلى الإباضية، وعكرمة⁽³⁾ مولى ابن عباس الذي يدعو إلى الصفرية. ويعتقد أنها وصلا إلى المغرب في وقت واحد، ونجحت حركتهم في إشعال نار الثورات - منذ العشرينيات من القرن

= الشهرستاني، الملل والنحل، تح، صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، 2005، ص ص 92-111. عبد القادر صالح، العقائد والأديان، دار المعرفة، ط 2، بيروت، 2006، ص ص 124-128. محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، دار الفكر، ط 3، بيروت، 1971، م 3، ص 629.

1 - انظر: عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 152. محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، ط 2، الدار البيضاء، المغرب، 1985، ص 24.

2 - سلمة بن سعد (سعيد): هو أول دعاة الإباضية ببلاد المغرب. انتقل من المشرق في أوائل القرن الثاني للهجرة، حتى وصل إفريقية فبث فيها المذهب. وكانت له حماسة كبيرة، وكان يتمنى ظهور المذهب ولو ليوم واحد ويموت في آخره. واتخذ من المغرب الأدنى مجالاً لنشاطه، وكسب أنصاراً في إقليم طرابلس وجبل نفوسة، ولكن الموت عاجله، فتولى مكانه أبو عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغيطر الذي تتلمذ على أبي عبيدة بالبصرة، واستطاع أن يجعل من جبل نفوسة ((دار هجرة)) للمذهب الإباضي ببلاد المغرب. انظر: موسى لقبال، المغرب الإسلامي، ص 165. محمود إسماعيل عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 54.

3 - عكرمة بن عبد الله: هو أبو عبد الله. أصله من بربر المغرب. وكان عبداً لخصين بن الخير العنبري فوهبه للصحابي عبد الله بن عباس عندما ولي البصرة لعلي بن أبي طالب. وقد علمه ابن عباس القرآن والسنة حتى تفقه، وروى عن عدد من الصحابة، وصار أحد فقهاء مكة من التابعين. وقد أعتقه علي بن عبد الله بن عباس بعد موت والده، وكان ينكر عليه انتحاله نزعة الخوارج الصفرية. وقد أكثر من التنقل في بلاد المغرب ومصر وخراسان وأصبهان، ودعا لمذهبه بالقيروان، وتوفي بالمدينة، وقيل بالقيروان، والأول أصح، وذلك سنة 106 وقيل سنة 115 هـ، عن عمر بلغ ثمانين سنة، في نفس اليوم الذي مات فيه شاعر الغزل كثير غزوة، وكان شيعياً كيسانياً، فقال أهل المدينة، مات اليوم أفقه الناس، وأشعر الناس. انظر: محمد فريد وجدي، المرجع السابق، م 6، ص ص 533-534. موسى لقبال، المغرب الإسلامي، ص 153. محمود إسماعيل عبد الرزاق، المرجع السابق، ص ص 47-48.

الثاني للهجرة - ضد عمال بني أمية في ولاية إفريقية الذين تعاملوا مع البربر بقسوة وشدة، ولاسيما في عهدي يزيد بن أبي مسلم الثقفي 101هـ/720م، وعبيد الله بن الحبحاب السلوي 116هـ/735م⁽¹⁾. وكانت أول انتفاضة لهم، عندما جمعوا جيشا جرارا من الإباضية والصفيرية⁽²⁾ بلغ قوامه 65 ألف خارجي. قادهم ميسرة المدغري الصفري بالمغرب الأقصى، واحتل طنجة وعزل عنها عاملها عمر بن عبد الله المرادي سنة 122هـ/740م. واتسعت رقعة ثوراتهم وفتنهم، ودخلوا القيروان مرارا. واستمر الصراع بينهم وبين الحكومة المركزية إلى أن قضى عليهم الأمير يزيد بن حاتم المهلبي سنة 157هـ/774م. وبلغت معاركهم وانتفاضاتهم بإفريقية نحو 375 واقعة في مدة لا تزيد عن خمس وثلاثين سنة⁽³⁾.

ويومئذ كانت وادي سوف معبرا للعرب، وطريقا آمنا للمهاجرين واللاجئين السياسيين، وأصحاب الآراء المحظورة لدى الخلافة بالمشرق، ولاسيما العلويين والخوانرج والشيعة. وتواصل سيرهم نحو المغرب الأقصى، يقطعون فيافي العرق الشرقي في الفضاء القريب من سوف. وهذا حتم على بعضهم الإقامة المؤقتة. وحينئذ حدث الاحتكاك، وتحولت وادي سوف إلى خزان جامع لفسيفساء مذهبية كغيرها من مناطق بلاد المغرب الأوسط. ثم تطورت تلك المذاهب إلى دول حكمت ردحا من الزمن في مختلف أنحاء ولاية إفريقية.

1 - انظر: موسى لقبال، المغرب الإسلامي، ص 153-155. محمود إسماعيل عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 32-34.

2 - الصفيرية: طائفة من الخوارج من أتباع زياد بن الأصفر وهو المشهور، وسموا أيضا بالزيادية. وأول داعية لهم ببلاد المغرب عكرمة مولى ابن عباس. والذي أشاع المذهب هو ميسرة المطغري سنة 122هـ/740م. وتتمركز جملهم بالمغرب الأقصى وقادوا الثورات، واستطاعوا تأسيس دولتهم المدراية بسجلماسة بالمغرب الأقصى سنة 140هـ/757م. انظر: الشهرستاني، المرجع السابق، ص 110-111. ابن خلدون، الرجح السابق، ج 3، ص 180-182. محمد فريد وجدي، المرجع السابق، م 5، ص 522. عبد القادر صالح، المرجع السابق، ص 195. إبراهيم بكير بحاز، المرجع السابق، ص 62-65. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 152.

3 - انظر: موسى لقبال، المغرب الإسلامي، ص 158-174. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 153-155.

الفصل الرابع

تاريخ وادي سوف في ضفاف دول المغرب الأوسط العربية الإسلامية

المبحث الأول:

وضعية وادي سوف في عصر الدولة الرستمية (160-296 هـ / 777-909 م)

المبحث الثاني:

وضعية وادي سوف في عصر الدولة الأغلبية (184-296 هـ / 800-909 م)

المبحث الثالث:

وضعية وادي سوف في عصر الدولة العبيدية (الفاطمية) (296-361 هـ /

909-972 م)

تاريخ وادي سوف في ضفاف دول المغرب الأوسط العربية الإسلامية

تمهيد:

لقد تبوأ العنصر العربي مكانته خلال فترة الفتح الإسلامي لبلاد إفريقية، فكان رجاله يتصدرون الصفوف الأولى في قيادة الجيوش، أو تولي المسؤوليات في الولاية أو القضاء. كما بلغت الدعوة إلى العصية العربية أوجها في عهد الدولة الأموية، حتى وصل الأمر ببعض الولاة إلى فرض أنفسهم بالقوة، وحينها يغتنمون فرصة ضعف الدولة، ويطلبون التزكية من دار الخلافة، أو الاكتفاء بالتوسع في حكم الولاية، والتنعم من خيراتها.

وكان الخلفاء يتوجسون خيفة من انفصال ولايتهم في ولاية إفريقية البعيدة. فلا يمكث الوالي في منصبه إلا مدة يسيرة لا تتجاوز العقد في أحسن الأحوال، خوفاً من تكوين دولة مستقلة ذات طابع عربي. ولا يتوانى الخليفة في التضحية بالوالي بشتى الطرق، مثلما حصل لأبناء موسى بن نصير. فقد قتل والي الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نصير وهو يصلي بمسجد اشبيلية، وعزل أخاه عبد الله بن موسى عن ولاية إفريقية. وكل ذلك خوفاً من بلوغ أسرة موسى بن نصير مقام الريادة، وسلب الدولة السيادة على تلك الأصقاع النائية.

كما نسجل خروج عبد الرحمان بن حبيب على الوالي. وتجمع حوله العرب والبربر، ودخل بهم القيروان سنة 129هـ/747م، وأعلن استقلاله عن دار الخلافة. ولكن سكت عنه الخليفة، بل أقره على الحكم منعاً للاستقلال التام. كما خرج عن الدولة أبو الخطاب المعافري، واستولى على السلطة في القيروان، واستخلف على إفريقية أحد أتباعه، وهو عبد الرحمان بن رستم الإباضي في صفر سنة 141هـ/758م، ولكنه انسحب إلى المغرب الأوسط سنة 144هـ/761م وشرع في العمل لتأسيس أول دولة جزائرية مستقلة ذات أصول عربية.

لقد قامت عدة دول - إسلامية الانتساب - ببلاد المغرب الأوسط في منتصف القرن الثاني الهجري، وحدث بينها تنافس كبير، وأخذت تتوسع وتمد نفوذها على حساب جيرانها. وامتدت رقعة هذه الدول إلى أطراف الصحراء، وكانت وادي سوف محاذية لحدودها، أو واقعة ضمن نطاقها السياسي في بعض الأحيان بصفة شكلية، ونقف ملياً عند أبرز الدول المجاورة لها، في نطاقها الشمالي والجنوبي.

المبحث الأول

وضعية وادي سوف في عصر الدولة الرستمية (160-296 هـ / 777-909 م)

تمهيد:

كان طموح الخوارج بعيد المدى من أجل تأسيس دول تحمل مبادئهم، وتؤمن حياتهم. وشرعوا في نشر أفكارهم، وبث مذاهبهم في بلاد المشرق على مقربة من دار الخلافة. وكانت البصرة مركزا للدعوة الإباضية⁽¹⁾. وكانت دعوتهم تتم خفية ولو في سراديب تحت الأرض. ويرجع الفضل في تنظيم الدعوة إلى أول أئمتهم جابر بن زيد الذي عاجله الموت سنة 96هـ/714م، فخلفه تلميذه أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة. وفي عهده اشتد ساعد الدعوة، ودعمها بالمال والسلاح ليعين بها دعاة في الأقاليم. وظفرت بلاد المغرب باهتمامه الكبير، فبعث بداعيته سلمة بن سعيد لنشر المذهب بين أهل المغرب. وبعد توسع رقعة أتباعه في المغربين الأدنى والأوسط، وقع اختيار سلمة على ممثلين عن الجهات للتوجه إلى البصرة للمزيد من التعلم والدراسة. وراعى في عملية الاختيار أن يكونوا من أماكن متفرقة حتى يتيحوا للدعوة الانتشار بعد عودتهم إلى المغرب. وكان من تلاميذه المخلصين عاصم بن جميل السدراتي من غرب الأوراس، وأبو داود القبلي النفازي من جنوب تونس، وإسماعيل بن درار من غدامس، ومعهم عبد الرحمان بن رستم من القيروان. وتوجهوا إلى البصرة، وعرفوا «بحملة العلم». وبقوا في صحبة أبي عبيدة مسلم خمس سنوات، يتلقون العلم ويستعدون للمستقبل. ثم أشار عليهم - عند رجوعهم - بأحد العرب⁽²⁾ من أتباعه في القيروان، ويدعى أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ليتولى «إمامة الظهور» عندما تسنح الفرصة. وبعد عمل متواصل، بويع بالإمامة سنة 140هـ. ويومها استخلف عنه بالقيروان القاضي عبد الرحمان بن رستم، ورحل بالإباضية نحو طرابلس، وطرد منها عاملها الذي رجع إلى المشرق، ولكن الخليفة المنصور العباسي وجه إليه جيشا بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي سنة 142هـ، وبعد معارك طاحنة، هزم جيش أبي الخطاب وقتل سنة 144هـ/761م⁽³⁾. ولما سمع قاضي

1 - الإباضية: طائفة من الخوارج من أتباع عبد الله بن إباض، خرجوا على مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في أوائل القرن الثاني من الهجرة. فوجه إليهم عبد الله بن محمد بن عطية، فقاتلهم، وهم فرق شتى، ومنهم الوهبية، والنكارية، والنفاية. انظر: ابن خلدون، المرجع السابق، ج3، ص ص 180-182. محمد فريد وجدي، المرجع السابق، ج1، ص ص 25-26. عبد القادر صالح، المرجع السابق، ص ص 8-9.

2 - انظر: موسى لقبال، المغرب الإسلامي، ص 165. محمود إسماعيل عبد الرزاق، المرجع السابق، ص ص 52-55. محمد عيسى الحريري: المرجع السابق، ص 81.

3 - انظر: إبراهيم بكير بحاز: المرجع السابق، ص ص 65-68. عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج1، ص 165.

القيروان عبد الرحمان بن رستم⁽¹⁾ بانهمزمهم - وكان في طريقه لنصرتهم - فضل التراجع، والانسحاب نحو المغرب الأوسط⁽²⁾.

أولاً: تأسيس الدولة: عندما عزم عبد الرحمان بن رستم على المغادرة، حمل معه ما خف من ماله، ورافقه ابنه عبد الوهاب وخادمه، وكان راكبا على فرسه الوحيد. وبعد قليل من المسير، ماتت الفرس فدفنوها حتى لا تدل عليهم. وأخذ عبد الوهاب والخادم يحملان عبد الرحمان بالتناوب حينما أرهق وتعب، وساروا في الطريق الصحراوية المارة بقسطيلية، ووصلوا إلى جنوب نفطة، وساروا شمال وادي سوف. وظل عبد الرحمان يتنقل بين القبائل حتى وصل إلى جبل سوفجج⁽³⁾ قرب تيهرت، وشرع في دعوته منذ سنة 148هـ، واستمرت إلى يوم بيعته إماما للإباضية سنة 160هـ/776م. فكان عبد الرحمان بن رستم أول مؤسس لدولة جزائرية مستقلة في ظل العهد الإسلامي⁽⁴⁾.

ثانياً: الامتداد الجغرافي للدولة: شملت أراضي الدولة الرستمية كل المغرب الأوسط ما عدا تلمسان التابعة للأدارسة غرباً، وبلاد الزاب التابعة للأغالبة شرقاً، ودخلت تحت نفوذها جبل نفوسة، والمناطق الواقعة جنوب طرابلس، وجزيرة جربة وبلاد الجريد، وكانت تحيط بالدولة الأغلبية من الغرب والشرق والجنوب⁽⁵⁾. وقد امتد نفوذها إلى جنوب بلاد الجريد،

1 - عبد الرحمن بن رستم: هو عبد الرحمان بن رستم بن بهرام بن كسرى الملك الفارسي. كان جده بهرام من موالي عثمان بن عفان. وبعد وفاة والده رستم في الحج، تزوجت والدته حاجاً مغربياً، فأخذها وابنها إلى بلده، فترى عبد الرحمان في القيروان وأخذ العلم عن فقهاءها. واتصل في شبابه بداعية الإباضية سلمة بن سعيد، وتعلق بتعاليمه. وقضى خمس سنوات بالبصرة في دراسة الفقه الإباضي، وصارت له منزلة علمية. وقد ولاه أبو الخطاب المعافري قضاء القيروان. انظر: الرقيق القيرواني، المرجع السابق، ص 12. إبراهيم بكير بحاز: المرجع السابق، ص 92-95. عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 118.

2 - انظر: إبراهيم بكير بحاز: المرجع السابق، ص 65-68. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 165.

3 - جبل سوفجج: هو الجبل الرابع من سلسلة الجبال التي تمتد من مدينة السوقر في الجنوب الغربي لمدينة تيهرت ومدينة شلالة في الجنوب الشرقي منها. وهو الجبل الذي يدعى حالياً بجبل سوفكيك، وهو موطن قبيلة لماية. انظر: أبا زكرياء، المرجع السابق، ص 75. محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس 160هـ - 296هـ، دار القلم، ط2، الكويت، 1987، ص 86. إبراهيم بكير بحاز: المرجع السابق، ص 82.

4 - انظر: إبراهيم بكير بحاز: المرجع السابق، ص 65-68. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 165. محمد عيسى الحريري: المرجع السابق، ص 85-86.

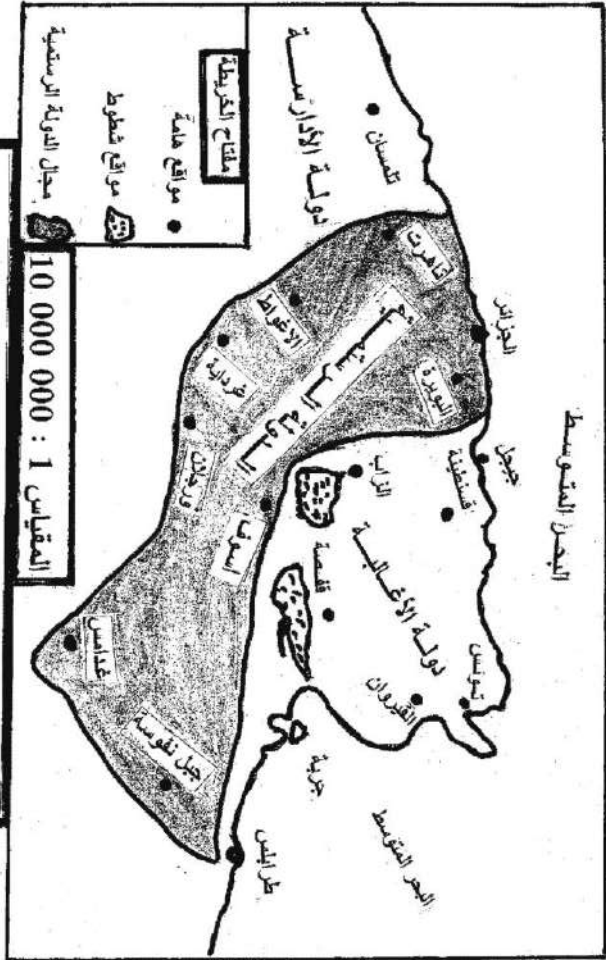
5 - أبو زكرياء، المرجع السابق، ص 20. إبراهيم بكير بحاز: المرجع السابق، ص 99. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 166-167. مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 65-67.

وكانت وادي سوف ضمن نفوذها، وتأثرت بسياستها، وحينئذ بدأ انتشار المذهب الإباضي بصفة محدودة⁽¹⁾. وقد قسم الرستميون دولتهم إلى عمالات، وكانت أقربها إلى وادي سوف هي قفصة ونفزاوة وقابس⁽²⁾.

ثالثا: الحياة السياسية: عندما بويع عبد الرحمان بن رستم بالإمامة سنة 160هـ/776م في عاصمته تيهرت، حكم الدولة عقدا كاملا، واستمر ليوم وفاته سنة 171هـ/787م⁽³⁾. واستطاع تأمين دولته مع دول الجوار، وربط معها علاقات متينة. فاتجه نحو سجلماسة، عاصمة دولة بني مدرار، وأقام علاقة مصاهرة مع زعيمها اليسع بن أبي القاسم، فزوجه ابنته أروى. وكان لهذا الزواج أثره في تأمين حدود دولته الجنوبية والغربية. كما عقد معاهدة سلام مع الوالي العباسي في القيروان، روح بن حاتم، سنة 171هـ، وجدد المعاهدة ابنه عبد الوهاب من بعده. وقد عرف المغرب الأوسط في عهده الهدوء والاستقرار الذي لم يعهده في أزمنة سابقة⁽⁴⁾. وكانت علاقتها بدولة الأغالبة المجاورة مبنية على التعايش السلمي في معظم الأحيان. وظلت القبائل المتمية إليها في عدم استقرار، تنتقل حسب ظروفها الطبيعية والسياسية⁽⁵⁾. ومما اتصفت به الحياة السياسية في الدولة، والخصائص التي تمتع بها حكامها:

- أخذها بمبدأ التوريث الذي مارسه الدولة رغم أن عبد الرحمان بن رستم ترك لهم الحكم شورى بين سبعة من أعيان الدولة، ولكنهم عجزوا عن اختيار الإمام في الشهر المخصص لهم. وأخيرا بويع عبد الوهاب بن عبد الرحمان الذي توارث الحكم أبناءؤه وأحفاده من بعده، ووصل عددهم إلى ستة أئمة. وكانت فترات حكمهم متفاوتة، أقلها سنة واحدة كما هو الشأن عند الإمام أبي بكر بن أفلح (240-241هـ)، والإمام أبي حاتم بن أبي اليقظان (281-282هـ)، وأقصاها وصل إلى الخمسين سنة عند الإمام أفلح بن عبد الوهاب (190-240هـ). وعرفت الدولة في عهده الازدهار والاستقرار⁽⁶⁾.

-
- 1 - محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، دار إحياء الكتب العربية، ط1، مصر، 1963، ج3، ص ص 515-517.
 - 2 - محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 229.
 - 3 - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج1، ص 166.
 - 4 - محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 106-107.
 - 5 - نفسه، ص ص 196-197.
 - 6 - انظر: عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج1، ص 178. محمد عيسى الحريري: ص ص 109-110.



- عرف حكام الدولة بالاعتماد في حكمهم على الكتاب والسنة، وأغلبهم كانوا من العلماء، وأصحاب الثقافة الدينية العالية. فالمؤسس هو قاضي القيروان؛ وابنه عبد الوهاب هو أعلم علماء الإباضية في زمانه، وله باع كبير في العلوم الشرعية، فضلا عن حنكته السياسية. ومثله كان ولده أفلح بن عبد الوهاب عالما وأديبا وشاعرا، وتمسكا بالخلق والدين⁽¹⁾.

- حدوث فتن وخلافات سياسية داخل البيت الرستمي، أسقطت حكم الإمام أبي بكر بن أفلح، وتولى مكانه أخوه أبو اليقظان محمد بن أفلح. ولما توفي، خلفه ابنه أبو حاتم يوسف بن أبي اليقظان. ولكن عمه يعقوب بن أفلح نازعه الحكم، وخرج عليه وقاتله مدة أربع سنوات⁽²⁾ وهذا مما أثر سلبيا على مستقبل الدولة وأدى إلى ضعفها.

رابعا: الحياة الاقتصادية: لعبت الواحات الصحراوية دورا هاما في التجارة العابرة للصحراء بداية من عاصمة الدولة تيهرت، ومرورا بالمراكز التجارية الأخرى، ومنها وادي سوف، وورجلان. وتصل تجارتهم إلى بلاد السودان الغربي لجلب الرقيق والذهب بالدرجة الأولى. وكانت الصحراء حافلة بكثير من منابع المياه والواحات التي مكنت القوافل التجارية من ذلك العبور في عمق الرمال من تيهرت إلى قسطيلية وقفصة. والأغلب أنها تمر بجنوب دولة الأغالبة تارة، أو داخل أراضيها نظرا للعلاقات الحسنة بين الدولتين. واستفاد منها الرستميون أرباحا دعمت أركان دولتهم⁽³⁾.

كما اشتهرت بلاد المغرب عموما بالعيش على الرعي. وقد وصفها يعقوبي في كتابه البلدان ببلاد الزرع والضرع. وكانت المراعي منتشرة في شمال وادي سوف، ولاسيما قرب المنابع المائية بعيون النازية. كما عرفت منطقة سندروس بكثرة أشجارها وحسن أرضها. وقصدها العرب

1 - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج1، ص ص 167-168.

2 - نفسه، ص ص 170-172.

3 - انظر: إبراهيم بكير بحاز: المرجع السابق، ص ص 138-189. محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 13.

من العلويين⁽¹⁾ ومعهم الإبل الكثيرة⁽²⁾.

خامسا: العمران والاستقرار: كان للأنهار أثرها في ازدهار العمران بالمغرب الأوسط، وفي الدولة الرستمية بصفة خاصة. حيث أسس عبد الرحمان بن رستم دولته على نهر مينة، فضلا عن نهر الشلف النابع من جبل الونشريس، ونهر سيرات الذي يجري بالقرب من قلعة هوارة. وكلها تتغذى في الشتاء من الأمطار. وتوجد وديان صغيرة يأتيها الماء من العيون أو من قمم الجبال مثل نهر تاتش الذي يعتمد عليه أهل⁽³⁾ تيهرت في شربهم وسقي بساتينهم، ونهر تامسن الذي يعتمد عليه تنس في زراعة الحبوب. وساهمت كلها في الازدهار الاقتصادي وحياة الاستقرار في ظل الزراعة. وكانت مصدر رخاء للدولة الرستمية⁽⁴⁾.

وكان وادي سوف، النهر الرقراق يشهد في قسمه الشمالي تغيرا في انتشار مياهه، وتحول روافده، وكان يسمى وادي تاقرارت⁽⁵⁾ لأنه يمر على عريش تاقرارت في الشمال⁽⁶⁾ قرب

1 - العلويون: هم أول من انتقل من المشرق إلى المغرب هربا من فتك العباسيين، ولاسيما بعد وقعة فخ قرب مكة التي خرج بها عن الخلافة العباسية حسين بن علي بن حسن المثلث بن حسن المثنى بن الحسن السبط - من أحفاد علي بن أبي طالب - في خلافة الهادي سنة 169 هـ، ومعه قرابته وعماه إدريس ويحيى. فقاتلهم محمد بن سليمان، فقتل الحسين، ونجا يحيى، وظهر بالديلم. بينما هرب إدريس الأكبر إلى مصر، ومنها واصل إلى المغرب الأقصى. ولعله في طريقه مر بالقرب من تراب وادي سوف وورقلة هروبا من أعين أمرائهم بإفريقية. لأن العباسيين أوعزوا إلى أمرائهم بإفريقية بتتبع العلويين. وهذا دفعهم إلى طلب الأمان في الصحراء. ونزل إدريس مع مولاه راشد بوليلي بالمغرب سنة 172 هـ، واجتمعت عليه قبائل البربر وبايعوه، فأعلن عن تأسيس الدولة الإدريسية. ولكن الأغالبة - الذين مثلوا العباسيين فيما بعد - لاحقوهم في مستقرهم بالمغرب الأقصى. والجدير بالذكر أن أولئك الأشراف ارتبط بعضهم بوادي سوف في المستقبل، وفضلوا السكن بأرض وادي سوف إثر هجراتهم المتعددة. انظر: ابن خلدون، المرجع السابق، ج4، ص ص 16-17. ابن الأبار، الحلة السراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، ط2، مصر، 1958، ج1، ص ص 50-51. إبراهيم بن عامر: المرجع السابق، ج1، ص ص 54-55..

2 - إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، مخ، ج1، ص 55.

3 - انظر: البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك)، دار الكتاب العربي، القاهرة، (ب ت)، ص ص 16-66-69. محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص ص 15-16.

4 - أنظر: البكري، المرجع السابق، ص ص 16-66-69. محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص ص 15-16.

5 - **تاقرارت:** أو تاكرارت، هي قاعدة مملكة زناتة، وهو الوادي الذي يمر بعريش تاقرارت، وكانت مياهه تكثر تارة، وتتشتت في مرات أخرى، ويقربه وادي النازية الأقرب إلى الجنوب، واختلط بالوادي النابع من نواحي بودخان وعقلة الطرودي والميثة بالناحية الشمالية الشرقية قرب خنشلة. أنظر: إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، مخ، ج1، ص ص 40-41-55. وذكر ابن خلدون مدينة تاكرارت التي اختطها يوسف بن تاشفين، وتعني المحلة بلسان البربر، وهي أصل تلمسان. أنظر: ابن خلدون، المرجع السابق، ج7، ص 62.

6 - إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ص 55.

خنشلة. وهي منطقة الرعي، وممارسة بعض الزراعة.

سادسا: الحياة الثقافية: برزت تيهرت الرستمية في القرن الثالث الهجري كمركز ثقافي مشهور في بلاد المغرب الإسلامي. وتميزت بنشاطها الكبير في مختلف الميادين، ولم ينافسها إلا جبل نفوسة الذي اشتهر بعلمائه الأجلاء، فضلا عن المناطق الصحراوية المجاورة⁽¹⁾، ومنها وادي سوف التي عرفت مدرسة فكرية إباضية⁽²⁾ قامت بدور الكتاب، واهتمت بتعليم القرآن الكريم للصبيان ومبادئ الدين واللغة العربية. وعند بلوغ الطفل الحلم، يتحول إلى حلقات العلم التي تتم في المسجد أو المحل المهياً لذلك حسب الظروف التي تعيشها الجماعة في مرحلتها، ويقصدها عامة الناس ولاسيما طلاب العلم المتفرغون لهذا الشأن⁽³⁾.

سابعا: المعتقدات والمذاهب الدينية: عندما حضرت الوفاة عبد الرحمان بن رستم، جعل الإمامة شورى في سبعة نفر⁽⁴⁾، في سلوك شبيه بما فعله عمر بن الخطاب. وانتهى الأمر بتولي عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم سنة 171هـ/787م. وكان في الخمسين من عمره، وقد قضى المراحل الأولى من حياته ملازما لوالده، واكتسب منه قوة الشخصية إلى جانب الخبرة بشؤون السياسة والإدارة والحرب. ورغم تلك الإمكانيات، لم تسلم الدولة من الانشقاقات والفتن، والأفكار المذهبية، والثورات الداخلية، ومن أبرزها:

1- ثورة النكارية: وترعّمها يزيد بن فندين - وكان أحد المرشحين للإمامة من طرف المؤسس - وهو ينتمي إلى بني يفرن، وهم فرع من قبيلة زناتة البترية. فجمع الأنصار في تيهرت، وأثار الفتن، وبنى دعوته على إنكار بيعة عبد الوهاب، وإعلان فساد البيعة لأن في المسلمين من هو أكثر منه علما. وأدى ذلك إلى انقسام مذهبي كبير داخل الإباضية، فسمي أتباع

1 - هي ورجلان وبلدة أريغ، والحامة، وقنطار، وقسطيلية.

2 - أنظر: إبراهيم بكير بحاز، المرجع السابق، ص 262. نصر الدين وهابي، "سوف في المصادر الإباضية"، محاضرة في مدونة، وادي سوف دراسات تاريخية واقتصادية وثقافية متنوعة، أقيمت في الندوة الفكرية الخامسة للجمعية الثقافية للمركز الثقافي محمد ياجور بقمار أيام 24-25-26 ماي 2000، مطبعة مزوار، ط1، الوادي-الجزائر، 2008، ص 18.

3 - إبراهيم بكير بحاز، المرجع السابق، ص ص 278-280.

4 - أصحاب الشورى هم: مسعود الأندلسي، وأبو قدامة يزيد بن فندين اليفرنى، وعمران بن مروان الأندلسي، وأبو الموفق سعدوس بن عطية، وشكر بن صالح الكتامي، ومصعب بن سدمان، وابنه عبد الوهاب، وجعل له الحق في الإمامة على خلاف ما فعل عمر. ولما عرضت الشورى على العامة، مالت إلى اثنين هما: عبد الوهاب، ومسعود الأندلسي، وهو الذي حاز الغالبية. ولما حان وقت مبايعته، هرب واختفى تورعا، فبايعوا عبد الوهاب. وحينئذ ظهر مسعود الأندلسي، وكان أول مبايع له. انظر: إبراهيم بكير بحاز، المرجع السابق، ص ص 114-115.

يزيد بالنكارية⁽¹⁾، بينما تمسك جمهورهم في المغرب الأوسط بإمامة عبد الوهاب فعرفوا بالوهبية⁽²⁾. ثم انسلخ أتباع يزيد في مكان خارج تيهرت عرف بكدية النكار، وتطور أمرهم إلى الثورة، وقامت الحرب، وسالت دماء كثيرة، وقتل زعيمهم يزيد، ولكن أتباعه واصلوا المعارضة، ولاسيما بعد ظهور جماعة الواصلية⁽³⁾.

2- ثورة الواصلية: هم من المعتزلة الذين ناقشوا مسألة الإمامة لكونهم رعايا الدولة. وأفضى بهم الأمر إلى الثورة على الدولة، ومشاركة النكارية. ولكن ثوراتهم فشلت، وتحولت الواصلية إلى أقلية. بينما انحاز النكارية إلى جبال الأوراس واعتمسوا بها إلى نهاية الدولة الرستمية. والجدير بالذكر أن تلك الانشقاقات التي تمسكت بالجوانب الفقهية في ظاهرها، كانت تحمل بعدا سياسيا في معارضتها للنظام، وخرجها على الإمام، ويجمعها أمر واحد هو مسألة الإمامة التي أثارت نقاشا ثريا، مما يدل على إيمان الدولة الرستمية بحرية الرأي، ومناقشة المخالفين كالنكارية والواصلية وغيرهم⁽⁴⁾.

1 - **النكارية:** وهم أتباع يزيد بن فندين، وقد أنكروا إمامة عبد الوهاب ونظام الوراثة في الحكم، وهو النظام الذي رفضه الخوارج عامة، والإباضية خاصة. ويعتبرون الإمامة شورى بين المسلمين، ولا يجوز تولية من يوجد من هو أعلم منه في المسلمين. وتناجوا بينهم في المسائل الفقهية، فأطلق عليهم لقب النجوية، كما سموا بالنكاث لنكثهم ببعثهم الأولى للإمام عبد الوهاب. وسموا بالشعبة لإدخالهم بأفكارهم شغبا في الإسلام، وسموا بالملحدة لأنهم أهدوا في أسماء الله. ولكن غلبت عليهم صفة النكارية، وقبلوها من وجه آخر، وهو أن الخوارج جميعا أنكروا حكم الحكامين بصفين. ويسميهم إبراهيم العوامر في صروفه باسم الرافضة. انظر: إبراهيم بكير بحاز، المرجع السابق، ص 116-315. سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ المغرب العربي**، المعارف، الإسكندرية، 1993 ج 2، ص 321. إبراهيم العوامر، الصروف، ص 166.

2 - **الوهبية:** وهم أتباع الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم. وقد عارضوا مخالفيهم وجادلوهم وناظروهم، ووصلوا معهم إلى حد القتال أو البراءة منهم. وقال بعضهم: إذا لم تجد ما تتصدق به، فالعن النكار. انظر: إبراهيم بكير بحاز، المرجع السابق، ص 330-331. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص 321.

3 - **الواصلية:** هي فرقة من المعتزلة، تنتسب إلى واصل بن عطاء. وأكثرهم من بربر زناتة. وكانوا يعيشون بالبادية قريبا من تيهرت وعددهم نحو ثلاثين ألف بيت. وكان زعماءهم يحسنون الجدل في المسائل التي كانت محل اختلاف بين أهل المذهب. ووصلوا إلى مناظرة الإمام عبد الوهاب الذي أئذهم وأعذرهم قبل أن يلاقهم في المعارك التي كسرت شوكتهم ولم يبق منهم إلا القليل. انظر: الشهرستاني، المرجع السابق، ص 36-38. البكري، المرجع السابق، ص 67. إبراهيم بكير بحاز، المرجع السابق، ص 118-332. سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص 325-329.

4 - انظر: محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 111-126-147. سعد زغلول عبد الحميد المرجع السابق، ص 311-315. إبراهيم بكير بحاز، المرجع السابق، ص 330.

ثامنا: نهاية الدولة الرستمية:

رغم عوامل التماسك التي حافظت على استمرار الدولة قرناً كاملاً وثلاثة عقود زائدة، إلا أنها انهارت وتلاشت للأسباب التالية:

- الخلافات الداخلية والتنافس على الحكم الذي أفضى إلى الصدام بين الدولة والرعية، وبروز الفتن، والثورات الداخلية التي بلغ فيها الخلاف الفكري مبلغه بين الوهبية والنكارية بالخصوص. وكله أرهق الدولة وشغلها عن جادة الصواب، وضع جهودها هدرًا⁽¹⁾.

- انهزام قبيلة نفوسة في موقعة مانو بين قابس وطرابلس سنة 283هـ أمام جيش الأغالبة. لأن نفوسة كانت الحامية للدولة، وتلقى منها دعمها العسكري الأساسي، وهي سبب انتصاراتها في مواقعها السابقة.

- الخلاف الذي دب في البيت الرستمي عندما استولى اليقظان على الحكم، والذي وصل بهم إلى التبرؤ من الإمام، وتركوه لقدره. بل وصل الأمر بابنة الإمام المقتول أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان، - وتدعى (دوسرا) وبالتعاون مع أخيها - إلى خيانة الدولة، وساهما في استدعاء أبي عبد الله الشيعي، وساعده على قتل اليقظان انتقاماً لوالدهما⁽²⁾.

- ضعف الجيش الرستمي، وإهمال تقويته وتسليحه، الأمر الذي جعله يفشل في أول موقعة كبيرة عندما واجهته الدولة الشيعية العبيدية التي سيطرت على الأغالبة، وعجز الإمام اليقظان عن محاربتهم، واستسلم لهم. ولكن أبا عبد الله الشيعي قتله بين أهله وذويه في شوال 296هـ/ جوان 909م⁽³⁾. وكانت تلك آخر لحظة في حكم هذه الدولة التي صارت أثراً بعد عين.

1 - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 176.

2 - انظر: أبا زكريا، كتاب السيرة وأخبار الأئمة تح عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس، ب ت ط، ص 162-163. عبد الله الباروني، الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الإباضية، مطبعة الأزهار البارونية، مصر، ب ت ط، ج 2، ص 292. إبراهيم بكير بحاز: المرجع السابق، ص 129.

3 - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 176.

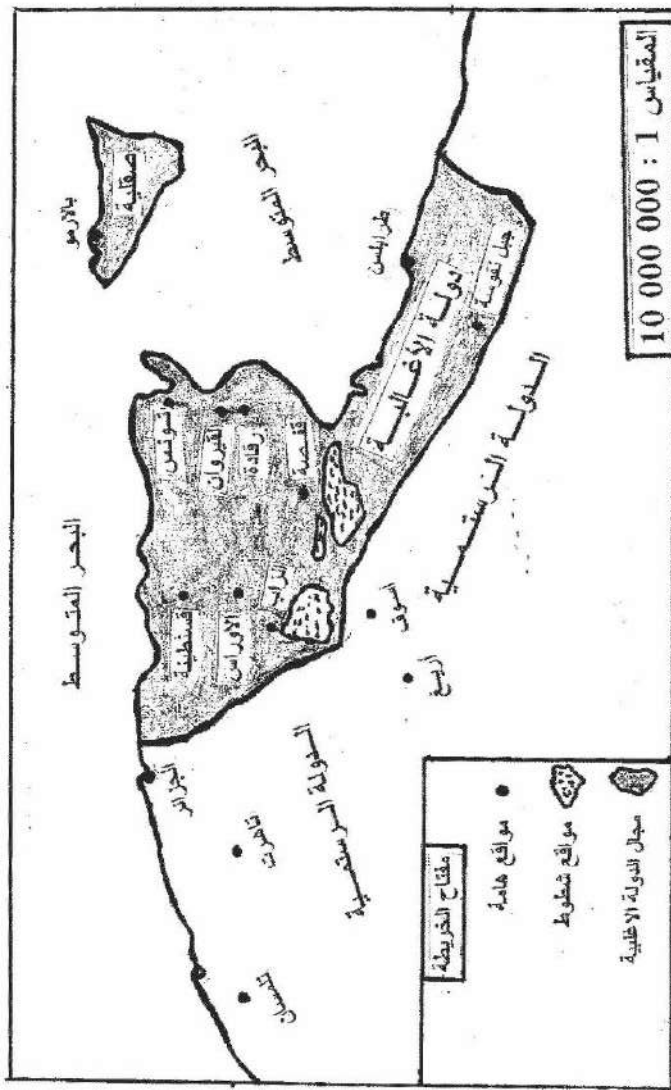
المبحث الثاني وضعية وادي سوف في عصر الدولة الأغلبية (184-296 هـ / 800-909 م)

تمهيد:

إن الظروف السياسية المتناقضة، والاضطرابات الواقعة في البلدان والأقاليم، هي التي عجلت بتغيير النظام السياسي، وهيأت الواقع لقيام الدولة الجديدة، مثلما وقع في ولاية إفريقية التي كانت تابعة للخلافة العباسية في أواخر القرن الثاني الهجري، ويحكمها الأمير محمد بن مقاتل العكي منذ 181 هـ / 797 م، وعاصمته القيروان. ولكن سياسته السيئة واستبداده بالرعية أدى إلى الانتفاضة الشعبية سنة 183 هـ / 799 م⁽¹⁾.

أولاً: تأسيس الدولة: وقف حاكم الزاب، إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي⁽²⁾ إلى جانب والي إفريقية، فنصره وأعادته إلى ولايته بالقيروان. ولكن الرعية بقيت مصرّة على خلعه، واقترحت تولية ابن الأغلب، ووصل الأمر إلى الخليفة هارون الرشيد الذي قبل إسناد الولاية إلى ابن الأغلب في جمادى الثانية سنة 184 هـ / جوان 800 م، وجعلها وراثية في أهله. وكانت الولاية الإفريقية تتمتع بشبه استقلال داخلي، وهو تمكين لها من العباسيين للدفاع عن ملك الخلافة ضد الدولة الإدريسية بالمغرب، والأموية بالأندلس. وهذا كان بداية نشأة الدولة الأغلبية بأفريقية⁽³⁾.

- 1 - الرقيق القيرواني، المرجع السابق، ص ص 17-18. ابن خلدون، المرجع السابق، ج 4، ص ص 249-250. ابن الأبار، المرجع السابق، ص 89. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 194. محمد الطالبي، **الدولة الأغلبية**، ترجمة المنجي الصيادي، مراجعة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص 96.
- 2 - **إبراهيم بن الأغلب:** كان والده يدعى الأغلب بن سالم التميمي، وأصله من مرو ببلاد فارس. وكان من الجند العربي، أصحاب أبي مسلم الخراساني. قدم مع القوات العباسية إلى مصر، واشتهر بالشجاعة وحسن الرأي. وقد ولاه المنصور ولاية إفريقية بعد عزل محمد بن الأشعث الخزاعي سنة 148 هـ، فسار إليها مع ابنه إبراهيم، ولكن زعيم الخوارج أباحاتم تمكن من قتله سنة 150 هـ فلقب بالشهيد. وكان عمر ابنه إبراهيم عشر سنين، وصار في المستقبل جندياً في مصر، ودخل مثل والده مع الجند إلى المغرب. وفي منطقة الزاب بدأ يهيم الأمر لنفسه، واستطاع الحصول على ولاية الزاب في عهد ابن مقاتل العكي بتولية من قبل هارون الرشيد. انظر: ابن خلدون، المرجع السابق، ج 4، ص ص 250-251. ابن الأبار، المرجع السابق، ص 89. تقديم محمد زينهم لكتاب الرقيق القيرواني، المرجع السابق، ص ص 12-13. سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ص 27-32.
- 3 - انظر: تقديم محمد زينهم لكتاب الرقيق القيرواني، المرجع السابق، ص ص 27-28. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 194. سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ص 27-29.



- المراجع:
- 1- الأطلنطي العالمي، المعهد الوطني التربوي، الجزائر، ص 30.
 - 2- عادل أنور خضر، أطلنطي تاريخ الجزائر، ص 64.
 - 3- محمد الطالبي، المرجع السابق، ص 144.
 - 4- مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 22.
 - 5- رايح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، ص 29-32.

موقع وادي سوف في ضفاف الدولة الأغالبية

ثانيا: الامتداد الجغرافي للدولة: شملت الدولة رقعة جغرافية ضمن أراضي المغرب الأدنى، والجزء الشرقي من المغرب الأوسط، وكانت عاصمتها العباسية⁽¹⁾ قرب القيروان⁽²⁾. ثم تحولت لاحقا إلى رقادة⁽³⁾ كعاصمة جديدة في عهد إبراهيم بن أحمد سنة 264هـ/877م. وصارت رمزا لدولة إبراهيم الثاني الأغلبي⁽⁴⁾.

وكان يطلق عليها بلاد الزاب الأوسط، أو نوميديا في العهد القديم. وتمتد من بجاية على البحر المتوسط إلى الصحراء⁽⁵⁾. وكانت رقعتها في الربع الأول من القرن الثالث الهجري لا تتجاوز الشمال التونسي وجزء صغيرا من الشمال الشرقي الجزائري. ولكن في سنة 224هـ نجحت الدولة في تحطيم الحدود، وتوسعت بالاستيلاء على مضيق يربط تيهرت بطرابلس، ويمثل منطقة قفصة وبلاد الجريد⁽⁶⁾. وحينئذ كانت وادي سوف في مد وجزر بين دولة الرستميين في الجنوب، ومحاذة أراضي الأغالبة في الشمال، في الخط الرابط ما بين الزاب وبلاد الجريد. وكان نفوذ الأغالبة ضعيفا، ويشرفون على إدارته من مدينة باغاية⁽⁷⁾ التي لها احتكاك بحدود وادي سوف⁽⁸⁾. ويتنقل الرعاة في تلك الأراضي ضمن نفوذ الأغالبة. وحينئذ أصاب

1 - العباسية: وهي مدينة ملكية وعاصمة جديدة خلفت القيروان. شرع إبراهيم بن الأغلب في تشييدها في نفس سنة توليته عام 184هـ/800م. وأطلق عليها اسم العباسية تيمنا وإشادة بالدولة العباسية التي يدين لها بالولاء والتبعية. كما عرفت باسم القصر القديم. انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 313. سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ص 31-32.

2 - انظر: تقديم محمد زينهم لكتاب الرقيق القيرواني، المرجع السابق، ص ص 27-28. عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص 194. سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ص 27-29.

3 - رقادة: شرع إبراهيم بن أحمد الأغلبي في سنة 263هـ/876م في بناء مدينة رقادة بالقرب من القيروان، وسميت رقادة نسبة للنوم والرقاد، وذلك لطيب مناخها. وقد خرج الخليفة يتجول فأصابه نعاس فيها بعد أرق طويل، فأخذت هذا الاسم. وشيد فيها القصور، والمسجد الجامع، وقصر الفتح الذي تم بناؤه سنة 264هـ، وذلك سهل انتقاله من القصر القديم إلى العاصمة الجديدة التي استمرت إلى العهد الفاطمي. انظر: سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ص 116-117.

4 - سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ص 116-117.

5 - رايح بونار، المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981، ج 1، ص ص 29-32.

6 - انظر: أبو زكرياء، المرجع السابق، ص ص 20-21. محمد الطالبي، المرجع السابق، ص 144.

7 - باغاية: حصن قديم يوجد محاذيا لجبل أوراس. وهي عاصمة الأوراس، وتقع في شرق خنشلة وتبعد عنها بمسافة 12 كم.

8 - مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 122.

البربر ضرر من سلطتها، ووجد الناس الراحة في هجرتهم إلى جنوب وادي سوف التي كانت ضمن نفوذ الرستميين.

ثالثا: الحياة السياسية: حكم الدولة مؤسسها إبراهيم بن الأغلبن الذي اشتهر بالحزم، والبراعة السياسية. واتصف بخصال القائد المثالي في عصره، وإلى جانب ذلك كان فقيها عالما بالشرع، خطيبا بارعا، وشاعرا متقنا. وقد اعتنى بالجيش، ورفع من شأن الضباط، وأجزل للجميع العطايا والمنح. فحقق الاستقرار خلال خمس عشرة سنة من حكمه⁽¹⁾. ورغم بعض الاختلالات، لكنه تغلب عنها، وتمكن من جعل الدولة تعيش عشر سنين من السلم الذي تمتع به أبناؤه من بعده. ومما اتصف به حكام هذه الدولة:

- التفاوت في فترات الحكم بين أمرائها ما بين سنة واحدة كما هو الشأن عند زيادة الله الثاني (248-250هـ)، وأبي العباس عبد الله الثاني (289-290هـ). وارتفعت المدة إلى ثمان وعشرين سنة. وهي أطول فترة في الحكم عند الأمير إبراهيم الأصغر (261-289هـ). ولم تتجاوز ست سنوات عند آخر أمير في الدولة، وهو زيادة الله الثالث (290-296هـ)⁽²⁾.

- اختلفت أحوال حكامها بين الخلق والحزم، والعلم والورع، وبين التبذير والفساد. فنجد لعبد الله الأول (196-201هـ) الرأي السديد في تحقيق الرخاء، وجمع الأموال لتعبئة خزانة الدولة. فحقق السكون في البلاد⁽³⁾، بينما عرف بالتبذير الأمير محمد الثاني ((أبو الغرائق))⁽⁴⁾ (250-261هـ) الذي قضى مدة حكمه في اللهو والملذات، والشراب، وصيد الغرائق، فترك خلفه إبراهيم الثاني خزانة فارغة، مما دفع هذا الأخير إلى تحويل كل معدن ثمين - حتى ذهب نسائه - إلى دراهم ودنانير، وقام بإصلاح اقتصادي واضح⁽⁵⁾. كما أن زيادة الله الثاني بقي إلى آخر لحظة في حكمه لا يفكر إلا في ملذاته، وإشباع شهواته، حتى زال عرش الدولة بأكمله⁽⁶⁾. وعرف بعض الأمراء بمكانتهم العلمية، وثقافتهم العربية، مثل زيادة الله الأول الذي تربي على يد العلماء والأدباء، وصار شاعرا، لكن كان ميالا إلى الملذات والخمر مثل بعض شعراء عصره⁽⁷⁾.

1 - محمد الطالبي، المرجع السابق، ط 2، 1995، ص ص 151-153

2 - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص 209.

3 - محمد الطالبي، المرجع السابق، ص ص 182-185.

4 - الغرائق: مفردا غرنوق، وهو طائر أبيض طويل العنق.

5 - محمد الطالبي، المرجع السابق، ص ص 300-301.

6 - نفسه، ص 630.

7 - محمد الطالبي، المرجع السابق، ص ص 185-186.

-لم تسلم البلاد من الاضطرابات المتتالية بين الحكام وساكنة بلاد الزاب الذين ثاروا مرارا بسبب سوء المعاملة، والجشع وفرض الضرائب من السلطة، مع القهر والتنكيل والقتل والتشريد، والتخريب الذي مس منشآتهم وأمتعتهم⁽¹⁾.

-توجيه العناية للفتح والجهاد، وبناء الأساطيل، وغزو صقلية سنة 212هـ، وتوجت بالفتح المبين، وشنوا الغارات على السواحل الإيطالية، وأجبروا سكانها على التراجع، وكسروا شوكة البيزنطيين في البحر المتوسط⁽²⁾.

ثالثا: وادي سوف وصدى الأحداث في الدولة الأغلبية:

كان الشريط الحدودي من بلاد الزاب إلى منطقة الجريد التونسي يشتعل بالثورات المتعاقبة، وأبرزها الثورة التي وقعت في عهد زيادة الله بن إبراهيم الأغلبي (201-223هـ/817-837م) وشهدتها منطقة نفزاوة، وقسطيلية، ويومها أرسل -زيادة الله - قائده سفيان بن سواده لقمع حركة التمرد التي تزعمها عامر بن نافع. وكانت حربا طاحنة، تأثر بها العرب وبربر زناتة وخلفت خسائر مادية وبشرية⁽³⁾.

وعندما آل الحكم إلى أبي عقاب الأغلب بن إبراهيم المعروف بخزر (223-226هـ)، تمتعت البلاد بالأمن والاستقرار ما عدا الحملة التي وجهها سنة 224هـ/838م بقيادة عيسى بن ريعان الأزدي ضد قبائل لواتة وزواغة ومكناسة من الخوارج في إقليم الجريد. وانتهت بالقتل الكبير في صفوفهم حتى قيل إنهم أفنوا عن آخرهم فيما بين مدينتي قفصة وتوزر. وعاد الجيش الأغلبي بالغنائم الكبيرة⁽⁴⁾.

وكانت وادي سوف ملاذاً للبربر الذين مسهم الاضطهاد، ففروا إليها، مثل أصحاب

1 - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 198.

2 - محمود إسماعيل، الأغلبة وسياستهم الخارجية 184-296هـ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط3، الهرم، 2000، ص 147-155.

3 - انظر: ابن خلدون، المرجع السابق، ج 4، ص 253. ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص 435. سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ص 55-56.

4 - سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ص 75-76.

العقائد المخالفة للمسيحيين⁽¹⁾ من بقايا الروم⁽²⁾، أو المعتنقين للعقائد الضالة، وأصلهم من المسلمين الذين ارتدوا عن دينهم، وهم أتباع صالح بن طريف⁽³⁾ الذي حكم دولة برغواطة⁽⁴⁾ وادعى النبوة. وتمثلت هرطقته الضالة بإخبار أتباعه أن قرآنا جديدا قد أنزل عليه، وأنه هو صالح المؤمنين الذي ورد في سورة التحريم. وهو المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان ويحارب الدجال، وسيكون عيسى عليه السلام من رجاله ويصلي خلفه، وسوف يملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا. فقد شرع لهم خمس صلوات في الليل وخمس صلوات في النهار، وحرّم عليهم صيام شهر رمضان، وأبدله بصيام رجب، وأعفاهم من الزكاة، واكتفى بأخذ العشر من كل الحبوب، وأباح لهم الزواج من النساء بدون تحديد عدد، ويطلقون النساء ويرجعوهم متى أحبوا بدون قيد أو شرط، وحرّم عليهم رأس كل حيوان، وأكل السمك إلا إذا ذبح، وأكل البيض، وحرّم ذبح الديكة وأكل لحومها لقداستها في عقيدتهم، وألغى الأذان، وجعل معرفة وقت الصلاة اعتمادا على صياح الديكة، وكانت ديانته محلية في البداية، ثم عرفت الانتشار بعد موته⁽⁵⁾. وقد وأوصى صالح ابنه إلياس قبل رحيله إلى المشرق، في أواخر عهده،

1 - إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج1، ص 55.

2 - إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج1، ص 55. كان العجم من الأفارقة والبربر وبقايا الروم من المسيحيين يقيمون في بلاد الزاب، وقسطيلية بالجزيرة التونسية، وباغاية شمال وادي سوف. انظر: فرحات الدشراوي، **الخلافة الفاطمية بالمغرب التاريخ السياسي والمؤسسات**، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1994، ص 42.

3 - **صالح بن طريف**: هو ابن طريف بن شمعون. قبل أصله يهودي، انسحب طريف من طنجة بعد مصرع صاحبه ميسرة المدغري على أيدي المتطرفين من ثوار البربر سنة 122هـ واختار طريف إقليم تامسنا الذي يتولاه ابنه صالح من قبل ميسرة، وشرع في تأسيس دولة لأبنائه من بعده، فبايعه الناس ملكا، وبدأ يشرع لهم الشرائع الجديدة. فيعتبر طريف هو المؤسس الحقيقي لدولة برغواطة، وواضع حجر الأساس في عقائدها وتشريعاتها، والمعروف أنه كان مسلما يعتنق فكر الخوارج الصفرية، وحكم صالح الدولة بعد والده، واستمر في الحكم 47 عاما وكانت نهاية حكمه غامضة سنة 174هـ. أنظر: ابن خلدون، المرجع السابق، ج6، ص 280. سحر السيد عبد العزيز سالم، **من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب الإسلامي**، نشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993، ص ص 26-28.

4 - **دولة برغواطة**: هي دولة تقع في إقليم تامسنا الذي يمتد ما بين وادي نهر أبي الرقراق ووادي أم الربيع، بالمغرب الأقصى، وهي اسم لقبيلة مضمودة البربرية على حد قول ابن خلدون، وعمرت الدولة نحو ثلاثة قرون وانتهت نهائيا على يد الموحدية. أنظر: ابن خلدون، المرجع السابق، ج6، ص 275. الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص 194. سحر السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ص 5-60.

5 - انظر: ابن خلدون، المرجع السابق، ج6، ص 276-277. سحر السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 46-48.

بنشر عقيدته عندما تشتد قوة الدولة⁽¹⁾.

والراجع حسب القرائن التاريخية أن هذا الفكر انتقل إلى وادي سوف عن طريق التجار والحجاج، والهاريين من فتك الدول المتوالية: الأدارسة والأغالبة، ووجدت الحرية عند بعض البربر لأن العقائد ما زالت هشة في نفوسهم، وتحمل الأفكار الجديدة تسيبا وإتباعا للشهوات التي وجدت قبولا عند أهل الأهواء، في وقت لم تكن المنطقة محكومة بحكومة واضحة، ولكن سادتها الحرية المطلقة في الفضاء الصحراوي الواسع.

ورغم التشدد الذي عرفت به الدولة الأغلبية المجاورة لوادي سوف، فإنها عرفت التنوع الثقافي والعقائدي الذي جعل البلاد تفور بالثورات والاضطرابات.

رابعا: الحياة الاقتصادية: اتجهت الدولة الأغلبية في الحياة الاقتصادية إلى استغلال الأراضي، وتعمير منطقة قمودة بأشجار الزيتون والتين واللوز. وأصبحت من أهم مناطق زراعة القمح. بينما اشتهرت قابس بالخضر والفواكه، ومدينة قفصة بالفستق. كما عرفت البلاد استخراج المعادن مثل الفضة والكحل والحديد والرصاص من منطقة مجانة، وازدهرت الصناعة، وخاصة الآلات الحديدية، والتحف الذهبية والفضية، وصناعة الزجاج والنسيج في مدينة سوسة وغيرها.

وتلك المشاريع الاقتصادية كانت عاملا مهما في ازدهار التجارة الخارجية ولاسيما مع الدولة الرستمية المجاورة. وكانت حركة القوافل فعالة بين القيروان وتيهرت، وتلك الطرق البرية قريبة من وادي سوف، ولاسيما الطريق الذي يخترق منطقة الهضاب العليا إلى بلاد الزاب، ثم بلاد الجريد، وينتهي عند سوق القيروان. والطريق الأقرب يتجه من تيهرت إلى ورجلان، وهو طريق صحراوي خالص، يمتد في حواف وادي سوف، حتى يصل إلى الأراضي الأغلبية بالقيروان⁽²⁾.

خامسا: الحياة الثقافية: رغم حرص الأغلبة على مقاطعة الرستمين تجاريا وثقافيا، فإنهم مهدوا طرق القوافل المختلفة، وعملوا على تسهيل التجارة مع إفريقيا السوداء مستفيدين من استقرار البلاد ووفرة خاماتها، وتمت العلاقات التجارية غير الرسمية، والرحلات العلمية

1 - أوصى صالح ابنه إلياس بموالة حاكم الأندلس من بني أمية، وأن يحافظ على عقيدة برغواطة ولا يظهرها إلا إذا أحس بقوته. ووعده ولده أنه سوف يعود من غيبته في دولة السابع من ملوكهم، وزعم أنه المهدي المنتظر. وتظهر التأثيرات الشيعية والدرزية في فكر برغواطة العقائدي. انظر: سحر السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ص 26-28.

2 - جودت عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص 115-117.

الحرّة. وساهمت في تنقل العلماء والأدباء من تيهرت إلى القيروان لتحصيل العلم، وأشهرهم بكر بن حماد الزناتي التاهرتي⁽¹⁾. وصارت القيروان منذ الفتح الإسلامي إلى زمن الأغالبة داراً للعلم بالمغرب، ينتسب إليها كبار العلماء والفقهاء⁽²⁾ الذين ارتحل بعضهم إلى مصر للدراسة، وطلبوا العلم الخالص، مثل أسد بن الفرات⁽³⁾ صاحب "الأسدية" في الفقه، والتي أخذها عن علي بن القاسم إمام المالكية بمصر، والإمام سحنون⁽⁴⁾ صاحب "المدونة" في الفقه المالكي. وقد رحل إلى مصر سنة 188هـ وسمع من علماء المالكية بها كابن القاسم، وابن وهب وأشهب، وابن عبد الحكم، وشعيب بن الليث، ويوسف بن عمر. وتفوقت مدرسة القيروان على مدرسة الفسطاط بمصر، وانتزعت منها مكان السيادة في الفقه المالكي⁽⁵⁾. كما كان لمصر تأثير في علم القراءات في المغرب، وكانت تتبع رواية نافع⁽⁶⁾ التي نقلها إليها عثمان بن سعيد

1 - انظر: محمد عيسى الحريري، المرجع السابق، ص 200-201. محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص 3.

2 - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 288.

3 - أسد بن الفرات: هو أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سينان من أهل نيسابور، ولد بحران قدم أبوه إلى القيروان مع جيش محمد بن الأشعث الخزاعي، سنة 144هـ، وكان عمر أسد سنتين، فيكون مولده سنة 142هـ، وبعد حفظه للقرآن رحل للمشرق ونهل من العلم، وتمكن من الفقه المالكي، وكتب المدونة الأسدية، وعرف بالشجاعة والحزم وحسن التدبير. وقد ولاء زيادة الله بن الأغلب القضاء سنة 204هـ، ثم جعله أميراً على الجيش، فركب البحر وغزا صقلية سنة 212هـ، فهاجمها بعشرة آلاف، ودخلها فاتحاً، وهو أول من فتحها. وتوفي في جراحات أصابته وهو محاصر لسرقوسة سنة 213هـ/828م. انظر: ابن الأبار، المرجع السابق، ج 2، ص 380-381. الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، ط 15، بيروت، 2002، ج 1، ص 298.

4 - الإمام سحنون: هو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، أصله من حمص. ولد بالقيروان سنة 160هـ/777م. وعرف بالزهد والعفاف والقوة في قول الحق. وكان لا يخاف فيه لومة لائم ولا سطوة حاكم. سمع من سفيان بن عيينة وغيره في رحلة الحج، وتولى القضاء بالقيروان سنة 234هـ، واستمر فيه إلى أن مات سنة 240هـ/854م. وكتابه المدونة، رواه عن عبد الرحمان بن قاسم عن الإمام مالك. انظر: الزركلي: المرجع السابق، ج 4، ص 5. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، ط 1، بيروت، 1993، ج 2، ص 146.

5 - محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص 86-89.

6 - الإمام نافع: هو أبو رؤيم نافع بن عبد الرحمان بن أبي نعيم مولى جعونة الليثي بالولاء، وأصله من أصبهان. ولد سنة 70هـ، وكان أسود شديد السواد، وعالماً صالحاً مجاباً في دعائه، حجة في القرآن وعلوم العربية. أم الناس في الصلاة بالمسجد النبوي ستين سنة، وقرأ على سبعين من التابعين. وقرأ على مالك الموطأ، وقرأ عليه مالك القرآن. انتهت إليه رئاسة الإقراء بالمدينة، وقرأ عليه مئتان وخمسون رجلاً. وكان إذا تكلم، تشم من فمه رائحة المسك، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في فمه ورأى ذلك في المنام. ومن ذلك الوقت تشم منه رائحة المسك. وصار أحد القراء السبعة المشهورين. توفي بالمدينة سنة 169هـ/785م. انظر: إبراهيم المارغيني، النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في أصل مقر الإمام نافع، دار الفكر، بيروت، 2004، ص 10-11. الزركلي، المرجع السابق، ج 8، ص 5.

المصري⁽¹⁾ من المدينة، وتولى رئاسة الإقراء بها إلى أن توفي، فخلفه تلميذه أبو يعقوب الأزرق بن عمر بن يسار، وكان لهما دور في انتشار رواية ورش في مصر والمغرب⁽²⁾، وكانت الرواية القرآنية تبعا لمذهب مالك. فقد روى سعيد بن منصور حيث قال: سمعت مالكا بن أنس يقول: ((قراءة نافع سنة)). ومراد مالك سنة أهل المدينة وطريقتهم في القراءة⁽³⁾.

وساهمت تلك الجهود في تعريب كل إفريقية، وتؤكد إسلام أهلها، وأتاحت الدولة الحرية للمذاهب الدينية. ولكن السيادة كانت للمذهب المالكي الذي حارب أعلامه مظاهر الزندقة والدجل التي انتشرت بين البربر، وصار للإمام سحنون الدور البارز في هذا الصدد⁽⁴⁾. وتجلت مختلف النشاطات الثقافية في تدريس العقيدة والفقه وتعليم القرآن الكريم.

سادسا: المعتقدات والمذاهب الدينية: كانت الدولة الأغلبية امتدادا إداريا للخلافة العباسية في المشرق، وهذا فرض على النظام الحاكم الأخذ بالتشريعات والقوانين الجارية في دار الخلافة، والتمسك بالمذاهب والعقائد السائدة عندهم. وهو ما جعل الأغلبية يتبنون المذهب الحنفي، وتركوا الحرية للمذاهب الأخرى كالشافعية والظاهرية بعدد محدود. ولكن الانتشار كان للمذهب الحنفي الذي بقي إلى أواخر القرن الثالث الهجري، ولكنه ترك المجال للمذهب المالكي الذي تصلب أتباعه في التمسك به⁽⁵⁾. وتصدى العلماء لكل المذاهب المخالفة ولو تبنتها دولة الخلافة. ولاسيما فكر المعتزلة الذي انتقل إلى القيروان، وحدثت بها فتنة خلق القرآن⁽⁶⁾ في عهد قاضي القيروان المعتزلي ابن أبي الجواد سنة 232هـ / 846م.

1 - عثمان بن سعيد: هو عثمان بن سعيد بن عدي بن غزوان بن داود بن سابق المصري، أصله من القيروان. هو مولى الزبير بن العوام. ولد بمصر سنة 110هـ / 728م، وغلب عليه لقب ((ورش)) لشدة بياضه. رحل إلى المدينة سنة 155هـ، وقرأ عن نافع عدة ختمات من القرآن، وكان جيد القراءة حسن الصوت. فإذا قرأ عن نافع غشي على كثير من الجلساء، ثم رجع إلى مصر وانتهت إليه رئاسة الإقراء. وقد برع في علوم العربية والتجويد، وصار من كبار القراء. توفي بمصر سنة 197هـ / 812م. انظر: إبراهيم المارغيني، المرجع السابق، ص 13. الزركلي، المرجع السابق، ج 4، ص 205.

2 - محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص 86-89.

3 - إبراهيم المارغيني، المرجع السابق، ص 11.

4 - محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص 40.

5 - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 201-202.

6 - محنة خلق القرآن: ظهرت في عهد المأمون، وبدأت ببغداد سنة 218هـ. وامتحن فيها الفقهاء وعلماء الحديث والقضاة، وعذب فيها العلماء ولاسيما في عهد المعتصم. ووجد الإمام أحمد حتى قطع جلده وغاب عقله وحبس مقيدا، وفعل بمثله من علماء أهل السنة. وعندما أصبح الاعتزال هو المذهب الرسمي للدولة العباسية، أيام المعتصم والواثق، أرغم الأغلبية الناس على اعتناق القول بخلق القرآن، وامتحن سكان شمال إفريقيا بها امتحن به المسلمون في المشرق. =

وامتحن الإمام سحنون، فرفض القبول بخلق القرآن، فأصدر في حقه حكم الإعدام الذي لم ينفذ. ثم تغيرت الظروف التي عجلت بعزل القاضي، وتولى سحنون القضاء بعده، فقام بتعذيب ابن أبي الجواد وقتله. وانتصر مذهب أهل السنة لكثرة عدد أنصاره في الدولة، وتجنب الحكام كل ما يثير الرعية⁽¹⁾. وحدث الاستقرار للمذهب المالكي. ويرجع الفضل في استقراره إلى تعاون الفقهاء والأمرء، وتمكنوا من محاربة وإخراج أتباع المذاهب المخالفة كالخوارج الذين أخرجوا من نطاق الأغلبة، واستقروا بجبل نفوسة جنوب ولاية طرابلس وفي إقليم تيهرت، وباقي مناطق الدولة الرستمية،⁽²⁾ ومنها إقليم وادي سوف.

ورغم حرصهم الشديد على محاربة المذاهب والمعتقدات المخالفة، استطاع فكر الشيعة التغلغل في بلاد المغرب الأوسط، وبذل الأمرء الأغلبة - في أواخر عهدهم - غاية جهدهم في محاربة الدعوة الشيعية، لكن جهودهم باءت بالفشل، وانتصرت الدعوة الشيعية.

سابعاً: نهاية الدولة الأغلبية: استمرت الدولة الأغلبية مدة 112 سنة، حققت فيها بعض الإنجازات الحضارية، ببناء المدن، وتشبيد الرباطات الدفاعية وإصلاحها في سوسة والمنستير، والصهاريج المائية. وصارت القيروان قبلة للعلم والمعرفة. وكل ذلك لم ينفعها بسبب أحوال سيئة، عجلت بانهيار الدولة، وأهم أسبابها:

- سوء العلاقة بين الحكام والرعية، واستعمال أساليب العنف والقمع، وفرض الضرائب الباهظة، وبذر الفتن المذهبية مثل فتنة خلق القرآن، والتنكيل بالعلماء⁽³⁾. وهذا دفع علماء المالكية - في عهد إبراهيم الثاني - إلى رفض التعاون معه في التقريب بينه وبين الرعية، ورفضوا تولي منصب القضاء، بل جأهروا بالعداء له ونددوا بظلمه وتعسفه⁽⁴⁾.

- ضعف الجيش الأغلبي، وبعده عن أساليب التنظيم والتسليح، وارتباطه بجماعة من المرتزقة المجندين أثناء الحروب. فكانت أفعالهم تحركها الأطماع، وتفقد الحمية والروح الوطنية⁽⁵⁾. وقد استعان إبراهيم بن أحمد - فيما خاضه من حروب - بجند من السودان، ثم

=انظر: ابن الأثير، المرجع السابق، ج6، ص 3-17. عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج1، ص 201-202. عبد القادر صالح، المرجع السابق، ص 262.

1 - انظر: عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج1، ص 201-202. محمد الطالبي، المرجع السابق، ص 263-264.

2 - انظر: محمد زينهم في تقديمه لكتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرفيق القيرواني، المرجع السابق، ص 31.

3 - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج1، ص 206.

4 - محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص 189.

5 - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج1، ص 206.

صاروا حرسا في خدمته، وتقربوا من عرشه، وتدخلوا في النزاعات بين أفراد الأسرة الحاكمة، ولم يتوانوا على سفك دماء بعض أفرادها⁽¹⁾.

- سياسة العداة التي مست الأقاليم الفاعلة في الدولة، وفي مقدمتها منطقة الزاب ولاسيما سنة 280هـ. ووصل الأمر إلى التنكيل بهم⁽²⁾، وخصوصا أهل بلزمة. وتم اغتيال ألف رجل غدرا من قبيلة كتامة، وتم إذلالهم. وهذا دفع القبيلة إلى الاحتماء بالمذهب الشيعي والتعاون معه، وكل هذا شجع الثورات، ووسع الهوة مع الشعب.

- الفساد الذي استشرى في عناصر الجهاز الإداري للدولة، وخصوصا في عهد زيادة الله الثالث، وانتهاء وزراء وعمال ووجهاء دولته للمذهب الشيعي، وكانوا على صلة بزعيمهم، ويتبادلون معه المعلومات، ويتلقون منه الأوامر للتنفيذ⁽³⁾، إضافة إلى فساد زيادة الله، وسفكه الدماء في البيت الأغليبي، وانغماسه في الخلاعة، ومغالاته في اتباع الشهوات، وغفلته عن الحكم. فترك فرصة للشيعية للتغلغل والتمكن، والنجاح في دق آخر مسمار في نعش الدولة الأغلبية.

وسقطت دولة الأغالبة، تحت ضربات أبي عبد الله الداعي ليلة الاثنين 24 جمادى الثانية سنة 296هـ/ 20 مارس 909م، عندما غادر القيروان ما يقارب ثلاثة آلاف رجل تحت جنح الظلام، ودخل أبو عبد الله الشيعي إلى القيروان في يوم السبت غرة رجب عام 297هـ. فخرج إليه أهل القيروان من الفقهاء والوجهاء والتجار ورحبوا به، وأظهروا الرغبة⁽⁴⁾ في دولته، وطلبوا الأمان. فوعدهم بالعدل والإحسان. وهكذا انتهت الدولة الأغلبية بسبب تفريط حكامها الأواخر وميلهم للهو والفساد، وظلمهم لذوي القربى، وإهمالهم لشؤون الدولة. ويومها اختفى نفوذ الخلافة العباسية بالمغرب⁽⁵⁾.

1 - محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص 189.

2 - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 207.

3 - محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص 189-191.

4 - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 207.

5 - انظر: محمد الطالبي، المرجع السابق، ص 770. محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص 41. محمد محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، دار الكتب، مصر، 1990، ص ص 146-148.

المبحث الثالث

وضعية وادي سوف في عصر الدولة العبيدية (الفاطمية) (296-361 هـ / 909-972 م)

تمهيد:

حرصت دولة الخلافة في بغداد على وحدة واستقرار ولاياتها، بالمحافظة على مذهب الدولة، والتمسك بأوامرها الإدارية، والتزام نهجها السياسي، وبذلت قصارى جهدها لمنع الفرقة والاختلاف والتمرد. ولكن الظلم الذي مارسه الولاة، وغفلتهم عن إحكام قبضتهم على المخالفين، هيأت الظروف لظهور دول عديدة شقت عصا الطاعة، وقامت تباعا في بلاد المغرب، ومنها دولة الخوارج الإباضية الرستمية بتيهت، ودولة الأدارسة العلوية بفاس، ودولة الشيعة⁽¹⁾ الفاطمية⁽²⁾ بقيادة التي بدأت الدعوة لتأسيسها أثناء حكم الأغالبة للمغرب الأوسط.

أولا: تأسيس الدولة: عندما شعر الشيعة بالمشرق أن بلاد المغرب يسودها الضعف، وعند أهلها تقبل لأفكارهم، بثوا دعواتهم⁽³⁾ في الأمصار، لتبدأ مراحل تأسيس الدولة الشيعية:

أ- مرحلة الدعوة: لم تقم الدولة الشيعية بسرعة، وإنما اقتضى الأمر مدة 151 سنة. وبدأت دعوتهم عندما أرسل جعفر الصادق زعيمين من دعائه إلى بلاد إفريقية سنة 145 هـ/762 م، (وأمرهما أن يبسطا ظاهر علم الأئمة، (صلوات الله عليهم) وينشرا فضلهم. وأمرهما أن

1 - الشيعة: وهم الذين شايعوا عليا بن أبي طالب، وقالوا بإمامته وخلافته، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده. والإمامة عندهم قضية أصولية وركن من الدين، ويعتبرون الأئمة معصومين عن الكبائر والصغائر. وهم خمس فرق هي: الكيسانية، والزيدية، والإمامية، والغلاة، والإسماعيلية. وبعض فرقهم تميل في الأصول إلى الاعتزال، وأخرى إلى السنة أو التشبيه. وفرقة الاثني عشرية من الإمامية، وهم يحسبون الإمام عند الثاني عشر وقد اختلفت بغتة وسوف يظهر في آخر الدهر ويسمى المهدي. بينما تحالفها الإسماعيلية، فترى الإمام هو السادس، وهو جعفر الصادق بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وسميت الإسماعيلية لأنها جعلت إمامها السابع إسماعيل بن جعفر الصادق. انظر: الشهرستاني، المرجع السابق، ص 118. عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 149-150.

2 - الفاطميون: وهم ينتسبون إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تأكيداً للشرف. وأئمتهم في أحفاد علي بن أبي طالب، وهم أتباع الإسماعيلية، نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق. والذي أقام الدولة بالمغرب هو أبو عبيد الله المهدي، فعرفت دولته الفاطمية بالدولة العبيدية التي اشتقت من اسمه. انظر: عبد القادر صالح، المرجع السابق، ص 221. عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 149-150.

3 - أئمة الكتان: كان عمل الشيعة يتم عن طريق الكتان بإخفاء الأئمة، وتبليغ مذهبهم عن طريق الدعاة. وقد تولى الإمامة محمد المكتوم، ثم ابنه جعفر الصادق، ثم ابنه محمد الحبيب، ثم ظهر عبيد الله بن الحبيب بالمغرب، وأسس الدولة الفاطمية. انظر: عبد القادر صالح، المرجع السابق، ص 221. عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 149-150.

يتجاوزا إفريقية إلى حدود البربر، ثم يفترقان فينزل كل واحد منهما ناحية⁽¹⁾. وكانت التوصية أن ينشرا الدعوة في صفوف البربر، وفي المناطق النائية البعيدة عن أعين السلطان. وكان وصولهما في عصر الولاة عندما كان ابن الأشعث يحاول ضبط الحياة المستقرة بعد الاضطرابات التي أثارها الخوارج ضد الدولة العباسية وولاة إفريقية⁽²⁾. فأخذوا بالنصيحة، واستقر كل منهما في جهة على النحو التالي:

- **أبو سفیان الشيعي**: الذي بدأ نشاطه بمرجانة، بالمغرب الأدنى، في موضع يعرف بتالا⁽³⁾، فاستقر. وبنى حياته الاجتماعية العادية حتى يندمج في السكان. وبنى مسجده، وتزوج، واشترى العبيد للعمل معه ومع زوجته. وظهرت عليه معالم الفضل والعبادة والذكر، فأشتهر في تلك النواحي، وخاصة التجار، ومنهم من أهل نفطة فيسمعون لحديثه. وبدأ التشيع ينتشر على يديه، في مرماجنة وأطرافها القريبة⁽⁴⁾.

- **الحلواني الشيعي**: والذي تقدم نحو المغرب الأوسط، واستقر في جنوبه في منطقة (سوف جمار) التي التبس الأمر عند المؤرخين في موضعها، وفي الفاظها. والتي جعلوها في وادي الرمل قرب قسنطينة، ولاسيما المراجع الحديثة. ولعله اختلط عليهم أمرها، وخلطوا بينها وبين قسطيلية، وهي بلاد الجريد القريبة من وادي سوف. وهي وادي وينتشر الرمل بأرضها. والمعول عليه هو كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان. وهو مؤرخ الدولة الفاطمية، وعهده قريب من الأحداث. كما أنه لم يحدد المكان بدقة. وجل المؤرخين ذكروا قبيلة كتامة، كما هو عند ابن خلدون (وسارا لذلك ونزلا أرض كتامة)⁽⁵⁾. ولكنامة أهميتها في احتضان الدعوة الشيعية، ومواطنها ممتدة من نواحي قسنطينة وسطيف، إلى حدود بجاية غربا، وتمتد جنوبا إلى جبل أوراس وبغااية وبلزمة ونواحي بلاد الزاب⁽⁶⁾.

1 - القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص ص 26-27.

2 - فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص 78.

3 - مرماجنة: إقليم يقع في الوسط الغربي من ولاية القصرين التونسية الحالية، وتالا هي إحدى قرأها.

4 - القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص ص 27-28.

5 - تاريخ ابن خلدون، ج 3، ص 450.

6 - عبد الله محمد جمال الدين، الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ص 18

وذكر القاضي النعمان قبيلة سimate⁽¹⁾ التي استضافت الداعية الحلواني، وهي موضع سوف جمار، ودعمها محقق الكتاب - فرحات الدشراوي - بخرائط تحدد بدقة موضعها في نطاق وادي سوف الشمالية⁽²⁾. ونرجح أنها وادي سوف التي نزلها الحلواني في موضع يدعى الناظور⁽³⁾، وشرع في بناء حياته. فبنى مسجده وتزوج، واشترى العبيد للعمل معه ومع زوجته. وصار مشهودا له بالعلم والفضل والعبادة في موضعه. فعم ذكره في القبائل المجاورة، وشد الناس إليه الرحال، وتشيع على يديه الكثير من قبيلة كتامة ونفزاوة وسimate. وكان يقول لأتباعه: «بعثت - أنا وأبو سفيان -، فقيل لنا: اذهبوا إلى المغرب فإنكما تأتيان أرضا بوراً، فاحرثاها وكرّباها، وذلكها إلى أن يأتيها صاحب البذر فيجدها مذلة فيبذر حبه فيها». ومات كل منهما في موضعه بعد نحو من خمس وعشرين سنة من الدعوة التي تأصلت في النفوس. وخلف الحلواني ابنة تدعى أم موسى بلغت مع عجائز البربر درجة من الدعوة الشيعية⁽⁴⁾.

- **أبو عبد الله الشيعي**: هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي الصنعاني، وقيل من أهل الكوفة، ويدعى المحتسب لأنه تولى الحسبة في البصرة، كما عرف بالمعلم، وتحلى بكل الصفات النبيلة كما ذكر القاضي النعمان: «وكان ذا علم، وعقل، ودين وورع، وأمانة ونزاهة». ⁽⁵⁾ وسبق للدعوة أن نجحت في اليمن على يد الداعية «ابن حوشب»، فكلف بإرسال داعية إلى بلاد المغرب لأنها بعيدة، ويعتبرها أصلح موطن للدعوة الشيعية. وصادف ذلك انتقال الإمامة إلى أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، الملقب بالإمام المكتوم. فأرسل المحتسب إلى ابن حوشب باليمن وكلفه بتعليمه. فتعلم على يده زمنا، وصار من كبار أصحابه. ولما تمكن من أخذ أسرار الدعوة منه، زوده بالمال، وأرسله إلى بلاد المغرب⁽⁶⁾. وقال له: «يا أبا عبد الله، أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان،

1 - سimate: وقيل سimate، وهي فرع من نفزاوة، كان موطنها الأول في وادي سوف، وانتقلت بعد ذلك إلى مناطق في شمال الجزائر.

2 - انظر: القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، الصفحة "ر" وفيها خريطة إفريقية بأسماء القبائل المذكورة في الافتتاح، والصفحة "ش" وفيها خريطة إفريقية بأسماء البلدان المذكورة في الافتتاح.

3 - الناظور: كانت هذه الكلمة متداولة في سوف، وعبرت عن عدة مواضع، ومنها قرية قرب الرقبة بسوف غربا، وبئر في الحدود التونسية شرق وادي سوف قرب دوار الماء. فلا يستبعد وجود هذا الموضع في شمال وادي سوف، عند مواطن قبيلة سimate. انظر: محمد ماني، عمارة وعمران بلدة قمار، مخ، ص 19.

4 - القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص 29، فرحات الدشراوي، المرجع السابق، ص 79.

5 - فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص 80. القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص 30.

6 - القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص 30-31. عبد الله محمد جمال، الدولة الفاطمية، ص 42.

وقد ماتا وليس لهما غيرك. وبادر إليها فإنها موطنها ممهدة لك»⁽¹⁾. ولما خرج أهل اليمن للحج، صحبهم الداعية أبو عبد الله. وفي منى، التقى بالكتاميين الذين استجابوا لدعوة الحلواني وأبي سفيان، فحدثهم عن أهل البيت، وعن الإمام علي بن أبي طالب وفضائله. وأثناء عودتهم لبلادهم، صحبهم إلى مصر وأراد البقاء، فقالوا: لست تاجرًا؟ قال بل معلمًا. فحدثوه عن بلادهم وزينوها له، وألحوا عليه في صحبتهم وتعليمهم، فقبل العرض. فرحل معهم إلى بلادهم، وساروا من مصر إلى طرابلس ومنها إلى قسطنطينية دون المرور بالقيروان⁽²⁾.

وإن الطريق الآمن، والسبيل الأنسب للتخفي الذي سلكه ركب الحج رفقة أبي عبد الله كان عبر بلاد الجريد إلى وادي سوف، فهي في آخر العمران بالمغرب الأوسط، والتي سبق لها احتضان دعوة الحلواني، وله أتباع تطيب الإقامة عندهم. وقال القاضي النعمان: «حتى إذا ساروا إلى سوجمار من أرض سماتة، تلقاهم أهل الموضوع، فأنزلوهم عندهم. ولقي حريثا وموسى⁽³⁾ أبو المفتش وأبو القاسم الورفجومي وأبو عبد الله الأندلسي، وكان هؤلاء شيعة، فلحقوا صاحبهم، فأخبراهم بخبر أبي عبد الله، فنظر السوماتيون إلى تعظيم الكتاميين بجماعتهم له، فرغب كل واحد منهم أن يكون نزوله عنده، حتى رموا عليه السهام، فخرج له سهم أبي عبد الله الأندلسي فنزل عنده، ونزل حريث عند أبي المفتش، وموسى عند أبي القاسم. وأنزل السوماتيون كل واحد من الكتاميين عند رجل منهم بحسب ما يفعلونه بالأضياف الجماعة إذا حلوا بالقوم. فذبح كل واحد شاة لضيفه واحتفل في بره وإكرامه»⁽⁴⁾. وحتى ذلك الوقت لم يخبرهم بحقيقته، ولكن في المجلس الذي ضمهم، صارحه أبو المفتش، وقال له: «والله إني لأظنك صاحب البذر الذي يذكره الحلواني، وأخبره بخبره»⁽⁵⁾، فكشف لهم عن حاله. ولكنه بين لهم أن الأمر يحتاج للكتمان والعمل في صمت. وكان وصوله إلى بلد كتامة الخميس نصف ربيع الأول سنة 280هـ/ جوان 893، وتنافسوا فيمن يحظى بالإقامة عنده. وواصل طريقه مع

-
- 1 - ثابت بن سنان وآخرون، أخبار القرامطة في الأحساء والشام والعراق واليمن، جمع وتحقيق ودراسة سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، ط2، دمشق، 1982، ج1، ص 313.
 - 2 - القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص 31-32. عبد الله محمد جمال، الدولة الفاطمية، ص 42.
 - 3 - هما من الحجاج الكتاميين الذين رافقوا أبا عبد الله من مكة إلى بلاد المغرب، واسمها الكامل حريث الجميلي، وموسى بن مكارم. انظر: القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص 34.
 - 4 - القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص 40-41.
 - 5 - نفسه ص 41.

رفيقه في الحج موسى وحرِيث، وهما من أهل إيكجان⁽¹⁾ قرب سطيف. ونزل عندهم ودخل وجوه كتامة في الدعوة⁽²⁾. وكانوا يسمونه أبا عبد الله المشرقي. وقدم إليه البربر من كل مكان في زمن حكم إبراهيم بن أحمد الأغلبي، واستطاع نشر الدعوة فيهم⁽³⁾.

ثم أخذ عليهم العهد، وعين الدعاة من القبائل. ولكن المؤامرات كثرت عليه فتنقل بين القبائل، وخاض الحروب، واستولى على ميلة، وظهرت دعوته. وحاربه الأغالبة فهزم جيوشهم، وأخذ في ضم البلدان، وتعيين الحكام من قبله عليها، ومنها سطيف وطبنة عاصمة الزاب. وضم باغاية وطلب أهلها الأمان، فأمنهم. وفعل ذلك في قسطيلية وقفصة. وتوالت الهزائم على جيش زيادة الله الأغلبي الذي فر من رقادة إلى طرابلس ومنها إلى مصر⁽⁴⁾.

ب - مرحلة التأسيس:

دخل أبو عبد الله إلى رقادة في يوم السبت أول رجب سنة 296هـ / 25 مارس 909 م. وحينئذ قامت الدولة الفاطمية قبل سنة من قدوم أبي عبيد الله المهدي إلى العاصمة رقادة.

- أبو عبيد الله المهدي: هو عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الثاني بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. وفي نسبه خلاف كبير. ولد بالسلمية من بلاد الشام سنة 260هـ / 873 م، وخرج من السلمية فارا من القرامطة سنة 289هـ ومعه ابنه أبو القاسم وداعي الدعوة فيروز وأبو العباس أخو الداعي أبي عبد الله الصنعاني. وانتقل إلى الرملة ومنها إلى مصر، وأقام بالفسطاط. ولما علم بسقوط سطيف بين يدي أتباعه من البربر سنة 291هـ، خرج من مصر في زي التجار. وكانت مظاهر النعمة بادية عليه وعلى أصحابه. وهذا عرضه للسلب والنهب أثناء طريقه من برقة إلى توزر وورجلان. ولا شك أن فضاء وادي سوف كان طريق مسيره. وقد تجنب الالتحاق بالداعية الصنعاني خوفا من عيون الأغالبة، وفضل المسير إلى سجلماسة التي أقام بها مع ولده أبي القاسم. وظهر في صورة ولي صالح وصاحب كرامات. ولكن حاكم

1 - إيكجان: منطقة زراعية ومنيعه، وبعيدة عن أعين السلطة الأغلبية، وبعيدة عن عاصمتهم رقادة. وتقع تحديدا شمالي بلزمة بين ميلة وسطيف، وبها بطون قبيلة كتامة، وإن كانت بلزمة أقرب إلى مدينة سطيف. يمارس أصحابها السلطة باسم الأغالبة، لكن لا يعترفون بسلطتهم إلا بشكل صوري. انظر: فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص 87.

2 - انظر: القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص 42-49. إدريس عماد الدين، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من عيون الأخبار، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت، 1985، ص ص 87-88.

3 - ابن أبي دينار، المؤنس 286، ص 51.

4 - انظر: الكامل ج 6، ص ص 455-459. إدريس عماد الدين، المرجع السابق، ص ص 84-135.

سجلها سنة الیسع بن میمون من بنی مدرار - وكان عاملا لبني الأغلب - أودعها السجن⁽¹⁾ ولما سقطت الدولة الأعليية في يد أبي عبد الله، استخلف أخاه أبا العباس على رقادة، وتوجه نحو سجلها سنة، واستطاع في طريقه القضاء على دولة بني رستم بتيهت، وأزال حكم بني مدرار بسجلها سنة، وخلص المهدي وولده من السجن، ورجع بهما إلى رقادة التي دخلها يوم الجمعة 21 ربيع الآخر 297 هـ / 7 جانفي 910م، واتخذها عاصمة، وتمت البيعة العامة للمهدي ليفتح عهد الدولة الفاطمية بإفريقية⁽²⁾ التي دانت لها بلاد المغرب كلها⁽³⁾.

وسرعان ما دب الخلاف بين المهدي وداعيته الصنعاني، وتفشت الوشائيات. واقنع المهدي أن صاحبه يتآمر عليه، فأمر بقتله رفقة أخيه أبي العباس⁽⁴⁾ بعد عام واحد في سنة 298 هـ⁽⁵⁾ وحيث أنفرد المهدي بالحكم،⁽⁶⁾ وقام ببناء عاصمته الجديدة ((المهدية))⁽⁷⁾ على

1 - انظر: ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص 52. فرحات الدشراوي، المرجع السابق، ص ص 169-173. عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص ص 213-214. سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ج 3، ص ص 57-59.

2 - انظر: ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص 52. عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص ص 213-214. مبارك الملي، المرجع السابق، ج 2، ص 137. فرحات الدشراوي، المرجع السابق، ص ص 161-183. رشيد بورويبة، أصل الفاطميين وملحمة أبي عبد الله الشيعي، تعريب محمد بلقراد، الجزائر في التاريخ، ج 3، المرجع السابق، ص 144.

3 - انظر: ضيف الله محمد الأخضر، محاضرات في الحضارة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 121. عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص ص 213-214.

4 - انظر: مبارك الملي، المرجع السابق، ص 133.

5 - انظر: أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، (ب ت)، ص 230.

6 - تولى الحكم الفاطمي ببلاد المغرب أربعة أمراء، كان أولهم مؤسس الدولة، عبيد الله المهدي (297-322هـ) وخلفه ابنه، أبو القاسم محمد الملقب بالقائم بأمر الله (322-334هـ) وتولى بعده الطاهر إسماعيل المنصور بن القائم (334-341هـ). وآلت الخلافة إلى ابنه أبي تميم بن المنصور الذي اشتهر بالمعز لدين الله سنة 341هـ/952م، فحكم البلاد، وأخذ يتوسع نحو الشرق، فأرسل قائده جوهر الصقلي، فاستولى على مصر والشام والحجاز، وبنى له القاهرة التي صارت مهينة فانتقل إليها. انظر: عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 238. عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص ص 155-156.

7 - المهدية: اشتق اسمها من لقبه المهدي. وشرع في بنائها يوم 5 ذي القعدة 303هـ، واختار لها موقعا حربيا حصينا، ودعمها بالأسوار، وبالغ في تأمينها لتكون ملاذا آمنا للفاطميين في وقت الحاجة، وشيد بها القصور الأنيقة، وانتقل إليها سنة 308هـ، ومع أهل رقادة الذين هدمت مساكنهم من أثر الأمطار الغزيرة التي تساقطت يومذاك. انظر: أبا محمد عبد الله التجاني، رحلة التجاني، تق حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 2005، ص ص 264-266. مبارك الملي، المرجع السابق، ص 139.

ساحل البحر، بالقرب من تونس، لتكون حصنا يحمي البلاد، ويحقق لها التموين أثناء الأزمات التي تهددها⁽¹⁾.

ثانيا: الامتداد الجغرافي للدولة:

اشتملت الدولة العبيدية على رقعة جغرافية شاسعة، ممتدة الأطراف شرقا وغربا، وضمت المغرب الأدنى، وأهم مدنه: القيروان وقسطيلية وقابس وباجة. والمغرب الأوسط وله أربع ولايات، هي: المسيلة وباغاية وأشير وتيهرت. وكانت وادي سوف في الزاوية الجنوبية الشرقية، تحيط بها ولايات المسيلة، وباغاية، وتيهرت. وبعد تيهرت توجد سجلماسة وفاس. وخارجيا جزيرة صقلية التي يحكمها عاملا عبيديا⁽²⁾.

ثالثا: الحياة السياسية:

يعتبر المهدي هو المؤسس المباشر للدولة العبيدية التي حملت اسمه. وجمع بين مناصبي الإمام والخليفة، ودعي له على المنابر في أرجاء الدولة. وأشاد في خطاب التقليد بسياسته التي تجمع بين الاعتدال والصرامة. وكان همه الأول تحقيق الأمن والهدوء، وإصلاح الوضع، وتثبيت مؤسسات النظام الجديد⁽³⁾. وامتاز بالحزم والحنكة، وبعد الرأي، والعلم الوافر. وكل ذلك أعانه على حكم البلاد أربعاً وعشرين سنة. وهي أطول مدة لدى أمرائها⁽⁴⁾. واستطاع إخضاع البربر والعرب والنصارى، وقبيلة زناتة وغيرها من القبائل المناهضة، وتصدى لخطر الخوارج. وتوفي ليلة الثلاثاء 15 ربيع الأول 322هـ/مارس 934م بعد مرض قصير⁽⁵⁾. وامتازت سياسة الدولة العبيدية بما يلي:

- كان الحكم وراثيا ينتقل من الأب إلى ابنه، أخذاً بمبدأ ولي العهد الذي يعين سرا قبل موت الخليفة. وأقل فترة هي عهد إسماعيل المنصور بن القائم بالله سبع سنوات ما بين (334-341هـ). وأما أبو القاسم محمد الملقب بالقائم بأمر الله فلم تتجاوز اثنتي عشرة سنة (322-334هـ)، وأطولها - بعد فترة المهدي - هي عهد أبي تميم بن المنصور الذي اشتهر بالمعز لدين الله، عشرون سنة ما بين (341-361هـ). وهو الذي انتقل بالخلافة إلى مصر، وصارت تعرف بالفاطمية. واستمر في القاهرة إلى وفاته بعد أربع سنوات (365هـ)⁽⁶⁾.

1 - أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص 231.

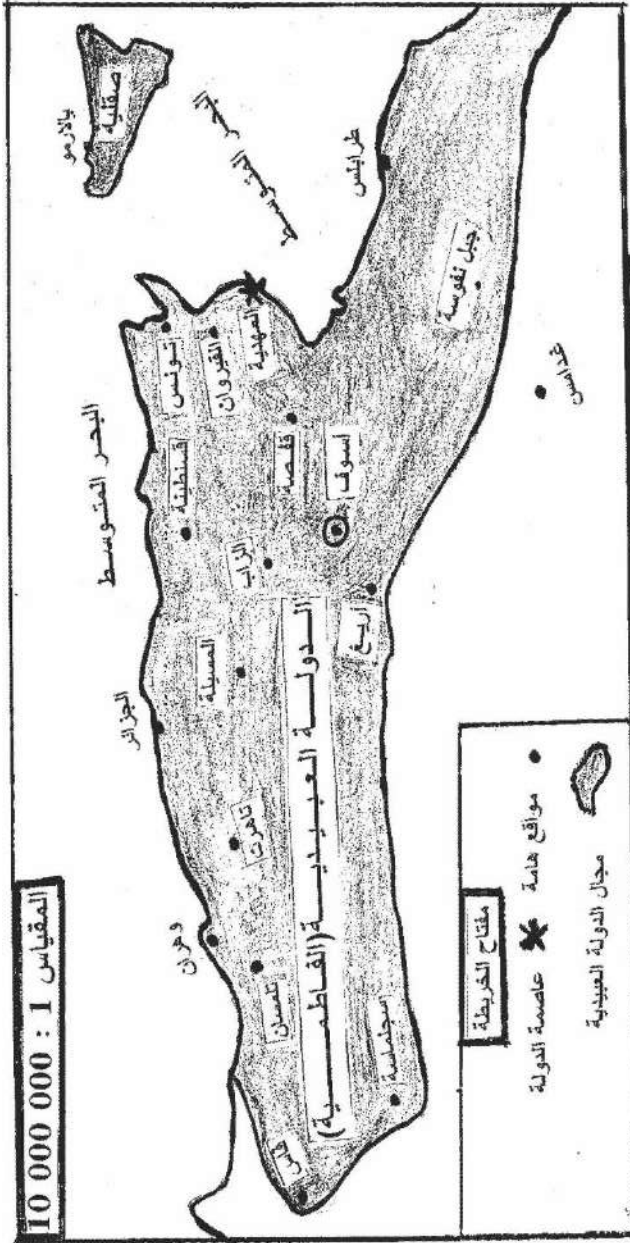
2 - انظر: عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 216. فرحات الدشراوي، المرجع السابق، ص ص 467-470.

3 - فرحات الدشراوي، المرجع السابق، ص ص 183-184.

4 - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص ص 214-215.

5 - فرحات الدشراوي، المرجع السابق، ص 235.

6 - انظر: عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 238. فرحات الدشراوي، المرجع السابق، ص 274.



المراجع:

- 1- الأطلس العالمي، المعهد الوطني للتربوي، الجزائر، ص 30.
- 2- عادل أنور خضر، أطلس تاريخ الجزائر، ص 68-69.
- 3- فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 467-470.
- 4- عبد الرحمن الجبالي، المرجع السابق، ج 1، ص 216.

موقع وادي سوف في نطاق الدولة العبيدية (الفاطمية)

- عرف أغلب الخلفاء بالصلاح والتقوى والعلم، ولا سيما في المذهب الشيعي، وبعد الفكر والتواضع. ومنهم من قاد الجيوش صغيرا، وهو الخليفة القائم، ولكنه انعزل بعد موت أبيه، ولم يركب الخيل إلا في مناسبتين. بينما كرس إسماعيل المنصور حياته منذ شبابه للعلم والعبادة والعمل الجاد، ولم يتول أي وظيفة سياسية أو عسكرية (1).

- لم يكن للدولة وزراء في إفريقية، ولكنهم استدركوها في مصر. وقد اعتمدوا على أهل البلاد، والعناصر التي كانت في العهد الأعلي الذي عملوا معهم في الشؤون الإدارية، وأسندوا لهم قيادة النواحي، وإدارة البريد، وحماية الفرسان، والمناصب المسندة كانت للعرب والبربر على حد سواء، لأنهم ساهموا جميعا في تأسيس الدولة (2).

- اهتمت الدولة بالجيش، وامتلك جيشا قويا. وكانت سياستها العامة، العناية بتسليح الجيش، وتدريبه، وتوفير العتاد، لأن من أولوياتها التصدي للثورات الداخلية، ورد العدوان الذي يهدد الدولة من الخارج، ومواصلة الفتح خارج ضفة المتوسط شمالا. واستطاع ذلك الجيش أن يفرض وجوده، وتتوسع الدولة، وتتمكن من الانتقال إلى مصر، وتجعل القاهرة عاصمة لها.

ورغم الحرص الشديد على توفير الأمن، لم تسلم الدولة - في عهد المهدي وخلفائه وأحفاده - من الفتن والقتال، ونشوب الثورات التي تم التصدي لها وإخمادها في مهدها، بعد معاناة وصبر كبيرين.

رابعا: الثورات في العهد العبيدي: اندلعت بعض الثورات، وامتد لحيها إلى رقعة واسعة من الدولة، وهددت العاصمة، وحوصرت من الثوار، وكادت تسقط في أيديهم، وأشهرها: **ثورة أبي يزيد صاحب الحمار:** ثار أبو يزيد الخارجي (3) في عهد القائم بن المهدي بجبل أوراس في سنة 332 هـ/943 م. وأهدى إليه حمار أشهب، فكان يركبه فسمي صاحب الحمار.

1 - فرحات الدشراوي، المرجع السابق، ص 240-280.

2 - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 215-216.

3 - **أبو يزيد الخارجي:** هو أبو يزيد مخلد بن كيداد، من قبيلة زناتة البربرية. كان والده تاجرا يسافر إلى السودان، فجلب أمه وتدعى سيكة، وهي جارية سوداء هوارية. نشأ في توزر، وتعلم القرآن، وخالف الخوارج الإباضية النكارية، ورحل إلى تيهرت، واعتنق المذهب، وظل يدعو لمدة 16 سنة (316-332 هـ)، واشتغل بتعليم الصبيان. وكان قصيرا قبيح الصورة، يلبس جبة صوف، وعرف بتواضعه وزهده. وأخذ يطعن في الدولة، وعزم على تغيير الأحوال، والإنكار على الحكام، فأهدروا دمه، فرحل إلى الحج ثم عاد مستخفيا. فقبض عليه وسجن، واستطاع أتباعه تخليصه من السجن، ويومئذ بدأت ثورته. انظر: تاريخ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 18-19. ابن الأثير، المصدر السابق، =

واستطاع جمع جيش كبير، وأخذ يصارع الفاطميين ويغزو المدن من الأوراس إلى الأراضي التونسية. وعاث في الأرض فساداً، وارتكب كل الأعمال الإجرامية، وتمكن من الاستيلاء على القيروان ورقادة وتونس. وحاصر العاصمة المهدية سنة 334هـ لمدة ثمانية أشهر. ولما مات الخليفة القائم، خلفه ابنه المنصور الذي كان له شأن كبير معه. فقد استباح معظم المناطق في إقليم الزاب والمسيلة وجبل أوراس والصحراء. وفي آخر نوفمبر سنة 946م، غادر المنصور الفاطمي مدينة طنبنة في تعقب صاحب الحمار. ووقعت حروب عديدة في نواحي الزاب وباغاية والجريد بنواحي وادي سوف. وانتهت تلك المعارك بانتصار المنصور وموت أبي يزيد سنة 336هـ/947م⁽¹⁾. ولا شك أن إسكنة وادي سوف كانت شاهدة لتلك المعارك الدائرة في أطرافها من جهتي الجريد وجبل أوراس⁽²⁾. وخلد المنصور انتصاره سنة 337هـ بتأسيس عاصمته الجديدة التي حملت اسمه، وعرفت بالمنصورة⁽³⁾، وبقيت دار ملك الفاطميين إلى زمن انتقالهم إلى مصر⁽⁴⁾.

ثورة أبي خزر الزناتي: ⁽⁵⁾ شارك معه شيخ الشيوخ أبو نوح سعيد⁽⁶⁾ بن زنقيل⁽⁷⁾، وخرج

=ج7، ص188. الوزير السراج، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تح محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1985، ص26-27. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص232-233.

1 - أمر المنصور بسليخ جلد أبي يزيد، وملئه تبناً. وطاف به من جبال صنهاجة بالمغرب الأوسط إلى المهدية، ثم صلب. وبقي على تلك الحال إلى أن مزقته الرياح. انظر: ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص201. رحلة التجاني، ص269.
2 - انظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص18-23. ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص188-199. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص233.

3 - المنصورة: أصلها مدينة صبرة، وهي ملاصقة للقيروان. وشيد المنصور سورها، وجعل فيها قصراً لنفسه، وانتقل إليها سنة 337هـ. انظر: ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص201. رحلة التجاني، ص269.

4 - انظر: رحلة التجاني، ص269. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص234.
5 - الشيخ أبو خزر: هو يغلا بن زلتاف الوسياني، من كبار علماء الإباضية. وهو من أبناء الحامة ببلاد الجريد. وكانت له حلقات للعلم وقصده الطلبة من مختلف مواطن الإباضية ببلاد المغرب. وقاد هذه الثورة انتقاماً لتلميذه أبي القاسم يزيد بن مخلد. توفي 380هـ/990م، وترك كتاباً بعنوان الرد على جميع المخالفين. انظر: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص477-478.

6 - الشيخ أبو نوح: سعيد بن زنقيل، أحد أقطاب العلم عند الإباضية الوهبية. نشأ وسكن بالجريد، ثم استوطن ورجلان بالجزائر، وبرع في الرد على المخالفين، وله مناظرات مع علماء المعتزلة والنكار. وأخذ العلم عن الإمامين الكبيرين: أبي القاسم يزيد بن مخلد، وأبي خزر يغلا بن زلتاف. وسبب مشاركته في هذه الثورة انتقاماً لشيخه يزيد بن مخلد الذي قتله العبيديون. انظر: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص176.

7 - انظر: أبا العباس الشماخي، كتاب السير، ج2، ص527.

من بلاد الجريد سنة 358هـ/969م، وهو من الإباضية الوهيبية. وكان يدعو للناصر الأموي، وجمع في صفوفه البربر، وامتدت ثورته إلى الصحراء في بلاد الزاب ووادي ريغ وورقلة⁽¹⁾ ونواحي وادي سوف. وحينئذ قاتله المعز لدين الله حتى وصل إلى مدينة باغاية، فشنت جموعه، وفر هاربا. وتابعته جنود الفاطميين، فلحق بجبل نفوسة، ولكنه عاد طالبا العفو سنة 359هـ. فقبل المعز اعتذاره، وفرح به وأجرى عليه الرزق الحسن⁽²⁾. ولما افتتح أبو تميم المعز لدين الله مصر، أخذ معه أبا خزر خشية أن يحدث بعده حدث سياسي آخر⁽³⁾.

أما الشيخ أبو نوح، فقد فر بعد انتهاء الثورة متنكرا في لباس الرعاة، ولكن قبض عليه وأودع السجن عدة سنوات إلى أن شفع فيه المنصور بن بلقين بن زيري الصنهاجي، فقابل علماء الفرق في مناظرة، وأفحمهم، فكان جزاؤه من المعز العفو، وأمه بهال وفير وقربه إليه. ولما قرر الرحيل إلى مصر، خاف أبو نوح أن يأخذه معه، فاختمه، وهرب إلى ورجلان، وبقي بها إلى آخر حياته⁽⁴⁾.

خامسا: الحياة الاقتصادية: عرفت الدولة العبيدية حياة اقتصادية مزدهرة، وتأتي الصناعة الحربية في مقدمة القائمة. فتم تشييد مصانع للسلاح، وبناء الأساطيل، مثل مصنع بونة والمهدية ومصانع تعدين الحديد التي عرفت بشهرتها في المنطقة، ومصانع الزجاج والصفوف في نفزاوة. وسجل التاريخ صناعة ذلك البساط الهام الذي أمر بنسجه الخليفة المعز من حرير أزرق ملون، ومطعم بالذهب. ويحتوي على صور الأقاليم والبحار والأنهار والجبال والطرق، وفيه صورة الحرمين الشريفين التي كتب اسماهما عليها، وثبتت العبارة التالية: «ما أمر بعمله المعز لدين الله شوقا إلى حرم الله وإشهارا للمعالم رسول الله في سنة 353هـ. وكانت النفقة عليه اثنين وعشرين ألف ديناراً». وهذا يدل على تفوقهم في فن الزخرفة، مما جعل المعز - يوم رحيله لمصر - قد رافقه الصناع من بلاد المغرب والأندلس، ولاسيما من قبيلة كتامة ممن لهم دراية كبرى بالفنون الجميلة. وأبدعوا في صباغة وتزيين الجدران العجيبة التي ترى من زوايا عديدة⁽⁵⁾. وكان للمعز فضل في تكليف من صنع له قلم الحبر الجاف. كما ذكر القاضي النعمان:

1 - مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 149.

2 - انظر: ابن الأثير، المصدر السابق، ج 7، ص 315. مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 133.

3 - انظر: أبا العباس الشماخي، كتاب السير، ج 2، ص 532.

4 - معجم أعلام الإباضية، ج 2، ص 176-177.

5 - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 231.

(«فرأيت صنعة عجيبة لم أكن أظن أني أرى مثلها»)(1).

وكانت الزراعة بها مزدهرة، ومدنها على اختلاف مواضعها عامرة بالبساتين المليئة بالفواكه والغلات والتمور. وكذلك الكروم في قسطيلية وجبل نفوسة. كما زرعت الحبوب، وخصوصا القمح والشعير، وكان يحمل للقيروان من بونة، والسمن والتين من مدينة الجزائر، والزيت وكثير من الماشية(2).

وكانت طرق التجارة الداخلية عديدة بين القيروان والمغرب الأوسط، ومنها الطريق بين المسيلة نحو طبنة ثم بسكرة، ويتجه نحو نفطة وقفصة(3). وهو يجاذي المنطقة الشالية من وادي سوف.

وانتشر الرخاء في الدولة، وازدهرت التجارة حتى أصبحت سيادة البحر المتوسط للعبديين، والصحراء للجزائريين الذين يربطون علاقات مع إفريقيا جنوب الصحراء(4). وكانت قوافلهم تجوب الصحراء وتقطعها إلى بلاد السودان، تحمل لهم التمر والمرجان، والسماك المجفف والقطن، وتعود بسبائك الذهب والعبيد(5). وذكر ابن حوقل أن القيروان كانت أعظم مدينة بالمغرب وأهمها تجارة وأموالا، وأحسنها أسواقا، وإليها تجبى أموال المغرب. وبلغ دخلها من مال المغرب سنة 360هـ/970م ما يفوق 700 ألف دينار. وهذا مبلغ هام في تاريخ الدول في العصر الوسيط(6).

سادسا: الحياة الثقافية: عرفت الثقافة في الدولة العبيدية نشاطا وانتشارا بسبب العلماء

والأدباء الذين درسوا في العهد الأغلبي، ونبغوا في العهد العبيدي. ومن العلماء البارزين: أحمد بن الجزار، وكان عالما في الطب والنبات، وله مصنفات هامة. وكان مؤرخا سجل أواخر عهد الأغالبة وبداية عهد العبيديين. ومنهم دونش بن تميم، وكان عالما بالحكمة والفلسفة والطب والعلوم اللسانية والمعاجم. ومنهم محمد بن الوراق، ألف في علم الجغرافية

1 - انظر: القاضي النعمان، كتاب المجالس والمسائرات، تح إبراهيم الفقي، إبراهيم شيوخ، محمد اليعلاوي، دار المنتظر، بيروت، 1996، ص ص 319-320.

2 - ابن حوقل، صورة الارض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992، ص ص 73-92.

3 - نفسه، ص 87.

4 - عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 157.

5 - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 231.

6 - ابن حوقل، صورة الأرض، ص 94.

كتابا في خطط المغرب⁽¹⁾.

كذلك القاضي مالك بن عيسى بن نصر، كانت له رحلتان في طلب الحديث، وكان بالحديث بصيرا، وفي علمه نافذا. ومنهم زياد بن خلفون وكان عالما بالطب⁽²⁾. وبرز أبو العرب التميمي، وعرف بكتبه في التاريخ، وأشهرها طبقات علماء إفريقية⁽³⁾.

ويعتبر القاضي النعمان من أهم العلماء الذين أثروا الثقافة الإسماعيلية الشيعية. وعرف بغزارة علمه وكثرة مؤلفاته، ومنها: كتاب الإيضاح، وكتاب الأخبار في الفقه، وكتاب التوحيد والإمامة. وفي العقائد كتاب كيفية الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ومنامات الأئمة، وكتب التاريخ، والمجالس والمسائرات، وافتتاح الدعوة، والمناقب لأهل بيت رسول الله، وغيرها⁽⁴⁾.

أما الشعر والأدب، فقد بلغت الدولة فيه شأوا بارزا، وأغلب شعرهم يصف حضارة الدولة ومكائنها وكل الخلفاء بداية من المهدي، وحتى المعز لدين الله. لهم قصائد ومقطوعات. وكذلك أبو عبد الله الصنعاني رغم اشتهاره بقيادة الجيوش وخوض الحرب، كان عالما أديبا شاعرا⁽⁵⁾. ويعتبر تميم بن المعز لدين الله شاعر الأسرة، وقد بالغ في وصفه ابن الأبار: «شاعر أهل بيت العبيديين غير منازع ولا مدافع. وكان فيه كابن المعتز في بني العباس غزارة علم ومعاناة أدب وحسن تشبيه وإبداع تخيل. وكان يقتني آثاره، ويصوغ على مناحيه في شعره أشعاره»⁽⁶⁾. والشعر عندهم له الاتجاه القومي. ومن برز من شعرائهم: ابن هانئ المهدي⁽⁷⁾ وعلي بن محمد الإيادي. ذكره محمد بن شرف بقوله: «وأما علي بن الإيادي التونسي فشعره المورد العذب، ولفظه اللؤلؤ الرطب، وهو بَحْرِيٌّ الغرب، يصف الحمام، فيروق

1 - عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 157.

2 - ابن عذارى، المرجع السابق، ج 1، ص 253-257.

3 - انظر: أبا العرب بن تميم، طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دت ط.

4 - انظر: مصطفى غالب، مقدمة التحقيق لكتاب القاضي النعمان، اختلاف أصول المذهب، دار الاندلس، ط3، بيروت، 1983، ص 20-21.

5 - الحلة السرياء، المرجع السابق، ج 2، ص 194.

6 - نفسه، ج 2، ص 291.

7 - ابن هانئ (326-362هـ): وهو المشهور بالأندلسي. وصار من أهم شعراء الدولة العبيدية لما استقر في تونس، حظي بمكانة عند المعز، ونال عيشا هنيئا عنده. انظر: حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الادب العربي القديم، دار الجيل، بيروت، دت ط، ص 961.

الأنام، ويشبّب فيعشق ويحبّب))⁽¹⁾.

سابعا: المعتقدات والمذاهب الدينية: لما قامت الدولة العبيدية، وأرست أركانها، واستقر أمراؤها وحكامها، انتصر والمذهب الشيعي، وخالفوا المذهب المالكي، وأكرهوا أهل البلاد على اعتناق مذهبهم⁽²⁾، واتخذوا قضية من الشيعة للحكم على أهل البلاد⁽³⁾. وما أحدثه عبيد الله المهدي من أحكام وتشريعات مخالفة للمذهب السائد، وكانت مثيرة للفتن والرفض. فقد أبطل صلاة التراويح، وأمر بصيام يومين قبل رمضان، وقتت في صلاة الجمعة قبل الركوع، وجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة، وأسقط من أذان الصبح (الصلاة خير من النوم)، وزاد في الأذان عبارة حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر. واستمر الأذان على تلك الصفة في كامل العهد العبيدي بالمغرب الأوسط⁽⁴⁾، وأدى ذلك إلى ثورة أصحاب المذاهب الأخرى. ووقع صراع بين فقهاء المالكية وفقهاء الشيعة ودعاتها، وتحول إلى مناظرات، وترتب عليه فتك بالمخالفين. وتطور الصراع إلى الخروج العسكري على الدولة - كما سبق الذكر - والذي تزعمه صاحب الحمار الخارجي الذي لقب نفسه بشيخ المؤمنين، ولقي مساندة من فقهاء المالكية بإفريقيا⁽⁵⁾. والجدير بالذكر أن البربر اعتنقوا المذهب الشيعي، وتقبلوه عن تعصب ومعاداة للأغلبة، وليس عن علم ومحبة بسبب البساطة السائدة. لكن بمجرد انتهاء العهد الفاطمي، رجع المذهب المالكي إلى سابق عهده⁽⁶⁾ بفضل جهود علماء المالكية، وترسخ هذا المذهب السني في العهد الأغلبي⁽⁷⁾.

وحيث إن عم المذهب المالكي كل المنطقة، ولم يبق من آثار الشيعة إلا بعض المظاهر والطقوس التي تحولت إلى سلوك يتشبث به العامة بدون وعي لأصله، وتوارثتها الأجيال وتعلقت بها بسبب تعلقها بآل البيت، وبعضها مارسه الناس مخالفة للشيعة، وظهر جليا في

1 - وهو من أهم شعراء الدولة العبيدية بالقيروان والمهدية، وخدم الخلفاء القائم والمنصور والمعز. انظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات (ليبيا تونس صقلية)، دار المعارف، القاهرة، ص 225.

2 - انظر: عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 230.

3 - أول قاضي شيعي ولاء الداعي بالقيروان هو محمد بن عمر المروزي. كما نصب المنصور العبيدي النعمان بن محمد بن حيون التميمي قاضيا بالمنصورية والقيروان وأعمال إفريقية، أي قاضي القضية الشيعية. انظر: إدريس عماد الدين: تاريخ الخلفاء الفاطميين، المصدر السابق، ص ص 140-490.

4 - انظر: مبارك الملي، المرجع السابق، ص 133، عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 228.

5 - محمد علي بلحلول، قفصة قديما وحديثا، ص ص 130-131.

6 - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 230.

7 - سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ الغرب العربي، ج 3، ص 137.

أفراح عاشوراء ومهرجاناتها الفلكلورية الترفيهية، وعرفتها الجزائر وبلاد الصحراء. وكان للظل الفاطمي أثره في مجتمع وادي سوف⁽¹⁾ في زمن لاحق⁽²⁾. ولا ندري هل هو انتقال من تلك الفترة القديمة، أو مجرد عادات وفدت في فترات لاحقة بسبب التفاعل مع المناطق الأخرى في المجتمع الجزائري الذي أحب آل البيت، وخلد أسماءهم في منظومة المجتمع العائلي.

دامت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ما بين سنتي 297-341هـ. وفي النهاية فتح المعز لدين الله بلاد مصر، وانتقل إليها. واتخذ القاهرة عاصمة لدولته،⁽³⁾ واستخلف على إفريقية سنة 362هـ/973م بلكين بن زيري الصنهاجي⁽⁴⁾. ويومئذ بدأت البلاد تشهد بوادر الانفصال والاستقلال عن الدولة الأم، وظهور دولة محلية جديدة.

ثامنا: نهاية الدولة العبيدية بإفريقية:

كان طموح العبيديين هو التوسع، ولا سيما على حساب الدولة العباسية في المشرق. وكانت ضمن استراتيجية المهدي في أول حكم الدولة، وتمكن من غزو مصر مرتين. وبقي الطموح ساريا في عقبه عندما تمكن آخر الخلفاء العبيديين المعز لدين الله تجهيز جيش قوي سنة 358هـ/969م بقيادة جوهر الصقلي. وكان يضم أكثر من 100 ألف فارس. ودخل مصر التي وقعت عهد الأمان حقنا للدماء، وأبقى جوهر كبار رجال الدولة ووزراءها في مناصبهم⁽⁵⁾.

ولما عزم المعز على الانتقال إلى مصر، فكر مليا فيمن يخلفه على ولاية إفريقية الكبيرة. ووقع اختياره على بلكين بن زيري لما تلمسه فيه من صفات تؤهله لهذا المنصب الرفيع. وحينها اطمأن المعز وخرج من المنصورة، وحمل معه الدنانير التي حولت إلى سبائك من الذهب، وطبع اسمه عليها، وجعل حمل كل جمل سبيكتين. وهاجر معه أهل بيته وقرباته وكثير من أمرائه

1 - وما يظهر من آثار الفاطميين الأسماء وكثرتها، ولا سيما اسم علي، وهو الإمام الميجل، وبعض العادات مثل عاشوراء وغيرها.

2 - عاد مسعود: حقيقة الظل الفاطمي في التراث الشعبي لمنطقة سوف، حوار تم في برنامج أمجاد سوف، من تقديم علي غنابزية، إذاعة سوف، يوم 15 أوت 1999.

3 - استمرت الدولة الفاطمية في مصر، وحكمت من طرف عشرة خلفاء، كان آخرهم عبد الله العاضد الذي توفي في شهر محرم 567هـ/1171م. واستطاع وزيره صلاح الدين الأيوبي أن يحول مصر إلى الأيوبيين. انظر: مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 140.

4 - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 234.

5 - فرحات الدشراوي، المرجع السابق، ص 379-386.

ودعائه وأعيان دولته، ومعه القاضي النعمان وجميع أولاده⁽¹⁾، وكان ذلك يوم الخميس 11 ربيع الأول 361هـ/20 ديسمبر 972م، لتبدأ الدولة الصنهاجية البربرية الخاصة، وبها عرفت بلاد المغرب الإسلامي⁽²⁾ عهداً جديداً من الدول المحلية الطابع، الإسلامية الروح، العربية الهوية.

1 - انظر: فرحات الدشراوي، المرجع السابق، ص 404-406، إدريس عماد الدين، المرجع السابق، ص ص 184-185.

2 - فرحات الدشراوي، المرجع السابق، ص 406-407.

الفصل الخامس

تاريخ وادي سوف في ضفاف دول المغرب الأوسط البربرية الإسلامية

المبحث الأول:

وضعية وادي سوف في عصر الدولة الصنهاجية (الزيرية) (361-543 هـ / 972-

1148م)

المبحث الثاني:

وضعية وادي سوف في عصر الدولة الحمادية (405-547 هـ / 1014-1153م)

المبحث الثالث:

وضعية وادي سوف في عصر الدولة الموحدية (515-668 هـ / 1121-1269م)

تاريخ وادي سوف في ضفاف دول المغرب الأوسط البربرية الإسلامية

تمهيد:

عاش البربر قرونا عديدة في بلادهم بأرض المغرب تحت التسلط الأوروبي. فتحكم فيهم الرومان والوندال والروم البيزنطيون. فاستعبدوهم، ونهبوا أرزاقهم وثوراتهم. وأحس البربر بذلك الظلم الشديد، فانتفضوا كثيرا، وأعلنوا الثورات من أجل التحرر من الاحتلال. ولكن بقوا على نفس الحال إلى زمن مجيئ الفاتحين العرب. ووقع الصدام الإسلامي البيزنطي البربري. وكانت القوة العسكرية هي سيدة الموقف، ولم يكن اعتناق الإسلام أمرا هينا عند البربر، ولا سيما عند رجوع قادة الفتح إلى المشرق، مما جعل البربر يتمسكون بشخصيتهم، ويتشبثون بمعتقداتهم وموروثهم الثقافي.

وكان البربر يعتقدون النجاة في تأسيس كيانهم المستقل، وسعوا لتحقيقه، ولكن الفتح الإسلامي لم يمكنهم من ذلك إلا بشكل محدود عندما حكم كسيلة، وأنشأ حكما بربريا شمال الأوراس دام أربع سنوات (687-690هـ).

كما أن سياسة التمييز التي اتبعت من قبل الولاة في العهد الأموي أججت الصراع، وساعدت على تمرد البربر، وأخذت الثورات اللون المذهبي، وخصوصا الخوارج الصفرية الذين بايعوا ميسرة المطغري بالخلافة، واستولوا على البلاد فترة. كذلك فعل أبو الخطاب المعافري الذي استولى على السلطة، واستخلف أتباعه على ولاية إفريقية. كما خرج البربر في عهد الوالي عمر بن حفص المهلبي، واستولوا على القيروان، وأرادوا تأسيس دولة بربرية. وجمعوا جيشا كبيرا من الخوارج الصفرية والإباضية، وقاتلوا الوالي عمر بن حفص الذي استشهد في الميدان. ونجحت الثورات في تأسيس كيانات ثلاثة في الفترة ما بين (160-296هـ). وتأسست الدول التي حكمها العرب. وعاش البربر في وئام معهم، وساهموا في تأسيس الدولة الرستمية والعبيدية.

ولكن المرحلة الثانية للدول في الفترة ما بين (362-668هـ)، كانت إسلامية الانتساب، بربرية القيادة، عربية اللسان والإدارة. وحدث بينها تنافس، وأخذت تتوسع وتمد نفوذها على حساب جيرانها، وامتدت رقعة هذه الدول إلى أطراف الصحراء، وكانت وادي سوف محاذية لحدودها، أو واقعة ضمن نطاقها السياسي. وبدأت سوف تعرف استقرارها العمراني البارز، وشخصيتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ومن أبرز الدول المجاورة لوادي سوف، الدولة الصنهاجية.

المبحث الأول

وضعية وادي سوف في عصر الدولة الصنهاجية (الزيرية) (361-543 هـ / 972-1148 م)

تمهيد:

الدولة الصنهاجية هي الدولة ذات الأصل البربري، أسستها قبيلة صنهاجة⁽¹⁾، وعرفت بالدولة الزيرية، نسبة إلى زعيم القبيلة وشيخها الأكبر زيري بن مناد⁽²⁾ الذي ساعد الفاطميين في توطيد حكمهم، وساهم في إخماد الثورات، وبنى مدينة أشير⁽³⁾، وضرب العملة باسمه⁽⁴⁾، وملك بلاد المغرب الأوسط لمدة ست وعشرين سنة. وتوفي زيري سنة 360هـ/970م⁽⁵⁾، فخلفه ابنه بلكين بن زيري⁽⁶⁾. ويومئذ بدأت بوادر الدولة التي حكمت نحو 182 سنة.

أولاً: تأسيس الدولة: مرت الدولة بمرحلتين أساسيتين، أولهما تحت المظلة الفاطمية، والثانية لما خرجت عليها وشقت عصا الطاعة، وبينهما كان الولاء متذبذباً، والرجوع إليها

(1) **صنهاجة:** قبيلة بربرية أمازيغية، جزائرية الموطن، وتنتمي إلى البربر البرانس. يرجع نسبها إلى أصلين هما: قار وحزمار ابني صنهاج. وقيل هي فخذ من قبائل حمير العربية، فاننسبت إلى البربر. انظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص 201-203، ابن ابي دينار، المؤنس، ص ص 71-72. عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 243.

(2) **زيري بن مناد:** ينتمي إلى أسرة سياسية عريقة، مارست الحكم مبكراً. فوالده مناد بن منكوس، وعند ابن خلدون ابن منقوش، هو أحد رؤساء صنهاجة. كان والياً على المغرب الأوسط من قبل العباسيين في بلاد الزاب، ولكن ابنه زيري ناصر الفاطميين وأعانهم على أبي يزيد الخارجي في إخماد ثورته سنة 335هـ/946م، وحارب كل مناهض للدولة العبيدية، فرفع مقام صنهاجة عند الفاطميين. وحينئذ ولوه أمر تيهرت وباغاية، فوقف في وجه بني يفرن الزناتيين، أعداء صنهاجة. انظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص 201-203. عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 243.

(3) **أشير:** بلدة تقع بجبل التيطري قرب قصر البخاري. كانت تعرف أشير زيري، لأنه بناها سنة 324هـ/935م في عهد الخليفة الفاطمي الثاني أبي القاسم القائم بأمر الله الذي شجعه وأمدّه بالحرفيين، وكلف مهندساً مشهوراً في إفريقية بمساعدته. كما أمدّه بالحديد وغيره من المواد. انظر: الهادي روجي إدريس: **الدولة الصنهاجية**، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1992، ج1، ص 44.

(4) انظر: عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 243. عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 165.

(5) ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 205.

(6) **بلكين بن زيري:** وكان أذكى أبناء زيري، وتربى في بيت المنصور الفاطمي ومع أبنائه، وكلفه والده بتمصير وتعمير مدينة الجزائر ومليانة والمدية. كما ولاه على مليانة لمحاربة زناتة، واستطاع توحيد الشمال الإفريقي، وعقد له الخليفة الفاطمي على ما كان يحكم والده في أشير وتيهرت وسائر أعمال المغرب والزاب والمسيلة، وضرب العملة باسمه. انظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 205. ابن ابي دينار، المؤنس، ص ص 74-75. مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 161. عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 246.

لمساندتهم في وقت الضعف:

أ- مرحلة الاستخلاف: حظي بلكين بثقة المعز لدين الله الفاطمي، فاستخلفه على إفريقية والمغرب - ما عدا طرابلس وصقلية - في سنة 361هـ/971م. وسماه يوسف، وكناه بأبي الفتوح، ولقبه بسيف العزيز بالله. فانتقل إلى العاصمة المنصورية⁽¹⁾، وحينئذ انتهى حكم العرب للمغرب، وتولى البربر زمام الأمور⁽²⁾، وأدمجت الولايات الأربع في ولايتين كبيرتين بالمغرب الأوسط هما: تيهرت وأشير⁽³⁾.

ولما توفي المعز لدين الله الفاطمي بمصر وتولى ابنه العزيز، جدد الولاية لبلكين، وأضاف إليه سرت وأجدابية وطرابلس. واستمر حكمه اثنتي عشرة سنة. وتوفي بلكين سنة 373هـ/984م⁽⁴⁾ وقد أوصى بالحكم لولده المنصور الذي بويع بالإمارة في مسجد القيروان⁽⁵⁾. وبعد وفاته، خلفه ابنه باديس بن المنصور سنة 386هـ/996م. وفي عهده وقع الخلاف والصراع بينه وبين عمه حماد بن بلكين صاحب القلعة، وانتهى بانفصال حماد بدولة جزائرية مستقلة منذ 405هـ/1014م⁽⁶⁾. واستمر الصراع إلى وفاة باديس بالمسيلة سنة 407هـ/1017م، لتعرف المنطقة سياسة جديدة أثرت على البلاد بأكملها.

ب- مرحلة الانفصال: لما تولى المعز بن باديس الحكم⁽⁷⁾، لقبه الخليفة الفاطمي بشرف الدولة، وعرف بالعلم والتدين، واتخذ المهديّة عاصمة لمملكته. وبدأت بوادر الانفصال عن

(1) انظر: عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 243. عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 165. مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 161.

(2) استمر المغرب الإسلامي في استقلاله عن العرب - يتوارثه البربر - ولكن تربطهم الولاءات، فتارة يدعون للأمويين في الأندلس، ومرة أخرى يدعون للعباسيين بالشرق، ثم استقلوا بالدعوة لأنفسهم، واستمر ذلك إلى زمن استيلاء الأتراك على الجزائر وتونس وطرابلس الغرب في القرن 16 م. انظر: عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 246.

(3) الوزير السراج، المرجع السابق، ص 61.

(4) انظر: مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 158. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 246.

(5) عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 167.

(6) عرفت الدولة الصنهاجية الانشقاق، وخروج الثوار في الأقاليم، وانقسمت على نفسها إلى دولتين: الدولة الصنهاجية الغربية، بالمغرب الأوسط، وعرفت بدولة بني حماد، والدولة الصنهاجية الشرقية، وهي الأصل، وكانت عاصمتها المنصورية ثم المهديّة، وتغطي أراضي المغرب الأدنى (تونس). انظر: مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 160-163.

(7) **المعز الصنهاجي:** ولد بالمنصورية سنة 398هـ/1008م. وعند وفاة والده كان في سن الثامنة، فبوع بالمهديّة، ولكن عمته أم ملال كانت الوصية، وباشرت شؤون الحكم إلى أن ماتت، فبلغ سن الرشد، وتولى شؤون الحكم بنفسه في =

الفاطميين عندما حمل المعز أهل البلاد جميعا على مذهب الإمام مالك، ثم قطع الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله، وخطب للخليفة العباسي ببغداد - القائم بالله - ورغم تهديد الخليفة الفاطمي، وتلويحه بالرجوع لبلاد المغرب، وتجديد عهد آبائه وأجداده، إلا أن المعز أصر على موقفه⁽¹⁾، وكان يسب العبيديين سرا، فتحول إلى سبهم في المنابر. وأرسل إلى وزير المستنصر أبي القاسم الجرجاني يستميله، ويجرضه على التمرد بالتلويح له ببيت من الشعر وهو:

وفيك صاحبتَ قوما لا خلاق لهم * لولاك ما كنت أدري أنهم خلقوا

فتفتن له الوزير وقال: «ألا تعجبون من صبي بربري مغربي يحاول أن يخدع شيخا عربيا عراقيا». وبعد وفاة الوزير، أعلن المعز الانفصال سنة 1048م/440هـ⁽²⁾، فأشار الوزير الجديد الحسين بن علي اليازوري باجتياح البلاد بالقبائل البدوية من أعراب بني هلال، من بطون زغبة ورياح. وكتب الوزير إلى المعز: «أما بعد: فقد أرسلنا إليك خيولا وحملنا عليها رجالا فحولوا ليقضي الله أمرا كان مفعولا»⁽³⁾. وخرجت الحملة الهلالية الأولى من مصر سنة 1051م/442هـ، فعاثوا في بلاد المغرب فسادا، وحاربهم المعز فهزموه. واستمر المعز في الحكم مدة تسع وأربعين سنة⁽⁴⁾. وحيثبدأت صنهاجة الشرقية في الضعف والانحطاط.

ثانيا: الامتداد الجغرافي للدولة: ورثت الدولة الزيرية كل الأراضي العبيدية، وضمت في أوج توسعها المغرب الأدنى (تونس) بأكمله، والمغرب الأوسط (الجزائر) الذي أدمجت ولاياته الأربع في ولايتين كبيرتين هما: تيهرت وأشير⁽⁵⁾. وكان إقليم وادي سوف في الجنوب الشرقي لولاية إفريقية، وفي حدود الولايتين السابقتين. تتمتع قبائله بالاستقلال، وتنفس القبائل المجاورة والطوائف الدينية في أرجائه نسائم الحرية.

ولكن هذه الدولة تغيرت معالم حدودها باستمرار، وفق الأحداث السياسية، فأضيفت

= حدود سنة 414هـ. انظر: ابن أبي دينار، المؤنس، ص 80. الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ص 167-178. مبارك الملي، المرجع السابق، ص 160-163. عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 256.

(1) انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح إحسان حقي، دار صادر، بيروت، 1994، ص 5، ص 233-234. الوزير السراج، المرجع السابق، ص 63-64.

(2) انظر: المؤنس، ص 83. الوزير السراج، مرجع السابق، ص 64. مبارك الملي، المرجع السابق، ص 160.

(3) انظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص 79. المؤنس، ص 83.

(4) توفي المعز بالقبروان مريضا في 4 شعبان 454هـ / 1062م، ودفن برباط المنستير. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 5، ص 234. عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 256.

(5) الوزير السراج، المرجع السابق، ص 61.

اليها منطقة اجدايبية وطرابلس في عهد بلكين بأمر من الخليفة الفاطمي العزيز⁽¹⁾ ثم انفصل عنها الجزء الغربي، الذي كون دولة بني حماد، التي مثلت دولة جزائرية مستقلة منذ 405هـ/1014م⁽²⁾.

ثالثا: الحياة السياسية: ظهرت الدولة الزيرية⁽³⁾ كولاية كبرى للفاطميين بالمشرق، وأول حكامها هو بلكين بن زيري، وله تجربته في عهد والده. فتولى حاكما على ولاية الجزائر لما كان والده أميرا على صنهاجة. ثم خلفه، وأثبت جدارة في الحكم، وهذا سبب اختياره لتسيير هذه الولاية الكبرى المترامية الأطراف في بلاد المغرب. ولما ولاه المعز لدين الله عام 361هـ، أوصاه وبين له السياسة التي تعتمدها الدولة. وأكد له بالقول: «إن نسيت ما أوصيتك به، فلا تنس أربعة أشياء: إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية، والسيوف عن البربر، ولا تول أحدا من إخوتك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، وافعل مع أهل الحاضرة خيرا»⁽⁴⁾. واشتهر بلكين بالحزم والشجاعة وحسن إدارة الأمور. فكان أول موحد لبلاد المغرب الإسلامي في كيان واحد. وبعده ظهر استقلال البربر بحكم وطن لهم تحت ظلال الإسلام. ورغم نشوب بعض الانتفاضات، استطاع تأديب الثائرين، وتقدم في فتح بلاد المغرب الأوسط، فضمها كاملة، وتقدم إلى المغرب الأقصى حتى وصل فاس وسجلماسة، ولم يتوقف إلا بأمر من الخليفة في القاهرة⁽⁵⁾. وتوفي بلكين سنة 373هـ بعد حكم دام اثنتي عشرة سنة فقط، وترك الدولة في كامل وحدتها. وبعد وفاة بلكين، يمكن التمييز بين عهدين للدولة الصنهاجية:

أ- عهد الوحدة والقوة: كان الحكم وراثيا، ينتقل من الأب إلى ابنه، وولاية العهد تعتمد من الخليفة في القاهرة بمرسوم خاص، مع تسمية الأمير الحاكم. ويمكن الوقوف عند أهم خصائص هذا العهد:

- حكم البلاد ثلاثة حكام: أولهم المنصور بن بلكين (373-386هـ) وهي أقصر مدة، فلم تتجاوز ثلاث عشرة سنة، وخلفه ابنه باديس بن المنصور (386-406هـ) لمدة عشرين سنة،

(1) انظر: مبارك الملي، المرجع السابق، ص 158. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 246.

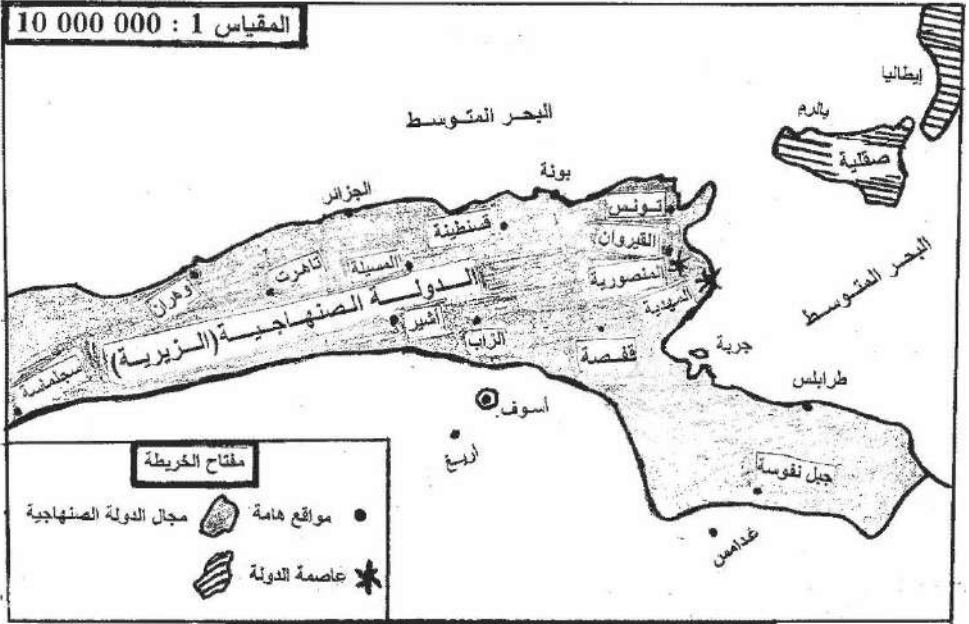
(2) مبارك الملي، المرجع السابق، ص ص 160-163.

(3) الزيرية: عرفت بالزيرية نسبة إلى زيري بن مناد. وأول من تولى الحكم فيها ابنه بلكين بن زيري. ولهذا كان زيري واسطة العقد بين الطرفين، فحملت الدولة اسمه.

(4) عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 246.

(5) نفسه، ص 247.

المقياس 1 : 10 000 000



المراجع:

- 1- الأطلس العالمي، المعهد الوطني للتربوي، الجزائر، ص 30.
- 2- عادل أنور خضر، أطلس تاريخ الجزائر، ص 71-75.
- 3- الوزير السراج، الحقل السندسية، ص 61.
- 4- عبد الرحمن الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص 246.
- 5- مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 158-163.

موقع وادي سوف في ضفاف الدولة الصحراوية (الزيرية)

وأخرها حكم المعز بن باديس (407-454هـ)، وهي أطول فترة قاربت نصف قرن.
- اتصف أغلبهم بالشجاعة ورباطة الجأش والحزم في معالجة الأمور والكرم والحلم والبعد
عن سفك الدماء، ولاسيما المنصور والمعز. واتصف هذا الأخير بالعلم والدين ورقة القلب
والاهتمام بالشعر ومحبة أهل العلم وتقريبهم.

- مخالفة وصية المعز لدين الله من قبل باديس بن المنصور بتولية أفراد من أقاربه كعمال في
المغرب الأوسط، وكان ذلك سببا للقلقل والحروب والانفصال بجزء من الدولة، كما هو
شأن عمه حماد بن بلكين الذي انفصل بغرب الدولة، وأسس إمارة خاصة هي الدولة الحمادية.
- إعلان المعز بن باديس الانفصال عن الدولة الفاطمية بالمشرق، وكان مجالها الناحية
الشرقية وعاصمتها القيروان ثم المهديّة التي توفي بها سنة 454هـ⁽¹⁾.

ب - عهد الانقسام والضعف: وهو الفترة الممتدة ما بين (454-547هـ) وهي مدة حكم
أبناء المعز واحفاده إلى عهد الغزو النورماندي للدولة. واتسمت الحياة السياسية بما يلي:
- كان عدد الأمراء أربعة، تفاوتت مدة حكمهم ما بين خمس سنوات إلى سبع وأربعين سنة،
وهي فترة أولهم تميم بن المعز (454-501هـ)، وآخرهم الحسين بن علي (515-543هـ).
بلغت عهده 28 سنة، بينما كانت فترة يحيى بن تميم ثمانين سنوات (501-509هـ)، أما علي بن
يحيى فهي أقصر مدة لم تتجاوز ست سنوات (509-515هـ).

- عرف أغلبهم بصفات متقاربة، فتحلوا بالكرم والشجاعة والحزم والحلم والعفو عند
المقدرة والرحمة بالفقراء والحرص على سعادة الرعية. وكان بعضهم يباشر الأمور بنفسه، بينما
أوكّلها علي بن يحيى إلى قوم فوضهم بتدبير شؤون دولته، بل لم يظهر يوما في ساحة الوغى.
- كان بعضهم محبا للعلم والأدب، أو له قسط منه. فكان تميم بن المعز أحد فحول شعراء
الملوك، وذوي السبق في معانيه وبدائعه. بينما عرف يحيى بكثرة مطالعة كتب السير والأخبار،
والمعرفة بالطب والكيمياء. كما كان أديبا شاعرا، ويرعى العلوم والآداب والفنون.
- كانت علاقتهم بقاهرة المعز متينة، بل تبادلوا معها الهدايا، وجرت بينهم السفارات الدالة
على تقديم الولاء، واستمداد الانتفاء، والاحتفاء بظل الدولة الفاطمية، وتلقي وثائق التقليد،
وخاصة يحيى بن تميم ومن جاء بعده.

- عرفت البلاد بالثورات، وتعددت التمرد في المدن والأقاليم، وقلما تجد مدينة هادئة، بل
تطمع في الاستقلال، وتتنظر المعاقبة، وكان هم الخلفاء هو إخماد الثورات التي أضعفت كاهل

(1) عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص ص 248-258.

الدولة، وتقلصت رويدا، حتى صارت محدودة الرقعة، محصورة في المغرب الأدنى⁽¹⁾.

رابعا: الحياة الاقتصادية: كانت الحياة الزراعية هي البارزة في الدولة الزيرية. واشتهرت ببساتينها ومزارعها التي أنتجت مختلف أنواع الفواكه والحبوب من القمح والشعير والتمور وتربية المواشي وإنتاج السمن والعسل.

وعرفت تجارتها انتعاشا، وبرزت بكثرة أسواقها وحركة تجارها داخليا عن طريق القوافل، وخارجيا مع الضفة الشمالية للمتوسط. ويمكن ذكر ما تميزت به بعض مدنها كما ذكرها ابن حوقل⁽²⁾:

- **طرابلس:** كانت بها أسواق، ولها علاقة تجارية عن طريق القوافل، ولاسيما مع القيروان. وبها زراعة الفواكه الطيبة كالخوخ والصوف. ومراكب تنتقل بين بلاد الروم وبلاد المغرب.

- **بونة (عنابة):** عرفت بأسواقها وتجارها المقصودة. وكانت تنتج الفواكه والقمح والشعير. ومن تجارتها: الغنم والصوف والماشية والبقر لإنتاج الألبان، وبها العسل. وحتى جزائر بني مزغنة وجدت فيها مراسي هامة مثل: جيجل وبجاية.

- **جزائر بني مزغنة:** اشتهرت بأسواقها الكثيرة. وأهم أموالها: المواشي من البقر والغنم والعسل والسمن والتين الذي يجلب إلى القيروان.

- **وهران:** تمارس فيها زراعة القمح والشعير مع تربية المواشي. وتجارها بارزة مع بلاد الأندلس، ويحمل إليها مختلف الغلال⁽³⁾.

- **وادي سوف:** وكانت حالتها الاقتصادية بسيطة يغلب عليها الطابع البدوي، وتمارس الرعي والصيد. ويمكن الوقوف على بعض النواحي الاجتماعية والعلمية والعمرانية والمعتقدات والمذاهب الدينية، ولاسيما في منطقة وادي سوف في نفس الفترة الزمنية.

خامسا: الحياة الاجتماعية بوادي سوف: رغم بداوة المجتمع وبساطة معيشته، فقد حافظ البربر على القيم الاجتماعية، واعتنوا بالأسرة، واهتموا بتعليم أفرادها ذكورا وإناثا⁽⁴⁾. وحظيت المرأة بمكانتها المرموقة في إبداء الرأي وسياسة الأمور والمشاركة العلمية. ويتجلى ذلك في نشاط بعض أفرادها البارزين على وجه الخصوص:

(1) الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ص ص 297-410.

(2) انظر: ابن حوقل، ص ص 73-79. عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص ص 264-265.

(3) ابن حوقل، ص ص 72-79.

(4) كانت حلقة العزابة تهتم بتعليم المرأة. وقد نظم الشيخ محمد بن بكر الفرستائي مجالس للنساء، يتعلمن فيها أحكام الإسلام، ويبيهن عما استعصى عليهن في شؤون الدين والحياة. وتخرج من تلك الحلقات نساء راسخات في العلم. انظر: معجم أعلام الإباضية ج2، ص 369.

-سارة اللواتية: وهي امرأة عاشت بوادي سوف في النصف الثاني من القرن 5هـ/11م. وكانت مثالا للصلاح والتقوى، والاجتهاد في طلب العلم والسؤال عن الدين، ومخالطة شيوخ العلم وزيارتهم، ورواية الأشعار بالبربرية. واعتقد أهلها أن منبها⁽¹⁾ يعينها على فعل الخير والأمر بالمعروف ورواية الأشعار. وهي كرامة كسبتها بسبب صلاحها وتقواها⁽²⁾. وكانت شديدة الورع، وبرز ذلك في سلوكها. فقد كلفها رجل مسافر برعاية أبنائه، وترك لها زادا تنفق عليهم منه، فأعجبتها مرة حبة تمر، وغفلت فرمت بها في فمها، ولكنها تنبهت فألقتهما. ومما أثر عليها مع منبها، عندما أرادت يوما أن تأكل تمرًا من قلة لها، وتلك السنة شهدت القحط، فقال لها المنبه: «لا تكثري الأكل فإن الناس في جوع». وقال لها أيضا: «افعلي هذه الخصال حيث أصبت: ركوع الضحى، وصوم يوم الجمعة، والصدقة مما أعطاك الله، واصبري».

وكانت مهمتة بمصيرها، وما ينجيها يوم القيامة، وما تلقته من نصائح: «من حمل على نفسه مشقة العبادة ومن لم يحملها، يتغابنون يوم القيامة ويتفاضلون». وعندما اجتمعت مع بعض النسوة، وسألنها عما ينجيهن من النار: قال لها قولي لهن: «الطهور ثم الصلاة، ثم الصوم، ثم الصدقة وترك الغيبة، وأخبرين أن الله يغفر ما هو أعظم من الجبال، والجهل يرمي بصاحبه في النار». وقال لها أيضا: «ثلاثة غرباء: الحلال والمسلم والمساجد».

وكان لها من الكرامات والتأييد الرباني بعض الأحوال. فخرجت مرة تطلب بعض الحيوانات التي ضلت طريقها، فنجد الماء الذي تحمله في الصحراء الحامية، فتحيرت وخافت، وأنشدت شعرا - لعله دعاء - فوجدت نفسها في وادي سوف بدون عناء، وكله بتوفيق من الله تعالى. وتكرر ذلك عندما أرادت مرة زيارة المشايخ في سوف، ويقتضي ذلك قطعها الرمال والفيافي. وتحيرت من الحر الشديد وبعد المكان المقصود. فقال لها منبها: «إذا استقبلت موضعا وقصدت الله، أعانك ورفعك كما رفع الله السماء». فارتفعت، فإذا هي بسوف بقدره الله.

وذات يوم ضاعت لها بعض الحيوانات، فخرجت في طلبها، وحل الليل ولم تجدها، وتحيرت أين تنام، فأخبرها الهاتف: «تبيتين عند من لا قيمة للعالم عنده، وهو مطيع لله، مطيع لوالديه مطيع لأهله، ووصول لجيرانه، فكان ذلك الشيخ إدريس بن الطويل». وماتت سارة في وادي سوف، وكان قبرها معروفا عند قومها، في كدية مرتفعة. نام فوقها

(1) المنبه: هو الهاتف، أو ما يراه أو يسمعه الشخص في المنام. وهو أحد مصادر التلقي عند الصوفية.

(2) معجم أعلام الإباضية، ج2، ص166.

أحد المسافرين، فسمع هاتفا من تحته يقول: «أصبت راحة النوم بالصدقة وبالعطاء، أصبت رحمة ربي، وبالنية أصبت الزاد والنور». فلما وصل إلى سوف، أخبرهم عما حدث له، ووصف لهم الموضوع في تلك الكدية، فقالوا له: «ذلك قبر سارة»⁽¹⁾.

-تك بنت سبت الزناتية: وهي المرأة الصالحة التي نصبوها ملكة، واختاروها لصلاحها وعراقة نسبها وتعففها، فحكمت عاصمة سوف الأولى وحملت اسمها. وذكر الشيخ العدواني قصتها عند سرده أحداث زيارة سيدي المسعود الشابي، فقال: «ثم ارتحل (سيدي المسعود) حتى نزل بقرية تك بنت سبت، وكان قبل ذلك موضع امرأة عابدة من بقية مرداس⁽²⁾ حين نزلوا بسوف كما مر الخبر، فقال لها أهلها: اقربي إلينا وانزلي بساحتنا، فحلفت يمينا بالله لا يقربني ذكر ولم ير لي سوء أبدا. كما قالت (السيدة) مريم ابنة عمران التي قال الله فيها: ﴿والتي أحصنت فرجها﴾ الخ. فأخذت مجلسا وبقيت تعبد الله وحدها في خلوة حتى توفيت رحمة الله علينا وعليها، ودفنت بها وبقيت وحدها وقبرها معروف»⁽³⁾.

كما عرفت وادي سوف - في هذا العهد - بحسن الضيافة، والكرم الواسع الذي خص به العلماء وأهل الدعوة⁽⁴⁾. فكانوا يتلقون ركبهم بالفرح والسرور، ويقدمون لهم ما تيسر لهم من الدنانير والحيوانات⁽⁵⁾ التي كانت خير ما يكرم به الزائر من هدايا، وما يحتفى به من حسن الاستقبال.

وكان تمسكهم بالدين من أفضل فصول حياتهم، وكل من يجد منهم قوة في نفسه، يشد الرحال لأداء فريضة الحج، ويبدل ماله، ويبيع أغلى ما عنده. وهذا ما ورد في قصة سفر المعيز بن فضالة المراغني رفقة الشيخ أبي نوح سعيد من قنطار إلى وادي سوف، وكان الشيخ راكبا

(1) انظر: الشماخي، ج2، ص720-739.

(2) بنو مرداس: أصلهم بطن من بني عوف، من سليم من قيس عيلان من العرب العدنانية، ومساكنهم كانت بين قابس وعنابة. ولم يحافظوا على أصولهم العربية، فاختلطوا بالبربر عن طريق المصاهرة والجوار، فحصل بينهم اندماج كبير. وذكر ابن خلدون اختلاطهم بهوارة البربرية. انظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص187، أحمد توفيق المدني: الجزائر، ص140، عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، ط8، بيروت، 1997، ج3، ص1074.

(3) محمد العدواني، المرجع السابق، ص114.

(4) أهل الدعوة: وهو المصطلح الذي أطلقه الإباضية على جماعتهم في أول الأمر: أهل الدعوة والاستقامة. ولم يستعملوا مصطلح الإباضية إلا بعد تمكنها وانتشارها. انظر: سير أبي زكرياء، ص ص284-285، محمد صالح ناصر: منهج الدعوة عند الإباضية، دار ناصر للنشر والتوزيع، ط5، الجزائر، 2013، ص17.

(5) انظر: سير أبي زكرياء، ص244. الدرجيني، ط1، ج1، ص152.

بغلته وابن فضالة ماشيا على رجليه. فلما وصلا إلى سوف، اشتكى الشيخ حتى قال: ((... ليس في بدني عظم إلا وهو واجد ألما، فقال ابن فضالة: لكني لا أجد ألما ولا أحسه. فقال له أبو نوح: أما إذا كنت هكذا، فقد وجب عليك الحج من وقتك...)). وأثر الكلام في ابن فضالة، فتاب وزهد في الدنيا، وباع عقاره، وأعطى الصداق لزوجته، وأنفذ وصيته ثلاث مرات، وتهايا للموت، واستعد للحج وقضى الفرض، وعأوده عدة مرات⁽¹⁾. وحسن حاله، وصار يتردد على مجالس الذكر وحلقات العلم إلى أن مات. وصار الناس يقولون: ((من أراد أن يتوب، فليتب توبة المعيز بن فضالة))⁽²⁾.

سادسا: العمران والاستقرار بوادي سوف: عرفت الدولة الصنهاجية برهاية حكامها وبذخهم، وتجلي ذلك في البلاط الذي مثل صورة عن التطور الحضاري والازدهار العمراني، بتمصير البلدان من قبل آل زيري، وأهمها: مدينة أشير ومدينة الجزائر والمدينة ومليانة وقلعة بني حماد. واشتهرت تلك المدن بمنشآتها المتعددة ومؤسساتها المعمورة وقصورها المنيفة ودورها الواسعة وحماماتها العديدة ومساجدها الأنيقة وفنادقها الجميلة. واستقبلت العلماء والطلاب وأصحاب الحرف والصناعات والمعارف والعلوم والتجار وأصحاب الفنون⁽³⁾. وأمام ذلك التطور، كانت وادي سوف - المحاذية للدولة - تعيش حياة البداوة. وبدأت قبائلها تستقر في مواقع عمرانية، والتي تحولت مستقبلا إلى نواة المدن الأساسية، ويمكن تتبع المواقع التالية:

- **قرية تكسبت القديمة:** هي أصل مدينة الوادي⁽⁴⁾، وأول عمران قديم بوادي سوف. وعمرتها قبيلة زناتة البربرية، ومنهم فرقة من بني مرين⁽⁵⁾ عندما أقاموا بيوتا من الشعر في

(1) الدرجيني، طبقات المشايخ، ج1، ص 156-157.

(2) الشماخي، ج2، ص 542.

(3) انظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 227، عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص ص 262-263، مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، (ب ت)، ص 168.

(4) تقع في الجانب الغربي من نهر وادي سوف الرقراق الذي صار اسما للمدينة. وموقع تكسبت في حي ضواي روجه الذي يعرف حاليا بحي النخيل. وسبب اختيار هذا الموضع الذي يبعد عن طريق العساكر والمسافرين ببلاد الزاب بنحو 200 كم، ويخشى منهم الخطر، لأنهم يتخذون الطريق الشمالي لوادي سوف للمرور من إفريقية (المغرب الأدنى) إلى المغرب الأقصى. انظر: إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج1، ص 61.

(5) بنو مرين: هم من قبيلة زناتة. واختلف النسابون في أصلهم، ولكن يجتمع نسبهم في قيس عيلان من العرب العدنانية. وقد تناسلوا مع البربر فنسبوا إليهم. انظر: ابن دينار، المؤنس، ص 137، ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 187. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، د2، ص 98.

حدود سنة 522هـ/1129م. ثم حولوها إلى مساكن على شكل (زرايب) من الحلفاء قائمة على أعمدة من حطب الأزال والمرخ والرتم. وتطور العمران إلى قرية مبنية من الطين⁽¹⁾، وأحاطوها بسور⁽²⁾ مرتفع يحفظها من غارات قطاع الطرق. واختاروا لها اسم " تكسبت " وهي المرأة الصالحة التي سكنتها أولاً⁽³⁾. مما يدل على مكانة المرأة في المجتمع الأول بوادي سوف.

- قرية الجردانية: أسسها البربر في شمال وادي سوف عند عيون النازية (إحدى منابع النهر المائي أسوف) في حدود سنة 530هـ/1136م، إثر توافد المهاجرين إليها من بلاد الجريد ووادي ريغ ووارجلان وبلاد الزاب. وامتازت القرية بكثرة أشجارها وزروعها، ووفرة مياهها ومراعيها، مما سهل تربية المواشي، واستقرار السكان. وحينئذ استقطبت الوافدين بسبب اعتدال مناخها، ووجود الأمن والسكينة⁽⁴⁾.

- أخلاط منطقة سندروس: كانت " سندروس " منطقة جنوبية، تأوي العصابات بزعامة جماعة من بني أبي العافية⁽⁵⁾. وانضم إليهم قطاع السابلة وذوو الخروج على السلطان وأهل الطمع. وكونوا جيشا كبيرا، وقادوا هجمات قوية على تكسبت القديمة، فعاثوا فيها تخريبا وفسادا. فنهبوا أموالها، وهدموا ديارها، وسبوا بعض نساءها وأطفالها، وشتتوا أهلها في النواحي المجاورة⁽⁶⁾. ولكن التحالف والتعاون الذي تم بين البربر من سكان تكسبت والجردانية مكنهم من القضاء على تلك العصابات، ولاحقوهم إلى نواحي تقرت. ولكنهم فروا

(1) كانوا يستعملون في البناء طين الشطوط القريب من الماء ويشبه الجبس. انظر: إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج1، ص33.

(2) السور: هو حائط مرتفع يحيط بالقرية من جميع جهاتها لحمايتها من مباغنة القبائل المجاورة في بلاد الجريد أو قطاع الطرق، ويدعون السابلة (والذين يمررون بالطريق). وهذا دفع أهل الأزمنة الغابرة إلى إقامة الأسوار حول القرى والتجمعات الأهلة بالسكان، وشيدوا القلاع والحصون، ودعموا بلدانهم بالحراسة، مع الحذر الدائم، واليقظة المستمرة، والحرص على استتباب الأمن، وحماية الأنفس والأموال. انظر: إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج1، ص61.

(3) انظر: محمد العدواني، المرجع السابق، ص114، إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج1، صص60-61.

(4) إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج1، ص61.

(5) بنو أبي العافية: هم قوم من مكناسة ببلاد المغرب الأقصى. كانت رئاستهم في المائة الثالثة إلى موسى بن أبي العافية ابن أبي باسل. وعظم أمرهم في زمنه، وتغلبوا على قبائل البربر، ووقعت لهم حروب مع الأدارسة. واستمر أحفادهم في نشاطهم السياسي والحربي إلى العهد الصنهاجي، وما بعده. انظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص176، إبراهيم بن عامر: المرجع السابق، ج1، ص61.

(6) احتفى أهل تكسبت بقرية الجردانية وبلاد الجريد والزاب. إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج1، ص61.

إلى بلاد المغرب، وقام أهل تكسبت بإصلاح ما تهدم، وعادوا إلى حياتهم العادية⁽¹⁾.
- قرية المغيبة: وهي قرية بناها سكان تكسبت القديمة في شمال قريتهم للاحتواء بها، لأنها بعيدة عن الموطن الأول⁽²⁾. وتقع في الضفة الغربية لوادي سوف الرقراق، ومن اسمها تستشعر تغيب المكان عن الأنظار لمباغته الأعداء، والتخفي أكثر من قطاع الطرق أصحاب البغي والفساد.

سابعاً: الحياة الثقافية والنشاطات العلمية: إذا كانت الدولة الصنهاجية منارة للفقهاء المالكي، فإن منطقة وادي سوف صارت يومها مركزاً للفكر الخارجي، وموطناً للحفاظ على الفقه الإباضي، ومقصداً للعلماء والطلبة الوافدين إليها من الحواضر المجاورة، ولاسيما درجين وجبل نفوسة ووادي ريغ وورجلان. وكان بعض العلماء يجمعون بين حياة الرعي والبدواة والترحال لكسب العيش، مثلما هو حال الشيخ محمد بن بكر الفرستائي⁽³⁾ الذي كان يكسب رزقه من كد يديه. وقد امتهن الرعي وتربية الماشية التي كان ينتقل بها بحثاً عن الكلاً ما بين جبل نفوسة ووادي سوف ووادي ريغ ووادي ميزاب. كما كان يملك بساتين عديدة⁽⁴⁾. ويستغل الأوقات الباقية في الاجتماع بالطلبة، وفيها نوع من التخفي والكتمان لحماية لنفسه. وكان له الفضل في إرساء قواعد نظام العزابة المحكم في الصحراء.

- **نظام العزابة:** كان الشيخ محمد بن بكر الفرستائي في طريقه إلى قسطلية للتعرف في الفروع على الشيخ عمران موسى بن زكرياء. ولكن وفداً من الطلبة من جربة حولوا وجهته، وأثروا عليه، وطلبوا منه التحول إلى تعليمهم بدل سعيه لطلب العلم. فاستجاب بعد تردد، وطال تفكيره في تنظيم حلقة للعلم ذات ترتيب دقيق، وتخطيط أستاذه فصيل بن أبي مسور. فعرف النظام في بادئ الأمر باسم «السيرة المسورية البكرية»، وطبق نظامه بتأسيس أول حلقة في غار

(1) إبراهيم بن عامر: المرجع السابق، ج1، ص ص 61-62.

(2) تقع قرية المغيبة الزناتية بالقرب من تكسبت الجديدة (الحالية) وجنوب قرية كوينين التي شيدت في وقت لاحق.

انظر: إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج1، ص 62.

(3) الشيخ محمد بن بكر الفرستائي: هو أبو عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف الفرستائي النفوسي. ولد بفرستاء بجبل نفوسة في حدود عام 345هـ/956م. وتلقى العلم بمسقط رأسه، وعلى الشيخ أبو نوح سعيد بن زنجيل بالقيروان، والحامة وجربة. وقد جمع الشيخ بين الإصلاح الديني والاجتماعي. وله آراء ورسائل علمية جمعها تلميذه سليمان بن يخلف في كتاب التحف المخزونة، قال عنه محمد بن أبي صالح النفوسي: "فيه خمس خصال قليلة في غيره من أهل العصر: عالم، ورع، عابد، سخي، شجاع، من ذروة نفوسة"، وتوفي في سنة 440هـ/1049م، ودفن قرب غاره بأجلو. انظر: غصن البان، ص ص 169-173، معجم أعلام الإباضية ج2، ص ص 368-370.

(4) معجم أعلام الإباضية ج2، ص ص 215-216.

(تين يسلي)، وهي (بلدة عمر) الواقعة قرب منطقة تقرت في سنة 409هـ/1018م. وكانت حلقته تهتم بالعلم والعمل والتربية الخلقية، وغرس مبادئ الإسلام في الطلبة. وكانت الحلقة تؤسس - بعد ذلك - في الحواضر.

وعُرف الشيخ بجولاته في المنطقة ما بين نفوسة شرقاً إلى وادي ميزاب غرباً، ووادي سوف تقع في نطاقها الأوسط. وكان الشيخ وتلاميذه في جولاتهم السياحية العلمية يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر، وينشرون الدين بين الناس. ولذلك عرف عندهم باسم ((سيدي محمد السايح)). والعزابة تعني لديهم العزوف عن الدنيا، والتجرد للآخرة، وخدمة الناس. وحلقتهم العلمية تقسم الطلبة إلى ثلاثة مستويات: المرحلة الابتدائية للصغار، والثانوية للطبقة الوسطى منهم، والثالثة للتعليم العالي، وتخص فئة الكبار. وصار للحلقة دورها التاريخي في الحفاظ على المذهب، وتثبيت أتباعه، والاهتمام بشؤون المجتمع⁽¹⁾.

وأبرز العلماء الذين ورثوا ذلك النظام، وعرفوا بنشاطهم العلمي داخل وادي سوف، وآخرون ساهموا في تعليم أبنائها في حواضرهم العلمية:

- أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي النفطي⁽²⁾ الذي عرف بكثرة رحلاته، فنسب إلى أكثر من موطن. واتخذ لنفسه حلقة علم متنقلة بين مواطن الإباضية، وأهمها حلقتة بوادي سوف في حدود عام 449هـ/1057م. ومن أبرز تلامذته بها الشيخ أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي وغيره⁽³⁾.

- أبو محمد عبد الله بن محمد اللثي الذي عاش في النصف الأول من القرن السادس الهجري. وكان يلقب بشيخ المشايخ وأستاذهم. ونظم حلقتة في تين زراتين يحضرها تلاميذ الشيخ أبي الربيع سليمان بن يخلف، ومن مختلف النواحي ولاسيما وادي سوف ووادي ريغ وبلاد الزاب وورجلان⁽⁴⁾.

ورغم اشتداد الفتنة بين الوهبة والمالكية في تلك البلدة، فإن العزابة كانت في أمان لا يخافون مكروها، والشيخ أبو محمد له الحكمة في مخاطبة الشيوخ، ويلتزم بأدب الخلاف وبراغي

(1) معجم أعلام الإباضية ج2، ص ص368-369.

(2) سليمان بن يخلف: هو الأصولي الفقيه. أخذ العلم في وادي ريغ. وأفى عمره في العلم قراءة وتدريسا. وصار من كبار رجال العزابة وتخرج عليه كثير من العلماء بجزيرة وورجلان وادي سوف وتماسين وورجلان وغيرها من مواطن الإباضية، وصنف في الفقه والأصول والفتاوى. وتوفي سنة 471هـ/1076م. انظر: غصن البان، المرجع السابق، ص ص 177-178. معجم أعلام الإباضية ج2، ص ص 215-216.

(3) معجم أعلام الإباضية ج2، ص ص 215-216.

(4) انظر: أبا العباس الدرجيني، المصدر السابق، ص ص 481-482، معجم أعلام الإباضية ج2، ص 272.

المصالح، ويوازن بين المفاسد. قال عنه الدرجيني في طبقاته: «... كثير الانبساط والانقباض، والإقبال والإعراض. إن أحب في الله، انبسط وأقبل، وإن أبغض في الله، انقبض. لا يتأول ولا يتأمل»⁽¹⁾.

وعرفت وادي سوف ثلة من العلماء الذين كانوا ثمرة السابقين وغيرهم. وبلغت شهرتهم الآفاق، وانساح تلامذتهم في شتى البقاع، ورسخوا مبادئ المذهب الإباضي في محلهم وما والاها من الأصقاع، القرية والنائية في المغرب الأوسط وما جاورها بالجريرد ونفوسة وسائر البلدان، ومنهم:

- أبو الخطاب عبد السلام المزاتي⁽²⁾ الذي عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجري. وهو أحد العلماء الذين أرسوا قواعد نظام العزابة. وعاش ببلاد درجين بقسطيلة التي هاجم قلعها الجيش الصنهاجي ودمرها سنة 440هـ/1048م، فاضطر الشيخ إلى الرحيل والاستقرار بوادي سوف. وظل يشتغل بالعلم والعبادة، والتربية والجهاد⁽³⁾.

- إدريس بن الطويل السوفي اللواتي. وقيل إدريس بن أزجرار أو أزكرار، وتعني الطويل بالبربرية. عاش في النصف الأول من القرن الخامس. وكان شيخا فاضلا، وعالما ورعا، وزاهدا في الدنيا⁽⁴⁾. ومن شدة ورعه، أن جديانا له أكلت من زروع قومه، فذبحها وتصدق على أهل الزروع بلحمها. وكان يكرم ضيوفه أحسن إكرام. فلما قدم عليه سليمان بن موسى، قدم له التمر، وكان يختار له الطيب منه، ويقول: «كلها يا حبيبي، لأنني إذا أكلتها ضاعت وصارت هزلاً»⁽⁵⁾.

- أبو عبد الله محمد بن علي المغراوي السوفي، العالم السخي، والعابد التقي. كان مستجاب

(1) انظر: أبا العباس الدرجيني، المصدر السابق، ص 481.

(2) عبد السلام المزاتي: هو أبو الخطاب عبد السلام بن منصور بن أبي وزجون المزاتي الذي عاش في حدود عام 400-450هـ. وأصله من نفوسة، وبها طلب العلم في بداية أمره، ثم شد الرحال إلى طلب العلم في طرابلس وفي المشرق عند رحلة الحج. واستقر في درجين، ولكنه غادرها إلى وادي سوف. وترافق مع أفاض علماء زمانه متعلما ومساعدة، ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي الذي ساهم معه في تأسيس نظام العزابة. وسافر مع الشيخ أبي نوح سعيد بن زنعيل أثناء رحيله إلى وادي ريغ. انظر: معجم أعلام الإباضية ج2، ص 254.

(3) انظر: معجم أعلام الإباضية ج2، ص 254.

(4) مؤلف مجهول، كتاب المعلقات في أخبار ومعلقات أهل الدعوة، تح الحاج سليمان بن إبراهيم الوارجلاني، نشر وزارة التراث والثقافة، ط 1، سلطنة عمان، 2009، ص 147.

(5) انظر: أبا العباس الشماخي، كتاب السير، دراسة وتحقيق محمد حسن، دار المدار الإسلامي، ط 1، ليبيا، 2009، ج2، ص 720.

الدعاء، مع الحزم في تسيير شؤونه، ولا تأخذه في الله لومة لائم. وهو الذي دفن الفتنة كما ذكرها أصحاب السير⁽¹⁾. وقصتها التالية:

وقعت فتنة كبرى في درجين السفلى، أدت إلى تشريد أهلها وموت الناس فيها، وعجز أهل المذهب على إصلاح ذات البين. فخرج إليهم أبو عبد الله السوفي، فلما بلغ بلادهم لم يدخلها، حتى خرج إليه الفقهاء والعزابة، وأهمهم: الشيخ يخلف بن يخلف، ومحمد بن سعيد، وطلبوا أن ينزل عندهم ضيفا فامتنع، لأنه مشغول بأمر الصلح. وطلب إحضار المهاجرين من غير سكان بلدتهم، ونزلوا جميعا حول مسجد قنطار العليا، وحضر أولياء الدماء، فغفوا وساحوا، وعقد الصلح بينهم. ثم طلب الشيخ إحضار سبع حصيات من أيدي سبعة رجال حجاج استلمت الحجر الأسود، وحفر في الرمل حتى غاب عاتقه، وأخذ الحصيات من أيديهم ورمى بها في الحفرة ودفنها وقال: هذه فتنة أهل درجين قد دفنت، فمن أثارها جعل الله بأسه برأسه. فأمنوا لدعائه وقطعها الله، وحمدوا الله جميعا على تمام الصلح⁽²⁾. ولما تم له ذلك، دخل إلى بلدتهم، وقبل ضيافتهم، وحمد الله وشكره على ما جرى على يديه من الخير والصلح⁽³⁾.

ولما عزم الشيخ على الحج، أودع عند الشيخ أفلح المارغني مائتي دينار. فلما رجع بعد عامين، قال: ما فعلت الوديعه يا أفلح؟ قال: أكلها الزمان يا محمد، فلم يسأله عنها حتى لقي الله. وكان أبو محمد عظيم القدر في أهل المذهب، بحيث لا يجهل موضعه ولا يجحد حقه ولا ينكر فضله⁽⁴⁾.

ثامنا: المعتقدات والمذاهب الدينية: حرص الفاطميون في عهدهم - بالمغرب الإسلامي - على نشر مذهبهم الشيعي الإسماعيلي على حساب مذهب أهل السنة والجماعة. واستمر ذلك إلى سنة 407هـ/1017م، عندما أعلن حماد بن بلكين انفصاله عن دولة باديس، ورفض مذهب الشيعة، وتمسك بمذهب السنة. فانقطعت الدعوة الشيعية بالجزائر. وعندما انفصل المعز بن باديس الصنهاجي بإفريقية عن الدولة الفاطمية بمصر، وأبدى تمسكه الشديد بمذهب السنة، فسح المجال لفقهاء المالكية الذين خرجوا من محنتهم، ونشطوا في نشر مذهبهم في البلاد، ولقي القبول الواسع من الناس الذين كانوا مضطهدين في ظل الحكم الفاطمي⁽⁵⁾.

(1) الشماخي، المرجع السابق، ج2، ص 646.

(2) انظر: الدرجيني، طبعة 1974، تح إبراهيم طلاي، قسنطينة، ج2، ص 499-500، الشماخي، ج2، ص 647.

(3) الدرجيني، ج2، ص 501.

(4) انظر: الشماخي، ج2، ص 647-648، الدرجيني، ج2، ص 501.

(5) عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 267-268.

وذكر المقدسي في أحسن التقاسيم سنة 375هـ/985م، عندما اتصل بأهلها: «أن أهل المغرب لا يكادون يعرفون إلا كتاب الله والموطأ»⁽¹⁾.

بينما اختارت منطقة وادي سوف سبيلاً آخر، فأوت أتباع المذهب الخارجي⁽²⁾ من الإباضية النكارية، ويومئذ رحل إليها بعض العلماء في القرن الرابع لمناظرة سكانها وردهم إلى أصول المذهب على نهج الوهبية⁽³⁾. ومن أولئك العلماء الأفذاذ: أبو نوح سعيد بن زنجيل⁽⁴⁾ الذي عرف بمناظراته مع المخالفين من المعتزلة والنكارية، ويدعو إلى الإباضية الوهبية، وشارك في معركة باغاي مع شيخه وصاحبه أبي خزر يغلا بن زلتاف سنة 358هـ/969م ضد المعز لدين الله الفاطمي، انتقاماً لشيخه الثاني أبي القاسم يزيد بن مخلد الذي قتله العبيديون. ولكن الثورة فشلت، وقبض على أبي نوح وأودع السجن لعدة سنوات إلى أن شفع فيه المنصور بن بلكين الصنهاجي. وعرف المعز مكانته وأكرمه وقربه. ولما عزم المعز على الرحيل النهائي إلى مصر، خاف أبو نوح أن يصطحبه معه، فاختم مرة ثانية، وتسلسل خارج البلاد، وهرب إلى ورجلان التي اتخذها موطناً إلى آخر عمره، يعظ أهلها ويذكرهم بأحكام الدين⁽⁵⁾.

وكان الشيخ على علاقة بسكان وادي سوف، وتربطه بهم أوامر المحبة، وقدم عليهم في رحلته من توزر نحو ورجلان، وكان قد اشترى جمالاً عددها نحو العشرين، أخذتها منه صنهاجة، فخرج نحو ورجلان. وذكرها الدرجيني في طبقاته: «... قال وسرنا حتى وصلنا سوف فاهتز أهلها جذلاً، وقد تقدم عندهم علم ما حل بالشيخ، فخرجوا يتلقونه بالترحيب مسرورين بسلامته مما كان فيه، فرحين بقدمه عليهم. فجعلوا يجمعون ما أمكنهم، ويحضر كل منهم ما قدر من المال الناطق والصامت ليحجروا مصابه. فقبل ذلك منهم ليقضي منه ما اعتقد أن ذمته به عامرة...»⁽⁶⁾. وقال الشماخي: «فلما بلغ سوف، أعانه أهلها بما قدروا عليه، فمن

(1) انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، ط3، القاهرة، 1991، ص 236.

(2) كانت بلاد الجريد بالمغرب الأدنى، وخصوصاً توزر ونقطة وقنطرة، تظهد أتباع المذهب الإباضي، فتأخذ أموالهم من الجبال والدينار، وتسجن العلماء المعارضين. انظر: سير الأئمة لأبي زكرياء، المرجع السابق، ص 243-244.

(3) نصر الدين وهابي، "سوف في المصادر الإباضية"، المرجع السابق، ص 20-21.

(4) سعيد بن زنجيل: أحد رجال العلم الكبار لدى الإباضية. نشأ وعاش في بلاد الجريد، وختم حياته بوارجلان بالجزائر. برع في فنون الفصاحة وعلوم البيان، وتمكن من سبل الجدل والرد على المخالفين، وكتب في علم العقائد. انظر:

غصن البان، المرجع السابق، ص 163-165، معجم أعلام الإباضية، ج2، ص 176-177.

(5) معجم أعلام الإباضية، ج2، ص 176-177.

(6) الدرجيني، طبقات المشايخ، ج1، ص 152.

معط دنانير، ومن معط حليا، ومن معط جمالا⁽¹⁾. وكان الشيخ متشددا مع المخالفين من النكارية، والمعاندين. ورفض مساعدتهم، وأبدى بغضه الذي تمكن من قلبه. وورد ذلك في الحوار مع أتباعه: «... قيل فجاءه رجل بدينار فدفعه إليه فتناوله، فقال له بعض من حضر: أتعرف من هذا؟ قال: لا، قال: إنه رجل نكاري، قال: ردوه. قال: فرجع، فقال خذ دينارك فقال لم؟ قال لأن النفوس طبعت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها. وإني لا أريد أن أحبك، فرده عليه»⁽²⁾.

والجدير بالذكر أن الدولة الصنهاجية الشرقية سقطت في تونس، وظل قسمها الثاني بالمغرب الأوسط ينبض بالحياة لمدة ثلاث سنوات ممثلة في دولة بني حماد الجزائرية الخالصة.

تاسعا: نهاية الدولة الصنهاجية:

وصلت الدولة في آخر عهدها إلى حالة من الضعف والشيخوخة، وآذنت بذهاب ريجها، وانتهاء عمرها، وعجلت الأسباب المتراكمة بذلك المصير، ويمكن ذكر ما يلي:

- الاختلافات بين الأمراء داخل الأسرة الحاكمة، والتنافس على الحكم، والانفصال بالأقاليم. وهذا شجع الطامعين بنفس السلوك، وحدث الانفصال في عدة جهات، جعلت الدولة عاجزة عن التحكم فيها، بل تحولت إلى خطر يهدد كيان وجودها. وكان الاحتكاك والقتال مع الدولة الحمادية على أشده بين الطرفين.
- هجمات الهلاليين الذين اجتاحتوا البلاد. وكانت توصية المستنصر الفاطمي بالانتقام، وتصدى لهم المعز فهزموه. وتخلّى لهم عن القيروان إلى المهديّة حتى ينقذ دولته. فاتبع معهم سياسة الملاطفة، وربط معهم عقد المصاهرة⁽³⁾.
- تزايد خطر النورمان⁽⁴⁾ وتوالت غاراتهم البحرية، ولاسيما في عهد الحسن بن علي.

(1) انظر: سير المشايخ، ج2، ص 539.

(2) أبو العباس الدرجيني، طبقات المشايخ، ج1، ص 152.

(3) عند الاجتياح الهلالي وجدت المدن الجنوبية في بلاد الجريد، ولاسيما توزر وقفصة، أن الفرصة سانحة لخلق الطاعة، والانفصال عن الصنهاجيين، أو إعطاء الولاء للحماديين، مثلما فعل أمير توزر. وكل ذلك كان يجري على مسمع ونظر سكان وادي سوف التي كانت خارج مجال الصراع، لأن عمرانها ما زال بدويا. وعندما وقع الصراع بين زناتة والهلاليين في عهد الحماديين، وخصوصا في سنة 449هـ/1058م، تم إجلاء بعض الزناتيين من التل إلى الصحراء في ورقلة وجنوب الزاب. ولا شك أن وادي سوف شهدت تلك الحركة الكبيرة. انظر: الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ص ص 263-289.

(4) النورمان: كانوا يحكمون إيطاليا وصقلية، وحاكمهم روجر الذي صادم الدولة الصنهاجية، وساهم في إسقاطها. انظر: الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ص ص 394-410.

وتمكنوا من احتلال المدن على التوالي. وبسبب تضيق الخناق على الدولة، وحاجته إلى القمح الصقلي، قبل الحسن بمعاهدة سنة 536هـ، وكان قبوله للشروط المجحفة. حتى ذكر بن أبي دينار أن الحسن «دخل تحت طاعته، وجعله عاملاً من عماله وهادنه هدنة مكر»⁽¹⁾. وأخذ النورمان يستولون على المدن مثل طرابلس. ونجحوا في احتلال العاصمة المهدية سنة 543هـ/1148م. ثم استولوا على سوسة و صفاقس⁽²⁾. وبذلك انتهت دولة بني زيري، وبقيت المهدية تحت حكمهم حتى حررها عبد المؤمن بن علي. ودخلت البلاد تحت حكم الموحدين يوم عاشوراء سنة 555هـ/1160م⁽³⁾.

(1) ابن ابي دينار، المؤنس، المرجع السابق، ص 91.

(2) انظر: رحلة التجاني، ص ص 277-78، الوزير السراج، مرجع السابق، ص 85، مبارك الميلي، المرجع السابق، ص ص 160-163، الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ص ص 394-410.

(3) الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ص ص 457.

المبحث الثاني

وضعية وادي سوف في عصر الدولة الحمادية

(405-547 هـ / 1014-1153 م)

كانت بلاد المغرب الأوسط في عهد الدولة الفاطمية تضم أربع ولايات⁽¹⁾ تتولاها بعض القبائل المحلية. ثم جمع ثلاث منها وهي: المسيلة وأشير وتيهرت في يد بلكين بن زيري⁽²⁾. وحينئذ صارت قبيلة صنهاجة تتولى القسم الغربي من الدولة العبيدية. وبعد هجرتهم إلى مصر، جلس بلكين في قصر ولاية إفريقية المنصورية، وغدا المغرب الأوسط تحت حكم الأمير الصنهاجي⁽³⁾، واستمر ذلك إلى عهد باديس بن المنصور الذي خالف وصية المعز لدين الله الفاطمي لجدّه بلكين⁽⁴⁾، وعهد إلى عمه حماد بن بلكين⁽⁵⁾ بولاية المغرب الأوسط. ويومئذ بدأت البلاد تشهد تحولا سياسيا معتبرا، ويمكن الوقوف على مراحلها الهامة:

أولا: تأسيس الدولة: مرت الدولة بمرحلتين أساسيتين، أولهما تحت المظلة الزيرية، والثانية

-
- (1) **الولايات الأربع:** ضم المغرب الأوسط في العهد الفاطمي الأول، أربع ولايات هي: المسيلة، وباغاية، وأشير، وتيهرت. انظر: عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 216.
 - (2) عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 220.
 - (3) عندما تولى بلكين الحكم واليا للفاطميين على بلاد المغرب، عهد بالمغرب الأوسط إلى ابنه المنصور، وكانت عاصمته أشير. وبوفاة بلكين، ظل المنصور منتقلا بين المنصورية وأشير.
 - (4) عندما أوصى المعز لدين الله خليفته على المغرب، بلكين بن زيري، وذلك عند انتقاله إلى مصر، فقال له: إن نسيت ما أوصيتك به، فلا تنس أربعة أشياء: إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية، والسيف عن البربر، ولا تول أحدا من إخوانك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بالأمر منك، وافعل مع أهل الحاضرة خيرا.
 - (5) **حماد بن بلكين:** (387-419هـ) نشأ بالقيروان، وتعلم بها الفقه، وتأدب بالأخلاق الفاضلة على شيوخها، وامتاز بصفات الحاكم القوي، وتحلى بالحكمة والدهاء، وعرف بالحزم والشجاعة، وهيأته تلك الخلال إلى تقلد زمام الأمور، ولاسيما عندما ولاه ابن أخيه المنصور على أشير والمسيلة سنة 386هـ، واتخذة درعا قويا لصد قبيلة زناتة ذات الولاء الأموي، وتحسبا لكل معارضة من آل زيري. فتولى ذلك بإخلاص، وتداول على حكم الولاية مع أخيه يطوف وعمه أبي البهار. وبعد موت المنصور، أقره باديس على الحكم وحده، وبقي مساعدا له في مختلف شؤونه. يستقدمه كلما احتاج إلى مشورته وخدمته. وكلفه سنة 395هـ بحرب زناتة. فاشترط عليه حماد أن يتولى المغرب الأوسط كله، وأن يضم كل ما يفتحه من بلاد، وأن لا يستقدمه إلى عاصمته، فوافق باديس. وكانت تلك أول إشارة للتحرر والاستقلال. انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 7، ص 485، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 230، عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 175، عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط2، القاهرة، 1991، ص ص 56-58.

لما خرجت عليها، وتمتعت بالاستقلال بالمغرب الأوسط:

أ- مرحلة الولاية والانفصال: بدأ حماد بن بلكين يتبوأ مواقع معتبرة في الحكم سنة 387هـ/997م عندما ولاه الأمير باديس على الجزائر الشرقية، وخصه بمنطقة أشير ونواحيها، ولقبه بنائب الأمير في ولايته. واستطاع بحنكته وقوة إرادته أن يخدم الثورات، ويسوس أموره بنجاح كبير. وبدأت نفسه تتوق إلى الاستقلال. وساعده عاملان أولهما: شيد القلعة سنة 398هـ/1007م، واهتم بتحصينها لمواجهة خصومه، وتحسبا للحروب التي تقوم معهم. وثانيهما: رفضه التنازل عن منطقتي تيجست وقسنطينة⁽¹⁾. وقام بنقض بيعة الفاطميين، وبايع العباسيين، وقتل الشيعة، ونصر مذهب أهل السنة. فواجه باديس بجيش قوامه ثلاثون ألف فارس تحركوا من القيروان سنة 405هـ/1014م، ووقعت معركة فاصلة الجأتها إلى قلعته التي حاصرها باديس مدة، ولكن موته المفاجئ فك الحصار⁽²⁾.

ب - مرحلة التأسيس والازدهار: تأسست الدولة الحمادية سنة 405هـ في القلعة لتكون الدولة الإسلامية الثانية في المغرب الأوسط - بعد الدولة الرستمية - ودخلت في حروب مع الدولة الصنهاجية في السنوات الأولى لعهد المعز بن باديس، والتي انتهت بالصلح بين الدولتين. ويومئذ تفرغ حماد لبناء دولته منذ 408هـ، وإرساء قواعد ملكه، وتثبيت حكمه في البلاد إلى زمن وفاته في رجب سنة 419هـ⁽³⁾.

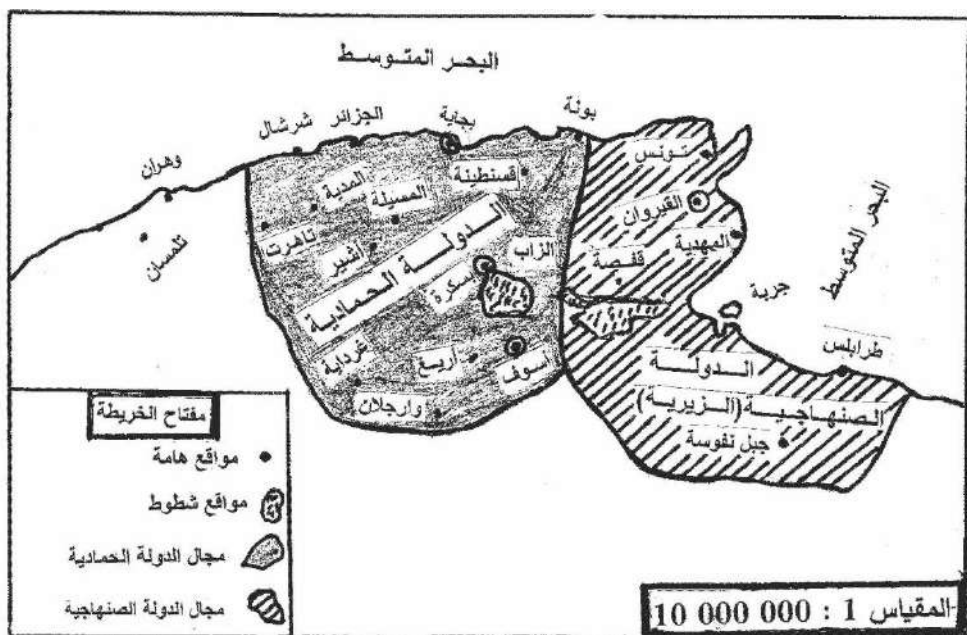
ثانيا: الامتداد الجغرافي للدولة: تركز حكم الحماديين في ولايتي الجزائر وقسنطينة وما يتبعها في مختلف الأطراف. وظل في تقلص أو امتداد حسب الظروف، وما خلفته آثار الحروب من حدود جديدة. وقد تحدث المراكشي عن يحيى بن العزيز - آخر ملوك الحماديين - فقال: «وكان يملك بجاية وأعمالها إلى موضع يعرف بسيوسيرات⁽⁴⁾. وهذا الموضع هو الحد فيما بينه

(1) عندما عين الخليفة الفاطمي المعز بن باديس لولاية العهد على صنهاجة سنة 403هـ، طلب باديس من عمه حماد أن يتنازل لولي العهد الجديد عن منطقتي تيجست وقسنطينة، فرفض رفضا قاطعا، واستعد لحربه. انظر: ابن خلدون، ج6، ص 228، عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 175.

(2) انظر: ابن خلدون، ج6، ص 227-228.

(3) انظر: ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 86-90، عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 175، عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج1، ص 276.

(4) سيوسيرات: ويقع في ناحية غرب بجاية، بالقرب من نهر مينة، أي إقليم سيق. وذكره ابن خلدون في مواطن بني يلومي، فقال سبدو سيرات، أو سيبك وسيرات. انظر: عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 175، عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج1، ص 276، عبد الخليم عويس، المرجع السابق، ص 81.



المراجع:

- 1- الأطلس العالمي، المعهد الوطني للتربوي، الجزائر، ص 30.
- 2- عادل أنور خضر، أطلس تاريخ الجزائر، ص 76-80.
- 3- عيد الواحد المراكشي، المعجب، المصدر السابق، ص 174.
- 4- عيد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 276-278.
- 5- سير الوسياتي، المصدر السابق، ج 1، ص 354-355.

موقع وادي سوف في نطاق الدولة الحمادية

وبين لمتونة⁽¹⁾. ووصلت حدود دولتهم الغربية إلى تلمسان وفاس، وشرقا إلى تونس والقيروان وبلاد الجريد، وجنوبا إلى بلاد الزاب ووادي ريغ وحتى ورجلان⁽²⁾. وكانت وادي سوف في ظل هذه الدولة، ويحدث الاحتكاك معها أحيانا، مثلما ذكر في سيرة العلامة عبد الله المنصور النصيري السوفي الذي قاتل جند حماد بن بلكين مدة شهر أو يزيد، بعد حصاره لقصر وغلانة في القرن الخامس الهجري⁽³⁾.

كما ثبتت المصادر الإباضية متانة العلاقات بين وادي ريغ وأهل سوف، ودوام النصح والتوجيه من علمائها. مما يدل على الالتئام للدولة الحمادية⁽⁴⁾.

ثالثا: الحياة السياسية: ظهرت الدولة الحمادية كدولة مستقلة في المغرب الأوسط. وأول حكامها هو حماد بن بلكين، وله تجربته في أجهزة الحكم في الدولة الزييرية. فتولى حاكما في ولاية أشير، وأثبت جدارة في الحكم، واشتهر بالحزم والصرامة والشجاعة. وله علم بالفقه، ويحسن الجدل، وتحلى بالتقوى. وعرف بصيام ثلاثة أشهر في السنة مع بساطته في المعيشة. وكان كريما على حلفائه، قاسيا على أعدائه، يحكم البلاد بنفسه. ودام حكمه عشر سنوات (408-419هـ)⁽⁵⁾. وتعاقب على العرش بعده ثمانية أمراء في مدة خمس وتسعين سنة، ما بين عامي 419-515 هـ. وهم ينتمون لعدة فروع:

- تفاوتت مدة حكم أمراء الدولة. فكان حكم القائد بن حماد (419-446هـ) لمدة سبع وعشرين سنة، بينما لم تتجاوز المدة سنة واحدة عند محسن بن القائد (446-447هـ). وحينها تحولت إلى فرع آخر، فتولى بلكين بن محمد بن حماد (447-454هـ) لمدة سبع سنوات فقط. ثم تحول الحكم إلى الفرع الثالث، والذي كان الحكم وراثيا صريحا، ينتقل من الوالد إلى ولده. وأولهم الناصر بن علناس (454-481هـ) لمدة سبع وعشرين سنة، وخلفة ابنه المنصور (481-498هـ) سبع عشرة سنة. وأما ابنه باديس بن المنصور (498هـ) فقد توفى في نفس

(1) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 174.

(2) انظر: عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 277، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 234-235.

(3) معجم أعلام الإباضية ج 2، ص ص 260-261.

(4) أبو الربيع الوسياني، سير الوسياني، تح عمر بن لقمان بن عصابة، نشر وزارة الثقافة، سلطنة عمان، 2009، ج 1، ص ص 354-355.

(5) رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وخصائصها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص ص 18-37.

السنة، فتولى ابنه العزيز (498-515هـ) مدة سبع وعشرين سنة، وختمها ابنه يحيى بن العزيز (515-547هـ) في مدة اثنتين وثلاثين سنة.

-عرف أكثرهم بالصرامة والحزم، والقسوة على المخالفين، وسفك الدماء، وقتل الأقارب والأعوان. ومنهم العزيز والمنصور اللذان اتصفا بالأخلاق والاعتدال، والزهد في الدنيا عند المنصور، بينما تداخلت الأخلاق السيئة مع الحسنه عند آخرهم: يحيى بن العزيز الذي كان ضعيفا، مقبلا على النساء والصيد، واللهو، رغم فصاحته وكتابته القيمة⁽¹⁾.

-عاشت الدولة اضطرابا سياسيا، وتنافسا شديدا على الحكم داخل الأسرة المالكة. فنجد الأمير محسن قتل أربعة من عمومته، وقُتل باديس مسموما، وقُتل الأميران محسن وبلكين اغتيلالا. وكانت الثورة من الأقارب على أشدها، فخرج يوسف على ابن أخيه محسن. إضافة إلى الحروب العديدة التي انهكت كاهل الدولة، وقامت بين الحماديين والزيريين، ومع قبائل زناتة وبني هلال، ومع المرابطين⁽²⁾ والصقليين، فضلا عن العلاقات المتأزمة مع أحد الطرفين من الفاطميين أو العباسيين.

-كان نظام الدولة وراثيا، على رأس الدولة أمير. وكان خاضعا في الولاء السياسي تارة للفاطميين وتارة أخرى للعباسيين. وكان حماد يسير البلاد بنفسه. ثم صار للدولة وزراء وعمال في مختلف النواحي. ولها إدارة مركزية، وقضاة، ونظام خاص للجيش والأسطول. وكان للدولة عاصمتان أساسيتان: القلعة أولا ثم بجاية. وعاصمة في الجنوب هي بسكرة⁽³⁾.

(1) رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص 37-102.

(2) **الدولة المرابطية:** وهي دولة بربرية أسستها قبيلة لمتونة، إحدى قبائل صنهاجة. واشتهرت باسم دولة الملمثيين، والمرابطين، لأن مؤسسها عاشوا في رباط منفصل في أعماق الصحراء وحتى أطراف السودان. ونشر الدعوة فيهم عبد الله بن ياسين الجزولي الذي جاء به الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي من سجلماسة، فأخرج الأتباع من الوثنية، وكون رباطا بوادي النيجر في حواف السنغال، فعرفوا بالمرابطين. وعلى أيديهم تأسست الدولة سنة 434هـ/1042م، ففتحوا بلاد الصحراء والمغرب الأقصى، وسيطروا على بلاد الأندلس، وتوسع ملكهم في عهد يوسف بن تاشفين سنة 465هـ/1073م الذي اتصل بالخليفة العباسي المقتدي، والذي وهبه الارتباط الروحي، وقلده ولاية المغرب والأندلس، ولقبه بناصر الدين. واستمرت الدولة في قوتها إلى أن سقطت على أيدي الموحدين سنة 541هـ/1147م. انظر: مبارك الميلي، المرجع السابق، 280-282، عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص 309-310، حمدي عبد المؤمن محمد حسين، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، 1997، ص ص 37-49.

(3) انظر: رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص 116-121، عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص ص 277-288.

- ظهرت إنجازات الحماديين الحضارية عند أمرائها الأقباء، وخصوصا الناصر بن علناس (454-481هـ) الذي اختط مدينة بجاية (الناصرية) ونسبت إليه وحملت اسمه⁽¹⁾. واعتنى بالعمران، وشجع الأدب والعلماء، وثبت الحكم لابنه المنصور الذي حكم البلاد فيما بين سنتي 481-498هـ. وعرفت البلاد بازدهارها، لأنه أدارها بحكمته، وأكمل عمل والده في توطيد أركان حكمها، وانتقل إلى بجاية سنة 483هـ⁽²⁾.

رابعا: الاجتياح العربي الهلالي للدولة الحمادية: أرسل المعز لدين الله الفاطمي القبائل العربية الهلالية⁽³⁾ من صعيد مصر إلى بلاد إفريقية للانتقام من صنهاجة. فاجتاحوا أراضيها كلية، وعجزت عن صدهم في التوغل جنوبا، والتقدم نحو بني حماد غربا. ولكن الدولة الحمادية تصدت لهم بمختلف الأساليب وأهمها:

- مساندة الدولة الصنهاجية في حربها للهلاليين. فأرسلت ألف فارس إلى القيروان شاركوا في معركة حيدران⁽⁴⁾، ولكنهم هزموا شر هزيمة، وولوا مدبرين. وقد سجل الشاعر الهلالي علي بن رزق الرياحي تلك الهزيمة في الأبيات التالية:

وإن ابن باديس لا حزم مالك ولكن لعمرى ما لديه رجال
ثلاثة آلاف لنا غلبت له ثلاثين ألفا إن ذا لنكالم⁽⁵⁾

- اختار الحماديون طريقا آخر للمواجهة. فاتصلوا بالفاطميين، وأعلنوا لهم الولاء من جديد، وخلعوا بيعة العباسيين السابقة، وكانوا يعتقدون أن موقفهم سوف يكفل بالنجاح في تأثير الفاطميين على منع الأعراب من تصرفاتهم الوحشية، والعمل على إيقاف زحفهم نحو

(1)الناصرية: أو بجاية هي العاصمة الثانية للحماديين. أمر بتشيدها الناصر بن علناس سنة 460هـ/1067م، وانتقل إليها في السنة الموالية، وأسقط عن سكانها الجباية والخراج، وأنشأ بها دارا لصناعة السفن والأساطيل البحرية، وجعلها متقنة العمران، بارزة بمعالمها الحضارية العريقة. انظر: عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج1، ص ص 282-283.

(2)انظر: مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 239-244، عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص ص 175-178.

(3)القبائل الهلالية التي اجتاحت بلاد إفريقية سنة 444هـ، هي: الأبيج ورياح وزغبة وقررة بن عبد مناف. وكلهم أبناء ربيعة بن نهبك بن هلال. انظر: مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 194.

(4)معركة حيدران: هي اسم جبل معروف قرب القيروان، شهد وقائع المعركة سنة 444هـ. وكان جيش المعز بن باديس قوامه ثلاثون ألفا، والجيش الهلالي يضم ثلاثة آلاف فارس. وانتهت المعركة بانهزام الجيش الصنهاجي المتعاون مع الحماديين. انظر: ابن خلدون، ج6، ص 21، رحلة التجاني، المرجع السابق، ص ص 54-56.

(5)نفسه، ص 56.

الدولة الحمادية. ولكن أملهم تبخر، وتواصلت حروبهم، وازدادت هجماتهم الحربية⁽¹⁾. فاتجه الحماديون إلى البحث عن حليف لهم.

- مناصرة الأمير الناصر بن علناس الحمادي لقبيلة الأثبج⁽²⁾ ضد قبيلتي رياح وزغبة الهلاليين⁽³⁾. فخرج الناصر سنة 457هـ/1065م إلى تونس يؤازره الأثبج وعدي وصنهاجة وزناته. ودارت الحرب مع جيوش تميم الذي دعمته قبيلتا رياح وزغبة بموقع يدعى فحص سببية غربي القيروان. وتم الغدر كما خطط له من الأطراف المختلفة. فتخلى العرب وزناته عن الناصر فانهمز جيشه، وقتل أخوه القاسم. فاضطر إلى التراجع نحو بلاده، وزحفت خلفه جموع الهلاليين من رياح وزغبة وغيرهم. وهو أول هجوم هلالي على المغرب الأوسط، فاقترحوا عليه مدينة قسنطينة التي اعتصم بها، واستولوا عليها، ثم اجتاحوا القلعة والمسيلة وطبنة، وعاثوا فيها فسادا. فسارع الناصر إلى بناء بجاية لتكون حصنا منيعا في دولته⁽⁴⁾. وكانت الصحراء الشمالية لوادي سوف - وتحديدًا منطقة تبسة - أحد المنافذ الأساسية للزحف الهلالي الذي انتشر جنوب الأوراس، وصبوا جام غضبهم على قرى الزاب⁽⁵⁾ التي توجد بها خيام زناته الخاضعة للحماديين، فتعاونت الأسرة الحزيرية الزناتية⁽⁶⁾ مع بني حماد، وتصدت لهجماتهم، ووقعت معارك طاحنة سجلها الهلاليون في أشعارهم، وقتل في إحداها أبو سعدى خليفة

(1) عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص ص 195-196.

(2) قبيلة الأثبج الهلالية، تتكون من عمائر: دريد، وكرفة، وعياض، والضحاك، ولطيف، والعمور، والعاصم، ومقدم. انظر: مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 194.

(3) خشى الأمير الصنهاجي تميم بن المعز من فوز الناصر بن علناس فيسلبه ملكه. فأمد قبيلتي رياح وزغبة بالمال والسلاح، وفي المقابل حذرت رياح وزغبة، قبيلة الأثبج من خطر الانتصار الحمادي الذي يستعين ببربر صنهاجة وزناته ويهلكهم. فوافقت الأثبج على الغدر عند قيام الحرب مقابل ثلث الغنيمة. كذلك اتفقت زناته مع الأثبج على الخديعة. انظر: مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 248.

(4) انظر: ابن خلدون، ج 6، ص 230، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 248-249، عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 1، ص 281، عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 196.

(5) والجددير بالذكر أن المغرب الأوسط لم يحدث به الخراب الهلالي الذي مس تونس وطرابلس، لأن الحرب اشتدت بالصحراء التي عرفت بقلة عمرانها وبدواة سكانها. انظر: مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 186.

(6) كانت رئاسة زناته في يد أمراء تلمسان من بني يعلى المغراويين. وكان رئيسهم يحيى من بني يعلى الذي استطاع جمع جيش كبير من مغراوة ويفرن وبني يلومي وبني عبد الواد وبني راشد وبني توجين وبني مرين وغيرهم من زناته، وولى عليهم وزيره أبا سعدى اليفرنى. انظر: مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 250، عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 196.

اليفرني في بلاد الزاب⁽¹⁾. وانساب القبائل الهلالية في المغرب الأوسط، وازداد خطرهم، ولم يجد الحماديون بدا من التفاهم مع صنهاجة. وتمتنت الصلات عندما قبل تميم بن المعز بتزويج ابنته بلارة إلى الناصر الحمادي سنة 470هـ/1077م. وكان سببا في التقارب. وظلت علاقة الأعراب الهلاليين مع بني حماد تتراوح بين الهدوء والتنازع إلى أن سقطت البلاد في يد الموحدين⁽²⁾.

خامسا: سيرة بني هلال والحقيقة التاريخية:

ارتبطت مسيرة بني هلال بسيرتهم⁽³⁾ التي روتها كتب الأدب والتاريخ وتغريبتهم التي كان لها الشهرة الكبيرة منذ خروجهم من بلاد الحجاز، ووصولهم إلى بلاد المغرب الإسلامي. وامتزجت حياتهم في تلك الكتابات المتعددة بالأسطورة والخيال. وحرص كل قوم على ربط الهلاليين بمنطقتهم في المغرب الأدنى والأوسط بالخصوص، وتعداه إلى إفريقيا جنوب الصحراء. وتكاد تنحصر قصتهم في عميرة دريد التي تولى رئاستها الحسن بن سرحان⁽⁴⁾. وهو شقيق الجازية بنت سرحان التي كانت البؤرة المحورية في وقائع القصة، وعرفت بجهاها الفتان، وحكمتها البليغة، وحسن التدبير والمشورة في قومها، فتسابق نحوها الأبطال يتغون ودها، ويطلبون يدها⁽⁵⁾، فتزوجها في البداية الشريف بن هاشم⁽⁶⁾ ولكنها فضلت شظف العيش، والتنقل والترحال، وحدث الفراق بينهما، وهاجرت مع قومها في رحلتهم التاريخية، وتزوجها ماضي بن مقرب الدريدي⁽⁷⁾. ولكن القصص الشعبي طور حياة الجازية، وكل ناحية تربطها ببطل من المحبين المغرمين بها. وعدها ابن خلدون من المخترعات التي تشبه قصص العرب

(1) انظر: ابن خلدون، ج 6، ص 27، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 183.

(2) انظر: عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص ص 283-287، عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص ص 196-197.

(3) انظر: سيرة بني هلال، تقديم روزلين ليلي قريش، موفم للنشر، الجزائر، 1988، جزآن.

(4) ذكره ابن خلدون في معرض الثناء عن العرب بقوله: ((... وكان في هؤلاء العرب لعهد دخولهم إفريقية رجالات مذكورون. وكان من أشرفهم حسن بن سرحان وأخوه بدر وفضل بن ناهض، وينسبون هؤلاء في دريد بن الأثيج...)). انظر: ابن خلدون، المرجع السابق، ج 6، ص ص 22-23.

(5) محمد المرزوقي، على هامش السيرة الهلالية- دراسة ونماذج، سراس للنشر، 2002، تونس، ص 48.

(6) الشريف بن هاشم: هو شكر بن أبي الفتوح، وينتهي نسبه إلى عبد الله بن إدريس الشريف الهاشمي. حكم مكة ما بين عامي 430-453هـ، وتولى بعده ابنه محمد بن شكر، وهو ابنه من الجازية الهلالية. انظر: ابن خلدون، ج 6، ص ص 25-26، محمد المرزوقي، المرجع السابق، ص ص 38-39.

(7) ابن خلدون، ج 6، ص 26.

في مجالها المعروف. ومما ذكره في هذا المضمار: (ويتناقلون من أخبارها في ذلك ما يعني عن خبر قيس وكثير. ويروون كثيرا من أشعارها محكمة المباني متفقة الأطراف، وفيها المطبوع والمنتحل والمصنوع...) (1). ويجعلها بعضهم من نصيب ذياب بن غانم الزغبى الذي دافع عن القبيلة، وقهر الزناتي وتزوجها، وعاش معها أجهل أيامه (2). وتذكر الروايات الشعبية التي انتشرت في وادي سوف تلك الأشعار، مؤكدة على تلك العلاقة. ومما قالته الجازية لذياب:

لجواد لبسوا ثيابهم يا ذياب ولبسوا ثياب من الحديد اغراه
لا خير في اللي يلبس الوزره ولا خير في اللي ماشيين وراه

ولكن كلمات ذياب الهلالي فيها مسحة دينية، وتعبير بليغ عن تمسك الجازية بالدين، وهو الغزل العفيف الذي يؤكد الرؤية الشعبية في زواجه، وأجابها بقوله:

ما تغبطني كان من يصوم ويصلي ويعطي من مال القليل زكاه
ولا فارس في عروبتة مسمي كل فتنة جايب قليعه تقود معاه
البركوس يفوز بجزته يا الجازية والراجل يفوز بقطعه وثناه
يلعن اللي ما يداري ضيفه يا الجازية والقلب صابر على قضا مولاه
يلعن اللي ما يداري جماعته يا الجازية لو كان عروق البساس عيشته وغداه (3)

ولكن الروايات الأخرى تصوره عدوا للجازية وأخيها، فقد قبض الحسن بن سرحان على ذياب الهلالي، وأودعه السجن، وهذا دفعه إلى تحريض أولاد شبانة على قتل ابن سرحان، (4) فاندلعت الحرب بين أبناء سرحان وذياب، وتقابلت الجازية في ساحة الحرب مع ذياب وهي متنكرة، فصرعها وهو لا يدري، فندم على ذلك أشد الندم، ويُعتقد أن قبرها في نواحي الأوراس، وبموتها تنتهي أحداث السيرة الهلالية، كأنها هي المحرك الأساسي لأحداثها. (5)

(1) ابن خلدون، ج6، ص 25.

(2) محمد المرزوقي، المرجع السابق، ص 40.

(3) مصطفى سامي، الدر المصفي، جمع وتصنيف وتحقيق على غنابزية، مخ، 1999، ص 168.

(4) ذكر ابن خلدون الفتنة التي وقعت بين قبائل الإثنج بسبب الصراع عندما حلوا بإفريقية، فقتل الحسن بن سرحان غيلة، شبانة بن الأحمير من عميرة كرفة، فاجتمعت قرة وكرفة وعياض ضده، واستطاع أبناء شبانة أن يتنقموا لوالدهم، فقتلوا الحسن بن سرحان. انظر: ابن خلدون، المرجع السابق، ص 31، محمد المرزوقي، المرجع السابق، ص ص 34-36.

(5) محمد المرزوقي، المرجع السابق، ص ص 42-50.

وقد أكدت بعض الروايات، ولاسيما في مناطق اشتداد الصراع بين الهلاليين وقبيلة زناتة⁽¹⁾ على الدور البطولي للزناتي خليفة الذي صورته رواة السيرة في وادي سوف بطلا مغوارا، كما ذكره العدواني. «وكان رجلا من قومنا اسمه خليفة بن عمارة وكان ذا حسن وجمال، وكان صاحب سطوة وفروسية، وكان صاحب أشعار وكلام ظريف...»⁽²⁾، خرج يبحث عن إبله في الصحراء قرب طرابلس، فالتقى بموكب الجازية الهلالية، «وكانت ذات حسن وجمال، وقد واعتدال، وبهاء وكمال»⁽³⁾، والتي رفضت كل الخطاب من بني عمها، وأعجبت بخليفة الزناتي التارقي لما قابلها في الصحراء مع وصيفاتها وهن يرجلن شعرها. ودار بينهما حوار لطيف، حدث فيه ود وتوافق، وضرب فيه موعد للقاء. ومما دار من كلام ينم عن قبول من الجازية لخليفة، وشبهت نفسها بالناقاة التي يبحث عنها من يستحقها: «قالت لي صاحبة الرأي منهم: فإنك لا تقدر على زمام الناقاة وعقالها! قال، قلت لها: أقدر - إن شاء الله - فإنني خليفة الزناتي! ألم تعرفي اسمي، واسمي شائع وذائع في جميع الأوطان؟ قالت أنت خليفة! قال، قلت لها: نعم! قالت لي: انطلق إلى غد، وارجع إلى هذه الشجرة»⁽⁴⁾. ويصور المشهد معركة في اليوم الموالي واجه فيها خليفة مائة من خطاب الجازية، وقتل ابن عمها الذي كان أكثرهم شغفا ورغبة فيها، وأردى آخرين منهم، واشتركت الجازية معه في قتالهم⁽⁵⁾. وهو تصوير للجازية في موضع الاستكانة لخليفة، والتسليم في قومها، وتفضيل الغريب التي لقيته صدفة، وتعلقت به إلى حد الوله الذي أنساها نخوتها العربية. وهي مبالغة من الراوي الذي يريد إظهار تفوق البربر في مواجهة العرب الوافدين. وهي وجهة النظر الزناتية في رواية الرحلة الهلالية. وتتجلى من

(1) كانت المراعي الخصبة، ووجود الماء، وتوفر ضرورات الحياة سببا هاما في محاربة زناتة التي تصدت للهلاليين دفاعا عن أراضيها ومراعيها وحياتها المستقرة. انظر: بوخالفة عزي، تغريبة بني هلال بين التاريخ والروايات الشفهية الهلالية الجزائرية. رسالة دكتوراه تحت إشراف الدكتورة روزلين ليلي قريش، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، السنة الجامعية، 2002-2003، نسخة إلكترونية ديسمبر 2010، ص 152.

(2) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 153.

(3) تعرف الجازية بوادي سوف باسم الزازية والجازية. وقد تقدم لها الخطاب من بني عمها على كل المستويات الاجتماعية، فرفضت الزواج منهم، وتعلق قلبها بخليفة الزناتي، وحدثت علاقة عاطفية. وهذا ما انفردت به الروايات الجزائرية ذات الأصل الزناتي البربري. وتناقله الرواة في وادي سوف، ومنطقة البابور بسطيف، ومنطقة فرندة قرب تيهرت. انظر: محمد العدواني، المرجع السابق، ص 153، إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ص 51، تغريبة بني هلال بين التاريخ والروايات الشفهية الهلالية الجزائرية، ص 165.

(4) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 154.

(5) نفسه، ص ص 155-156.

خلالها رواسب الثقافة الشعبية التي تناقلتها الأجيال الزناتية التي عمرت وادي سوف منذ النصف الأول من القرن السادس الهجري.

أما الروايات التونسية - المتأثرة بالروايات الهلالية - فإنها تصور خليفة الزناتي الحاكم المتصرف في إفريقية. وهو: «الجبار العاني كما تصفه الأسطورة. وقف وقفة الصمود أمام الجراد المنتشر المتمثل في قبائل هلال يكتسح أرضها اكتساحا، لا يرده شيء، ولا تقف أمامه عقبة. فدافع وناضل عن وطنه، ونال انتصارات في وقائع متعددة، ولكنه سقط أخيرا أمام رمح ذياب⁽¹⁾ الذي لا يخطيء...»⁽²⁾. وجل الروايات الجزائرية ترجع قتل ذياب له بسبب اضطهاده للهلاليين والتصديق عليهم في أسباب الحياة، وأراد التقرب من الجازية، زوج ذياب الغائب⁽³⁾. وذكر ابن عامر مكان قتله في بحيرة نيني قرب عين البيضاء: «فقتل ذياب خليفة هناك وجرح فرسه البيضاء⁽⁴⁾ جرحا بليغا صارت تنن منه، فقال لها قائدها (نيني يا البيضاء نيني). ثم ماتت في العين التي شمال الجبل بانحراف إلى الشرق فسمي ذلك المحل عين البيضاء. وبنيت فيه قرية تسمى بذلك المحل، هي الآن أهلة عامرة عمارة قوية»⁽⁵⁾.

وتربط الرواية الشعبية في وادي*سوف بين خليفة الزناتي ونواة تأسيس بلدة حاسي خليفة⁽⁶⁾ أثناء الصراع في صحراء سوف بين بني هلال القادمين من إفريقية وقبيلة زناتة التي تجوب تلك الفيافي.

ومما ذكره ابن عامر: «... حكى أن بني هلال حين دخلوا إفريقية، مكثوا فيها زمنا طويلا

(1) تؤكد تغريبة بني هلال أن قاتل خليفة الزناتي هو ذياب الزغبي الهلالي في أرض تونس. لأنه حاربهم ومنع استقرارهم. انظر: تغريبة بني هلال بين التاريخ والروايات الشفهية الهلالية الجزائرية، ص 152.

(2) محمد المرزوقي، المرجع السابق، ص 46.

(3) انظر: تغريبة بني هلال بين التاريخ والروايات الشفهية الهلالية الجزائرية، ص 152.

(4) قيل في الروايات الشعبية الجزائرية أن فرس ذياب الهلالي البيضاء أو الشهباء وردت إلى العين القريبة من ذلك المكان، فسجلت حدثا حمل المكان اسمها. والجازية مدفونة بالبابور بالقرب من خليفة الزناتي. انظر: تغريبة بني هلال بين التاريخ والروايات الشفهية الهلالية الجزائرية، ص 159.

(5) إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ص 76.

(6) حاسي خليفة: بلدة تقع في الشمال الشرقي من الوادي على بعد 30 كم. والحاسي هي البئر، وتصغر بلفظ حاسي. وسميت بذلك لأن أول تأسيسها هو حفر البئر الأولى. ويؤكد العدواني في كلام عابر عند ذكره لتنتقل السكان من هذا الموضع إلى بلدة أفركان، فيقول: «... نزلنا بحسي خليفة الزناتي...». فتجزم الروايات الشعبية المتواترة عن نسبته إلى خليفة المقصود. وبعد مدة تعرضت البئر للخراب، وبقي التاريخ حافظا للاسم في موقع حاسي خليفة إلى يومنا هذا. انظر: محمد العدواني، المرجع السابق، ص 129.

ثم انتقلوا حتى وصلوا أرض سوف، ووجدوا بها الزناتية، ومن جعلتهم خليفة الزناتي المشهور، فتحاربوا هناك، وحفر خليفة المذكور بئرا بقرب الغوط الآن يسمى باسمه إلى هذا الوقت يقال له (احسي خليفة)... ثم طرد الهلاليون الزناتيين إلى وادي الزناتي⁽¹⁾ (ونواحيه)⁽²⁾. أما الرواية التاريخية التي يعرضها ابن خلدون، فخليفة هو ابن سعدي اليفرني⁽³⁾ الذي قتله الهلاليون في الزاب لأنه حاربهم. ولم تحدد الكتابات التاريخية القاتل بشخصه، واكتفت بهزيمة البطل، وتفرق زناتة في أطراف الصحراء المتاخمة لبلاد الزاب⁽⁴⁾. (ولولا وجود القبائل الهلالية التي شغلت صنهاجة بحروبها، لقضي على زناتة في أرض المغرب)⁽⁵⁾.

ولا شك أن الهجرة الهلالية تركت أثرها البارز في حياة البربر، وساهمت في التعريب الكامل للسكان، وتغيير اللسان البربري الذي كان طاغيا على اللسان العربي، ولا سيما في الأرياف والمدن. كما دعم العرب الطابع البدوي، والنشاط الرعوي الموروث من قدماء الأمازيغ، فضلا عن نشر القيم العربية الأصيلة، ونظم الشعر العربي الملحون⁽⁶⁾ الذي لم يكن غريبا عن البربر الذين نبغوا في نظمه بالأمازيغية قبل القرن الخامس الهجري.

سادسا: المغرب الأوسط من الأمازيغية إلى التعريب:

بدأت المجتمعات المغربية تتعرب منذ السنين الأولى للفتح الإسلامي. وقد اتقن علماء

(1) وادي الزناتي: تقع بالشمال الشرقي للجزائر. وهي إحدى دوائر ولاية قلمة. شهدت المنطقة قديما تمركز جيش خليفة الزناتي، فسمي المكان باسمه. ولا يستبعد أن المنطقة شهدت معارك الهلاليين وزناتة. ويذكر ابن خلدون أن المستنصر الفاطمي لما بعث الهلاليين إلى إفريقية، عقد لهم على أمصارها وثورها، وكان نصيب الحسن بن سرحان منطقة قسنطينة. انظر: ابن خلدون، ج6، ص26، بوخالفة عزي، المرجع السابق، ص ص 160-161.

(2) إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ص 74.

(3) خليفة الزناتي: هو عند صاحب الصروف يدعى أبا سعيد الفترى، وكان وزيرا لابن خزر، حاكم تلمسان. فكلفه بقيادة جيش أرسله لقتال الهلاليين بنواحي الزاب. فانهزم جنده، وقتل خليفة بنواحي بلاد الزاب التي يصير العوامر على تحديدها في الصحراء القبلية بأرض وادي سوف. ويستند في ذلك على تغرية بني هلال التي لمحت لذلك. وفي تلك الإشارة تمهيد للحوادث الواردة في كتاب الصروف، والتي تجعل من زناتة الفاعل الأساسي في تعمير منطقة وادي سوف بعد انتهاء المعارك الأولى مع الهلاليين، واضطرار بعض الزناتيين إلى الاستقرار بوادي سوف هروبا من الفتن والقتال والحروب المشتعلة في الشمال بسبب شدة القبائل الهلالية. انظر: ابن خلدون، ج6، ص 27. إبراهيم بن عامر، ص 59.

(4) انظر: ابن خلدون، ج6، ص 27، إبراهيم بن عامر، ص 59.

(5) عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص ص 136-137.

(6) انظر: عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص 236، عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 197، بوخالفة عزي، المرجع السابق، ص 152.

البربر اللغة العربية في زمن مبكر نتيجة احتكاكهم الشديد بالعرب في الحواضر العلمية، وتلقي مختلف المعارف والعلوم والآداب والفنون أثناء رحلاتهم لطلب العلم، وخلال هجراتهم لأداء فريضة الحج. ومثلت مناطق الصحراء الجنوبية - في بلاد الجريد، ووادي سوف، ووادي ريغ، وورجلان - أهم المحطات العلمية التي كتب فيها العلماء مخطوطاتهم باللغة العربية الفصيحة رغم شيوع اللهجة البربرية في لغة التخاطب اليومية حتى القرنين الثاني والثالث الهجريين. وألف علماء الإباضية بالخصوص في علوم الدين والجدل⁽¹⁾. وحيث مثلت وادي ريغ عمقا علميا لوادي سوف - إن لم تكن امتدادا عضويا في كيانها السياسي -، وعرفت بالكتابات العربية المحضة منذ القرن الخامس الهجري. ومن أشهر علمائها: أبو بكر بن محمد الزواغي النميلي الريغي (ت 431هـ/1039م) وأحد المؤلفين السبعة لديوان الأشياخ⁽²⁾، والشيخ أبو إبراهيم إسماعيل بن بيدر الهواري الريغي (450-500هـ) وله كتاب الصلاة من ديوان العزابة، ويعتبر من أمهات الفقه الإباضي⁽³⁾. ومثلت الكتابات الدينية لأبي عمرو عثمان بن خليفة السوفي أهم الدلائل على رسوخ قدم العربية كلغة للتعليم والكتابة العلمية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري.

ويومئذ انحسرت اللهجة البربرية في التعبير عن حياة الناس، وتجلت في الشعر الشعبي الذي كان موازيا للشعر الفصيح، مثلما كشفت عن ذلك حياة الشيخ أبي عثمان سعيد بن سليمان الدرجيني في القرن السادس الهجري⁽⁴⁾. وجمع بعض العلماء بين الكتابة باللغتين وفق مقتضيات الحال⁽⁵⁾.

(1) إبراهيم بحاز، المرجع السابق، ص ص 342-345.

(2) معجم أعلام الإباضية، ج2، المرجع السابق، ص 89.

(3) انظر: أبا العباس الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ط2، ص ص 279-280، معجم أعلام الإباضية، ج2، المرجع السابق، ص 89.

(4) كان الشيخ سعيد بن سليمان الدرجيني ينظم الشعر بالفصحى، بينما يغلب على والده سليمان نظم الشعر الملحون باللهجة البربرية. وكان حفيده أحمد صاحب طبقات المشايخ بالمغرب، أحسن من والده في الشعر العربي. وقال الشيخ سعيد لابنه: «أنت أشعر مني وأنا أشعر من والدي». انظر: أبا العباس الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ط2، ص ص 284-286، معجم أعلام الإباضية، ج2، المرجع السابق، ص ص 177-178.

(5) كان الشيخ يعقوب يوسف بن محمد الوسياني (ق6هـ/12م) يتلقى العلم عن علماء ورجلان. وقد أملى بالعربية كتاب السؤالات لأبي عمرو عثمان بن خليفة السوفي، وترك كتابا ألفه بالبربرية يعرف بالتقييد في أشعار الأشياخ بالبربرية. انظر: انظر: معجم أعلام الإباضية، ج2، المرجع السابق، ص 493.

والجدير بالتنويه أن المرأة كانت راوية للشعر الشعبي، وخصوصا عند سارة اللواتية بوادي سوف⁽¹⁾. وفي المجتمعات الإباضية المجاورة، عرفت النساء بقوة الحافظة⁽²⁾ وقرظ الشعر، ولاسيما حول الحياة الآخرة⁽³⁾.

وعندما حكمت الدولة الحمادية بلاد المغرب الأوسط، صار البربر يزاحمون العرب في اللغة العربية، ويناظرون الفقهاء في قواعد الأصول وفروع الفقه وعلم الكلام⁽⁴⁾. ولا شك أن الهجرات الهلالية ساهمت في تعريب اللهجة الشعبية التي تداخلت مع الأمازيغية، وظهرت بشكل جلي في اللهجة العامية التي تغطي عليها العروبة، وطبعت المغرب الأوسط بلغة التنزيل التي أخذت بشغاف القلوب، ولم يختر السكان عنها بديلا.

سابعا: الحياة الاقتصادية:

كان المغرب الأوسط مزدهرا اقتصاديا في عهد الحمادين بسبب تنوع مجالاته، وثوراته الفلاحية والحيوانية، والمعادن، والشواطئ الساحلية التي ترتبط مع العالم الخارجي⁽⁵⁾. وينتج زراعيًا، الحبوب من القمح والشعير في كل الجزائر، وخاصة قسنطينة، قال الإدريسي: «والحنطة تقيم بها في مطاميرها مائة سنة لا تفسد»⁽⁶⁾. وتنتج أيضا الكروم والتين والجوز واللوز والتفاح والنباتات النسيجية كالقطن والكتان والنباتات الطبية. وكانت بسكرة تنتج الزيتون في طولقة وبنطوس، والتمور في طولقة وطبنة ونقاوس والمسيلة. وجاء في قصيدة أحمد بن محمد المرودي:

ثم أتى بسكرة النخيل * قد اغتدى في زيه الجميل⁽⁷⁾

(1) معجم أعلام الإباضية، ج2، المرجع السابق، ص 166.

(2) أم يحيى تكسليت: عاشت بجبل نفوسة في القرن الثالث الهجري. وعرفت بقوة حفظها للشعر، وحفظت كتاب الخليل الصالح. وقالت لأهلها وهي عجوز، لما تعذر الحصول على الكتاب: «من أراد أن ينسخ فليكتب». فأملته على قومها من ذاكرتها. انظر: معجم أعلام الإباضية، ج2، المرجع السابق، ص 105.

(3) منزوبنت أبي عثمان المزاتي: (ق3هـ/9م). كانت مثالا للورع والتقوى، وضمنت تربيتها العالية في شعرها بالبربرية، ويدور حول يوم القيامة، وحياة الإنسان بعد الموت في عالم البرزخ، فضلا عن عبارات الوعظ والتذكير. انظر: أبا العباس الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ط2، ص ص 124-127، معجم أعلام الإباضية، ج2، المرجع السابق، ص 424.

(4) عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص 247.

(5) نفسه، ص 224.

(6) الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، تصحيح هنري بيريس، نشر كلية الآداب، جامعة الجزائر، 1957، ص 67.

(7) رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص ص 129-134.

وأمام هذا الثراء الاقتصادي في بلاد الزاب، بعاصمة الجنوب بسكرة، لم تكن وادي سوف تتمتع بنفس المكانة، بل تغلب عليها حياة البداوة، وتنقل الرعاة والسكان، واستيراد التمر من المناطق القريبة، ولاسيما بسكرة التي ذكرها الإدريسي. وبسكرة فيها «من التمر كل غريبة وطريفة»⁽¹⁾. فكانت القوافل سيارة من وادي سوف إلى مختلف المناطق، لتوفير كل ما يحتاجه المنطقة، رغم سطو اللصوص وبغي قطاع الطرق.

والدولة كانت مزدهرة الصناعة، ومنها الاستخراجية، من حديد وفضة ونحاس، وملح. وبها صناعة السفن في بجاية وبونة، والنسيج، والملابس، والفخار والخزف والزجاج. ولها تجارة مع أهم المدن الداخلية والخارجية مع البلدان البحرية المجاورة والبعيدة مثل: مصر والهند والأندلس والجمهورية الإيطالية⁽²⁾.

ووصف الإدريسي العاصمة بجاية وأثنى عليها في الوصف، فقال: «ومدينة بجاية في وقتنا هذا، مدينة الغرب (كذا) الأوسط، وعين بلاد بني حماد، والسفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة... وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق»⁽³⁾.

ثامنا: الحياة الاجتماعية بوادي سوف:

كانت الحياة الاجتماعية بسيطة، ملازمة لبساطة الصحراء. تعتمد على الطبيعة في شتى شؤونها. ويمثل الصيد أحد مصادر العيش وأسباب الرزق. وكانوا يتخذون المنداف (الفخ) لصيد الحيوانات البرية. وتحدث الفقهاء عن مسائل عند اختلاط الفرائس التي تم صيدها. كما يخرج أهلها للاحتطاب، ويتبعون أماكن وجود الأشجار التي تمثل مصدر الخطب،⁽⁴⁾ الضروري للوقود في طعامهم وسائر شؤونهم، من شجر الأزال والرتم والزيتا، والمرخ وغيرها.⁽⁵⁾

كما تتكون الأسر في سوف من الزوجات والإماء اللواتي يعشن في البيوت، ويترتب على الحياة مسائل، طرحت على فقهاء البلدة، وصدرت فيها أحكاما فقهية، وفتاوى صريحة. إضافة

(1) الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص 67.

(2) رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص ص 135-150.

(3) الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص 63.

(4) مؤلف مجهول، كتاب المعلقات، ص ص 140-148.

(5) إبراهيم العوامر، الصروف، ط 1، 1977، ص ص 53-54.

إلى معاناة المجتمع من الضرائب، التي تجمعها السلطة، وترسل من يجمعها، ويحدث فيها الظلم والجهور في بعض الأحيان، كما أشار إلى ذلك صاحب المعلقات. (1)

لقد كان العنصر الإباضي فاعلا في المجتمع في أسوف، واشتهر بصفات كريمة، عرف بها الأعيان والوجهاء، وتعدى ذلك إلى طبقة الفقراء، وكانت الأحكام تستند إلى العرف السائد، والأخذ بوصايا شيوخ العزابة في مركزهم بأجلو بوادي ريغ.

ومما يجدر الإشادة به، الشيخ زيري بن لقمان الورزمري الإباضي. كان أحد أعيان وادي سوف وأثريائها. وعاش في النصف الأول من القرن الخامس. وربطته علاقة صداقة وتعاون مع أهل أريغ. وكان يتقدم لهم بالنصح كلما وجد إلى ذلك سبيلا. وعرف بوقفته الشجاعة عندما حاصر وغلانة يوسف بن مخلوف الزناتي⁽²⁾ من صنهجة، فنصحهم بفك الحصار عنهم، لأن المنتصر بن خزرون⁽³⁾ قادم نحوهم. وهو الذي يجب التصدي لهجماته. فلقيت كلمته قبولا، وفك يوسف الحصار. وكفى الله أهل وغلانة شر الفتك والدمار⁽⁴⁾.

وعندما كان زيري بن لقمان في كامل قوته وسخائه، أوصى بألف دينار لضعفاء أهل الدعوة. وبلغ خبره أهل وغلانة - للصداقة التي كانت بينهم - فقدم رجل منهم إلى وادي سوف ويدعى يوسف بن تسجاست اليراسني، وطلب منهم تنفيذ الوصية، فمكنوه منها. فتصرف بها بالصدقة المطلوبة، وأخذ شيئا لنفسه، ورد لهم ما بقي. ولكن فعلته عدت في المجتمع من الأخطاء التي دفعت شيوخ آجلو بأريغ إلى الاجتماع حول ما وقع، وأدانوا فعلته. وهذا دفعه إلى التوبة - والتوسل لهم عند باب المسجد - للصفح عنه.

وهنا ندرك مكانة النظام الاجتماعي السائد عندهم في تلك القرى، والالتزام عند أهل المذهب. ولكن انتظارهم الحكم لدى الشيخ أبي زكرياء يحيى بن الشيخ ويحمن الهواري،

(1) مؤلف مجهول، كتاب المعلقات، ص ص 141-142.

(2) وذكر باسم يوسف بن خلف، وهو من صنهجة، وعينه الناصر بن علناس الحمادي واليا على قسطيلية ببلاد الجريد. انظر: رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص 61.

(3) المنتصر بن خزرون الزناتي: خرج من مصر في أيام الفتنة التي وقعت بين الترك والمغاربة. ونزل طرابلس التي وجد بها قبيلة بني عدي التي طردت من إفريقية من قبل الإثبيج وزغبة، فشحجهم على غزو المغرب، فقادهم حتى دخل المسيلة، واستولى على أشير، وحينها خرج له الناصر الحمادي، ففر إلى الصحراء - ويحتمل أنها صحراء سوف - وكان منها يغزو بلاد الزاب، فطلب منه الناصر الصلح، وأقطع نواحي الزاب، ولكنه - في المقابل - طلب من حاكم الزاب عروس بن سندي أن يقتله، فدبر له مكيدة، وأعد له طعاما، وأمر من طعنه غيلة. فهرب أتباعه، وانتهى أمره. انظر: رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص 71.

(4) الوسياني، المصدر السابق، ج 1، ص ص 354-355.

والذي أصدر حكماً قاسياً، فقال لذلك المذنب: «أبعدنا، لا جمعنا الله وإياك ومعك ولو في الجنة». ولا تصح توبتك حتى ترد مال ضعفاء المسلمين⁽¹⁾.

وكان للشيوخ مكانتهم في رد الحقوق إلى أصحابها، ومنع الظلم والجور، ولو كان من الحكام والعظماء. وحدث ذلك عندما استولى زيري بن محسن المغراوي على قافلة لأهل سوف، وكان مخالفاً لهم في المذهب، التجأ أصحاب القافلة إلى الشيخ ماكسن بن الخير⁽²⁾، فقصده زيري، ورد القافلة إلى أصحابها، بعد أن قدم له النصيح، وأعلمه أن الرزق الحلال الذي يناله بالكد والجد هو الرأي السديد⁽³⁾.

كما عرف المجتمع بالكرم والجود، ولو من الأطفال. ومما ذكر عن فضل أبي جدرون⁽⁴⁾ مع العزابة وهو لا يزال طفلاً يافعاً، فصنع لهم طعاماً. ولكنهم توقفوا وامتنعوا عن أكله، فقال لهم الطفل: «سمعت من جدي أن الطفل إذا كان يفرز بين الجنة والنار يؤكل طعامه»⁽⁵⁾. وما فعله الرجل الراعي الساكن في صحراء سوف، والذي لا يملك إلا عنزة وولدها وبكرة (ناقة) عرجاء، فقصده رجلاً من العزابة، وكانت زوجته غائبة، فاستضافهم مرحباً أحسن ترحيب. وذبح العنزة، وطبخ الطعام، وقدمه إليهم، وأكل هو من فؤاده. ولما استيقظ صباحاً، وخرج ممتطئاً بكرته، أكرمه الله بقوم، حضهم على الصدقة، فجمعوا له ثلاثمائة دينار، وملأوا بكرته من نفائس السودان التجارية، فرجع من الأغنياء. وقصده جماعة من العزابة مرة أخرى، فاستقبلتهم زوجته، وقدمت لهم اللبن والتمر. ولما قدم زوجها يسوق إبلاً، أغدق في إكرامهم وقال لهم: «قدمتم علينا وقت اشتياقنا إليكم». وأطعمهم وأحسن الضيافة. وأعطاهم مما أفاء الله عليه من الخير، وحدثهم بقصته حتى يعتبروا بها⁽⁶⁾.

تاسعاً: الحركة العلمية في جنوب الدولة الحمادية:

لقد حظيت اللغة العربية باحترام البربر عموماً، فاعتبروها لغة الأدب والعلم، ومظهر

(1) الوسياني، المصدر السابق، ج1، ص ص 350-351.

(2) انظر: الشماخي، ج2، ص 605-608، معجم أعلام الإباضية، المرجع السابق، ج2، ص ص 352.

(3) الوسياني، المصدر السابق، ج1، ص ص 353-354.

(4) أبو جدرون الواشي السوفي: وقيل أبو خزون، أبو جدرون الرشيد. وكان عالماً تقياً من أهل سوف، ومصلحاً اجتماعياً. له حوادث وكرامات ذكرها أهل السير والمعلقات. انظر: الشماخي، ج2، ص 665-666، مؤلف مجهول، كتاب المعلقات ص 148.

(5) مؤلف مجهول، كتاب المعلقات، ص 148.

(6) الشماخي، ج2، ص 626-627.

الثقافة ووعاء الفكر. وبرز المغرب الأوسط بعهد الثقافة الجديد. وتمكن المذهب المالكي في مدرسة القيروان، وانتشر في بجاية وبلاد الأندلس. وبدأ التنافس الثقافي ينمو بين العواصم المختلفة، وساعد الحماديون على رعايته بتشجيع العلماء والمفكرين. وازدادت الرحلات العلمية توسعا، وتعدت حدود الأقاليم التي لم تقف حاجزا بين العلماء والكتاب والشعراء⁽¹⁾، بينما ظل القسم الجنوبي من الدولة يحتضن المذهب الإباضي الذي وجد عند زناته متنفسا علميا، ومحضنا فكريا لدى معتقيه. ويمتد من بلاد الجريد إلى ورجلان.

وعندما بسطت الدولة الحمادية نفوذها على الجنوب، كانت حاضرتا ورجلان ووادي ريغ ضمن نطاقها السياسي، وارتبطتا بعلاقة وطيدة مع وادي سوف بحكم الجوار وكثرة الأسفار من العلماء وطلاب العلم، لأنها مثلت المحطة الاستراتيجية الرابطة بين حواضر الجريد وطرابلس، وحاضرة ورجلان التي أضحت المحور العلمي الجامع. ويومئذ فضل بعض العلماء السكن الدائم أو المؤقت بوادي سوف، مثل: الشيخ أبي الخطاب النفوسي الذي التجأ إليها في القرن الخامس الهجري، وبذر فيها العلوم العقلية والنقلية⁽²⁾، والشيخ ماكسن بن الخير الوسياني اليفرنى في نفس الفترة⁽³⁾، والشيخ أبي الربيع سليمان بن علي بن يخلف التمجاري، الذي عاش في النصف الثاني من القرن السادس الهجري⁽⁴⁾ في نفطة ونواحيها ببلاد الجريد. وجلس للعلم، وتخرج عليه علماء من مختلف الجهات القريبة والبعيدة في وادي سوف والزاب

(1) عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص ص 284-250.

(2) معجم أعلام الإباضية ج2، ص 254.

(3) ماكسن بن الخير: هو أبو محمد ماكسن بن الخير بن محمد الجرامي الوسياني اليفرنى (ت 491هـ). ولد بالقيروان، وفقد بصره في صغره، وحفظ القرآن. وكان من أفضل العلماء، وله حلقات للعلم وتلاميذ في الآفاق. وعرف بحدة الذكاء والبراعة وكثرة الحفظ. ولم يمنعه فقد البصر من استنارة حياته بالعلم أو النشاط، وتأسيس حلقة علمية تخرج منها أفذاذ العلماء. وسعى بكل جهده إلى زيارة بلاد كثيرة. وكان لوادي سوف نصيبها من نشاطه في الدعوة، والأمر بالمعروف، ونشر العلم والخير. وكان كثير الأسفار للدعوة، فتنقل بين وارجلان وأسوف وطرابلس وأجلو وغيرها. وحج وعزم على البقاء في مكة. ولكن مسؤوليته في الدعوة منعتة، فعاد لوطنه. انظر: أبا العباس الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ط2، ص ص 252-258، الشماخي، ج2، ص 605-608، معجم أعلام الإباضية، المرجع السابق، ج2، ص ص 352.

(4) سليمان بن علي: هو سليمان بن علي بن يخلف التمجاري النفطي الدرجيني. وينحدر أصله من تيمجار بجبل نفوسة الليبية. واستقرت أسرته بوادي ريغ. درس في ورجلان على علمائها، وأخذ عن الشيخ أبي عمرو عثمان بن خليفة السوفي، وتخصص في العلوم الشرعية. وكان واسع العلم في المذهب الإباضي، وبرع في علم الفرائض، وله شعر بالبربرية، والدارجة الشعبية. ولكن شعره الفصيح لا يرقى إلى شعر ولده سعيد، أو حفيده أبي العباس أحمد الدرجيني صاحب الطبقات. وترك مؤلفات علمية منها: كتاب في الفقه، وآخر في علم الكلام. انظر: معجم أعلام الإباضية ج2، ص 209.

وقسطنطينية. وتميز بالسخاء والورع ودمائة الأخلاق⁽¹⁾. وأشهر عماء سوف من الفقهاء والمجاهدين:

- عبد الله المنصور النصيري السوفي: الذي عاش في القرن الخامس الهجري. وكان مثالا للشجاعة، وقاتل جند حماد بن بلكين بعد حصاره لقصر وغلانة⁽²⁾، وقاتله لمدة شهر أو يزيد. فنجى الله عبد الله، وهو أيضا الذي خلص الناس من ظلم عيد من بني خزر يتعدى على حرماهم. قال الوسياني: ((كان بنو المنصور النصيري أربعة أشبال، كأثمهم أشكال: سيد الناس، وعبد الله، ومسعود، وحمزة))⁽³⁾.

- أبو طاهر إسماعيل بن زكرياء، وهو من علماء وفقهاء سوف، والذي عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري. وتولى مشيخة مغراوة. وسكن بعدها في وارجلان. وقد تعلم على يدي محمد بن أبي بكر الفرسطائي، وعمل على نشر نظام العزابة في ورجلان بتوجيه من شيخه، وتمتع بالشجاعة في الحق. وله فتاوى هامة ومسائل ماثورة في كتب السير والمعلقات⁽⁴⁾. وكانت وصية شيخه محمد بن بكر بليغة. فقال: أوصاني أبو عبد الله حين مضيت من عنده فقال لي: ((اذهب إلى منزلك فإن وجدت من تقدمه في الأمور فاتبعه، فإن لم تجده ووجدت من تتعاون معه، فتعاونوا على البر والتقوى. فإن لم تجده ووجدت من سعى في الخير، فكن إمامه. فإن لم تجد أحداً من هؤلاء، فاستقم على الطريقة وحدك))⁽⁵⁾.

. أبو سليمان أيوب بن إسماعيل، وهو ابن إسماعيل بن زكرياء السابق الذكر. عاش في النصف الأول من القرن السادس الهجري. وهو الذي بعث الحركة العلمية بورجلان، وأثنى عليه الدرجيني بأحسن كلام: ((بحر تتقاذف في غواربه السفن، وبدر يقتدي به من اقتفاه من المقتفين. إن سئل في العلم أجاب فأقنع... وهو ممن وُقف على علاماته، وشوهد عجائب كراماته، شيخ شيوخ أكثرهم ساد وقل ما روى من تلامذته إلا من استفاد))⁽⁶⁾. وذكر له

(1) معجم أعلام الإباضية ج2، ص 209.

(2) وغلانة: ذكرها الشاخي باسم أوغلانت، وذكرها العدواني باسم وغلان ووجلانة. وهي إحدى قرى مدينة جامعة بوادي ريغ، وترجع إلى العهد الروماني. وأسسها بربر مغراوة من زناتة. انظر: الشاخي، ج2، ص 574، تاريخ العدواني، ص ص 275-277.

(3) معجم أعلام الإباضية ج2، ص ص 260-261.

(4) مؤلف مجهول، ص 140، معجم أعلام الإباضية ج2، ص 55.

(5) أبو زكريا، ص 363، معجم أعلام الإباضية ج2، ص 55.

(6) أبو العباس الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ط2، ص 283.

صاحب المعلقة عدة مسائل ونوازل مما هو شائع في زمنه، ويشغل الناس من حوله، أجاب عنها بعمق، وتتعلق بالحديث عن السر وعاقبة إفشائه، وأدب الإسلام في حفظه. وأخرى حول الطهارة والنجاسة، وعلاقتها بالمسجد، وثالثة عن الميراث للصبي المستهل صارخا. وأخرها عن صلة الرحم⁽¹⁾ وكان إلى جانب علمه الغزير كريما، سخر ماله لخدمة العلم والبر والإحسان لتلاميذه. وقد خصص دارا قرب منزله جعلها مقرا لضيوفه وتلاميذه، يقصدونها في كل وقت، ويلقون كل أنواع الرعاية والكرم⁽²⁾.

واشتهر بالتقوى، ورويت عند كرامات عديدة ذكر بعضها أصحاب السير، وتخرج على يديه ثلة من فطاحل العلماء. وكان يروي في حلقاته أشعاراً بالبربرية. وأصيب في آخر حياته بمرض الجذام الذي أقعده سبعا من السنين، وبلغ المئة سنة من عمره⁽³⁾. ورثاه تلميذه أبو يعقوب بقصيدة بائية:

أيوب ما أيوب لا أيوب * أودى به قدر الردى المجلوب⁽⁴⁾

أبو سليمان الوردجاني (ت462هـ/1069م). هو أبو سليمان داود بن إلياس بن أبي يوسف اليرتاجني. وكان شيخ حلقة بقنطرة، وله فتاوى كثيرة. ودرس عليه عثمان بن خليفة السوفي، واستزاد علما من كتبه وفتاويه، لأنه عرف بمكانته الفقهية⁽⁵⁾ في بلاد الصحراء الجنوبية.

- أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي المارغني: وهو أحد علماء الإباضية الأعلام، وينتمي إلى القرن السادس الهجر. عرف بمكانته العلمية، ومقدرته في فهم أحكام الدين، وإقناع المخالفين⁽⁶⁾. كما وصفه صاحب الطبقات: «هو في أهل المذهب أحد الأعلام، الكاشف بحسن بيانه ونور منطق لسانه دياجي الظلام، المفتي في العلوم لاسيما علم الكلام، المجاحش المدافع عن كلمة الإسلام، حتى أن له في مواطن اللين قراعا بلسان مخدم، وربما كان في محل هدنة فاشتعل الإضرار، ولم يعبأ بمن قال: كل مقال له مقام»⁽⁷⁾.

(1) مؤلف مجهول، المعلقة، ص 143.

(2) الشماخي، ج 2، ص 632.

(3) معجم أعلام الإباضية ج 2، ص 65.

(4) الشماخي، ج 2، ص 633.

(5) معجم أعلام الإباضية ج 2، ص 142.

(6) نفسه، ص 287.

(7) أبو العباس الدرجيني، المصدر السابق، ج 2، ط 2، ص 303.

نشأ بين وادي سوف ووادي ريغ وورجلان في عصر ازدهار الحركة العلمية في تلك البلدان. فتمكن من مصاحبة العلماء الأعلام، وتلقى عنهم أهم علوم الدين وأحكام الإسلام، وأشهر شيوخه في تلك الأيام:

- أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر الفرستائي (ت. 504هـ/1110م) مؤسس نظام حلقة العزابة. وساهم في تثبيت المذهب في نفوس الأتباع، وحفظه في القرى القريبة والأصقاع⁽¹⁾.

- أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي القابسي (ت. 471هـ/1079م). أخذ عنه علم الأصول والفقه والعقائد. وضمن مختلف المسائل التي استوعبها عنه في كتابه السؤالات⁽²⁾. كما احتك الشيخ عثمان بن خليفة بعلماء عصره الذين جمعهم نبل الغاية في طلب العلم وتبليغه. ومن أشهر أصحابه، وأجل رفاقه في الدعوة والإصلاح: أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني (ت. 570هـ/1174م)، والشيخ أبو عمار عبد الكافي الورجلاني (ت. قبل 570هـ).

أما أهم نشاطات الشيخ عثمان بن خليفة السوفي، فهي:

(1) **التعليم:** كانت له حلقات للعلم مشهورة، تخرج منها العلماء الفضلاء من مختلف الأقطار، لأن الشيخ كان كثير التنقل لنشر العلم في محور واسع، يمتد بين ورجلان وبلاد الجريد وطرابلس، وتخرج على يديه جيل من العلماء، هم أشهر تلاميذه الأبرار، ومنهم: سليمان بن علي بن يخلف الدرجيني، وأبو الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني القسطلبي الذي عاش مدة في القرن السادس بوادي ريغ وورجلان. وتفقه عن الشيخ، إضافة إلى ميمون التنكيصي الوردغمي⁽³⁾

(2) **الدعوة والإصلاح:** عرف الشيخ بمنهجه المتفرد في الحوار، وقوة الحجة والبرهان، والقدرة على الشرح والإقناع، والتمكن من المنطق وحسن البيان. واستطاع إقناع أهل الحامة وإرجاعهم إلى المذهب الإباضي بعد أن تولوا عنه. فقدم الشيخ عثمان إلى الحامة، وعزم على حوارهم، فأعدوا له مكيدة، وقدموا له سؤالاً محرجاً كما ذكر الدرجيني: «قالوا: يسأله أحدكم هل يجوز في مذهبكم تزوج نساتنا؟ فإنه حينئذ يقول الحق، ويجب بأن يستعظم هذا، ويقول:

(1) معجم أعلام الإباضية ج2، ص ص 48-49.

(2) نفسه، ص ص 215-216.

(3) معجم أعلام الإباضية ج2، ص ص 204-209-288.

يا سبحان الله! قد جاز عندنا تزوج اليهوديات والنصرانيات، فكيف نساؤكم؟! فإذا قال هذا، ألزمنه الذنب بأن نقول: نراك أنزلتنا منزلة اليهود والنصارى، فنكفروه ونفحمه، وإن هو أجاب بنعم، فقد استأنفنا سؤالاً ثانياً).

وعندما حاورهم من الغد في المسجد، قاموا إليه غاضبين، وقالوا إنه أنزلكم منزلة اليهود والنصارى. فشتموه، وضربوه صفعا، وأخرجوه من البلدة، وأرغموا الناس على الرجوع لمذهبهم، وغسلوا مسجد الوهبة بمياه كثيرة⁽¹⁾. وذكر الشماخي رد الشيخ فقال: (فدعا عليهم، وأجاب الله دعاءه، فسلط عليهم الميورقي، فقتل تسعمائة أو سبعمائة، فسالت الدماء. قال: من رأى ذلك بلغ الدم حيث بلغ الماء)⁽²⁾. وتلك الأحوال كلها تعكس مدى صبر وجهاد الشيخ عثمان السوفي.

والجدير بالذكر أن حال الناس في عقائدهم في مواطن الإباضية، ومنها أسوف، كانت متشنجة كثيرا. ووصل الأمر إلى التكفير، والرمي بالنفاق. وقد سئل الشيخ يحيى بن أبي بكر عن رجل رمى الوهبة بالشرك، أو قال أطفال المسلمين مشركون، فقال: ((يكفر بذلك كفر نفاق))⁽³⁾.

(3) علمه بالحديث: كان للشيخ دراية بعلم الحديث، وعرف عنه سنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الشماخي: (وذكر أبو عمرو السوفي في إسناده: أبو عمرو بن أبي العباس [أحمد بن أبي عبد الله بن بكر]، عن أبي الربيع سليمان بن يخلق، عن أبي عبد الله محمد بن بكر، عن أبي زكريا فصيل، عن والده عن أبي مسور [اليهرساني]، عن أبي معروف [بن جواد]، عن أبي ذرأبان بن وسيم عن أبي خليل، عن أبي المنيب محمد بن يانس، عن حملة العلم، عن أبي عبيدة، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس، عن عمر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن جبريل عن اللوح المحفوظ، عن رب العالمين)⁽⁴⁾.

(4) فكره وإنتاجه: عرف الشيخ بحكمه البليغة، النابعة من تجربة عملية، ودراسات علمية. ومنها ما أورده صاحب الطبقات، عن الحكم في العطايا: ((وقال أبو الربيع: قال لي الشيخ أبو عمرو عثمان: العطايا أربع: اثنتان جائزتان، عطية لما عند الله، وعطية لثواب الدنيا، واثنتان

(1) أبو العباس الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ط2، ص304.

(2) الشماخي، ج2، ص639.

(3) مؤلف مجهول، المعلقات، ص146..

(4) الشماخي، ج2، ص349.

غير جائزتين، عطية إكراه وخوف، وعطية وليجة على وجه الركون⁽¹⁾. وقد ضمن الشيخ علومه في مؤلفاته التالية:

- كتاب السؤالات: ⁽²⁾ وهو من أهم مصادر الإباضية في العقيدة. وتكمن قيمته أكثر في الكشف عن تاريخ العلماء وطبقاتهم.

- رسالة في الفرق: وتوجد في عدة مكتبات، ولها طبعة حجرية⁽³⁾.
وتبقى حياة أبي عمرو عثمان بن خليفة صفحة ناصعة، تعبر عن ثراء عصره بالعلماء، وكثافة نشاطهم العلمي الحثيث للحفاظ على مذهبهم من الاندثار، والدفاع عن أفكارهم بتضحية وفداء. واستمرت بلاد المغرب في شتاتها تبحث عن جمع لشملمها في دولة واحدة، وتحقيق الأمل بعد الحماديين - بنشأة دولة الموحيدين.

عاشرا: نهاية الدولة الحمادية:

عرفت الدولة في عهد العزيز بن المنصور بالأمن والرقى والاستقرار والعناية بالعلم. وبعد وفاته سنة 515هـ، بدأ الانحطاط يدب في كيانها. وتجمعت عوامل عديدة أدت إلى انهيارها:
- الحروب والنزاعات الداخلية والخارجية مع جيرانهم ومنافسيهم من الزييين منذ انفصالهم، إلى ساعة نهايتهم. والقوى الداخلية التي أحدثت اضطرابات، وخاضت معارك، وخاصة قبيلة زناتة، والقبائل العربية الهلالية، وكلها أضعفت الدولة، ونخرت في جسدها. وكذلك وتوغلت الدولة المرابطية غربا، واستولت على رقعة هامة من ممتلكاتها.⁽⁴⁾
- القوى الأوروبية المتربصة بها، وتمثلت في النورمان في صقلية وجنوب إيطاليا، والذين

(1) المرجع السابق، 305.

(2) وهو لا يزال مخطوطا، تنتشر نسخه في مكتبات الإباضية بميزاب وجربة وبلاد نفوسة. وقد وضع القطب اطفيش حاشية عليه. أنظر: معجم أعلام الإباضية ج2، ص 288.

(3) المرجع السابق، ص 288.

(4) بدأ زحف دولة المرابطين على بلاد المغرب الأوسط على أثر الصراع مع الحماديين. فهاجم المرابطون تلمسان سنة 472هـ، واحتلها يوسف بن تاشفين سنة 474هـ، وجعلها عاصمة حكم الجزائر الغربية. وتوسع ملكهم شرقا إلى مدينة الجزائر، وجنوبا إلى جبال الذهب من بلاد السودان. ودامت سيطرتهم على الجزائر الغربية مدة 65 سنة، وانتهى حكمهم لتلك الجهات بسيطرة الموحيدين عليها سنة 539هـ. انظر: مبارك الميلي، المرجع السابق، 282-283-293، عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج1، ص ص 311-312، سعدون عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، 1985، ص ص 51-52، حمدي عبد المؤمن محمد حسين، المرجع السابق، ص 49.

هددوا الدولة الصنهاجية، وانتقل خطرهم لمواطن الحماديين.⁽¹⁾

-عجز الأمير يحيى بن العزيز بالله أن يتحكم في دولته التي حازت عزها في الأيام الخوالي، فانغمس في الترف والبذخ، وسيطر عليه اللهو واللعب. ولم يكن للدولة مشروعا يتصدى للتحديات السابقة، وأشدّها الخلاف على السلطة داخل البيت الحمادي، والذي كان مقدما على رعاية دولتهم وحمايتها من الأخطار المحدقة بها.

وكان آخر عهدها حين زحف نحوها الموحدون، فسقطت في أيديهم. فدخل عبد المؤمن بجاية في ذي القعدة سنة 547هـ/1153م، وتفرقت جيوش يحيى برا وبحرا⁽²⁾، وخرج هاربا نحو بونة، ثم واصل نحو قسنطينة⁽³⁾. وتحولت تلك البلاد إلى ملكهم العريض تحت مظلة الدولة الموحدية.

(1) عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص 198-199.

(2) نفسه، ص 196-197.

(3) استولى الموحدون على بجاية سنة 547هـ، فلاحق يحيى بقسنطينة، ثم تركها لهم بعد أن اقسام يحيى يمين الولاء للسلطان الموحيدي عبد المؤمن بن علي الذي أخذه معه إلى مراكش، فأقام بها إلى سنة 558هـ. ثم سكن في قصر بني العشرة بسلا معززا، وتوفي بها سنة 558هـ. وهو آخر ملوك الحماديين. انظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ص 174-175، عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 1، ص 277، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 245-247، عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص ص 179-180، عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص ص 148-156.

المبحث الثالث

وضعية وادي سوف في عصر الدولة الموحدية

(515-668 هـ / 1121-1269 م)

عرفت بلاد المغرب الإسلامي، في النصف الأول من القرن السادس الهجري، حياة التشتت، وتعدد الدول والكيانات السياسية، واحتداد الصراع بين الأشقاء، وتكالب القوى الأجنبية من النورمان في الضفة الشمالية للمتوسط، وانقضاضهم على سواحل المغرب الإسلامي. وأضحى الوضع يطالب بإلحاح أن يحدث التغيير السريع الذي يرمم العلاقات، ويقرب الشعوب المتجاورة، ويوحدها في كيان قوي. وتم ذلك بجهود الموحدين المتواصلة.

أولاً: تأسيس الدولة:

كغيرها من دول المغرب الإسلامي، سبق تأسيس الدولة ظهور مرحلة الدعوة واستقطاب الأتباع. ولما اكتمل الإعداد، وتوفر الاستعداد للتنفيذ، أعلن عن الدولة التي توسعت حتى شملت بلاد المغرب الإسلامي بأكملها، وتعدته إلى العدة الشمالية ببلاد الأندلس.

أ- مرحلة الدعوة والتأسيس (515-524هـ):

تأسست الدولة الموحدية - ذات الأصل البربري - في بلاد المغرب الأقصى على يد محمد بن تومرت الهرغي السوسي⁽¹⁾ الذي رجع من رحلته العلمية بالشرق في غرة ربيع الأول سنة 510هـ. فمر بالخواضر العلمية والعواصم السياسية في مصر وطرابلس وتونس وقسنطينة وبجاية وتلمسان وفاس ومراكش. وفي كل مدينة يأمر الناس بالمعروف، ويدعوهم إلى الدين الحق. والتقى في تونس بأبي بكر بن علي الصنهاجي⁽²⁾، وفي بجاية بعبد المؤمن بن علي الكومي.

(1) محمد بن تومرت: هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن هود بن تومرت. يرتقي نسبه إلى الأشراف من قبيلة مسمودة. اختلف في زمن ولادته. وذكرت عدة أزمته ما بين سنتي 424-491هـ. وكانت ولادته بهرغة من جبال درن بالمغرب الأقصى، فأطلقت عليه أمه اسم "تومرت"، ويعني الفرح بالبربرية. وتمكن من حفظ القرآن الكريم في صغره. ورغم فقر عائلته، رحل لطلب العلم سنة 500هـ نحو قرطبة، ومنها إلى المهديّة بتونس، وسار إلى الحج، والتقى بعلماء الإسكندرية وأشهرهم: أبو بكر الطرطوشي. وبعد أداء الفريضة، مكث ثلاث سنوات في بغداد. ولازم الإمام أبا حامد الغزالي. وتلقى عليه أصول الدين، وتعمق في الفقه والحديث والعقائد على عقد الأشعري. وبعد عشر سنوات، درس فيها أحوال المسلمين وما اعتراهم من ضعف وتشتت، آل على نفسه تكوين دولة إسلامية في بلاده. وبدأ يعمل لتكوينها منذ 510هـ. انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 9، ص ص 195-196، الزركشي، المرجع السابق، ص ص 3-5، المؤنس، ص ص 107-108، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 300-302، عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 2، ص 03.

(2) أبو بكر بن علي الصنهاجي: وكنيته البيذق. أحد تلاميذ ابن تومرت البارزين ورفيق دربه في الدعوة، ورفيق خليفته عبد المؤمن بن علي. ويعتبر أحد الأقطاب الذين قامت الدولة على عاتقهم. كما سجل أخبارها في كتابه عن المهدي بن =

فاصطحبها معه إلى بلاده هرغة سنة 514هـ. واشتهر في طريق عودته باسم الفقيه السوسي، وأشاع بين الناس أنه المهدي المنتظر. وعرف بأنه «الإمام المعصوم»، وبنى دعوته على تصحيح العقيدة من الشوائب وتثبيت التوحيد⁽¹⁾ الخالص في النفوس. وتظاهر بالزهد، وجريان الكرامات في حياته. فاستقطب الأتباع بمسقط رأسه، واشتغل بالدعوة والتأليف، وبث الدعاة لفكرته بجبال مصمودة وبلاد السوس. فبايعه عشرة من رفاقه يوم 15 رمضان 515هـ، وتبعهم الناس. وبدأ يخوض المعارك ضد المرابطين في مراكش. وأشهرها معركة البحيرة التي جرح فيها. وتوفي على أثرها ليلة الأربعاء 13 رمضان سنة 524هـ/11 أوت 1130م⁽²⁾. وحينئذ فسح المجال لأتباعه للإعلان النهائي عن تأسيس الدولة.

ب - مرحلة القوة والتوسع (524-558هـ):

يعتبر المهدي بن تومرت المؤسس الحقيقي للدولة الموحدية، ولكن الموت عاجله في بدايتها. واستطاع اصطفاة عشرة من رفاقه، اجتمعوا واختاروا خليفة من بينهم، وهو أبو علي عمر الصنهاجي، وكتبوا خبر موت المهدي. وبعد أيام سلم الخلافة إلى عبد المؤمن بن علي⁽³⁾. فبايعوه في السر، وأشاعوا مرض المهدي، فانطلى ذلك على العامة وكان عبد المؤمن - خلال تلك الفترة - يسيّر الشؤون نيابة عن المهدي. ولما اطمأن القوم إليه، تمت بيعته العلنية بالخلافة في منتصف رمضان سنة 524هـ/1130م⁽⁴⁾. ويومئذ شرع في تمتين قواعد دولته، وتوسيع

=تومرت. انظر: أبا بكر بن علي الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت وبداية الدولة الموحدية، تح عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1971، ص ص 5-10، عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 2، ص 03. (1) عرفت دولته بالموحدية نسبة إلى دعوة التوحيد التي رفع لواءها، وخالف المرابطين وطعن في عقيدتهم، انظر: عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 2، ص 03. (2) انظر: المؤسس، ص 109، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 300-302، عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 03-04.

(3) عبد المؤمن بن علي: هو عبد المؤمن بن علي التاجري الكومي، نسبة إلى قبيلة كومية البربرية، ويتنسب إلى زناتة. ولد في حدود سنة 490هـ بقرية «تاجرا» بنواحي ندرومة بإقليم تلمسان، قرب مرسى هنين. وهو سليل عائلة فقيرة. وكانت مهنة والده صنع الأواني الطينية. وقيل كان قاضيا، ولم يمنعه ذلك من طلب العلم في بلده. ثم شد الرحال إلى بجاية للاستزادة، فالتقى بمحمد بن تومرت، وتفقه عليه، واقتبس من علمه الغزير، واختاره صديقا ومرافقا، ووقف إلى جانبه في بث الدعوة، وتأسيس الدولة. وعرف عبد المؤمن بالفصاحة وقوة الحججة والتمكن من الفقه والحديث، فضلا عن معرفته بالنحو والأدب والتاريخ والسياسة، واطلاعه على مختلف العلوم الدينية والدنيوية. واشتهر بحسن السيرة وفضائل الأخلاق وشدة التعلق بالعلم والاحتفاء بأهله. وترك بعد وفاته ستة عشر ولدا وبتين. انظر: المؤسس، ص 110، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 310، عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 2، ص 07. (4) انظر: الزركشي، ص ص 07-08، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 303، عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 2، ص 07.

رقتها، وحماتها من كل الأخطار المحدقة، وأهم أعماله المنجزة:

- اقتحم دولة المرابطين المتداعية للسقوط، واستولى على عاصمتها مراكش عام 1147م، واتخذها قاعدة لدولته الفتية، وضم إليها كل بلاد المغرب الأقصى القريبة والنائية.
- اتجه نحو المغرب الأوسط سنة 534هـ/1139م، فتساقطت مدنه أمام جيوشه بالتتابع: تلمسان والجزائر وبجاية سنة 547هـ/1153م، وسقطت الدولة الحمادية. وواصل نحو تونس والمهدية فاستولى عليهما سنة 555هـ. وانتهت توسعته شرقا إلى طرابلس.
- محاربة النورمان، وتحرير المغرب الأدنى من سيطرتهم. وعبر نحو الأندلس، وضم غرناطة سنة 1156م. وأنهى الحكم المرابطي في الضفة الشمالية للمتوسط. وعند عودته منها، أدركته منيته في سلا سنة 558هـ/1163م. وترك دولة واسعة الأطراف.

ثانيا: الامتداد الجغرافي للدولة:

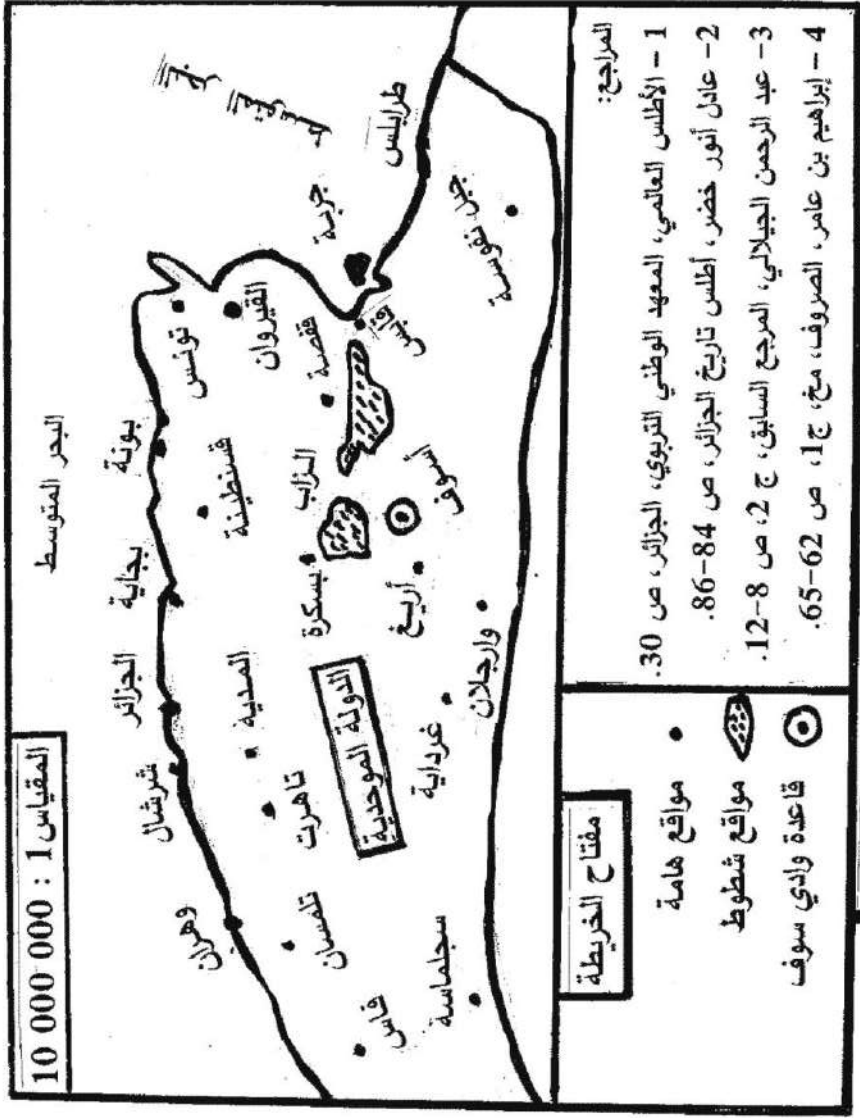
تمتد أراضيها من المحيط الأطلسي إلى تراب طرابلس وبرقة شرقا، ومن جنوب الصحراء إلى جزيرة الأندلس شمالا. وكانت بلاد المغرب الأوسط منقسمة إلى ولايتين: شرقية تضم بجاية وقسنطينة وما حولها، وغربية هي تلمسان والبلدان المحاذية لها. بينها ربطت منطقة الجنوب الشرقي بالبلاد التونسية⁽¹⁾. وكانت وادي سوف ضمن نطاقها الجغرافي، تتجاوزها تلك الولايات، وتتفاعل مع واقعها السياسي والثقافي والاجتماعي وفق متطلبات الحال.

ثالثا: الحياة السياسية:

سعى عبد المؤمن بن علي في عز دولته إلى ضبط شؤونها، وعقد ولاية العهد لولده، وترك الحكم وراثيا لأبنائه وأحفاده الذين كانوا على قسط وافر من العلم والأدب والعناية بالجهاد. وبلغ عدد الخلفاء في عهد دولته ثلاثة عشر حاكما ما بين (558-668هـ) أولهم أبو يعقوب يوسف الذي كان عالما مهتما بجمع الكتب. ومات شهيدا فخلفه ابنه يعقوب المنصور سنة 580هـ/1184م. وكان من أهل العلم والسياسة⁽²⁾. وبدأت في عهده الفتن والقلاقل والثورات ضد الدولة.

(1) انظر: ابن الأثير، المرجع السابق، ج 9، ص ص 202-206، المؤنس، ص ص 110-112، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 303-304، عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 08-12، عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 200.

(2) انظر: المؤنس، ص ص 113-114، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 309-313، عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 2، ص 13.



موقع وادي سوف في نطاق الدولة الموحدية

-اختلفت مدة الحكم عند الخلفاء الذين توارثوا السلطة عن آبائهم ما بين أربع وثلاثين سنة عند عبد المؤمن بن علي (524-558هـ) وأقلها ثمانية أشهر عند عبد الواحد بن يعقوب (620هـ). وكانت الخلافة حسب ولاية العهد. وبعض الخلفاء انتهت مهامهم بالخلع كما هو شأن عبد الواحد بن يعقوب، أو بالسم كما هو حال يوسف بن الناصر (610-620هـ)، أو بالقتل خنقا مثلما حل بعبد الله العادل (621-624هـ). والخليفة يعرف بأمر المؤمنين، ودستورها القرآن والسنة دون الانتهاء إلى أي مذهب إسلامي. وكانت عاصمة الدولة مراكش⁽¹⁾

-الاهتمام بالجانب العسكري، والتدريب المحكم. وتجلت لديهم العبقرية العسكرية في أسمى معانيها. وكانت للمهدي حنكة عسكرية وبعد نظر ورثها خليفته عبد المؤمن، وأوصاه بالمناوراة في الجبال، ومما قال له:

(لا تنزلوا إلى السهول واتركوا العدو يصعد إليكم). واستطاع بذلك تقويض أركان الدولة المرابطية، واستولى على المغرب كله. وكانوا يمتلكون جيشا قويا، دقيق التنظيم، وأسطولا هاما صار سيد البحر المتوسط، مما دفع صلاح الدين الأيوبي إلى الاستنجاد بهم سنة 586هـ/ 1190م. وطلب من أبي يعقوب أن يعينه لقطع الطريق على المسيحيين في سوريا⁽²⁾.

-عرف أكثر خلفاء الدولة بتمكنهم العلمي، وتعمقهم في الفنون والأدب والحكمة والفلسفة. وأولهم المهدي بن تومرت، وعبد المؤمن بن علي الذي كان عالما متمكنا. وفتح عهده بحرية التفكير، وأخرج كتب الغزالي وغيرها مما كان ممنوعا، وصارت تقرأ في كراسي المساجد. وأضحى بعض الخلفاء مثالا ساطعا في سماء الدولة، ومنهم أبو يعقوب الذي شجع الفلاسفة ونشر فلسفة أرسطو وابن سينا. ووجه ابن رشد وابن طفيل إلى تلك الدراسات الفكرية. إضافة إلى اهتمامهم بالتعليم في كل المستويات للذكور والاناث، وجعلوه إجباريا⁽³⁾.

رابعا: الثورات الداخلية:

لاحظنا أن كامل الدول السابقة الذكر تعرضت للفتن والثورات الداخلية التي أرهقت كاهل الدولة وأضعفتها. ولكن أعظم ثورة واجهها الموحدون، كانت ثورة بني غانية التي طال عهدها، واستعصت عليهم، ولم يقض عليها إلا بشق الأنفس:

(1) عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج2، ص4.

(2) عبد الله شريط والميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ص87.

(3) عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج2، ص ص 23-25.

- ثورة بني غانية المسوفيين:

كان بنو غانية⁽¹⁾ حكاما على الجزائر الشرقية⁽²⁾ لدى المرابطين منذ سنة 520هـ عندما كلف الخليفة علي بن يوسف بن تاشفين⁽³⁾ محمد بن غانية على حكم تلك الجزر. فنزل بجزيرة ميورقة التي نسبوا إليها بعد ثورتهم. وبعد موته، تولى ابنه إسحاق⁽⁴⁾. وفي أيامه سقط حكم المرابطين، فرفض بنو غانية مبايعة الدولة الجديدة. وبعد استشهاد إسحاق بن محمد سنة 579هـ/1183م، تولى مكانه ابنه علي⁽⁵⁾ مفجر الثورة في وجه الموحدين، والتي عرفت عدة حملات في بلاد المغرب الإسلامي:

أ) ثورة علي بن إسحاق المسوفي (580-584هـ): عزم علي بن إسحاق على بعث دولة المرابطين وتجديد الدعوة للعباسيين. واغتتم فرصة غياب خليفة مراکش الموحد، أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، في بلاد الأندلس واستشهاده بها سنة 580هـ، وحينئذ زين له أهل بجاية سبل الخروج على الموحدين، ودعوه إلى النزول عندهم للتعاون على تقويض دعائم دولتهم⁽⁶⁾. بدأ علي بن إسحاق هجمته على المغرب الأوسط، وعبر إليه بأسطوله الضخم، واستولى على بجاية يوم الجمعة 6 شعبان 580هـ/12 نوفمبر 1184م، وعين عليها أخاه يحيى حاكما. وزحف نحو المدن الأخرى، فبسط سيطرته على مدينة الجزائر وموزاية والمدينة وأشير ومليانة ومازونة وتلمسان ووهران، وتحكم في قلعة بني حماد، وولى علي كل منها أحد أقاربه. وضرب حصارا شديدا على قسنطينة، وحينئذ أرسل الخليفة المنصور بن يوسف الموحد - وهو راجع

(1) بنو غانية: كان علي بن يحيى المسوفي - أصله من صحراء لتونة - صاحب حظوة عند ملك المرابطين، يوسف بن تاشفين. فزوجه امرأة من أهله تدعى «غانية» أنجبت له محمدا ويحيى. وكان لذريتهما دور في تلك الثورة. انظر: ابن خلدون، ج6، ص253، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج2، ص317، عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج2، ص13.

(2) الجزائر الشرقية: هي مجموع الجزر في أرخبيل البليار الإسباني. وتقع غرب المتوسط وشرقي خليج بلنسية. وأهم جزره هي: ميورقة، منورقة، إيبيسا، فورمتيرا، كبريرا. انظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص224، المؤنس، ص114.

(3) حافظ علي بن يوسف بن تاشفين على عهد والده وتقديره لبني غانية، فولى يحيى بن علي على غرب الأندلس وأنزله قرطبة، وولى محمدا بن علي حكم الجزائر الشرقية. انظر: ابن خلدون، ج6، ص253.

(4) كان لإسحاق بن محمد المسوفي ولدان هما علي ويحيى. أوصاهما قبل موته بالثبات على دعوة المرابطين. انظر:

المعجب، ص225، عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج2، ص13.

(5) انظر: مبارك الميلي، المرجع السابق، ج2، ص317، عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج2، ص13.

(6) عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج2، ص13-14.

من الأندلس - جيشاً وأسطولا حربيا استرجع المدن السابقة. ففر يحيى إلى أخيه علي الذي كان في قسنطينة المحاصرة، فلاحقهم الجيش، فالتجأ علي بن إسحاق - بجيشه - مضطرا إلى الصحراء، واحتل قفصة واتخذها مستقرا، وعمل على جمع الأشتات من عرب رياح الهلاليين. وأتته النجدة من شرف الدين قراقوش التركي، صاحب طرابلس الذي قدم مع أتباعه من جند مصر⁽¹⁾، وبايعوه جميعا على القتال. فاستولى على تونس، ولحق أهلها ظلما كبيرا، وعجزت جيوش المنصور عن رده، ووقعت معارك طاحنة جعلت الميورقي ينسحب إلى ما وراء صحراء توزر⁽²⁾. ويومئذ كان صدى معاركة وضجيج أخباره يدوي في منطقة وادي سوف القريبة من حلبة الصراع.

ولما عاد المنصور إلى عاصمته مراكش سنة 584هـ، بلغه موت علي بن إسحاق بناحية الجريد⁽³⁾، وتولى أخوه يحيى قيادة الثورة⁽⁴⁾.

ب) ثورة يحيى بن إسحاق المسوفي (584-631هـ): لقد تبوأ يحيى بن إسحاق قيادة الثورة لشجاعته، وساعده أعراب الصحراء. فأعد للمرحلة الثانية من الثورة⁽⁵⁾ التي استأنفها سنة 597هـ/1200م بمؤازرة بني هلال وسليم. وبدأ في اجتياح أراضي المغرب الأدنى، فسيطر على طرابلس والمهدية والقيروان وقابس وبلاد الجريد. ووصل إلى تونس نفسها، واجتاز إلى المغرب الأوسط، وحاصر قسنطينة. وتوجه بعدها إلى بسكرة وقهر سكانها، وخضعت له تبسة وبونة. واستطاع احتلال بجاية لمدة سنتين منذ سنة 599هـ. ولكن الخليفة محمد الناصر الموحدي حاربه، وانتزع منه بجاية، وداهم قفصة التي كانت ملاذ الآمن، ففر يحيى. وحينئذ

(1) انظر: ابن الأثير، ج 10، ص ص 136-138، الزركشي، ص ص 15-16، أبا العباس الناصري: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تح جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954، ج2، ص ص 143-144، التجاني، المرجع السابق، ص ص 137-139. عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج2، ص ص 14-15.

(2) انظر: الزركشي، ص ص 15-16، التجاني، المرجع السابق، ص ص 137-139، ابن عذارى المراكشي، **المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تح مجموعة من الباحثين، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1985، (قسم الموحدين)، ص ص 190-197.

(3) عندما كان علي بن إسحاق المسوفي في توزر سنة 584هـ، رُمي بسهم استقر في ترقوته، وعانى من جراحه، ومات بخيمة عجز عريية. انظر: المراكشي، المعجب، ص 227، التجاني، المرجع السابق، ص 156.

(4) انظر: المراكشي، المعجب، ص 227. مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 317-319. عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج2، ص ص 14-15.

(5) المراكشي، المعجب، ص 228.

ألقى الخليفة بجاية بولاية تونس، وعين جد الحفصيين، أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص حاكماً لها. فقام بالتصدي للمسوفي الذي كان يغزو البلدان، ويخرب العمران، ويبيد الإنسان، ويهاجم المدن بسرعة مثلما فعل بتيهت سنة 606هـ، ووصل في حركته الخاطفة إلى سجلها⁽¹⁾.

تولى عامل إفريقية ابن أبي حفص الحرب سنة 618هـ، وخاض معارك عديدة أفضت إلى هزيمة يحيى الذي التجأ إلى بلاد الزاب، وأخذ يتنقل بين القرى والبلدان الصحراوية⁽²⁾، وقصد وادي ميزاب وورجلان في حدود عام 626هـ/1228م. فأقام أهلها إمامة الدفاع في تلك البقاع⁽³⁾. ولما نزل بورجلان (... وهدم قصورها، وقطع نخيلها، وأفسد عيونها، وشتت جمعها، وزاد إلى حومة أريغ وبلاد سوف وجبل نفوسة...) ⁽⁴⁾، ويومئذ ذاقت وادي سوف وما حولها من الأقاليم أسوأ أنواع الرعب والعذاب، والنهب والخراب. وظل يحيى المسوفي متنقلاً بين تلك البلدان، مطارداً من جيش أبي زكريا الحفصي إلى أن مات ببلاد الزاب⁽⁵⁾ سنة 631هـ/1233م⁽⁶⁾. وحينئذ طويت صفحة الثورة المسوفية اللمتونية التي دامت نصف قرن، شغلت الدولة عن الاضطلاع بشؤون سكانها، وزعزعت الأمن العام، وخلفت خسائر كبيرة، زادت في ضعف الدولة وتقهقرها، فضلاً عن الحركات الانفصالية في أطرافها المتعددة.

خامساً: الحياة الاقتصادية:

ازدهرت الحياة الزراعية، وتم استغلال الأراضي الخصبة. فكان الإنتاج متنوعاً بين المزروعات الغذائية كالحبوب والخضر والفواكه، والصناعية كالزيتون والقطن، وقصب

(1) انظر: المؤنس، ص 117، تاريخ طرابلس الغرب (التذكار) المرجع السابق، ص 63، التجاني، المرجع السابق، ص 287-289، محمد مقيدش، *نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار*، تح علي الزواري، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت، 1988، مج 1، ص 518، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 319-320، عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 15-16.

(2) انظر: ابن خلدون، ج 6، ص ص 261-262، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 320-321، عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 2، ص 16.

(3) معجم أعلام الإباضية، المرجع السابق، ج 2، ص ص 146، 174.

(4) غصن البان، مخ، المرجع السابق، ص 45.

(5) ذُكر أنه مات بوادي الشلف. والأرجح في بلاد الزاب، لأن قوته ضعفت، وقضى أكثر أيامه في صحراء الجنوب الشرقي.

(6) انظر: ابن خلدون، ج 6 ص 382، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 320-321، عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 16-17.

السكر. ولحق بذلك تنوع في الصناعات. وكان بالمدينة الواحدة بين أنواع الحرف والصناعات ما يفوق الحصر. وأهم صناعاتها: النسيج والحريير والكاغظ والفخار ودباغة الجلود والصابون والزجاج ومعامل سبك الحديد والنحاس وصناعة السفن⁽¹⁾.

وانعكس هذا على التجارة، وربطت علاقات تجارية مع بلدان المشرق، وعقدت اتفاقيات تجارية ما بين أعوام 528-555هـ مع الدول الأوربية، ولاسيما فرنسا وإيطاليا. ونصت الاتفاقيات على تأمين الملاحة والتجارة المتبادل⁽²⁾.

وكان تجار أوروبا يستوردون منها الزيت والصوف والشب وريش النعام والزبيب وسائر الفواكه الجافة⁽³⁾ والملف وسائر الأقمشة والذهب والفضة والنحاس وسائر المعادن. ويصدرون بعض الأدوات المنزلية، ومن ذلك أتت تسمية السكين المستورد باسم (الجنوي) نسبة إلى جنوة الإيطالية⁽⁴⁾. بينما يغلب على وادي سوف والمناطق الصحراوية القريبة الطابع الرعوي مع قلة الحضارة. وتتمثل الصناعة في بعض الحرف البسيطة، بينما التجارة قوية لاستيراد الضرورات من الأطعمة، والملبوسات من الثياب أو الصوف وغيرها من المقتنيات الأساسية.

سادسا: دخول العرب إلى وادي سوف والاستقرار العمراني:

شهدت بلاد المغرب الإسلامي في النصف الأول من القرن الخامس الهجري هجرة واسعة من القبائل الهلالية في عهد الدولة الصنهاجية. وتوزعت بطونهم وعمائرهم في المدن والقرى. وتلتها حركة التهجير في عهد الموحدين، ولاسيما نحو المغرب الأقصى مروراً بشمال وادي سوف. وكان وراء الهجرة العوامل التالية:

1) انهزام القبائل الهلالية في حربها ضد الموحدين. فقد كثف الناصر الموحي جهوده - خلال فترة حكمه بين سنوات 596-602هـ - في محاربة بني غانية ومن ساندهم من قبائل

(1) انظر: عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج2، ص ص 26-28، عبد الله شريط، محمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، المرجع السابق، ص 84.

(2) انظر: عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج2، ص 28، عبد الله شريط، محمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ص 84.

(3) عبد الله شريط، محمد الميلي: الجزائر في مرآة التاريخ، ص 87.

(4) انظر: عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج2، ص 28، عبد الله شريط، محمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ص 87.

هلال بإفريقية. ونجح في قمعهم، وذلك شجع القبائل العربية على الهجرة نحو المغربين الأوسط والأقصى.

(2) استنفار الموحدين القبائل العربية للجهاد: ومساندتهم في بلاد الأندلس، مثلما فعل عبد المؤمن بن علي، الذي استنفر العرب من المغرب الأوسط،⁽¹⁾ وكتب رسالة مؤثرة ذيلها بأبيات فيها تذكير بصلة القربى التي تربطهم، وأثنى عليهم، وأشاد بشجاعتهم وكرمهم العربي:

بني العم من عليا هلال بن عامر وما جمعت من باسل بن باسل
تعالوا فقد شُدت إلى الغزوية عواقبها منصوراً بالأوائل⁽²⁾

(3) الظروف الاجتماعية القاسية: دفعت القبائل العربية إلى البحث عن مواطن أكثر ملاءمة، وانطبق ذلك على قبيلة عدوان التي كانت ضمن قبائل هلال وسليم بنواحي الكاف والقيروان، وقد ازدادت أعدادهم، وتزاحموا على المراعي التي ضاقت بهم، فخرجوا إلى الأطراف، فوجدوا أرض الجردانية في شمال وادي سوف، ذات المراعي المناسبة، ولكن سكانها من بربر زناتة رفضوا إقامتهم، وبعد صراع دموي رجحت كفة قبيلة عدوان،⁽³⁾ وتشتت سكان الجردانية في الآفاق، وكان ذلك في حدود 600هـ/1204م،⁽⁴⁾ ويومئذ فتح باب الهجرة العربية نحو وادي سوف، وتتابع المهاجرون فرادى وجماعات، وحدث الاختلاط بسكان البلاد، وتعرب قسم منهم نتيجة الالتحام الاجتماعي والتزاوج، وتمتد بين أوامر القرابة، وامتزجت تلك السلالات بالدماء العربية،⁽⁵⁾ التي طبعت المنطقة بتلك العناصر العربية الجديدة.

وعرفت وادي سوف بعمرانها الزناتي في الجردانية الشمالية، وتكسبت القديمة في الجنوب الشرقي، وجلهمة في الجنوب الغربي، وكان التدافع على أشده بين العناصر البربرية القديمة والمهاجرين الجدد، من العرب والنصارى، وانتهت إلى المظاهر العمرانية التالية:

(1) حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس "عصر المرابطين والموحدين"، مكتبة الخانجي، ط1، مصر، 1980، ص 312.

(2) المعجب، المرجع السابق، ص 190.

(3) عدوان: اسم أطلق على عدد من القبائل والعشائر المتمركزة فيما بين الحجاز ونجد وعسير والعراق وحمص، والذين دخلوا منهم إلى وادي سوف، هم بنو عدوان بن عمرو بن قيس عيلان، من العرب العدنانية. كانت منازلهم الأولى في الطائف من بلاد نجد، وغلبتهم عليها تقيف، فخرجوا نحو تهامة اليمنية، ثم انتقلوا إلى إفريقية في هجرات متواصلة إلى القرن الثامن. وهم يسكنون تارة إلى جوار بني سليم، وفي أحيان أخرى مع بني هلال. انظر: إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج1، ص 59، عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج2، ص 762.

(4) إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج1، ص 62.

(5) حسن علي حسن، ص 319.

أ) الجردانية: وهي البلدة التي تشكلت من القرى والمداشر، وضمت عددا من المنازل والضواحي، وهي أحياء سكنية عرفت بالقصور، ونسبت إلى العناصر المقيمة بها، وكلها متجاورة في صعيد واحد. وأشار إليها العدواني في تاريخه: (... وهذه تسمى بقصور عدوان، وإن شئت قلت قصور الرهبان، وإن شئت قلت قصور النازية...) (1) ويمكن الوقوف عند دلائلها:

- **قصور النازية:** وهي المساكن الأولى لبربر زناتة الذين أسسوا النواة الأولى للقرية، ونسبت إلى العيون المائية المعروفة بعيون النازية المتصلة بالفرع النهري لوادي أسوف. وعندما استقرت قبيلة عدوان، وقع التصادم مع زناتة، واشتد التنافس على المراعي - التي كانت المصدر الرئيسي للمعيشة - وانتهى الأمر بالحروب الدامية التي أجبرت البربر على التسليم والنزوح، واستوطنتها عدوان مع من توافق معها من البربر والنصارى.

- **قصور عدوان:** وهي المواطن الزناتية في الجردانية نفسها. وسكنتها قبيلة عدوان بعد رحيل أصحابها. وتم الترحيب بالوافدين عليهم من نصارى الزاب وورجلان. ثم لحق الوفد الثاني من بني عدوان، بعد مغادرتهم القيروان، وربطتهم علاقات حسنة مع بني مرين من زناتة تكسبت القديمة. وتعاونوا في حدود سنة 600هـ/1204م على الدفاع، ورد غائلة الأعداء عن وادي سوف (2)، ولاسيما أخلاط العرب، وفي مقدمتهم ابن أبي العافية الذي وصفه العدواني بالظالم اللعين الذي يحارب الأشراف من قومه (3).

- **قصور الرهبان:** الرهبان، وهم فئة من نصارى الروم هربوا من الزاب وورجلان بسبب التضييق الذي مارسته الدولة الموحدية. وكانت الجردانية أول ملجأ لهم. ولقوا من بني عدوان الترحيب الحسن، وفسحوا لهم مجال الإقامة، وأداء شعائرهم الدينية بكل حرية، وبناء صوامعهم. وتطورت العلاقة إلى التزاوج معهم، واعتنقت فئة منهم ديانتهم (4)، وشيد كل راهب منهم ديرا للعبادة. وكان عددهم سبعة رهبان مثلما ذكر العدواني في إجابته لمحاوريه: (فقالا له: ما معنى قصور الرهبان؟ قال نعم كان فيما مضى سبعة رهابين من النصارى، بنى كل واحد قصرا لنفسه، ثلاثة من وغلانة، واثنين من جلهمة، وواحد من بادس، وواحد من اتهودة.

(1) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 90.

(2) إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج 1، ص 65.

(3) محمد العدواني، ص ص 150، 309.

(4) إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج 1، ص 65.

بنوا هذه القصور يتعبدون فيهم⁽¹⁾. وعند التحاق الفوج الثاني من بني عدوان، اعترضوا على اعتناق إخوانهم للمسيحية، وفرقوا بينهم وبين نسائهم النصرانيات. وطردها الرهبان خارج الجردانية، وأعادوا إخوانهم إلى أحضان الإسلام⁽²⁾.

ب) جلهمة: هي موضع قديم⁽³⁾ في الجنوب الغربي لوادي سوف. يعود إلى العهد البيزنطي، وتم تعميره من نصارى الجردانية منذ إخراجهم، وأسسوا به صومعتهم الدالة على تمسكهم بدينهم، والسعي إلى التبشير به. وهذا أثار حفيظة عرب عدوان فأخرجوهم، ثم لاحقوهم إلى جلهمة، وسكنوا بجوارهم، وبنوا أول مسجد للعرب بوادي سوف في النصف الأول من القرن السابع الهجري. وعندما قدم إليهم جماعة من أخلاط العرب، وفيهم أتباع أبي العافية المكناسيين، انزعج النصارى، وفروا إلى الجردانية مرة ثانية، واشتعلت الحرب بين العدوانيين والمكناسيين وأشياهم في حدود عام 655هـ/1258م، وانتهت بجلاء المكناسيين إلى المغرب الأقصى، وتم تطهير جلهمة من كل الغرباء⁽⁴⁾ وبقيت المعالم الدينية شاهدة على أهلها.

سابعاً: الحياة الثقافية بوادي سوف في العهد الموحيدي:

كانت وادي سوف في العهد الحمادي والزييري حاضرة علمية، يشع علمها على الحواضر الإباضية في الشرق والغرب، واشتهر علماءها بتمكنهم وتنقلهم المستمر للتلقي والتلقين، وبث العلم، كلما حلوا أو ارتحلوا، وفجأة صممت كتب السير الإباضية، ولا نكاد نسمع صوتاً للسكان من زناتة في وادي سوف، رغم أن العهد الموحيدي شجع العلوم، وفسح الباب لحرية التفكير. ولكن وقع الانحسار في النشاط الفكري، والتبليغ والإنتاج لدى علماء الإباضية الذين مثلوا يومها السكان الأصليين لوادي سوف. وأهم العوامل والظروف التي أثرت على ذلك:

1- الجنس العربي الذي استقر في المنطقة امتاز بمواصفات فكرية وثقافية متوارثة، وعادات وتقاليد بلاد المشرق. وقد تمت في هجراتهم خلال اختلاطهم وعبورهم البلاد المغاربية، وكان ذلك مخالفاً لأحوال القبائل البربرية المنتشرة في المغرب الأوسط والصحراء

(1) محمد العدواني، ص ص 90-91.

(2) إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج 1، ص 65.

(3) جلهمة: اسم أطلق على رجل صياد من قبيلة زناتة مات في ذلك الموضع القريب من تاغزوت الحالية. ويبعد عن مدينة الوادي بنحو 14 كيلومتراً. انظر: إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج 1، ص 65، العدواني، ص ص 132، 317.

ووادي سوف ولاسيما زناتة وصنهاجة. وكانت قبيلة عدوان السباقة في هجرتها. ولم يبرز عندها علماء، ولم يكتب أصحاب الثقافة عندهم عن هذه الفترة. ونعتقد أنهم كانوا أصحاب ثقافة محدودة، لا تتجاوز حفظ شيء من القرآن، أو تلقين المبادئ الإسلامية في المساجد والدور، أو في خيام العرب الرحل من قومهم.

2- الأحداث السياسية والاضطرابات والثورات والقتال التي عكرت صفو السكان، وكان لها مساهمة في الإحباط والركود العلمي، بل هددت الاستقرار، وشردت الفئات، وتجلت في العزوف عن العلم وحلقاته. وكانت ثورة بني غانية التي دامت نصف قرن أكبر التحديات، ومست المناطق الصحراوية بداية من قسطيلية إلى وادي سوف وغيرها.

3- الحرية الفكرية التي تميزت بها الدولة الموحدية، وفتحها المجال للجدل العقائدي والفلسفي، ورفع الحظر عن الكتب الممنوعة، وانتشار أفكار الغزالي وابن رشد وابن سينا، والاطلاع على تراث الفلسفة اليونانية. وهذا مس الفكر الخارجي بالخصوص. وكان التعصب عندهم منتشرًا انتشار النار في الخيطيم في المواطن الإباضية من أسوف إلى وارجلان، بين الوهيبية والنكارية، والقدرح في المذاهب الإسلامية وفي شيوخها، وخاصة الإمام مالك والإمام أبو حنيفة. ووسم أتباعهم بالضلال، وعدم إلقاء السلام على المخالف أو المعتقد في مذهب الأشاعرة⁽¹⁾.

4- انتشار المذهب المالكي وتشجيعه في العهود السابقة، ورسوخ قدم المدرسة المالكية في تونس، ومنها عبرت القبائل العربية إلى وادي سوف. وحضر هذا المذهب وبدأ يتغلغل في المنطقة في منافسة المذهب الإباضي.

5- تأسيس حاضرة وادي ميزاب التي استقطبت العلماء من الحواضر الصحراوية، وذلك شجع هجرة العائلات، ولاسيما في المناطق التي شهدت تصفية للمذهب في بلاد الجريد القريبة من سوف، وسدراتة في وارجلان. وصارت وادي ميزاب ملاذًا لهم⁽²⁾. وبهذه العوامل بدأت وادي سوف تسلك سبيلا علميا جديدا، نحو الاتجاه السني، في العقائد والفقهاء والسلوك.

ثامنا: المعالم الدينية بوادي سوف في عهد الموحدين:

عرفت الحركة الفكرية في عهد الموحدين نشاطا وحيوية بفضل ما ورثه المجتمع من بني

(1) الشاخي، المرجع السابق، ج2، ص ص635-636.

(2) انظر: صالح باجاية، المرجع السابق، ص ص6-14، علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الرابعة، الإباضية في الجزائر، ص 197.

حماد الذين أرسوا قواعد التقدم العلمي، وساهموا في تعريب عدد معتبر من البربر. ويومئذ استقبلت الدولة علماء الحاضرة التونسية، ومفكري الأندلس الذين انبثوا في بجاية والجزائر وتلمسان، ومليانة وقسنطينة، ووصلوا إلى الجنوب الصحراوي عند بلاد الزاب⁽¹⁾ ووادي سوف، وصحب ذلك حركة الرهبان النصارى، وحرص كل طرف على تأسيس معالمه الدينية في الموطن الجديد:

أ) تأسيس المسلمين للمساجد: جعلت الدولة الموحدية من اهتماماتها، تأسيس المساجد، باعتبارها مراكز الإشعاع الفكري، وحماية العقيدة، وحولت المسجد الأعظم في كل مدينة إلى مدرسة لتعليم أحكام الدين وعلومه، ومبادئ اللغة والأدب وفنونه،⁽²⁾ وكان ذلك النشاط حافزا قويا لبناء المساجد في المناطق النائية ومنها وادي سوف التي عرفت أول مساجدها العربية في النصف الأول من القرن السابع الهجري في منطقة تغزوت (جلهمة)، وكان الغرض الأساسي، هو حماية المجتمع العربي الجديد من تسرب النصرانية التي برزت بصومعة الروم النصارى في ذلك الموضوع القديم،⁽³⁾ إضافة إلى تعليم الدين الإسلامي، وتثبيت أركانه في نفوس أبناء عدوان، ونشر الثقافة الأصيلة في نفوسهم، ومحاربة الجهل والأمية، وحماية البربر الزناتيين في تكسبت القديمة ومنطقة الجردانية من العقيدة المسيحية.

والجدير بالذكر أن هؤلاء العرب من بني عدوان، عاشوا في الكاف والقيروان، وعرفوا أهمية المساجد، ووقفوا على مظاهر الازدهار العلمي في تلك الحواضر، فشرعوا في وضع نواة للاستقرار العمراني في سوف وأسسوا المساجد - ولو في خيام الشعر- لأن المسجد وحده الضامن الحقيقي للتطور والبقاء.

كما أن بربر زناتة القدامى في مواطنهم بوادي سوف، اشتهروا بتمسكهم الشديد بالعقيدة الإسلامية، ولكن آثارهم العمرانية اندرست، والوثائق التاريخية لا تسعفنا بخبر واحد عن مساجدهم التي أسست في دورهم وقصورهم بالجردانية أو تكسبت القديمة التي احتضنت حركتهم العلمية الشهيرة، وحافظت على المذهب الإباضي في نفوسهم. والمؤكد أن مساجدهم كانت بارزة في أطراف وادي سوف وبلاد الجريد ووادي ريغ وورجلان. وخصصت لأداء الصلاة وذكر الله. بينما اختاروا في الأوقات العصيبة - التي مر بها مذهبهم - السرايب

(1) عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص ص 205-208.

(2) حسن علي حسن، ص 396، عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص 207.

(3) إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج 1، ص 65.

الأرضية والكهوف والمخابئ والغيران⁽¹⁾ تأوي العزابة. كل ذلك طلبا للأمان، وتحسبا لكل طارق يريد إلحاق الأذى بالعلماء والطلبة.

ب) تشييد المسيحيين للصوامع: كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى أقلية زمن الدولة الموحدية التي أصدرت قرارها نحوهم باختيار الإسلام، أو الخروج من البلاد. وهذا دفعهم إلى الهجرة نحو أوروبا⁽²⁾، بينما اختار آخرون ترك المدن، واللجوء إلى الصحراء على عادة المسيحيين في مختلف العصور عند تعرضهم للاضطهاد⁽³⁾. وكان لوادي سوف نصيبها من استقرار النصارى في بادئ الأمر في الجردانية، وشيدوا الأديرة وصوامع العبادة. ولكن الزمن تنكر لهم، وضيق عليهم العرب من بني عدوان الذين قدموا بغتة إلى وادي سوف، وحسدوهم على تفاهمهم مع بني عمومتهم، وأثاروا الفتنة بينهم، وأخرجوهم منها وهم صاغرون. فاختاروا الاستقرار بعيدا في جلهمة، وأسسوا صومعتهم، وعاشوا في سكينه مؤقتة، وتجاوز المسجد مع الكنيسة. ولكن طارقا جديدا دخل إلى القرية وعاث فيها فسادا، وحوّلها إلى دار حرب، وهم جماعات الأشتات من العرب، ومن الأهم من أصحاب أبي العافية المكناسيين. وحينئذ تعكر صفو النصارى، وفضلوا الرجوع إلى موطنهم الأول، بعد استعطاف العدوانيين، وقدموا مبرراتهم المنطقية التي ترتبط بعناصر المعيشة، وهي قلة الماء والكلاء. فاستقبلوا بكل فرح وسرور، ولقوا المساعدة في تشييد صوامعهم مرة ثانية، وإقامة أديرتهم المهدامة⁽⁴⁾. ويومئذ

(1) غيران الإباضية: عرفت جزيرة جربة بغار اجاج الذي خصص للتأمل والعزلة، واجتمع العلماء للدرس والتأليف. واجتمع فيه ثلثة من العلماء عرفوا بأصحاب الغار، ألفوا فيه موسوعة فقهية إباضية. وصار الغار أول مدرسة علمية، ونواة للدراسات العليا في الجزيرة. أما غار تين يسلي ببلدة عمر قرب تقرت، فقد شهد سنة 409هـ / 1018م أول حلقة للعزابة. وحُفر وجُهز ونُظم خصيصا لهذا الغرض النبيل. وكذلك غار آجلو بوادي ريغ في القرن السادس الهجري، وغار بني اجاج بورجلان الذي بقي عدة قرون مكانا آمنا للتعبد والتبتل. انظر: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص ص 104، 106، 271، 369، 457، سعيد الباروني، الحركة العلمية والفكرية بجزيرة جربة عبر التاريخ، المكتبة الشاملة الإباضية (إلكترونية). إعداد مصطفى بن محمد شريقي، نشر جمعية التراث، القرارة- الجزائر، 2010، الإصدار الثاني، ص 08.

(2) انظر: مبارك الملي، المرجع السابق، ج 2، ص 330، عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 2، ص 20.

(3) تعرض المسيحيون منذ عهد السيد المسيح - عليه السلام - إلى التضييق والاضطهاد من الملوك والسلاطين والشعوب، وتطور إلى صراع داخلي بين رجال الكنيسة، وبين المذاهب المسيحية. وأثناء حركات الإصلاح، وحدثت المحاكمات الخطيرة، دفعت تلك الظروف إلى هروب الرهبان والأتباع إلى مجاهل الصحراء، وتأسيس الأديرة والصوامع. وبقت معالمها شاهدة على التاريخ في العديد من البلاد العربية، ومنها الصحراء الجزائرية. انظر: توفيق الطويل، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، الزهراء للإعلام العربي، ط1، القاهرة، 1991، ص ص 47-112.

(4) إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ج 1، ص 65.

سمح الموحدون للنصارى بحرية العبادة، وإظهار طقوسهم الدينية، وبناء الصوامع والأديرة منذ 624هـ/1226م. وكان أشهر مذاهبهم الدينية المذهب الدومينيكي والمذهب الفرانسيسكي. وهي تعمل لنصرة الكاثوليكية ضد حركات الخروج المسيحية. وسمح لهم البابا هنوريوس الثالث (543هـ-626هـ) بالتشبه بالمغاربة في زيهم ولباسهم. وبعث البابوات بعده برسائل الشكر لأمرء الموحدين على فسخ مجال الحرية الدينية. فكثرت عدد المسيحيين، وصار لهم قس يدير شؤونهم ببلاد المغرب منذ سنة 630هـ/1233م⁽¹⁾.

تاسعا: العقائد والمذاهب الدينية في العهد الموحد:

لقد أسست الدولة الموحدية على صرح الدين، وحرص ابن تومرت، عند عودته من المشرق، على التجديد في العقائد والمذاهب، ونشر السلوك الصوفي، وتبنى فكرة المهدي الشيعية لنصرة خطه السياسي.

أما العقيدة، فقد كان أهل إفريقية عموماً على مذهب السلف، يؤمنون بعقيدة التفويض والتسليم. وساد في العهد المرابطي مذهب التجسيم الذي حاربه ابن تومرت، ورأى فيه زيغاً وانحرافاً، وانتصر للعقيدة الأشعرية⁽²⁾ التي طورها العلماء ما بين القرنين الخامس والسادس الهجريين⁽³⁾، وتلقاها ابن تومرت مباشرة من أستاذه أبي حامد الغزالي في بغداد. واستطاع المهدي ترسيخ العقيدة الجديدة التي كانت محدودة الانتشار في زمن القابسي⁽⁴⁾، فأضحت في عهد ابن تومرت معلماً ثابتاً ببلاد المغرب الإسلامي.

(1) انظر: مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 331-332، عبد الرحمان الجبالي، المرجع السابق، ج 2، ص 20.
(2) الأشعرية: مذهب عقائدي ينسب إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل البصري الذي يرتفع نسبه إلى الصحابي أبي موسى الأشعري. ولد في البصرة سنة 260هـ/874م، ثم انتقل إلى بغداد، ونشأ في وسط فرقة المعتزلة، وتعلم أفكارها مباشرة من زوج أمه - وهو رأس المعتزلة - أبي علي الجبائي. وصار الأشعري أحد علماء الكلام. وكانت له مناظرات عديدة مع أقرانه، وتعمق في علوم الشريعة. وبسبب رؤيته النامية للنبي صلى الله عليه وسلم، ترك مذهب المعتزلة واتبع مذهباً وسطاً يجمع بين العقل والنقل. واعتمد في الفقه على مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل. وتوفي سنة 324هـ/936م. انظر: الشهرستاني، المصدر السابق، ص 75-83، عبد القادر صالح، المرجع السابق، ص 37-40.
(3) علماء الأشاعرة الذين كان لهم فضل الاجتهاد في المسائل الفرعية، هم: أبو بكر الباقلاني (ت 453هـ) وإمام الحرمين عبد الملك الجويني (ت 478هـ) وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي (ت 505هـ). انظر: عبد القادر صالح، المرجع السابق، ص 41.

(4) أبو الحسن القابسي: هو علي بن محمد بن خلف المعافري المالكي. ولد سنة 324هـ بالقيروان، وجمعه الصحة بالفقيه أبي زيد القيرواني. وبعد وفاته سنة 386هـ، صار القابسي رئيس المدرسة الفكرية والعقائدية في القيروان. وهي مدرسة المالكية التي أرسى قواعدها الإمام سحنون. رحل إلى مصر ومكة وسمع البخاري بها. وتوفي بالقيروان =

كما نبذت الدولة الموحدية التقليد الفقهي، ووسعت باب الاجتهاد، وجعلت استنباط الأحكام من القرآن الكريم والسنة الصحيحة، ونشرت ذلك في كتاب أُلزم به الجميع، وأحرقت كتب الفروع الفقهية، وألف المهدي كتاباً تحدث فيها عن الالتزام بالنصوص، وكادت تتحول إلى المذهب الظاهري. واستمر العمل بهذا النهج إلى زمن الخليفة إدريس المأمون بن المنصور 627 - 630 هـ الذي رفض تعاليم ابن تومرت، ورجع إلى مذهب الإمام مالك من أجل كسب الرعية التي كانت رافضة للتجديد، واستمر مذهب إمام دار الهجرة في كامل بلاد المغرب الإسلامي. كما سنت الدولة قراءة الحزب الراتب في المساجد، وهي من أهم مآثر الموحدين، للمحافظة على القرآن،⁽¹⁾ وشجع ذلك أهل البلاد على التمسك به على مدار الزمن، من كل الفئات الاجتماعية.

وعرفت البلاد بظهور ملامح التصوف، وهو العلم الذي بدأ سنياً على يد سيد الصوفية الأوائل أبو القاسم الجنيد⁽²⁾. وعرفته بلاد المغرب في القرنين الخامس والسادس الهجريين، وكان قائماً على الزهد، ومجاهدة النفس، والانقطاع للعبادة، والمداومة على الأذكار الشرعية، ولم يكن تصوفاً فلسفياً، موغلاً في التعقيد والغرابة.⁽³⁾

وقد انتشرت المعارف الصوفية، والمظاهر السلوكية في بلاد المغرب على نطاق واسع منذ العهد الموحيدي، واشتهرت بأقطاب الصوفية كأبي يعزى وابن العريف وعلي بن حرزهم

= سنة 403 هـ / 1012 م. وكان أول من نشر أفكار الأشعري في إفريقية، وألف رسالة للدفاع عن مذهبه. وهو أول ناشر لصحيح البخاري في بلاد المغرب. له عدة مؤلفات منها: المهدي في الفقه، كتاب مناسك الحج، وأحكام الديانة، المقنن من شبه التأويل، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، ملخص الموطأ، المنبه للفظن من غوائل الفتن. انظر: أبا الحسن القاسبي، **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين**. تح أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، ط 1، تونس، 1986، ص ص 7-17، عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 2، ص 20، عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، ط 1، سوريا، 1993، ج 2، ص 502.

(1) انظر: المعجب، ص 240. مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 339-340، عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 21-22.

(2) **أبو القاسم الجنيد**: هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي. عرف بالقواريري لأنه عمل القوارير، والخزاز لاشتغاله بالحزير. ولد ونشأ وتوفي ببغداد سنة 297 هـ / 910 م. تمكن من علم الكلام والتصوف. وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد، وهو يرى أن الطريق الصحيح للتصوف، ما كان قائماً على الكتاب والسنة. ومن كلامه: (طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة؛ من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه، لا يقتدى به). له عدة مؤلفات، منها: أمثال القرآن، المحبة، المقصد إلى الله تعالى، دواء الأرواح، معاني المهمم في الفتاوى الصوفية، السر في أنفاس الصوفية. انظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج 1، ص 508، الزركلي، الأعلام، ج 2، ص 141.

(3) رابع بونار: **المغرب العربي تاريخه وثقافته**، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2019، ص 193.

بالمغرب الأقصى،⁽¹⁾ وأبو الحسن الشاذلي بتونس،⁽²⁾ وأبو مدين شعيب بتلمسان،⁽³⁾ وغيرهم من الأعلام الذين تجمع حولهم الأتباع، وتأسست على مبادئهم الطرق الصوفية التي تعدت - فيما بعد - الحياة الروحية إلى الميدان السياسي.

(1) **علي بن حرزهم**: هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن حرزهم الفاسي. وكان من كبار الفقهاء والزهاد. وسلك طريق التصوف، واعتكف في بيته مدة عام يدرس كتاب الإحياء للغزالي. ومن أخذ عنه أبو مدين الغوث، ومحمد التاودي، والشيخ أبو يعزى بلنور. توفي بفاس في شعبان عام 559هـ / 1164م. انظر: موسوعة أعلام المغرب، تنسيق وتحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 2008، ج1 ص 363، أبو يعقوب التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تح أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط2، الدار البيضاء، 1997، ص ص 168-169، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، معلمة المغرب، نشر مطابع سلا، الرباط، 1989، ج10، ص 3369، حسن علي حسن، المرجع السابق، ص 476.

(2) **أبو الحسن الشاذلي**: هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي. يرتفع نسبه إلى علي بن أبي طالب كما أشار في مصنفاته. ولد ببلاد غرارة بالريف المغربي سنة 591هـ، وتفقّه وتصوف بتونس، ونسب إلى بلدة شاذلة التونسية التي عاش بها زمنا. وكان ضريرا. ورحل إلى العراق، وسكن بالإسكندرية، وحج عدة مرات. توفي بصحراء عيذاب (قرب البحر الأحمر) في ذي القعدة سنة 656هـ/1258م، وكان متوجها إلى الحج، فدفن هناك. وتنسب إليه الطريقة الشاذلية الشهيرة. وأهم مؤلفاته: الاختصاص من القواعد القرآنية والخواص، رسالة الأمين لينجذب لرب العالمين، السر الجليل في خواص حسينا الله ونعم الوكيل، المسمى بالجواهر المصونة والالكئي المكنونة، وكتب الفقه المالكي منها: كفاية الطالب الرباني لرسالة أبي زيد القيرواني، المقدمة العزية للجماعة الأزهرية، وله الحزب المعروف. ولابن تيمية رد على حزه. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، تح أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 200، ج11، ص ص 141-142، عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج2، ص ص 467-468، الزركلي، الأعلام، ج4، ص 305.

(3) **أبو مدين شعيب**: هو شعيب بن الحسن الأندلسي الأنصاري. ولد في حدود عام 520هـ ببلدة قطنيانة، إحدى قرى أشبيلية. وأقام بفاس وتعلم الفقه، وأخذ تعاليم الصوفية على مشايخها، وعكف على دراسة كتاب الإحياء في علوم الدين للغزالي. ثم رحل إلى الحج، والتقى بالشيخ عبد القادر الجيلاني، وأخذ عنه العلم والتصوف. وسكن مدة في بجاية معلما ومريبا، فكثرت أتباعه، وأثار سلوكه تخوف السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور فاستدعاه. فرحل إليه بتعب، ولما وصل إلى تلمسان، وسأل أصحابه عن المكان، أخبروه أنه يسمى العباد، فقال ما أصلحه للرقاد. وفيه توفي قبل الوصول إليه في تلمسان سنة 589هـ/1193م، ودفن برباط العباد. أهم مؤلفاته: أنس الوحيد ونزهة المريد في علم التوحيد، وحكم أبي مدين، مفاتيح الغيب. انظر: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج1، ص 815، الزركلي، الأعلام، ج3، ص 166. الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح رابع بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981، ص ص 60-65، أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ج1، ص ص 446-454، عمار هلال، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا، 1984، ص 100، عبد الحليم محمود، أبو مدين الغوث حياته ومعراجه إلى الله، دار المعارف، القاهرة، 1985، ص ص 146-147، مجموعة من المؤلفين: دائرة المعارف الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، ج1، ص 602.

والجدير بالتنويه أن ظاهرة الإيوان بالخوارق والمعجزات صاحبت قيام الدولة الموحدية. واتخذها ابن تومرت أسلوباً فعالاً في تأسيسها، وضمنها في عناصر دعوته. وأشاع أنه مأمور بنوع من الوحي والإلهام، فضلاً عن القصص والإشاعات التي أذيعت بين العامة أن العرافين تنبأوا بتأسيس عبد المؤمن بن علي للدولة، مع ترويح الأحلام والرؤى، وتفسيرها بما يدعم هدفهم⁽¹⁾. وأضحى هذا الفكر وما لحقه من سلوك، شديد الارتباط بالتصوف الشعبي الذي يفسر أحوال الناس بالاستناد إلى خوارق العادات والغيبيات البعيدة والقوى الخفية. ويعتقدون أن ذلك كله إلهام بالفيض الرباني، والمواهب اللدنية من الفضائل والكرامات الدالة على القبول والصلاح. وذكر العدواني قصة الشيخ صاحب الروضة في أقصى شمال وادي سوف عندما وهب لتابعه حمراء، وسافر به ومات في الطريق، فدفنه عرفجة البربري، وأقام على مكانه روضة ومقاماً، وتولى شؤون الضريح. وكان يشعل النار، وتحول دخانها إلى مصدر جلب للمهارة، فتكاثر الزوار، وسمع الشيخ بخبره، واعتبره من كراماتهم المشتركة⁽²⁾. وأطلق على المكان اسم بودخان⁽³⁾.

وتحددت معالم المذهبية في بلاد المغرب الإسلامي بأبعادها الثلاثة التي تبناها المجتمع، وثبتتها الأنظمة السياسية، وعملت على بناء العقيدة على مذهب الأشعري. ونشر الفقه وفروعه وفق مذهب إمام دار الهجرة مالك بن انس. وشجعوا سبيل التصوف، والسلوك على نهج الجنيد. وشاعت تلك المبادئ في كامل البلاد، وحملها المهاجرون في حلهم وترحالهم. وكانت قبيلة عدوان الوعاء الذي حفظ المنهج عند إقامتهم بإفريقية، ونقلوه إلى وادي سوف. ووقفوا بشموخ أمام كل أشكال الانحراف العقائدي، ولاسيما التبشير المسيحي. واستطاعوا تطهير البلاد من كل المخاطر، وخلصت للعقيدة الصافية، والإسلام الثابت.

وهكذا استمرت الدولة الموحدية في حكم المغرب الإسلامي الموحد لمدة قرن ونصف. ولكن حالها بدأ يضطرب، وتسرب إليها الضعف في نصف القرن الأخير إثر واقعة العقاب في الأندلس سنة 609هـ/1212م، والتي مني فيها جيش محمد الناصر الموحد بشر هزيمة. وتغلغل الفساد المالي في المجتمع، واستشرى الانحراف في سياسة البلاد ودنس سمعتها. وعجزت عن منع أشكال الانفصال والتفكك الذي مس كيانه في كل أطرافها من سنة

(1) حسن علي حسن، المرجع السابق، ص 480.

(2) العدواني، المرجع السابق، ص 163.

(3) بودخان: يقع في شمال وادي سوف. وهو الآن ضمن تراب ولاية خنشلة، دائرة العقلة، بلدية أولاد رشاش زوي.

627هـ/1230م، وانتهى بانتهاء كامل للدولة سنة 668هـ/1269م. وتمزقت أوصال المغرب الإسلامي إلى دول متصارعة لمدة قرن كامل. ويومها كانت وادي سوف متاخمة للدولة الحفصية التي حكمت إفريقية وجزء من المغرب الأوسط.

عاشرا: نهاية الدولة الموحدية:

تضافرت العوامل، وتراكمت الأحداث التي عجلت بانتهاء الدولة الموحدية. وتمثلت في ثلاثة عوامل أساسية:

-الضعف الذي اعترى السلطة الحاكمة، وتفويضها تسيير شؤون الدولة للوزراء والأتباع الذين عرفوا بعجزهم وتواكلهم.

- الاضطرابات والفتن التي أحدثت الأزمات، وتوسعت الهوة بين السلطة والرعية، وأنهكت قوة البلاد، وخصوصا ثورة بني غانية المسوفيين، وما لحق بلاد المغرب الأدنى والأوسط من خسائر في الأرواح والمتاع.

-انفراد الولاة بالسلطة المطلقة في ولاياتهم، وتمهيدهم للانفصال في بلاد المغرب الثلاثة⁽¹⁾، ولاسيما أثناء ثورة بني غانية. فمكثوا أنفسهم وأبناءهم من حكم ولاياتهم، وأعلنوا الانفصال منذ سنة 627هـ/1229م. وتمت حركات الانفصال على الشكل التالي:

- انفصال بني عبد الواد بتلمسان: كانت قبيلة بني عبد الواد على ولاء تام للموحدين في نواحي تلمسان. وتم تعيين شيخ القبيلة أبي محمد بن يوسف على تلمسان سنة 627هـ، فتوارثها مع أبنائه. وفي سنة 633هـ، قطعوا دعوة الموحدين، وأسسوا مملكة مستقلة، ودخلوا مع الموحدين في حروب إلى أن تغلب عليهم يغمراسن بن زيان سنة 646هـ/1248م. وحينئذ خضع المغرب الأوسط، ولاسيما القسم الغربي للزيانيين⁽²⁾.

- انفصال الحفصيين بولاية تونس وبجاية: تولى بنو حفص على تونس سنة 603هـ/1207م. ولما وصلت الولاية إلى أبي زكريا الحفصي سنة 627هـ/1229م، قطع بيعته للموحدين، واستقل بإمارته، وضم إليها بجاية وقسنطينة⁽³⁾.

(1) عبد الرحمان الجليلي، ج2، ص 31.

(2) انظر: مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 350-351، عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج2، ص ص 17-18.

(3) عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج2، ص 18.

- انفصال بني مرين بالمغرب الأقصى: تأثر بنو مرين بمن سبقهم في الولايات. فسيطروا على مواقعهم، واستولوا على مراکش في شهر المحرم سنة 668هـ/ أوت 1269. وأسقطوا صرح الدولة الموحدية⁽¹⁾. وتحولت بلاد المغرب الإسلامي إلى حال من الفرقة والخلاف الذي أضعاف مجدها، وشتت شملها، وجعلها لقمة سائغة للأعداء في مستقبل الأيام. بينما كانت وادي سوف تشهد حركة عمرانية مع دخول العناصر العربية، والتدافع بين ديانتين، وهبوب تيارات المذهبة في الجوانب الفقهية والعقائدية والسلوكية.

(1) انظر: ابن عذارى المراكشي، المرجع السابق، (قسم الموحدين)، ص 468، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج 2، ص 351، عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 18-19.

الفصل السادس وادي سوف في العهود الأولى للدولة الحفصية (627-898 هـ / 1229-1492 م)

المبحث الأول:

تأسيس الدولة الحفصية وسياستها العامة في الحواضر وأثرها على إقليم وادي سوف فيما
بين أعوام (627-898 هـ / 1229-1492 م)

المبحث الثاني:

الحياة الاجتماعية بوادي سوف

المبحث الثالث:

الحياة الاقتصادية

المبحث الرابع:

الحياة الثقافية والدينية

المبحث الخامس:

المظاهر العمرانية

وضعية وادي سوف في العهود الأولى للدولة الحفصية (625-898 هـ / 1228-1492م)

تمهيد:

علمنا التاريخ في وقائعها السائرة، وأيامه المتداولة بين الناس، أن الدولة عندما تقوى شوكتها، وتمتد رقعتها، وتتنوع شعوبها، وتزداد ثرواتها، وترتقي إلى أسمى قمة التطور، يتطلب حالها يومئذ مزيداً من الحكمة البالغة، والسياسة الحكيمة للمحافظة عليها من كل الأخطار. وحينها يكون العدل والمتابعة المستمرة صمام أمانها. وتم ذلك في القرن الأول للدولة الموحدية. ولكن عوامل التفكك لم تلبث أن نخرت في قوامها، ودام ذلك نحو ثلاثة عقود من التراجع، والذي أجهز فيه الولاة على وحدتها، وأقاموا صرح دويلاتهم المتعددة، وأبرزها الدولة الحفصية.

إن الواقع التاريخي الذي عرفته وادي سوف في العهد الحفصي، هو بداية بروزها كحاضرة صحراوية متميزة، في ظل الحضور الزناتي الإباضي، والذي انطفاً أثره الثقافي في المجتمع، وخفت نشاطه بشكل واضح. ولكن التأثير الكبير برز جلياً عندما تابعت هجرة القبائل العربية إلى وادي سوف، ولاسيما قبيلتي عدوان وطرود، وما لحق بهما من بني سليم، وكلهم ساهموا بفعالية عظمى في تعمير المنطقة وتطويرها.

وحينها عرفت وادي سوف، تحولاتها في المجالين الاقتصادي والاجتماعي، والذي طبع المجتمع بخصائص متميزة، أعطت للمجتمع صفته الجديدة، والتي رسخت مظهره العام يومذاك واستمر في التطور إلى الوقت الراهن. ويمكن تتبع خط التأسيس، ومراحل التطور وفق المظاهر المتباينة الموالية.

المبحث الأول

تأسيس الدولة الحفصية وسياستها العامة في الحواضر
وأثرها على إقليم وادي سوف (625-898هـ / 1228-1492م)

بدأت الدولة الحفصية بقوة في حكم بلاد المغربين الأدنى والأوسط منذ أوائل القرن السابع الهجري. واستمرت متماسكة مؤثرة رغم كل الضربات، إلى نهاية القرن التاسع الهجري.
أولاً: تأسيس الدولة:

تعتبر الدولة الحفصية من تراب دولة الموحيدين. وأبرز ولاياتها في الطرف الشرقي من الدولة الكبرى، ولكن الضعف الذي مسها، عجل بظهور الدولة الحفصية في مراحلها التالية:
أ - مرحلة الولاية والانفصال (571-625هـ):

تنتمي الدولة الحفصية إلى الجد الأول لقبيلة هنتاتة المصمودية أبي حفص عمر الهنتاتي⁽¹⁾، أحد العشرة الذين آزروا المهدي بن تومرت وبايعوه على الحكم، ووقفوا بشجاعة في تدعيم قواعد الدولة، وتمتين بنائها. وظل على ولائه وإخلاصه إلى يوم وفاته سنة 571هـ/1175م، وذلك شجع سلاطين الدولة إلى حفظ عهده، وتكليف أبنائه وأحفاده في مناصب هامة، وهذا جعل الخليفة محمد الناصر الموحيدي يستصحب أباً محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص في جيشه بإفريقية، ويكلفه بقتال يحيى بن غانية سنة 602هـ في منطقة تاجرا بين قابس ومدنين، وفعلاً انتصر عليه، وهذا جعل السلطان يرجع إلى مراکش وبيقيه في إفريقية، بل عينه والياً على تونس وبجاية، ولكنه رفض، ولم يقبل إلا بعد إلحاح شديد من السلطان، وتم ذلك سنة 603هـ/1207م، واستمر في رعاية شؤون الولاية إلى وفاته سنة 618هـ/1221م⁽²⁾. فخلفه

(1) أبو حفص عمر الهنتاتي: هو عمر بن يحيى الهنتاتي، يرفع نسبه إلى عمر بن الخطاب، أحد أقطاب قبيلة هنتاتة المصامدة - سكان المغرب الأقصى - كان مبعولاً في قبيلته، ويعرف عندهم بالشيخ. وهو أول من بايع المهدي، وحظي بمكانته عند عبد المؤمن وابنه يوسف. وكان يعهد له بالمهام العظمى، ويقدم في المواقف الصعبة. واستطاع قمع الفتن التي أهدقت بالدولة. وبعثه عبد المؤمن على مقدمة جيشه عند زحفه إلى المغرب الأوسط سنة 537هـ واستخلفه عبد المؤمن مرتين في المغرب عندما رحل إلى إفريقية. انظر: ابن خلدون، ج6، ص ص 370-372، مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 382.

(2) ابن خلدون، ج6، ص ص 373-375، ابن الشاع، الأدلة البيئية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص ص 48-52، محمد العروسي المطوي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص ص 68، 74، 85، عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص ص 42-43.

ابنه عبد الرحمان لمدة ثلاثة أشهر ثم عزل. وخرجت الولاية من البيت الحفصي لمدة قصيرة، ثم تولى عبد الله عبو بن عبد الواحد سنة 623هـ/1226م، ومعه أخاه أبو زكريا يحيى، وبسبب القلاقل والفتن التي عصفت بالدولة، وتقاتل السلاطين، كلف السلطان الجديد المأمون، أبو زكريا بالولاية سنة 625هـ، فامثل الأمر وأزاح أخاه عبد الله عبو، واغتتم ضعف الدولة وانفصل نهائياً بولايته عن الموحدین سنة 626هـ/1229م⁽¹⁾.

ب - مرحلة التأسيس والازدهار (625-893هـ):

عرف أبو زكريا الأول⁽²⁾ بالعلم والأدب، وتحلى بالعدل والحكمة، وكان المؤسس الحقيقي للدولة الحفصية. وشرع في ضم الولايات المجاورة في المغرب الأوسط، وأولها قسنطينة وبجاية سنة 628هـ/1230م. ثم استولى على الجزائر والشلف حتى نواحي غليزان، ومواطن مغراوة وتوجين سنة 632هـ، ولحقها تلمسان سنة 640هـ⁽³⁾، وبايعته الأندلس الشرقية والمغرب⁽⁴⁾. وكان أبو زكريا وابنه المستنصر من أعظم الحفصيين، وعرف عهدهما ازدهارا حضاريا، ورخاء معيشيا، واستقرارا أمنيا⁽⁵⁾. وبعد سقوط الخلافة في بغداد، ظهر الفراغ ولم يجد المسلمون في الحجاز من يمكنه أن يتبوأ هذا المقام. فأرسل أهل مكة بيعتهم للمستنصر سنة 657هـ/1259م، وبايع بنو مرين، وحكومة مصر في السنة الموالية من طرف بيبرس⁽⁶⁾. مما يدل على مكانة الدولة في زمنها.

(1) انظر: ابن خلدون، المرجع السابق، ج6، ص ص 380-381، محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص ص 115-132.

(2) أبو زكريا الحفصي: هو أبو زكريا الأول، يحيى بن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص. ولد بمراكش سنة 599هـ/1203م، وتفق في علوم الدين، وأخذ قسما وافرا من الأدب العربي، فنال مكانته بين الشعراء، وتبوأ مرتبة بين العلماء، وتولى أمر قابس والحامة وما حولها في زمن ولاية أخيه أبي محمد عبد الله عبو. ولكن الخلاف دب بينها، فاغتتم فرصة الصراع على الحكم في مراكش، ومساندة السكان في تونس، فاستولى على الحكم، وبويع من سكان تونس في 24 رجب 625هـ/1228م، وبقي سيد أفريقيا إلى أن توفي سنة 647هـ/1249م ببونة، فدفن بجامعها، ثم نقل جسده إلى قسنطينة ودفن بها. انظر: ابن الشماخ، المرجع السابق، ص ص 54-60، الزركشي، المرجع السابق، ص ص 21-22، المؤنس، ص ص 125-12، محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 115.

(3) عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص ص 46-47.

(4) مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 382، عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص ص 42-48.

(5) مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 384.

(6) انظر: ابن الشماخ، المرجع السابق، ص 67، عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص ص 48-49، محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 190.

ودخلت الدولة دورها الثاني - في هذه المرحلة - بتولي أبي زكريا الثاني الملقب بالوائق (675-678هـ) الذي تخلى عن الحكم بعد سنتين فقط، وسلمها لعمه أبي إسحاق إبراهيم⁽¹⁾. فبدأ عهد الضعف، وعمت الاضطرابات، وسالت الدماء، وتفنتوا في القتل الوحشي، وانتشرت الفتن بشكل واسع، وطال زمنها، ويمكن الوقوف على بعض الفتن والاضطرابات، وهي:

- خروج أحمد بن مرزوق عن الدولة⁽²⁾ مدعياً أنه الفضل بن أبي زكريا يحيى الواثق. واغتصب الحكم من أبي إسحاق إبراهيم، وعاث في البلاد فساداً⁽³⁾.

- استيلاء أبي الحسن المريني على السلطنة الحفصية، ودخل تونس سنة 748هـ/1347م، وكون دولة امتدت من مصراتة إلى السوس الأقصى ورندة بالأندلس. ومع ذلك لم ينعم بالاستقرار في تونس، ولم تطل مدة سيطرته على السلطنة الحفصية، وانسحب من تونس سنة 750هـ/1349م، وركب البحر إلى المغرب الأقصى، وترك ابنه أبا الفضل حاكماً لتونس⁽⁴⁾. واستطاع أبو عنان المريني ضم الجزائر الحفصية بأكملها إلى دولته سنة 758هـ. وطلب منه سكان الجريد ضم تونس، ولكنه عجز عن ذلك ورجع إلى المغرب الأقصى.

والجدير بالذكر هو ملاحقة السلطان المريني لبيي رباح الذين لاذوا بالفرار جنوب بسكرة⁽⁵⁾. وكانت الزاب يدين أميرها من بني مزني للمرينيين. فأعانوه على ملاحقة العرب المارقين، ولكنهم توقفوا على مشارف الصحراء، وبلاد وادي سوف قاب قوسين منها

(1) ابن الشعاع، المرجع السابق، ص 75.

(2) أحمد بن مرزوق: هو أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة المسيلي. ولد بالمسيلة سنة 642هـ، ونشأ ببجاية. وكانت حرفته الخياطة، وكان متصلاً بالمنجمين، ويتعاطى السحر. ويزعم أنه يتقن تحويل المعادن إلى الذهب. وأوصله تنجيمه إلى التنبؤ بحكم إفريقية، وبدأ بالانتساب إلى آل البيت، وادعى أنه الفاطمي المنتظر. ورحل إلى طرابلس، واغتنم الشبه بينه وبين الفضل بن أبي زكريا يحيى الواثق، وتعاون مع أحد العبيد، وشرع يتصل بالقبائل، وخرج في طرابلس، واتجه إلى قابس وملكها في 681هـ/1283م. ودخل في حروب مع السلطان أبي إسحاق، وافتك الحكم منه، واستمر في ظلمه وسفكه للدماء إلى سنة 683هـ، حين هزم على يد عمر الحفصي، وقبض عليه وقتل بتونس، وشهر بجسده. انظر: ابن الشعاع، المرجع السابق، ص ص 77-81، المؤنس، ص ص 131-132، الزركشي، المرجع السابق، ص ص 46-50، محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص ص 256-264.

(3) الزركشي، المرجع السابق، ص ص 46-47.

(4) نفسه، ص ص 383-407.

(5) نفسه، ص ص 427-434.

وأدنى⁽¹⁾. وكانت بلاد الزاب الأقرب إلى التل، فيها مخاوف. وهذا ما ورد في رحلة النميري: (وما زال أولاد عبد المؤمن ثم أولاد أبي حفص يتحامون دخوله، ويتمهون حلوله. ويرون أنه في حكم الصحاري المتخاطفة والمدامي المترامية المتقاذفة، وأن الجيوش العظيمة إذا أمتها، خيف عليها من نفاذ الأزواد، والإخلال بمضامين الاستعداد، وانضمام العدو المعتاد للأصحار... حتى أتيج له هذا الملك المطاع، الجواد الباذل الشجاع الذي أمنت جيوشه بعباياه الفقر، ولم تهيب بفضل عزائمه الفقر. ولم تبال بمن أصرح من العربان، ولو فاتوا مدى الحسبان، بل صمدت لها في مفاوزها بالضراب والطعان، وجلت عن أن تقعع لها بالشنان)⁽²⁾. -استقل أبو زكريا بن إبراهيم بالقسم الغربي من الدولة الحفصية (الجزائر الحفصية) عندما استولى سنة 683هـ/1284م على بجاية وقسنطينة وتلمسان. وتلقب بالمنتخب لإحياء دين الله⁽³⁾. وحينئذ انقسمت السلطنة الحفصية إلى قسمين: الدولة الشرقية وعاصمتها تونس، والغربية وتمثل بجاية وقسنطينة. وبقي المغرب الأوسط في اضطراب، وتوزع بين الأمراء الحفصيين، يستقل حيناً، ويتوحد مع تونس أحياناً أخرى إلى سنة 772هـ/1370م حين رجعت الدولة إلى اتحادها بين تونس والجزائر⁽⁴⁾.

-اضطراب مناطق الجنوب في بلاد الجريد، أو بلاد الزاب. ونظرا لبعدها عن مركز السلطنة الحفصية في تونس، ظلت بعيدة عن السيطرة الكاملة من السلطة المركزية. وتمكن أمراؤها من الحكم المستقل، مما دفع السلاطين إلى القيام بحملات لإخضاعها⁽⁵⁾. ويومئذ كانت وادي سوف ضمن تلك المناطق في استقلالها، واشتغالها بالتعمير. وشهدت تتابع الهجرات إلى أقصى حدود الدولة.

وكانت بلاد الزاب إمارة تحت حكم بني مزني⁽⁶⁾ منذ 678هـ/1279م، بتكليف رسمي

(1) ابن الحاج النميري: فيض العباب وإفاضة قداح الأداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تح محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1990، ص ص 482-483.

(2) نفسه، ص ص 453-454.

(3) انظر: ابن خلدون، ج6، ص ص 448-449، محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 268.

(4) انظر: عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 55، محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 482.

(5) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص ص 355-362.

(6) إمارة بني مزني: كانت من أعظم الإمارات الجزائرية في العهد الحفصي. وتمتد إلى المسيلة ونقاوس شمالاً، ومن الدوسن غرباً إلى بادس شرقاً، وجنوباً يصل نفوذها إلى وادي ريغ وورجلان. وكانت الزاب تحت حكم بني رومان البسكريين. وفي عهد السلطان أبي اسحاق إبراهيم عهد سنة 678هـ بهذه الإمارة إلى الفضل بن علي بن أحمد بن الحسن بن علي بن مزني جزاء على نصرته على أخيه المستنصر. وبقيت في عقب بني مزني. وكانوا في سياستهم وولائهم مع =

من السلطان الحفصي. ويتأكد الولاء بالسمع والطاعة، والنصرة في الأزمات التي تمس الدولة، ودفع الضرائب والغرامات المترتبة سنويا. وعند تخلفها، تتعرض الإمارة إلى غزو من السلطان نفسه، والذي جند الحملة سنة 786هـ، وأدب الإمارة والقبائل العربية في المنطقة⁽¹⁾.

وكان الدور الثالث هو عهد الانتعاش، ومثله حكم السلطان أبي فارس عبد العزيز (796-838هـ) والذي أثنى عليه المؤرخون، فقال الزركشي: "... فاستقامت الأمور بتونس في أيامه كلها أحسن استقامة، وأحدث في أيامه بتونس حسنات دائمة... " (2) كالمنشآت العمرانية الخالدة، والمكتبات العامرة، ولاسيما في جامع الزيتونة الأعظم. وأوقفها على طلبة العلم، ومجالسته للعلماء ودعمهم وتشجيعهم. كما أزال المكوس والضرائب، وطهر البلاد من الفساد (3). وكان عصره في الازدهار محل ذكر وتنويه من أبي دینار: "... ما أطلت الكلام في هذا المحل إلا لكون هذا الإمام هو واسطة بني أبي حفص. وإذا ذكرت خلافة الحفصيين بدونه، يظهر في خلافتهم النقص... " (4) واستمر هذا العهد في خلافة السلطان أبي عمرو عثمان (839-893هـ) باستكمال التشييد، والتأييد للعلم وأهله⁽⁵⁾.

ثانيا: الامتداد الجغرافي للدولة:

كانت الجزائر في العهد الحفصي تضم مقاطعتي الجزائر وقسنطينة، وجزء من نواحي وهران، وتتوزع في أربع ولايات: هي بونة، وبجاية، وقسنطينة، والزاب وقاعدته بسكرة، وفي

=بني حفص في أحوال كثيرة طوعية أو إكراها. ويفضلون الولاء لبني زيان حسب ظروفهم، أو التبعية لبني مرين في المغرب، وذلك دفع السلطة الحفصية إلى تجريد الحملات العسكرية التأديبية، وآخرها غزو السلطان أبي فارس عزوز الحفصي الذي اقتحم مدينة بسكرة سنة 804هـ/1402، وقضى على الأسرة التي حكمت الإمارة نحو قرن وأربعين سنة.

انظر: ابن خلدون، ج6، ص ص 585-590، عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص ص 56-57.

(1) ابن خلدون، ج6، ص ص 574-575.

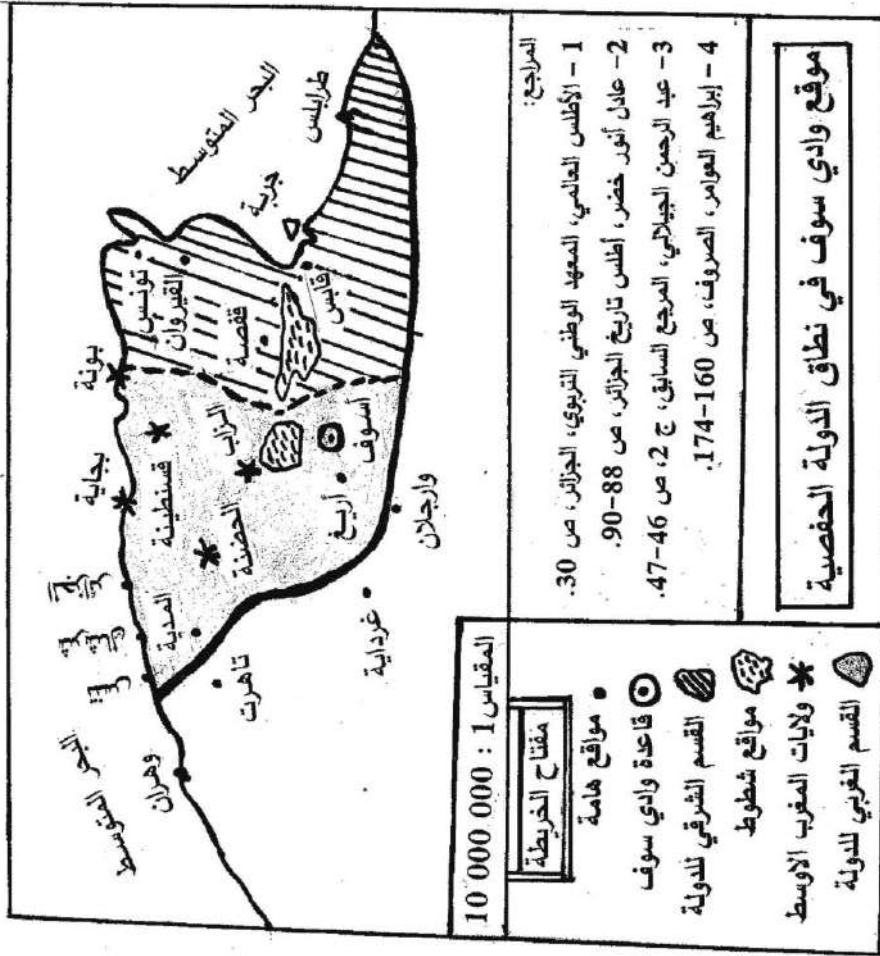
(2) الزركشي، المرجع السابق، ص ص 114-115.

(3) انظر: ابن الشماخ، المرجع السابق، ص 114، الزركشي، المرجع السابق، ص ص 116-118، محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص ص 594-596.

(4) المؤنس، المرجع السابق، ص 146.

(5) انظر: ابن الشماخ، المرجع السابق، ص ص 121-132، الزركشي، المرجع السابق، ص ص 134-140، محمد

العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 641.



المراجع:

- 1 - الأطلس العالمي، المعهد الوطني التربوي، الجزائر، ص 30.
- 2- عادل أنور خضر، أطلس تاريخ الجزائر، ص 88-90.
- 3- عبد الرحمن الجبلاي، المرجع السابق، ج 2، ص 46-47.
- 4 - إبراهيم العوامر، الصروف، ص 160-174.

موقع وادي سوف في نطاق الدولة الحفصية

المقياس 1 : 10 000 000

مفتاح الخريطة

- مواقع هامة
- قاعدة وادي سوف
- ▨ القسم الشرقي للدولة
- ☞ مواقع شطوط
- ✱ ولايات المغرب الأوسط
- ◐ القسم الغربي للدولة

مرات أخرى الحصنة، وتمتد أراضيها إلى الجنوب نحو ورجلان ووادي ريغ ووادي سوف⁽¹⁾.

ثالثا: الحياة السياسية في الدولة الحفصية:

كانت الأحوال السياسية متفاوتة بين الحواضر والمدن، وبين الأرياف والبوادي، ولا سيما صحراء وادي سوف، التي انتمت أراضيها إلى نطاق الدولة، ويومها عرفت حالة التأثير والتأثر.

أ- طبيعة الحياة السياسية عند الحفصيين:

تمثلت النواة الأولى للدولة في ولاية بني حفص في المغرب الأدنى ضمن الدولة الموحدية، والذي جعل سياسة الوالي أبي زكرياء الحفصي (625-647هـ) تتطور عندما توسع خارج نطاق الولاية، واستولى على قسنطينة وبجاية، وقضى على ثورة غانية سنة 631هـ، وأصبح متوليا - وبدون منازع - على رقعة تمتد من مدينة الجزائر غربا إلى ما وراء طرابلس شرقا. وحكم البلاد بصرامة في مدة ناهزت العشرين سنة⁽²⁾ ومما عرفت به سياسته:

- اتصافه بصلافة الرأي، والحلم والعلم، وقول الشعر. وكان معدودا من العلماء والشعراء. وما أوصى به ولي عهده الصغير حول تولي مقاليد الحكم، هو التحلي بصفات التريث، ورباطة الجأش، والصبر والحزم، والأخذ برأي عقلاء الجيش، وذوي التجارب من نبهاء الناس. - تثبيته الحكم الوراثي من بعده عندما عهد لولديه بولاية العهد⁽³⁾. وصار هذا الغالب في عهودهم الموالية. ولكن تتخللها فترات كان تولي الحكم فيها بالغبلة، ولكنه في نطاق الأسرة الحاكمة⁽⁴⁾. وتوفي أبو زكرياء عندما كان في جولة تفقدية في بونة (عنابة) سنة 647هـ/1249م، ودفن بجامعها. وتولى من بعده في المرحلة الأولى. والتي دامت نحو 273 سنة، عشرون أميراً، ويمكن الوقوف عند عناصر سياستهم:

- تفاوتت مدة حكمهم. فمنهم من قضى في السلطة أقل من ثلاثين سنة كما هو حال محمد بن زكرياء المستنصر بالله (647-675هـ)، وأبي بكر بن أبي زكرياء (718-747هـ)، ومنهم أربعون سنة عند أبي فارس عبد العزيز المتوكل (796-837هـ). وأطولها والتي تجاوزت نصف قرن عند أبي عمرو عثمان (839-893هـ). بينما البقية أكثرهم دون عشر سنوات، وبعضهم لا

(1) عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص ص 46-47.

(2) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص ص 131-132.

(3) نفسه، ص ص 159-167.

(4) عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 2، ص ص 43-44.

يكمل السنة، أو عدة أيام، وينتهي أمره بالعزل أو القتل مثل: أبي بكر المعروف بالشهيد، والذي قتل بعد سبعة عشر يوماً من حكمه⁽¹⁾.

- كانت الدولة الحفصية المركزية في المغرب الأدنى عاصمتها تونس. ولكن التنازع بين الإخوة والأعمام جعلها تتفرع عنها دولة أخرى غربية في المغرب الأوسط وعاصمتها بجاية. ولكن سرعان ما سعى حاكم بجاية إلى غزو الدولة الشرقية، لأنه يرى أن نفوذه الحقيقي ما كان في تونس. وهذا خلف صراعاً مريراً، واضطراباً في شؤون الحكم.

- كان الحاكم يلقب بالأمر، ثم تحول إلى الخليفة، أي أمير المؤمنين. وأول من تلقب بذلك أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء الذي لقب بالمستنصر بالله⁽²⁾، وتشجع لفعل ذلك للفراغ الذي حدث في العالم الإسلامي في منصب الخلافة، بعد سقوط بغداد بسنة، في عام 657هـ/1259م، عندما أرسل أمير مكة يبعثه للمستنصر. وبهذا تبوأ أمراء الدولة هذا المنصب⁽³⁾.

- كانت أمهات كثير من الخلفاء من الجواري الروميات مثل: المستنصر بالله (647-675هـ) والذي كانت أمه رومية تدعى عطف⁽⁴⁾ ويحيى الواثق، والدته أم ولد رومية تدعى ضرب⁽⁵⁾. وهذا كان منفذاً للأندلسيين المهاجرين في عهده، وأصبح الواثق العوبة في أيديهم، وضحية لسياساتهم⁽⁶⁾.

أما العلوج العتقاء الذين كانوا من الأسرى الأطفال - والذين صاحبوا السلطنة منذ نشأتها - صاروا محل اعتماد الخلفاء عليهم. وعرف الواحد منهم بلقب (القائد)، مثل القائد نبيل بن قطاية الذي برز باستبداده في عهد السلطان أبي عمرو عثمان (839-893هـ)، والذي لقي تنكيلاً كبيراً، وتعرضت عائلته لنكبة كبرى. فسجن نبيل ومعه كل أبنائه. وصدورت أموالهم وعقاراتهم، ومنها ما يزيد عن عشرين قنطاراً من الذهب الخالص، وما يقاربها من الجواهر. وهذا أثر على العليج نبيل ومات حسرة في سجنه. ولم يمنع هذا السلطان في ولاية قسنطينة بعد عزل حاكمها الحفصي أن عين عليها القائد المنصور. وكان من العلوج العتقاء، ولكن أهل بجاية رفضوا هذا العليج وحاولوا التمرد عليه. فسار إليهم السلطان بجيشه، ورأى من الحكمة

(1) الزركشي، المرجع السابق، ص 59.

(2) عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 2، ص 43.

(3) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 190.

(4) الزركشي، المرجع السابق، ص 33.

(5) نفسه، ص 41-42.

(6) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 229.

عزل العليج المنصور، وعين ابنه أبا فارس عبد العزيز على بجاية. ولكنه أبقى على قسنطينة القائد فارح، وأضاف إليه بسكرة وقسنطينة⁽¹⁾.

-لقد بلغ القتل عندهم حدا لا يطاق. فلما تولى المستنصر، كان شابا تجاوز العشرين من عمره. وتصدى بقوة للخلافات الداخلية، وقتل أعمامه وأبناءهم لتمردهم ومحاولتهم الانقلاب على حكمه. كما أن أبا إسحاق إبراهيم الأول (678-681هـ) كان أول عمل قام به هو التنكيل بخصومه. فقتل الواثق (675-678هـ)، وأبناؤه الثلاثة ذبحوا في سجن القلعة.

-كان بعض السلاطين لا يباليون بشؤون الدولة، ويتركون زمام الأمور لغيرهم. فإبراهيم الأول تفرغ للهو، وترك أمور الدولة لأبنائه الخمسة، ومع ذلك يلقب نفسه بالمجاهد. يتذكر ما قام به من جهاد في الأندلس في محاربة النصارى مع بني الأحمر⁽²⁾، كذلك أبو يحيى زكرياء اللحياني (711-717هـ) رغم ولوعه بالعلم والأدب، وسيرته الحسنة في الرعية، فإنه ترك الحكم وخرج من البلاد. وباع الذخائر ومنها الكتب التي جمعها أبو زكرياء الأول، وجمع قناطير من الذهب وهرب بها خارج البلاد، وترك السلطنة تستنجد بمن يتولاها. وآلت لولده الذي كان في السجن معاقبا، والمعروف بمحمد أبي ضربة، فبايعوه ولكنه هرب في السنة الموالية 718هـ. وهذا يدل على ضعف الدولة الكبير⁽³⁾.

-استباحة الحكم لمن استطاع دون مراعاة للقدر على التسيير، أو الحق في التولية، بل الصراع بين الأطراف يوصل إلى سدة الحكم أشباه الحكام. ففي عهد إبراهيم الأول، وصل الدعي ابن أبي عمارة (681-683هـ)، وهو رجل ادعى أنه الفضل بن يحيى الواثق، واتفق مع مولى الواثق الفتى نصير لاسترجاع ملك سيده. وخاض حروبا حتى تمكن من حكم تونس⁽⁴⁾. كما أن الخليفة أبا حفص عمر بن أبي زكرياء (683-694هـ) عهد بولاية العهد لابنه الذي لم يبلغ الحلم عبد الله، ولكن الحاشية رفضت ذلك، ومات الخليفة بعد ثلاثة أيام. فجاء بشاب صغير، وهو أبو عبد الله محمد بن الواثق، والذي تلقب بالمستنصر بالله، واشتهر باسم أبي عصيدة، لأنه ابن جارية. وتربى في زاوية الشيخ المرجاني. وأول عمل قام به ابن اللحياني هو قتل الطفل عبد الله بن عمر الحفصي، حتى لا ينازع أبي عصيدة في الحكم⁽⁵⁾.

(1) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص ص 625-627.

(2) نفسه، ص 238.

(3) انظر: الزركشي، المرجع السابق، ص 60-61، المطوي، المرجع السابق، ص ص 319-331.

(4) الزركشي، المرجع السابق، ص 45.

(5) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص ص 281-287.

- كان الحاجب هو أكبر المناصب الوزارية في الدولة⁽¹⁾. وصار لهم الدور الكبير في تسيير دواليب الدولة، والتصرف الواسع، وتوجيه الحكام وفق مصالحهم. ويعتبر أبو محمد عبد الله ابن تافراجين (ت766هـ) نموذجا لذلك المسير. فقد افتك الحكم لأبي حفص عمر الثاني (747-748هـ) الذي لقب بالناصر لدين الله. أوصله لسدة الخلافة عن طريق الحيلة والمكر. ولكن خروج أخيه أبي العباس، ووقوع الحرب دفع ابن تافراجين إلى الفرار. واستطاع أبو حفص أن يهزم أخاه، وقتله وقطع أيدي أخويه، ثم قتلا. ولم تدم سلطنة أبي العباس المتغلب سوى سبعة أيام، ثم اتجه ابن تافراجين إلى أبي الحسن المريني في تلمسان، وحرّضه على غزو تونس. وتم ذلك للمريني الاستيلاء على تونس، وقتل عمر الثاني، ولم يدم حكمه سوى عشرة أشهر⁽²⁾. وحكم بعده أبو العباس الفضل (750-751هـ) الذي عزله ابن تافراجين، وأجلس أخاه الصغير الذي لم تتجاوز سنه الثالثة عشرة من عمره. استخرجه من حجر أمه بعد أن أفضعها، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر، وهو إبراهيم الثاني (751-761هـ)، وأطلق عليه اسم المستنصر بالله. ولكن - في الواقع - كان ابن تافراجين هو السلطان غير المتوج. يتصرف في السلطنة تصرفا مطلقا ليس له حدود⁽³⁾. وبعد وفاته، تولى ابنه حاجبا، ولكنه كان أقل منه تأثيرا، بل تعرض للعزل.

وكان للحاجب الدور في تنصيب الخليفة والوصاية عليه، والتصرف في الدولة بدون حدود، والاستبداد بالحكم، وظلم الرعية وتدبير الدسائس. كما فعل الحاجب أحمد بن إبراهيم بن المالقي الذي اغتتم الموت المفاجئ للسلطان أبي إسحاق إبراهيم في رجب 770هـ/ 1368م، وأخذ البيعة لابنه الصغير الذي لم يتجاوز عمره اثنتي عشرة سنة، ويدعى أبا البقاء خالد (الثاني) الملقب بالناصر (770-772هـ). وصار الحاجب هو المتصرف في السلطنة بحرية مطلقة. وهذا ما جعل أبا العباس أحمد الأول (772-796هـ)، وكان حاكما على قسنطينة، يزحف على تونس، ويتولى السلطة، ويقتل الحاجب المالقي، ويسجن السلطان أبا البقاء الثاني⁽⁴⁾.

(1) عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج2، ص 45.

(2) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص ص 370-384.

(3) نفسه، ص ص 411-417.

(4) نفسه، ص ص 473-482.

ب- طبيعة الحياة السياسية بوادي سوف:

كانت وادي سوف جزء من تراب الدولة الحفصية، بين حاضرتي بني مزني في بلاد الزاب، وبين بلاد الجريد. ولكن لم تعرف لها نشاطاتها البارزة، وهذا للاعتبارات التالية:

- كانت المناطق الداخلية الجنوبية عموما في الصحراء تعيش حالة من الاضطراب والتفلت من السلطة المركزية، ولا تعرف الانقياد إلا قليلا، وهي موزعة على أمراء. بينما ترسل السلطة لهم الجيوش لتأديبهم وضمهم للدولة⁽¹⁾ وجعلهم يدينون لها بالولاء والطاعة. وهذا ما جعل المناطق النائية مثل وادي سوف خارج مجال الفعل السياسي.

- انطواء زناتة في وادي سوف على نفسها خوفا من انتقام الدولة الحفصية السنية. وكانت - زناتة - تعاني آخر أيامها في وادي سوف بسبب الصراع مع الوافد العربي الجديد من قبيلتي عدوان وطرود اللتين تنازعاها عوامل البقاء.

ولكن كان لقبيلة طرود بعض المواقف السياسية من حكام الدولة الحفصية - منذ نزولهم إلى المغرب الأدنى - فوجدوا ترحيبا من حاكم بلدة قابس. ولكن ساءت العلاقة بسبب حادثة قتل شاركت فيها طرود، وفضلوا الرحيل على عاداتهم البدوية، فانتقلوا إلى القيروان والمهدية. وحينها بدأت صداماتهم مع سلاطين تونس الحفصيين، لأن لطرود أسباب البروز، وهذا جعلها تنزع وادي سوف، وتصبح العنصر الفعال والأساسي في كامل الإقليم. ويمكن تتبع بعض الحالات في تلك العهود مع حكام الدولة:

أ- السلطان أبو حفص عمر الأول (683-694هـ):

لما علم هذا السلطان مكانة قبيلة طرود وقوتها، وكثرة أفرادها، وأحس بخطرهم يزداد يوما بعد آخر، خصوصا مع والي الدولة في قابس، وسبب إخراجهم من بلاده، حينها أرسل لهم السلطان أبو حفص وفدا رفيع المستوى، وطلب منهم الاقتراب من نواحي تونس. فتشاوروا في الأمر، واختلفوا في تنفيذه والاستجابة له. فقال أحدهم: (نحن قوم لا ولاية لأحد علينا، ونريد اتساع المكان، فلا تضيقوا علينا ما وسعه الله). ونتيجة لهذا الموقف المتصلب، بقي الأمر بدون حسم، ورجع الوفد الحفصي إلى السلطان بدون استجابة. ولكن السلطان بقي مصرا، وأرسل الوفد مرة ثانية ولكن بعروض مغرية، ومما أخبر به الوفد قوم طرود إذا لبوا دعوته، ما يلي:

- يضمن لهم الأمير كل مطالبهم، ويعطيهم ما يحتاجون، ويوفر لهم المكان اللائق بإقامتهم.

(1) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص ص 356-364.

-يجعلهم عوناً له في حروبه، ويكونون قسماً من جيشه، ويستعين بهم على محاربة القبائل
الثائرة، والمتمردين على الدولة.

-يجعل أعيان القبيلة من المقربين، وينالون الحظوة عنده في مجالسه ومسامراته، ويتلقون منه
كل الدعم والحماية.

فاستجابت طرود، وأرسلوا وفداً مؤلفاً من أربعائة رجل. فلما وصل سادتهم إلى مقام
السلطان، وقف لهم إجلالاً، وأكرمهم بسخاء، وأقاموا في ضيافته ثلاثة أيام. فلما أرادوا
الانصراف، أعطى كل واحد منهم كسوة تليق به، وقال لهم: غدا يلحق بكم بعض عمالي، وينفذ
لكم ما تستحقون:

-منح القبيلة أرضاً واسعة، وينزل كل بطن من القبيلة في مكانها الخاص.

-يخصص للخيل ما تحتاجه من مؤونة، ويعوض السلطان لمن فقد فرسه بفرس آخر.

-يخصص للجميع سوقاً أسبوعية تحمل اسم سوق طرود. والمقابل هو الولاء للسلطان
على الإطلاق. فبايعوه على السمع والطاعة.

ولما رجعوا إلى قومهم، صار حوهم بما فهموه أن السلطان يضمهم لهم الحقد، وأمرهم
بالتفرق حتى يأخذهم على حين غرة، لأنه حاقدهم بسبب فعالهم السابقة مع حاكم قابس.
وطلبوا منهم المغادرة قبل الصباح. فلم يسمعوا لنصيحتهم. وفعلاً بعد يومين، هاجمهم جيش
السلطان أبي حفص، واستأصلوهم جميعاً⁽¹⁾. وهذه عاقبة من يأمن السلطان ولا يحذر ما يصيبه
من مكروه. وذكر الإمام الغزالي في الأصل الرابع: (أن الوالي في الأغلب يكون متكبراً، ومن
التكبر يحدث عليه السخط الداعية إلى الانتقام)⁽²⁾.

أما أصحاب النصح، فغادروا مكانهم تحسباً لمكر السلطان، فنجوا بأنفسهم. وهذا من
حكمة شيوخهم، ووعيهم بسياسة الأمور.

وسارت طرود نحو سفاقص، ومنها إلى قفصة وقمودة. وانقل بعضهم إلى باجة، والعدد
الأكبر إلى شمال وادي سوف في مناطق عقلة الطرودي وبودخان والميتة في حدود سنة

(1) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 148-149.

(2) انظر: أبا حامد الغزالي، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ضبطه وصححه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية،
ط1، بيروت، 1988، ص ص 23-24.

690هـ/1292م. وبقيت طرود على حذر شديد من الأمراء الحفصيين الذين يكون لهم العداوة والبغضاء⁽¹⁾.

ب-السلطان أبو عبد الله محمد (694-709هـ):

وهو المكنى بأبي عصيدة. وكانت أيامه - في أغلبها - أيام هدنة وسلم، وقلة حروب. واشتغل الناس بالغراسة وتشيد الأبراج، وامتدت الآمال بعيدا⁽²⁾. وكانت إمارة بجاية مستعصية على السلطان الذي هاجمها. واستطاعت جيوشه التوغل في البلاد حتى وصلت إلى ميله، وارتكبت في طريقها أعمالا شنيعة من الرعب والتنكيل بالسكان. لكن هجومه لم يحقق ما كان يصبو إليه. ورجع مسرعا إلى عاصمته في رمضان سنة 695هـ/1296م. وهذا جعل طرود مصممة على موقفها المناهض للحكام الحفصيين، وتترقب أي فرصة لتعين المنتفضين ضدهم، وتقاتل معهم⁽³⁾.

ج-السلطان أبو البقاء خالد بن أبي زكرياء (709-711هـ):

وكان واليا على بجاية وقسنطينة بعد موت والده أبي زكرياء. واستطاع السيطرة على تونس، ووحيد السلطنة. ولكنه كان منغمسا في اللهو، وترك أمر الجنود والسلطة لغيره⁽⁴⁾. وفتك بالكثير من رجال الدولة، كما كان شديدا على الرعية. وهذا شجع على بروز منافسين له على الحكم، فانتفضوا في عدة أماكن من الدولة⁽⁵⁾.

وعندما مرت بعض القبائل الموالية له في طريقها إلى قسنطينة، وقع لها صدام مع قبيلة طرود بشمال وادي سوف. وأخبر السلطان بالأمر، فأراد الانتقام منهم عند عودته لتونس. فتفطنت قبيلة طرود لذلك وفضلت التسليم، وانتقلوا جميعا إلى مكان يدعى "ماء المنقوب" في الجهة الغربية من نفطة. ولما رجع جيش السلطان إلى تونس، أخبر السلطان أن مواطن طرود صارت خالية من السكان⁽⁶⁾.

ولما هدأت الأحوال وتغيرت الظروف، عادت طرود إلى مضاربها في عقلة الطرودي. كما بلغها خبر الخلاف الذي اشتد بين السلطان خالد وأخيه أبي بكر بن أبي زكرياء الذي عينه واليا

(1) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 149.

(2) ابن الشاع، الأدلة النورانية، ص 83.

(3) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 149.

(4) ابن الشاع، الأدلة النورانية، ص 83.

(5) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 311.

(6) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 149.

على قسنطينة. فجمع الجموع الكبيرة من العرب، والقبائل المناهضة للسلطة، وتوجه بهم إلى تونس. وكانت قبيلة طرود في المقدمة، ولها موقف الانتقام من حكام تونس، وقامت المعركة التي أبلوا فيها بلاء كبيرا، وقفت أمامه قوات السلطان عاجزة، وانهزمت شر هزيمة. وفر السلطان، وآثر السلامة على القتال. فلاحقه جنود من طرود يرغبون في قتله، ولكن تمكن من غلق باب المدينة دونهم، ولكن أحدهم ضرب الباب برمح فثقبه، وافتخرت بذلك طرود وقالوا قولتهم الشهيرة التي خلدتها التاريخ (دقتنا في باب خالد). وحينها خلع السلطان نفسه، وتنازل عن الحكم⁽¹⁾، فتسلم الحكم المولى أبو يحيى زكرياء اللحياني (711-717هـ)⁽²⁾. وخلفاؤه من بعده أكرموا قبيلة طرود ورفعوا منزلتها. وعاش بعضهم في باجة، والبقية في وادي سوف على أحسن حال⁽³⁾.

د- السلطان أبو العباس أحمد بن محمد (772-796هـ):

كان جزء من قبيلة طرود في عهده متمركزا في باجة وتستور من البلاد التونسية، وتضايق أهل تلك المناطق منهم لأنهم أصحاب عزم، وخافوا من التحكم في زمام الأمور عندهم. فقدموا الشكاوى العديدة للولاية هناك، وطالبوا بإخراجهم، ووصل الأمر إلى السلطان، وطرح أمرهم في مجلس الشورى، فأشاروا عليه بالتضييق عليهم في الضرائب، ومراقبتهم حتى لا يقع منهم تمرد. وكان للسلطان حروب في بلاد الجريد⁽⁴⁾ وإقليم الزاب وغيرهما من المواقع المتفضة القريبة من وادي سوف. واستطاع فيها ترويض تلك القبائل، ولقيت العقوبة الكافية. وحينها خشيت طرود من بطش السلطان، وتشاور العلماء فيها، ورأوا بعين الحكمة الانسحاب نحو مواقعهم في عقلة الطروودي في أواخر عهد السلطان أبي العباس في حدود عام 796هـ/1394م⁽⁵⁾.

هـ- السلطان أبو عمرو عثمان (839-893هـ):

لقد ساد الهدوء في هذا العهد بوادي سوف، عندما استقرت طرود بمدينة الوادي التي بسطت سيادتها على كامل المدينة، وحولتها إلى قاعدة للإقليم. وصارت طرود مؤهلة للقيام

(1) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 150.

(2) ابن الشعاع، الأدلة النورانية، ص 83.

(3) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 150.

(4) المطوي، المرجع السابق، ص 484-496.

(5) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 154.

بدور بارز و متميز في المدينة وما حولها، ولاسيما بعد جلاء زناتة من وادي سوف، وانفردت بالحكم.

ونزل العرب من بطون بني سليم قبل فترة حكمه خلال سنة 835هـ/1432م في أراضي المغرب الأدنى. وأحدثوا أضرارا بجيرانهم، وصاروا مصدر إزعاج للسلطة في تونس. ولكنهم سارعوا إلى الاحتواء بالذواودة⁽¹⁾ لأن لهم مكانة عند السلطان، فشنفوا فيهم. ولم يدم ذلك طويلا، فأعادوا الكرة سنة 838هـ/1435م، وأثاروا القلاقل، وتزامن مع ولاية أبي عمرو عثمان الذي طلب من الذواودة إخراجهم من بلاده، فخرجوا متفرقين. فمنهم من اختار طرابلس أو الزاب، وفضل بعضهم وادي سوف التي دخلوها عام 840هـ/1437م، ونزلوا بنواحي الحجر شمال تكسبت الجديدة. واستقروا في مكان أطلقوا عليه الهنشير. وهو في مكان بلدة كوينين⁽²⁾.

والجدير بالذكر أن السلطان أبا عمرو عثمان عمل على تصفية حركات الانشقاق والتمرد⁽³⁾ مثلما وقع من مشيخة تقرت⁽⁴⁾ التي امتنع حاكمها يوسف بن الحسن عن دفع الضرائب للدولة. فهاجمها السلطان أبو عمرو عثمان سنة 853هـ، وحاصرها أياما، وقطع نخيلها، وقتل أهلها. ولكنه تغلب عليهم، واقتحمها عليهم، واعتقل أميرها وأهله، وأخذهم معه إلى تونس.⁽⁵⁾ ولم يرتدع سكانها، فتمردوا مرة ثانية سنة 869هـ، فقدم إليهم السلطان الحفصي، وأخذ الغرامة منهم عنوة، وهدم سور البلدة، وواصل رحلته إلى ورقلة وميزاب، وجمع الأموال المعبرة عن انصياعهم، ومكث في رحلته إلى رجب سنة 870هـ⁽⁶⁾.

(1) **الذواودة**: وهم من قبيلة هلال، وبطن من رباح كما ذكر بن خلدون: (وهم أبناء داود بن مرداس بن رباح). وكان لهم دورهم في العهد الموحي والحفصي. وانتشروا في بلاد المغرب الإسلامي، وخصوصا تونس وبلاد الجريد والزاب وطرابلس وغيرها. انظر: بن خلدون، ج 6، ص ص 44-45.

(2) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 173-174.

(3) انظر: ابن الشماخ، المرجع السابق، ص ص 121-132، الزركشي، المرجع السابق، ص ص 134-140، محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 641.

(4) **مشيخة تقرت**: كانت تقرت من أمصار وادي ريغ، تحكمتها أسرة بني يوسف بن عبد الله. ثم آلت لعبيد الله بن يوسف. وبعده تولى أبناؤه وهم على التوالي: داود ثم يوسف وبعده مسعود ثم الحسن بن مسعود ثم أحمد بن مسعود الذي عاصر عهد ابن خلدون. وقيل أصلهم من ريغة أو بني سنجاس. وكانوا خوارج، وفيهم طائفة النكارية. انظر: ابن خلدون، ج 7، ص 65.

(5) الزركشي، المرجع السابق، ص ص 143-144.

(6) نفسه، ص ص 156-157.

وكانت وادي سوف وسكانها من طرود على وفاق مع السلطة الحفصية. وعند رجوع السلطان، فر أحد محلته إلى طرود⁽¹⁾، فرفضوا إيواؤه للمحافظة على علاقاتهم الحسنة مع السلطان أبي عمرو عثمان الذي استطاع المحافظة على دولته. وبعد موته، دخلت البلاد في فتن داخلية خطيرة⁽²⁾. وهكذا فضلت طرود الابتعاد عن القلاقل، وسلمت بالأمر الواقع، وآثرت سبيل السلامة، وابتعدت عن الخوض في الشؤون السياسية، وبقوا يدينون بالولاء المطلق للسلطة الحفصية.

ولم يكن في وادي سوف قيادة مشتركة للمجتمع، بل فضلت كل قبيلة أن يسوسها كبارؤها وشيوخها الذين لهم الكلمة المسموعة والنهائية في عظام الأمور. وعندما وقعت المعركة الطاحنة بين عدوان وطرود، واحتكموا إلى المرأة الصالحة، زينب بنت تندلة، نصحتهم بتوحيد صفوفهم، واتخاذ أمير يقود قبائلهم. فرفضوا ذلك وقالوا لها: نرفض كل قيادة لأنها تقيد حريتنا. وذكر العدواني غضب هذه المرأة عليهم، وقالت لهم داعية عليهم: (اشهدوا علي، لا يجعل والياً ولا أميراً عليكم ولا منكم إلى يوم القيامة)⁽³⁾.

ولهذا كانت الحياة الاجتماعية متداخلة، ويشوبها الصراع والتنافس، والبحث عن الأمن والاستقرار، وبناء المجتمع وإرساء قواعده الاجتماعية ومعاله العمرانية.

(1) السياسي الذي فر من السلطان، هو محمد بن سعيد المسكيني الذي لحق بقبيلة طرود بوادي سوف، فرفضوا إجارته خوفاً من بطش السلطة. ولكن فئة منهم أجارته لمدة يسيرة. ثم غادرهم إلى شيخ الذواودة سبع بن أبي يونس الذي وفر له الأمن والاستقرار. انظر: الزركشي، المرجع السابق، ص 157.

(2) انظر: ابن الشعاع، المرجع السابق، ص ص 121-132، الزركشي، المرجع السابق، ص ص 134-140، محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 641.

(3) تاريخ العدواني، المرجع السابق، ص 102.

المبحث الثاني

الحياة الاجتماعية بوادي سوف في العهد الحفصي

كانت القبيلة تمثل الوحدة الأساسية للمجتمع في المغرب الأوسط، ولها امتداداتها في مختلف الأقاليم المجاورة. وكل مجتمع محلي يتركب من فسيفساء من القبائل والعروش. وحتى نقف عند مكونات المجتمع في وادي سوف - في هذا العهد - يتطلب المقام معرفة الحياة الاجتماعية في الدولة الحفصية حتى يتسنى اكتشاف الحياة في المجتمع المحلي.

أولاً: الحياة الاجتماعية في الدولة الحفصية:

كانت القبائل عاملاً مؤثراً وفعالاً في الحياة الاجتماعية والسياسية. ولها مكانة في قيادة البوادي والصحراء لدى القبائل القوية⁽¹⁾، ولاسيما قبائل هلال وسليم. وتفادياً لخطرهم، عمل الحفصيون على نقلهم إلى ضواحي المدن في تونس وأطرافها من أجل إحداث التوازن. وعلى ذلك الأساس تم توزيعها. فانتشروا في بلاد الجريد ومناطق من قابس إلى نفطة وبونة وبلاد الأوراس والحضنة. ووصل بعضهم إلى قسنطينة، والجنوب في وادي ريغ ووارجلان⁽²⁾. واستطاعت قبيلة رياح التغلب على ورقلة ووادي ريغ. وتقدمت نحو بلاد الزاب، فهزمت واليها عثمان بن محمد بن عتو وقتلوه. وتحكموا في بلاد الأوراس، وقتلوا موسى بن ماضي، وسيطروا على الحضنة. ولم تتمكن الدولة من منعهم، بل اضطر السلطان أبو إسحاق، إلى مهادنتهم، بل أقطعهم تلك البلدان وأقرهم عليها⁽³⁾.

وأحدثت حركة تنقل القبائل تغيرات اجتماعية هامة في المجتمع، وتفاعلت مع العنصر البربري الأصيل بالاندماج، أو التدافع والصراع على مناطق النفوذ. ولم تقف المظاهر الطبيعية حاجزاً أمام الانتشار والتوسع، فوصلت إلى الجبال والبوادي والصحراء⁽⁴⁾ ومنها منطقة وادي

(1) مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، ص 399.

(2) جميلة مبطي المسعودي، المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص منذ قيامها سنة 621 وحتى سنة 839هـ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، تح اشراف أ. د. محمد المنسي محمود عاصي، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، جامعة أم القرى، السعودية، سنة 2000، ص 137-139.

(3) مبارك الميلي، مرجع سابق، ص 359.

(4) عبد اله شريط، محمد الميلي، المرجع السابق، ص 95.

سوف النائية. ونتج عن ذلك الانتقال تحول اقتصادي هام، وتطور في المنشآت العمرانية. وكان للبدو الرحل تأثير في اكتساح بعض المناطق التي أجلوا منها سكانها، واستقروا مكانهم، ولم تتمكن الدولة من منعهم، وقد تسببوا في اختلال الأمن. ولكن حدثت تسويات بينهم وبين السكان المحليين تمت بالقهر والتسلط، أو بالتراضي مراعاة للمصلحة المتبادلة⁽¹⁾. ويشرف على ذلك الشيوخ والأعيان كما ورد عن ابن خلدون: (وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة).⁽²⁾

ويفضل أولئك البدو حياة الرعي، ومرافقة القوافل، بينما تنفر نفوسهم من ممارسة الأعمال الزراعية⁽³⁾ التي تفرضها عليهم الظروف القاسية، وطول الزمن، والتأثر بمن يجاورهم من السكان القدامى. والمجتمع موزع على طبقات، والتي أوجدت نوعا من التنافس أو الصراع، وبرزت في مقدمتها الطبقة الارستقراطية، ومثلتها الأسرة الحفصية الحاكمة، وهي التي تمسك بمقاليد الأمور، ولها تنافس شديد مع طبقة الأشراف، وهم شيوخ الموحدين، ولهم المكانة السياسية والاجتماعية المرموقة. بينما غالبية السكان من الطبقة الوسطى، وهي فئة الحضر والأعيان والتجار، والطبقة الأخيرة تتمثل في العبيد السود الذين جلبوا من إفريقيا، كانوا يعملون في البيوت، ولهم نشاطات أخرى في الأراضي الفلاحية⁽⁴⁾.

ثانيا- الحياة الاجتماعية بوادي سوف:

كان مجتمع وادي سوف - خلال عهد الدول السابقة - يشهد تطورا كبيرا، وتشكلا في ملامحه، وتثبيتا لخصائصه التي ظهرت في حينها، وتجلت في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

1- التركيبة البشرية للمجتمع في العهد الحفصي:

عرف المجتمع في وادي سوف بتنوع عناصره السكانية. وكان للهجرة دورها في تزايد وتتابع عناصره المختلفة. ويمكن تقسيمها إلى البربر والعرب، ومثلتها القبائل التالية:

أ- قبيلة زناتة: وهي القبيلة القديمة. ولها السيادة الكاملة على وادي سوف، ولاسيما مدينة الوادي، وقاعدتها تكسبت القديمة. وتنتمي إلى المذهب الإباضي، والفرقة النكارية.

(1) روبرار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيرة، 1988، ج2، ص 163-165.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 102.

(3) روبرار برنشفيك، مرجع سابق، ج2، ص 165.

(4) جميلة مبطي المسعودي، المرجع السابق، ص 145.

واستمرت في سوف إلى سنة 818هـ/1416م عندما حسم الصراع مع العرب المهاجرين، وانسحبت زناتة، وبقيت وادي سوف خالصة للعرب.

ب- قبيلة عدوان: وهي قبيلة عربية عريقة في وادي سوف، وصلت عناصرها الأولى إلى المنطقة الشمالية لسوف في حدود سنة 600هـ/1204م. واستقرت في بادئ الأمر في قصور عدوان.

واقترح عليهم أرضهم عرب بني مرداس من الهلاليين. وكانوا رعاة يتنقلون، وتصاهروا مع بعض زناتة تكسبت، واندمجوا معهم، واستعانوا بهم في حربهم ضد عدوان. وحينئذ انتقلت عدوان لنفسها، وعطلت عيون النازية⁽¹⁾، ورحلوا إلى صحراء نفزاوة. وعندما قل الماء الذي يمثل مصدر الحياة، غادر بنو مرداس وادي سوف نحو بلاد الزاب ونواحيها، وذلك شجع قبيلة عدوان على العودة إلى موقعهم في القصور الشمالية في عام 766هـ/1365م. وشيدوا مساكن من الخشب، وأخرجوا الرهبان من قصورهم المجاورة لهم وسكنوها⁽²⁾. وكان لهم تنافس كبير مع بني عمومته من طرود، وانتهى بابتعاد كل طرف عن الآخر. فنزلت طرود إلى مدينة الوادي، وبعدها سكنت عدوان منطقة اللجة، شمال مدينة الوادي.

ج- قبيلة طرود: تعتبر هذه القبيلة من أكبر القبائل العربية، وكان لها سجل مع السلاطين الحفصيين قبل هجرتهم إلى وادي سوف. وسكنوا في أول أمرهم في عقلة الطروي بشمال سوف، ثم انتقلوا إلى الجردانية. وساءت الأحوال بينهم وبين عدوان. وأخيرا فضلوا الانسحاب، واستقروا في مدينة الوادي قرب منازل زناتة. وكان قد سبقهم إلى هذه المدينة رجل من العرب هو سيدي مستور الذي سكن قرب زناتة. وأول من نزل الوادي من طرود، هم أفراد من قبيلة أولاد أحمد سكنوا قرب منازل سيدي مستور. وتزايد العدد، وكان ذلك في حدود سنة 800هـ/1398م.

د- قبيلة بني سليم: وهي قبيلة عربية عريقة، تنتسب إلى سليم بن منصور. وكان دخولهم إلى سوف في حدود سنة 840هـ/1437م، ونزلوا يومئذ في نواحي كوينين. وكانت علاقتهم على أحسن ما يرام مع طرود. وتعاملوا بالتجارة، وتبادلوا المصالح، وجرت بينهم المنافع،

(1) عيون النازية: هي عيون مائية ومنايع كانت تمد وادي سوف بالماء، وعطلتها قبيلة عدوان في حدود عام 761هـ/1360م حرمانا لبني مرداس. وتم التعطيل برمي الصخور، وتهديم الأطراف. انظر: إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 152.

(2) تم إجلاء الرهبان المسيحيين إلى الزاب ووادي ريغ ووارجلان وبلاد الجريد. ولم يبق منهم أحد بوادي سوف. انظر: إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 153.

وتوطدت الصداقة، وتطور إلى المجاورة في المسكن، وإلى المصاهرة التي قربتهم أكثر، وانتقل عدد من أفراد طرود للمسكن قرب منازل سليم في منطقة الهنشير الشرقي⁽¹⁾.

2- التطور الاجتماعي والصراع القبلي:

شهدت وادي سوف تحولا اجتماعيا كبيرا، وتطورا حضاريا بارزا، وصراعا مريرا مس الأرض والسكان، وأثر على مختلف مظاهر الحياة والمعيشة، بل تعداها إلى الجوانب الثقافية، والسلوك الديني. وكان لنزول عرب قبيلة طرود في حدود سنة 800هـ أثره في إذكاء نار الصراع الذي تولد عنه تحول خطير أفضى إلى رسم معالم المجتمع الجديد.

أ- أسباب الصراع:

تعددت أسباب الصراع بين طرود وبني عمومته من عرب قبيلة عدوان الذين سبقوهم في الاستقرار في شمال وادي سوف، وبين طرود وقبيلة زناتة البربرية الإباضية التي أسست النواة الأولى لمدينة الوادي في تكسبت القديمة. وكان لكل طرف أسبابه التي دفعته للخصام مع طرود. ويمكن الوقوف عند الأسباب التالية:

- التنافس على مصادر الماء: وأهمها منابع الوادي الرقراق الذي يمر بوادي سوف، ويمثل شريان حياتها. و عبر عنه العدواني بالغديرة عند نزول طرود لسوف، فقال: " قال الراوي: ثم انحدروا إلى سوف وكان فيها يومئذ غديرة النيل"⁽²⁾. ويعني به النهر الرقراق. واستعمال الغديرة بسبب البرك التي تنفصل عن النهر في جوانبه عندما يقل منسوب مياهه. ودفنت عيون النازية بتراكم الرمال. وأدى الصراع بين القبيلتين إلى الزيادة في إفساد ودفن العيون التي كانت رافدا مهما للنهر الرقراق، والذي عرف الجفاف لمدة طويلة من السنة، وتحول إلى غدائر متناثرة في الرمال تجتمع عليها القبائل، وأطلق عليها "اللجج". وعرفت الغديرة العليا باسم اللجة، وهي أصل بلدة الزقم⁽³⁾. بينما عرفت مدينة الوادي باسم الغديرة الوسطى، وجنوبها حمل اسم الغديرة السفلى. وهو آخر مصب الوادي⁽⁴⁾ الذي استمر في الجريان ببطء ثم نضب ماؤه، وانتهى عن الجريان في حدود القرن 8هـ/14م⁽⁵⁾.

(1) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 173، 174.

(2) تاريخ العدواني، المرجع السابق، ص 109.

(3) نفسه، ص 161.

(4) تاريخ العدواني، المرجع السابق، ص 135-136.

(5) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 49.

- **التزاحم حول المراعي:** كانت المراعي الخصبة قليلة في الأراضي الرملية. وتنمو بها الأعشاب والحشائش بالقرب من الغدائر. ويعتبر مجرد الاقتراب منها خطرا يهدد الإنسان والحيوان، ويبادر أصحاب المكان إلى التصدي بقوة للوافد الجديد، لأن المراعي لا تحقق الاكتفاء الذاتي، بل تضطر قبيلة عدوان إلى مغادرة الجردانية إلى أماكن بعيدة، وتمكث مدة من كل سنة حتى تنمو أنعامها، وتعود من رحلتها وافرة اللحم والشحم. وهذا ما أكدته تاريخ العدواني: " وكان من عادة عدوان يرعون بمواشيهم أول يوم في الربيع، ويأتوا إليهم عرب جبل مجور ويرعون إلى ناحية الأغواط إلى أرض ورقلة"⁽¹⁾.

- **التنازع حول المواقع:** تتطلع المجتمعات البدوية إلى الفضاء الواسع، وتشاء من ضيق مكان الإقامة أو التزاحم على العمران المتقارب، لأن نمط معيشتهم يتطلب مساحة شاسعة حول خيامهم المنصوبة أو مساكنهم المشيدة. وإن سعيهم الحثيث موجه إلى توفير مجال تسرح فيه المواشي وتنقل الإبل والأنعام بحرية. وهذا أحدث تدافعا بين قبيلتي طرود وعدوان في الجردانية، مما جعل طرود تفضل مغادرة المكان بعد إقامة قصيرة دامت خمس عشرة سنة. وفضلوا الانسحاب إلى الجنوب نحو مدينة الوادي، وسكنوا قرب تكسبت القديمة. وانتشرت خيام طرود كالمقطع المتناثرة، وكانوا يتنقلون بسرعة من الوادي إلى الأطراف القرية. ووصلوا في ترحالهم إلى سندروس ووادي العلندة ونواحي الفولية والرقبية⁽²⁾. وآثروا السلامة واختاروا الأماكن الواسعة بعيدا عن العمران القديم. وفكروا في تشييد قرية لهم في الفولية أو في منطقة القدايم قرب تغزوت، ولكن زعماء القبيلة صمموا على بنائها قرب تكسبت القديمة لوجود الماء في الغديرة الوسطى. وأحدث هذا الاختيار رعبا وهلعاً عند إياضية تكسبت⁽³⁾، وعزموا على صدهم خوفا من نفاد المياه القليلة، ومشاركتهم في المراعي. وتولد الحقد في القلوب، وتحول إلى صراع بين الطرفين.

- **اختلاف العناصر السكانية:** لا شك أن البربر احتكوا بالعرب منذ أول يوم لهم ببلاد المغرب الإسلامي. وحيث حدث التدافع، وآل بعد فترة إلى توافق وانسجام. وقد وقف عليه ابن خلدون في القرن الرابع عشر، وعبر عن زناته بالتحديد بقوله: " وهم لهذا العهد آخذون

(1) تاريخ العدواني، المرجع السابق، ص ص 89-90.

(2) أغلب تلك الأماكن لم تكن موجودة. وذكرناها هنا بالاسم للدلالة على المكان وليس المقصود وجود عمران بها، بل كانت صحراء قاحلة في أغلبها.

(3) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 161.

من شعائر العرب في سكن الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتغلب في الأرض وإيلاف الرحلتين وتخطف الناس من العمران والإبابة عن الانقياد للنصفة". ويستطرد في ذكر مواقعهم في طرابلس وتونس والمغرب الأوسط، وكيف أذعنوا لهم. فيقول: "وبجبل أوراس بقايا منهم سكنوا مع العرب المهلالين لهذا العهد، وأذعنوا لحكمهم، والأكثر منهم بالمغرب الأوسط، حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال: وطن زناتة"⁽¹⁾.

ولكن زناتة في وادي سوف غلّبت طابع المفاصلة مع عرب طرود لأنهم اقتحموا بلادهم، وزاحموهم بدون استئذان في الإقامة معهم. والجدير بالذكر أن زناتة قبلت - في السابق - العرب ومنهم سيدي مستور جارا متعاوننا معهم في السراء والضراء. وآوت - في قرية تكسبت - سيدي عبد الله بن أحمد وصاهرته، وجعلته واحدا من أفراد القبيلة، ومن أعضاء مجلسها الاستشاري رغم الاختلاف المذهبي، والتمايز في العنصر السكاني. لأن ذلك الجوار كان بشكل محدود لا يشكل خطرا اجتماعيا. ويمكن التخلص من عناصره بسهولة عند اقتضاء الحال مثلما حدث لسيدي عبد الله في قابل الأيام.

- **الاختلاف المذهبي:** كان سكان تكسبت القديمة من زناتة على المذهب الإباضي. وكان يثير حفيضة العرب الوافدين الذين تشبعوا بمذهب أهل السنة، ولاسيما مذهب الإمام مالك الذي انتشر في إفريقية (تونس) في تلك الأثناء. كما حدث تنافر وعداوة بين شيخ السنة بنفطة سيدي أبي علي السني⁽²⁾ الذي دفع حياته ثمنا للدفاع عن مذهبه. فمات على أيدي أحد الإباضية. وتناقلت الأجيال قصته، وكان هذا سببا في زيادة الخلاف بين الطرفين في سوف في القرن التاسع الهجري⁽³⁾. كما كانت ظروف المسلمين وصراهم السياسي والمذهبي على أشده في الدولة الحفصية ولاسيما مع الشابية، وما آلت إليه دولة الموحيدين من ضعف وتشرذم،

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص3.

(2) سيدي بو علي السني: هو أبو علي حسن بن محمد بن عمر النفطي. ويعرف بسلطان الجريد لأنه أحد أقطاب التصوف الإسلامي في تونس. ولد عام 493هـ/1099م، وعرف بالسني لأنه انتصر للأهل السنة ضد أصحاب المذاهب الأخرى، خاصة الخوارج الإباضية. فمات على أيديهم سنة 610هـ/1213م، ودفن بنفطة وله بها قبر يزار. انظر: علي غنابزية، مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ/19م، ص183، رحلة التجاني، المرجع السابق، ص ص 143-144، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر لتقافي، ج4، ص274، محمد البهلي النبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، مكتبة النجاح للنشر والتوزيع، تونس، 1965، ص211، أحمد البخترى، الجديد في أدب الجريد، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1973، ص ص 64-67.

(3) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 164-165.

وصراع دموي أجهز عليها. لذلك لم تسلم وادي سوف من الصراع القتالي الذي تمخض عنه المجتمع الجديد.

ب- أشكال الصراع:

كانت الصراعات دموية في معظمها، وهي متأثرة بواقع المنطقة وما تشهده من تقاتل على السلطة على أطراف وادي سوف بين الحفصيين والحركات الثورية. وكانت الأسباب السابقة كافية لظهورها. ويمكن الوقوف على بعض الأشكال:

- القتال بين قبيلتي عدوان وطرود:

رغم صلة القرابة بين القبيلتين ووشائج الأرحام، ولكن التنافس على المكاسب الدنيوية أجج الصراع عند قدوم طرود ومزاحمتهم لعدوان في قصورهم بالجردانية. ولم تنفع لغة الحوار، وجند كل طرف ما يملك من محاربيين وفرسان، ووصل إلى آلاف من المقاتلين، واستعانوا بالقبائل الموالية لهم في بلاد الجريد. فاستنفرت طرود عرب مجور بنفطة، واستنجدت عدوان بالهامة، وخاضوا المعارك التي دامت أياما عديدة ابتداء من سنة 800هـ/1398م. واستعملت مختلف الأسلحة من سيوف ونبال ورماح. وشارك فيها الرجال والنساء والسادة والعبيد. وخلفت من الطرفين نحو 1330 قتيلًا، وخسارة 220 فرسا. وسلبت الأموال والأنعام، وبلغت الغنائم نحو 2740 ناقة، وتم أسر مائة امرأة في الهوادج. ولكن الحرب توقفت، وحدث صلح بين الطرفين. ومكثت عدوان خمس عشرة سنة فقط، ثم غادرت المكان نحو الجنوب في حدود سنة 815هـ/1411م⁽¹⁾. ويومئذ بدأ التعاون بين الطرفين. وكانت وصية شيخ طرود لقومه مؤثرة على سلوكهم. ومما قاله في هذا الشأن: "... وأحسنوا إلى بقية عدوان ليكونوا لكم عونًا. وإذا خرجتم من النازية، فيأخذ كل أهل قصر وحده لثلاثين بينكم الفتنة. وإذا وقعت الفتنة بينكم فسد رأيكم"⁽²⁾.

- القتال بين قبيلتي زناتة البربرية وطرود العربية:

كان الصراع على أشده بعد نزول طرود إلى مدينة الوادي. وكان سبب الصراع متعدد الأوجه، ومنه الصراع على الماء القليل. وعاش القوم حالة من الذعر والخوف، وصارت قبيلة

(1) تاريخ العدواني، المرجع السابق، ص ص 96-103.

(2) نفسه، ص 109.

طروود تترقب⁽¹⁾ ما تصنعه زناتة على حين غرة. فكانوا يجرسون أماكنهم، ويستطلعون الأحوال في الليل في الجنوب الشرقي من تكسبت قاعدة زناتة. وصعب الأمر على زناتة، ثم عزموا على مهاجمة طروود في الثلث الأخير من الليل من الجهة الغربية لقلعة سكانها، ولكن وصل الخبر سريعا إلى طروود من قبل ممثلها الخفي في مجلس زناتة، سيدي عبد الله بن أحمد.

-معارك صحن القارة: اتخذت طروود كل الاحتياطات، وأتمت كل التحضيرات، وأعدت الأسلحة، وعينت أماكن التمركز والحراسة، وصارت على أتم الاستعداد للتصدي للخصم العنيد. وأثناء ذلك التشنج، برز أصحاب الرأي من كلا الطرفين، وسعوا لمنع الاقتتال. ولكن باءت محاولاتهم بالفشل الذريع، وانطلقت المعارك:

-وقعت المعركة الكبرى في صحن القارة قرب تكسبت الحالية، وقتل عدد معتبر من كلا الطرفين، ومنهم سيدي يوسف الطروودي، صاحب الضريح المعروف، والذي أقيمت حوله مقبرة القارة التي ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم. وكان ضحية ذلك الصراع الميرير⁽²⁾.

والتقى الطرفان مرة ثانية في نفس المكان، وكان في صف طروود عدد من بني عمومته من قبيلة عدوان. وقبل وقوع القتال، انهزمت زناتة نفسيا، وغنمت طروود منهم الأسلحة والدروع والثياب. وأمام تصميم زناتة، وكيدها الظاهر والخفي، قررت طروود الضرب بقوة، وعزمت على تخريب منازل زناتة، وإخراجهم من ديارهم صاغرين.

-الصلح الظاهر بين طروود وزناتة:

عقدت زناتة مجلسها الاستشاري، وكان زعيمها القاضي علي بن بركة الوصيف. وكانت قرارات المجلس هي قتل طروود بطريقة التسميم الجماعي. وقبل ذلك تتم الإجراءات التالية: -أن يطلبوا الصلح من طروود لأنهم أصحاب النصر والغلبة، وإظهار التسامح، والرضا بتقاسم البلاد بين الطرفين، والعيش في كنف الأخوة، وطلبوا منهم العفو، وبينوا لهم سبب استقرارهم في وادي سوف فرارا من سكان الجريد⁽³⁾ الذين ظلموهم وأذلوهم. وهو إشارة

(1) كلفت طروود بعض رجالها بالترقب والحراسة في مكان شرق مدينة الوادي الحالية، وهو الجزء الشرقي من سوق الوادي، وبالتحديد قرب غوط سيدي سالم. وعرف ذلك المكان باسم "الرقوبة" نسبة لذلك الفعل التاريخي القديم. انظر: إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 164.

(2) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 164-165.

(3) تم تصفية المذهب الإباضي ببلاد الجريد في عهد الدولة الموحدية في القرن السادس الهجري، بعد تخرب بلدانه. وهاجر سكانه في الآفاق، ومنهم الذين استقروا بوادي سوف. انظر: صالح باجية، ص 6-14، إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 138.

إلى ما حدث للإباضية من جنود المعز بن باديس سنة 440هـ/1048م الذين حاصروا قلعة درجين، فهاجر أهلها إلى وادي سوف وأجلو بوادي ريغ واستقروا فيها⁽¹⁾.

-تبادل الهدايا بين الطرفين حتى تطمئن طرود، وتجد زناة فرصتها مهيأة لتنفيذ مكرها، ولا يطرح ذلك أدنى شك عند طرود لوجود الثقة الجديدة.

وفعلا انطلت الحيلة على طرود، واستقرت الأحوال بين الطرفين ظاهريا لمدة عامين كاملين، حتى نسيت طرود ما وقع من خلاف، وأقبلوا على إصلاح شؤونهم، وتنظيم منازلهم. ولكن صوت العقل كان فعالا عند سيدي مستور، يدعو قومه من طرود إلى أخذ الحيلة من زناة، ونصحهم باتخاذ احتياطاتهم من مكرها الخفي. ومن نصائحه: (إياكم والغفلة عن زناة فإنهم إذا تمكنوا منكم، يقتلونكم، وإذا لم يقدرُوا على ذلك، يكيدونكم بمكيدة ويهلكونكم بها). ولكن طرودا تغافلوا عن نصائحه، ولم يسمعوا لصوت العقل، بل انسجموا مع العاطفة، وغلبوا حسن الظن، لأن المسلم من طبيعته التمسك بالعهود ورعايتها⁽²⁾.

-بناء طرود نواة مدينة الوادي ورد فعل زناة:

لما هدأت عاصفة الخلاف، واستتب الأمن الظاهري، عازمت طرود على بناء مساكن قرب منازل زناة بتكسبت القديمة. ولكنها تخرجت منهم، ونصحتهم بالتراجع عن سعيهم، لأنه يفضي إلى التزاحم، ويضيق على عيش الإنسان والحيوان في الرعي بحرية. ولكن ذلك لم يثن العرب عن عزمهم، وشرعوا في جمع الحجر وتحضير الجبس في أماكن بعيدة في جنوب وادي سوف بمناطق سندروس، وجلبوا الحجر من شمال سوف من منطقة الفولية⁽³⁾. وبنوا لزعمائهم بيوتا صغيرة، وأتموا سبع بيوت في ليلة واحدة في المكان المسمى "شارع البلد"⁽⁴⁾. وتم ذلك في غفلة من زناة في جوف الليل، وبنوا تسع بيوت أخرى في الليلة الموالية. ولما علمت زناة، اشتد غضبها، وعزموا على هدمها. ولكن تراجع، وفكرت في إجراءات أخرى. ولكن طرودا لم تراجع عن توسعها في البناء، وأضافت إليه زرائب من الحلفاء والمرخ قائمة على خشب الأزال⁽⁵⁾.

(1) الدرجيني، ج2، تح إبراهيم طلاي، ص 407.

(2) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 167.

(3) الفولية: منطقة قرب الرقية، وما زالت إلى اليوم منطقة هامة في إعداد الجبس لتوفر مادته الأولية من حجارة النافزة.

(4) شارع البلد: وهو شارع ضيق ما زال إلى اليوم شاهدا على هذا التاريخ، ويقع في قلب سوق مدينة الوادي، في الناحية الشرقية من رحبة اليهود. ويربطها بشارع بن موسى الذي كان به بيوتهم، وتحولت إلى محلات تجارية في سوق الوادي.

(5) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 167.

حكبت زناته مكيدتها الكبرى، واتفقوا على استضافة كل القبيلة ليلا بعد العشاء. ويكون الكيد بوضع السم في طعام الضيافة، فموت كل من أكل منه. وجلبوا سما ناقعا من الأندلس، يقتل صاحبه في ساعته. وتم الأمر، وكل قصعة تخرج من منازل زناته، تمر على أعضاء المجلس، فتسقى بالسم، ثم ترسل إلى منازل طرود. ولكن قبل فوات الأوان، أخبرهم سيدي عبد الله بن أحمد بواسطة عبده الذي تسلق سور المدينة، وأسرع إلى طرود محذرا مما أعدوه لهم من مكر وخديعة.

ولم تتسع طرود في الرد، فتشاوروا بينهم، وعالجوا ذلك بحكمة متناهية، واستنفروا بعضهم، واختلقوا أمرا طارئا، وأعلنوا أنهم تعرضوا لهجوم كاسح من اللصوص الذين هاجموا إبلهم التي تسرح في الصحراء الشرقية. وأن فتیان طرود ورجالهم خرجوا جميعا لمطاردة اللصوص. وفعلا، خرجوا واختفوا في مكان يدعى العلنداوي حتى يفوتوا الفرصة على زناته، وأبطلوا مكرهم. وتساعد البكاء في بيوتهم وخيامهم، وأظهروا الحزن، وضرب الطبل المعلن عن هذا الحال المؤلم.

ولما حل الليل، وصلت قصع الطعام إلى منازل طرود، فوجدوا الحزن مخيما على النفوس، وجلس سفراء زناته - حسب وصية شيوخهم - حتى يتأكدوا من تناولهم الطعام. ولكن طرودا اعتذروا عن الأكل، لأنهم في حالة حزن عن إبلهم، وخوفا على أبنائهم. فهم بين الموت والحياة، فلا تطاوعهم أنفسهم، وليس لهم شهية في الطعام⁽¹⁾. وحينئذ رجع سفراء زناته إلى ديارهم يجرون أذيال الخيية، يحملون الطعام المسموم كما هو، وحفروا له حفرا عميقة ودفنوه. وعند حلول الصباح، رجع شباب طرود ورجالهم يسوقون إبلهم التي استردوها من المعتدين. وعرفت زناته أن طرودا قابلتهم بمكر أشد من مكرهم، وأبطلت خديعتهم، وتأكدوا أن ذلك تم بتسريب الخبر من أحدهم إلى مسامع طرود. ولما بحثوا، وجدوا أثر أقدام العبد الذي أرسله سيدي عبد الله إلى طرود، فصبوا جام غضبهم على سيدي عبد الله بن أحمد، وطلقوا منه زوجته، وطرده من صفوفهم، وأخرجوه من قريتهم.

وعلمت طرود بأن قرية تكسبت القديمة بها حائط مهدم في سورها الغربي، وبدون حرس. فهجموا على زناته ليلا، وأثخنوا فيهم ضربا وقتلا، واتجهوا إلى بلدة المغيبة - التابعة لزناته - وكانت بدون سور يحميها، فأصابها ما أصاب تكسبت. ولما أشرق الصباح، لم يبق من زناته أحد، إلا وخرج فارا بنفسه إلى نفطة أو ورجلان. وأكثرهم توجهوا نحو تقرت، وكل هذا

(1) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 171.

حدث في حدود سنة 818هـ/1416م. لتنفرد طرود بمدينة الوادي خالصة لها من دون الناس⁽¹⁾.

3- العادات والتقاليد بوادي سوف:

تتجلى العادات والأعراف الاجتماعية في مظاهر عديدة تعارف عليها السكان، واعتمدها سلوكا عاما، يحتكمون إليه، ويعاملون به غيرهم، وينظم مختلف شؤونهم الاجتماعية. وأهم العادات السابقة:

أ- **دق الطبول:** وهو من العادات الأمازيغية في الصحراء. ويستعمل للتنبيه والإخبار عند إغارة العدو للبلاد، أو مباغته السكان في غفلتهم، أو عند حدوث الأحزان والمصائب، أو انتشار الأفراح والبشائر، ومنه: "طبل النحاس". وعادة ما يكون من النحاس الأحمر، ويغلف بجلد البعير، ويصدر صوتا قويا يسمع من مسافة بعيدة. وذكر صاحب غصن البان وصفا دقيقا للطبل الذي وجد في ورجلان ومدى صوته القوي: "قال الراوي: وإن صوته يسمع من بلاد نفوسة (كذا) مسيرة ثمانية عشر كيلومتر، ولخدمته معرفة تامة بأنواع ضرباته في كل ما يحدث بالبلاد، وذلك أن سبع ضربات للفرح، وخمسا للخدمة العمومية، وثلاثا لجهوم العدو (كذا). وقد رأيت سنة 1350 وقد علا عليه الصدا. ومثل هذا كان في تيهرت وجبل نفوسة..."⁽²⁾، ووجد في وادي سوف عند عدوان في الجردانية نفس التقليد الذي لا شك أنهم أخذوه عن زناته. وكانوا يستعملونه لنفس الغرض: الإخبار والتنبيه عن الطارق لأرضهم. وتحدد الضربات طبيعة القادم. فإن كان غازيا، تكون ضربتين، وإن كان ضيفا مسالما، يكتفى بضربة واحدة⁽³⁾.

ونفس التقليد كان لدى قبيلة طرود، ولهم طبل، وهو قصعة مغطاة بجلد الجمل. وتجتمع حوله النساء ويضربنه بعصي قصيرة، ويفعلن ذلك في الأعراس ومواسم الأفراح، وعند قدوم الغزاة من القبيلة، وأثناء حدوث الأزمات. ينبهون أفراد القبيلة، ويضرب للتعبير عن الحزن والألم⁽⁴⁾.

(1) المرجع السابق، ص 171.

(2) غصن البان، المرجع السابق، ص ص 8-9.

(3) تاريخ العدواني، المرجع السابق، ص 89.

(4) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 171.

ب- أصول الضيافة: كان الإجراء المعهود عند العبيد المكلفين بالطلب، هو استقبال

القادمين من الضيوف بالترحاب، وإكرامهم بالطعام، وتقديم وجبة من الخبز واللحم والماء. وإن كانوا يطلبون الأخبار⁽¹⁾، ينظم لهم لقاء مع أحد السادة الأعيان، ويكون شيخا طاعنا في السن يعرف أخبار الأولين، ويستقبل الغرباء في قصر المدينة. وهذا ما حدث لأول فريق من طرود جالسوا الشيخ المعمر من قبيلة عدوان، وتجاوزوا معه، وصارحهم بمعرفة خبرهم من خلال علمه بالتاريخ، وكأنه مطلع على غيب مستور. وذكرهم أن وقتهم ذلك هو زمن ظهور قبيلة طرود الذين يملكون أرض سوف إلى الأبد بعد صراعها مع قبيلتهم عدوان. وأكد لهم على صحة خبره، لأنه لا يجروء على الكذب، وذلك كائن لا محالة. فإن ظهر خلاف رأيه، فالقاعدة المستند عليها (أي مصدر تاريخه) هو الكاذب. وقد أثر كلامه في وفد طرود، ووصفوه بحكيم زمانه، ولا سيما عند توديعه لهم بأدب. ودعاهم إلى التزام التواضع - وهم يركبون على ظهور خيولهم - واستدل بحديث نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تجعلوا ظهور دوابكم منابر)⁽²⁾. وبعد انتهائه، غادروا المكان إلى قومهم بياجة التونسية⁽³⁾.

ج- معرفة الأثر: وهو تتبع آثار الإنسان فوق الرمال. ويعرف الخبير بها باسم (قصاص الجرة)، أو (عراف الجرة). وقديما قال العرب في أمثالهم: (البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير). وهي من التراث العربي القديم الذي يعرف باسم (القيافة). وهو الفراسة التي يكتسبها شخص معين، فيعرف كل من مر بالقرب منه، ويترك أثر أقدامه في موضع خاص. ومنطقة وادي سوف تنتشر بها الرمال في كل مكان، ولا سيما مدينة الوادي التي عرفت أول إشارة لاستعمال هذه القيافة من قبل زناته، عندما كلف سيدي عبد الله خادمه بإيصال رسالة شفوية إلى طرود، فقفز العبد من سور مدينتهم تكسبت القديمة، واتجه إلى طرود وأخبرهم بالكيد الذي تدبره زناته. واكتشفت زناته صفة العبد وأصله من خلال آثاره التي خلفها فوق الرمال⁽⁴⁾. وهذا شجع طرودا للعمل بالقيافة. وهو نفس السلوك عند بني عدوان عندما نزلوا

(1) وهو شيخ معمر بلغ مئة وعشرين سنة. ونقل الأخبار عن والده الذي توفي عن عمر بلغ قرنا ونصفا، مما يدل على نسبة العمر الطويل الذي بلغه الإنسان في تلك الفترة من القرن الثامن الهجري. انظر: تاريخ العدواني، المرجع السابق، ص 89.

(2) حديث صحيح رواه أبو داود في سننه.

(3) تاريخ العدواني، المرجع السابق، ص 89 - 93.

(4) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 172.

إلى اللجة. وأول من مارس هذا الفن عندهم، هو عياط اللجي العدواني⁽¹⁾. وتطورت القيادة في وادي سوف، وصار لها أهميتها الاجتماعية في التعرف على المسير، وضبط أوصاف أصحابه. ويتعداه إلى طول القامة وقصرها، وزمن المرور ليلاً أو نهاراً، وغيرها من الأوصاف. وتكمن الأهمية في الكشف عن السارق، أو المتخفي بعمل سري، أو مرتكب الجريمة، أو الصديق الذي سبقهم في السفر، وغيرها من المعلومات المطلوبة⁽²⁾.

د-دفع الصائل: وهو الباغي الظالم، والمعتدي على الناس بالسطو على أموالهم، وتهديد أرواحهم، وترويع آمنهم، وقتلهم وتشريدهم. وقد أوجبت الشريعة الإسلامية رده عن غيه، ودفعه عن باطله. ودعت إلى الدفاع عن النفس، واتخاذ كل الاحتياطات من: حراسة، وحذر، وانتباه، ومواجهة المعتدي بالقتال إذا اقتضى الأمر.

وكانت الحالة الأمنية سيئة في هذا العصر بوادي سوف، فكانت تعيش حالة من الاضطراب في أطرافها، مع بروز الفتن، وغزو القبائل من قبل العصابات⁽³⁾ التي هدفها الاستيلاء على الأموال والإبل والمواشي التي تمثل مجمل الثروة آنذاك. وكانت الوسيلة الأولى في المجتمع لدفع هذا الصائل المعتدي، هي تشييد الأسوار حول المدن والقرى. ولكن طرود الوادي لم تتمكن من ذلك في بادئ الأمر، وتزامن ذلك مع الوباء الذي ضرب المغرب الأدنى (تونس) في حدود عام 900هـ/1495م. واضطر بعض سكانها إلى التفرق في البلدان، ووصل أفراد منهم إلى وادي سوف، وأقاموا عند بني سليم. ونظراً لقلّة مواشيهم، صاروا يترددون على الصحراء القريبة من سوف، ويسطون على الإبل التي ترعى بحرية، واستحلوا أخذها عنوة دون مراعاة أصحابها.

ثم ازداد عدد الوافدين، فانزعجت طرود وتأسفت، وخافت على نفسها وإبلها ومواشيها. واستمعت إلى نصائح ذوي الرأي والتدبير الذين أشاروا بمواجهة تلك الهجومات وصدّها بقوة. وذهبوا إلى الإجراء العملي بتشديد المراقبة، ووضع نقاط ثابتة للحراسة، وسد الثغور التي يتسلل منها اللصوص وقطاع الطرق. ووزعوا المهام على بطون القبيلة، فكلفوا حامد

(1) وذكر صاحب الدر المصنف أنه يدعى أحمد العياط جد العياطة بالبهيمة. انظر: الدر المصنف، ص 17. تاريخ العدواني، المرجع السابق، ص 144.

(2) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 143.

(3) كان الغزو والاعتداء منتشراً في الآفاق الصحراوية بسبب صعوبة السيطرة على الطرق، وعجز إمكانات الدولة عن ذلك. وتصف الكتابات القديمة تلك الفئات الباغية باسم "قطاع السابلة"، ويعني السبيل وهو الطريق.

بالحراسة في موضع الزقم، وشباط بمنطقة الكنف ونواحيها، وحمرون بن خليفة في موضع عميش، وسفيان في مكان الطريفواوي⁽¹⁾.

وحينها دعموا الحراس بالسلاح اللازم والنصائح الضرورية. وسمحوا للوافدين ممن لهم قرابة أو أصول بالدخول إلى المدن والقرى، بل اقتسموا معهم المنازل، ووفروا لهم الإقامة الكريمة⁽²⁾.

4- الدور الاجتماعي للأعيان والكبراء:

كان المجتمع يعتمد كثيرا على الوجهاء وشيوخ القبائل، ولهم كلمتهم الفاصلة في المسائل الهامة، وعلى أيديهم يتم الحل والعقد لكل قضايا المجتمع. ولهم كذلك المجلس الاستشاري: **أ- شيخ عدوان:** وهو الشيخ الكبير الذي يتصف بالحكمة، والذي حنكته التجارب، وصار يرجع إليه في ملهمات الأمور، ويدعى "الشيخ الكبير". وكان منزله في قصور عدوان، وهو قصر البلد. وقع حوار بينه وبين وفد طرود عندما كانوا يجتربون أرض الجردانية لعلهم يسكنون فيها، فوجدوا من الشيخ الانسجام وحاوورهم، وأخبرهم بما يعرف، حتى أثنوا عليه، ووصفوه بالشيخ المبارك⁽³⁾.

ب- شيخ طرود: هو كبير طرود، وعمدتهم في الرعاية والتوجيه، وكان معهم في النازية، وتمتع بالحكمة وبعد النظر، واستشراف مستقبل القبيلة، وقدم الوصايا لقومه، ومنها: - أوصاهم بإكرام الموتى منهم، لأن ذلك هو مصدر عزهم وسؤددهم. وكل تفریط منهم، سوف يفضي إلى إهانة أنفسهم وهم لا يشعرون. ومما قاله: (أكرموا موتاكم، فإنكم إن أهنتموهم تهانوا). وإكرام الموتى هو الإسراع في تجهيزهم ودفنهم وفق أحكام الشريعة الإسلامية.

- دعاهم إلى الاستقرار بمدينة الوادي، ومما قاله: (وإذا أردتم البقاء بسوف، فانزلوا قرب تكسبت، فذلك محل بلادكم إلى الأبد).

- التأكيد على استشارة أهل الدراية في قومهم، وعدم مخالفة رأيهم، لأن ذلك يفضي بهم إلى التهلكة. ومما قاله في ذلك: (وإذا أصابتكم نائبة، فاستشيروا العقلاء الكبار منكم، ثم إذا أشاروا عليكم، فلا تخالفوهم، فإنكم إن خالفتموهم بعد ذلك، تهلكوا).

(1) المواقع التي وردت في هذا المجال لم تكن موجودة في ذلك العهد، وإنما ذكرت كمعالم توضح أماكن الحراسة. لأنه في ذلك الوقت كانت خالية من العمران البشري.

(2) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 175-178.

(3) نفسه، ص 160-161.

-تحذيرهم من الفرقة والخلاف، ودعوته بنبذه تماما. فقال: (ولا تختلفوا في شيء، فإن العدو يدخلكم من جهة الاختلاف ويضركم).

-دعوته لهم إلى التعاون مع بني عمومته من بني عدوان. فقال: (وأحسنوا لبني عدوان ليكونوا لكم عوناً على من تعادونه).

-حدد لهم استراتيجية الاستقرار في المدينة، وكيفية الوصول إلى مصادر الماء الضرورية للعيش في الصحراء. فقال بحكمة كبيرة وروية: (وإذا نزلتم بالغدرة، [البرك المائية] فلتكن كل قبيلة منكم حول غدير. ولا تضيقوا على بعضكم في المنازل والماء، وإن نصب عليكم ماء الغدر، فاحفروا في الثماد بطريق جري الوادي، فإن الماء فيه قريب، وقد يكون عذبا. وإذا لم تجدوا ذلك، فاجعلوا الآبار في جميع المواضع التي تحتاجونها زمن الرحلة والإقامة)⁽¹⁾.

ج-المجلس الاستشاري: وهو مجلس زناة الذي يعبر عنه بنظام العزابة. ومهمته رعاية شؤون السكان الاجتماعية. ويتعداه إلى الأمور الكبرى، والقرارات المصيرية، والبت في القضايا المستعصية. ويختار أعضاؤه شيخا يسير المجلس، وكان في وادي سوف هو القاضي في قصر تكسبت، علي بن بركة الوصيف. وهو الذي يتلقى كل المشاكل، ويفض الخصومات. وهذا الذي حدث عند عزم طرود على السكن بقربهم، ورأوا في ذلك تضيقا لهم. وقد فصلت أحكامهم الفقهية في ذلك بمنع من يتجرأ على الحرم الخاص بهم. كما ذكر أبو العباس من أهل القرن السادس الهجري: (وهذا الحريم إنما يمنع منه أصحاب المدينة من أراد أن يحدث مدينة بجانب قصرهم. وأما غير هذا من العمارة مما لا يضر أصحاب المدينة وأصحاب القصر فلا يمنعون منه. ويمنعون من أراد إحداث المضرة بجانب المدينة والقصر، سواء الخاص أو العام)⁽²⁾. وكذلك الشأن بالنسبة لإحداث قرى تضر بمراعيهم (وأما القرى والمنازل، فليس لها حريم. ولا يمنعون من أراد إلا ما يضر بمجازاتهم على المرعى والماء وغير ذلك، أو ما يضرهم في عمارتهم كلها)⁽³⁾.

وذلك الفقه والتشاور هو الذي جعل زناة مصرة على رفض طرود، مما عرضهم للطرود من وادي سوف بأكملها. وحينها تغير حالها اقتصاديا واجتماعيا. وبدأت مظاهر ثقافة اجتماعية جديدة.

(1) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 160-161.

(2) أبو العباس أحمد بن محمد الفرستائي النفوسي، القسمة وأصول الأرضين، تح بكر بن محمد بالحاج، محمد ناصر، نشر جمعية التراث-القرارة، المطبعة العربية، ط2، غرداية-الجزائر، 1997، ص 539.

(3) نفسه، ص 540.

المبحث الثالث

الحياة الاقتصادية بوادي سوف في العهد الحفصي

عرفت الدولة الحفصية باقتصادها العام. وكانت وادي سوف ضمن نطاقها، تتقدم نحو الشكل الجديد الذي اعتمد على الابتكار، ومحاوله البحث عما يناسب المنطقة، وطبيعتها الجغرافية. وقبل التعرض لمظاهرها الاقتصادية، نحاول التعريف بأهم الأنماط الاقتصادية عند الحفصيين.

أولاً: الحياة الاقتصادية في الدولة الحفصية:

كانت الحياة الاقتصادية في نشاط دائم رغم كل التحولات السياسية وأحوال الأقاليم والمدن. وبتفاوت المردود، وتختلف المنافع المادية بين الأرياف والحوضر:
أما الزراعة: فقد شهدت تنوعاً في الإنتاج رغم الظروف السياسية الصعبة، والاضطرابات المحلية التي خلفت انحساراً في المساحات المزروعة، لأنها تفتقد الهدوء والاستقرار. وصارت مقتصرة على المناطق القريبة من المدن لتوفر الأمن والسكينة⁽¹⁾.

واشتهرت الدولة بجودة محاصيلها من الحبوب، ومنها القمح والشعير ولاسيما في باجة⁽²⁾. ومما نوه به صاحب الاستبصار: (ومدينة باجة رخيصة الأسعار جداً، فإذا أخصبت البلاد، لم تكن للحنطة بها قيمة. وتسمى باجة هري (كذا) إفريقية. فإن بها تمتاز جميع البلاد: عربها وبربرها لكثرة طعامها ورخصه)⁽³⁾؛ كذلك مدينة أوريس⁽⁴⁾. (أرضها خصبة جداً، منبسطة تماماً مع سهولة كبيرة في السقي. وتزود هذه البادية ببلاد تونس كلها بالقمح والشعير، لأنها على نحو مائة وتسعين ميلاً من الجنوب التونسي)⁽⁵⁾.

(1) محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة تونس الأولى، 1999، ج1، ص 157.

(2) مريم محمد عبد الله جبودة، التجارة في بلاد إفريقية وطرابلس الغرب خلال العهدين الموحدية والحفصية (555-980هـ/1160-1572م)، رسالة دكتوراه تح إشراف أ. د. سامية مصطفى سعد، كلية الآداب، شعبة التاريخ الإسلامي، جامعة الزقازيق، مصر، 2008، ص 68.

(3) مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص 160.

(4) مدينة رومانية قديمة في البلاد التونسية.

(5) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص 65.

كذلك الشأن قمح قسنطينة الذي يحافظ على سلامته عند تخزينه في المطامير الأرضية⁽¹⁾. كما تتج الدولة في مختلف أطرافها البقوليات كالحمص والفل وبكميات وفيرة في توزر وباجة، والتمور في الواحات المختلفة في جنوب طرابلس وبلاد الجريد. وكذلك الزيتون الذي يعتبر أهم الأشجار وينتج زيت الزيتون. ويتصدر قائمة الصادرات نحو الدول الأخرى⁽²⁾.

والإنتاج الحيواني يلحق بالزراعة في المناطق الزراعية والحواسر، ويشرف عليه المزارع مع تربية الأبقار والأغنام. ويستخرج منها الجلود والصوف، كذلك الخيول والبغال. بينما يسهر الرعاة في المناطق الصحراوية في الجنوب على تربية المواشي والأغنام والإبل التي لها قيمتها في نقل البضائع. وتستهلك غذاء هاماً من لحمها ولبنها⁽³⁾.

أما الصناعة، فقد اشتهرت بصناعة النسيج الصوفية والحريية، ولاسيما في تلمسان، وفيها أختام ويعرف بالتلمساني يلبسه ملوك الدولة⁽⁴⁾. واشتهرت مدينة تونس بأجود منسوجاتها ومنها العمامات الرفيعة⁽⁵⁾ وصناعة الرزابي⁽⁶⁾. وعرفت القيروان بصناعة جلود الغنم والماعز، والملابس الجلدية التي تصدر لبلدان جنوب صحراء المغرب الأقصى⁽⁷⁾.

أما صناعة الزجاج فعرفت بها مدينة (طرا) بالزاب الجزائري مع الصوف⁽⁸⁾ وصناعة الخنزف ببعض المدن. وتستعمل للماء في قابس وجربة وتونس. وهي شديدة البياض، وغاية في الجمال⁽⁹⁾. واشتهرت بجاية بصناعة السفن لوفرة الأخشاب بها. وأشاد بها الإدريسي: (وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن)⁽¹⁰⁾.

وتأسست على المنتوجات الزراعية والصناعية حركة تجارية داخلية وخارجية. ولا تخلو مدينة من أسواقها الفعالة وتجارتها الرائجة وسلعها المتبادلة. وكانت صادراتها من أنواع

(1) الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية، ج 1، ص 67.

(2) مريم محمد عبد الله جبودة، المرجع السابق، ص ص 69-70.

(3) نفسه، ص ص 71-72.

(4) عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج 2، ص 73.

(5) مارمول كبرخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، دار المعرفة، الرباط، 1989، ج 3، ص 21.

(6) مريم محمد عبد الله جبودة، المرجع السابق، ص ص 75.

(7) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج 2، ص 91.

(8) عبد الرحمان الجليلي، ج 2، ص 73.

(9) مريم محمد عبد الله جبودة، المرجع السابق، ص ص 76.

(10) الإدريسي، ج 1، ص 63.

الحبوب والتمور والماشية والصوف وغيرها من المنتجات⁽¹⁾.

وعرف إقليم الجريد ببلاد التمر الجيد الذي بوأه مكانة تجارية معتبرة. ويتم تسويق التمور من مدن وقرى شواطئه في البلاد التونسية، وفي كثير من بلاد البربر. وقاعدة الجريد مدينة توزر التي نالت الخطوة الكبرى، وصار سكانها أغنياء بسبب منتوجاتهم من التمر الذي ترتب عنه تجارة رائجة، واستقطبت أسواقه التجار من مختلف القبائل القريبة والبعيدة⁽²⁾.

وكانت قوافل بلاد المغرب الأوسط تجوب الصحراء، وتصل بلاد السودان. وتمخر سفنها البحر المتوسط، وتصل الدولة الحفصية بالولايات الإيطالية وصقلية وجنوة. وتوجت بربط العلاقات مع الدول الأوروبية، وهذا جعلها تقيم مراكز ومحطات وموانئ هامة في بونة وبجاية والقالة وغيرها⁽³⁾.

كما عرفت قسنطينة بمكانتها الاقتصادية. وقد وصفها مارمول وصفا رائعا: (وهي مدينة غنية. بها عدد من التجار والصناع، ولكن موردها الأعظم وتجارها الأكثر ربحا في إرسال القوافل إلى نوميديا [جنوب الصحراء] وإلى ليبيا محملة بالمنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية والزيت. وتعود منها بالتبر [الذهب] والتمر والعبيد السود. فهي أكثر بلاد البربر تجارا في هذه الأشياء)⁽⁴⁾.

وهكذا مع كل مدينة قيمة اقتصادية خاصة. وحتى المناطق الصحراوية - هي الأخرى - أخذت تتطور وتبحث عن الاقتصاد الفعال الذي يثبت أركان المجتمع، ولاسيما في منطقة وادي سوف، وسائر مناطق الصحراء الجنوبية من الدولة.

ثانيا-الحياة الاقتصادية بوادي سوف:

كانت حياة وادي سوف الاقتصادية بسيطة ومتنوعة المظاهر. وتطورت بتطور المجتمع. وكان للعرب دورهم في التأقلم مع وضعهم الجديد، وأحدثوا نقلة خاصة في قابل الأيام.

1-الحياة الرعوية: كانت طرود قبيلة رعوية تقوم حياتها على تربية المواشي ورعايتها من الغنم والإبل والخيل والبغال والحمير بعدد كبير. وأزعج ذلك العدد قبيلة زناتة، ورأت فيه مزاحمة شديدة لمواطنها وتضييق الخناق عليها. ومن أجل تسريح المواشي وضمان عيشها، كانوا

(1) عبد الرحمان الجيلالي، ج2، ص 73.

(2) مارمول، المرجع السابق، ج3، ص ص 170-171.

(3) عبد الرحمان الجيلالي، ج2، ص ص 73-74.

(4) مارمول، المرجع السابق، ج3، ص 11.

يتنقلون في فضاء واسع بحثاً عن الكلاً لمواشيهم حسب المواسم، ويصلون في تنقلاتهم إلى أطراف الجبال شمالاً، وإلى بلاد الزاب عند اشتداد الحر، وشتاء ينزلون إلى الصحراء. وهكذا تتحكم فيهم الظروف الطبيعية والتقلبات المناخية. ويمثل الرعي جزء هاماً من معيشتهم⁽¹⁾.

2- ممارسة التجارة: ولكن متطلبات المعيشة جعلتهم يمارسون التجارة، ويجوبون الصحراء، ويقصدون البلدان المجاورة كالجرید وبلاد الزاب ووادي ريغ وتماسين وإلى وارجلان. وتصل قوافلهم إلى أبعد من ذلك، ولاسيما غدامس أو أقصى الجنوب ببلاد السودان. ولا يتجاوزونها خوفاً من قطاع الطرق⁽²⁾، فيستوردون التمر من بلاد الجريد ونفزاوة وفزان وتماسين ووارجلان وتقرت، بينما يشترون حبوبهم من بلاد الزاب⁽³⁾ التي بها سوق رائجة⁽⁴⁾.

3- الزراعة الصحراوية: أما الزراعة فكانت مزدهرة عند بربر زناتة في شمال وادي سوف بالجرمانية وتاقرارت⁽⁵⁾ يزرعون بعض القمح⁽⁶⁾، ولكن في مدينة الوادي لم يارسوها بسبب تربتها الفقيرة. وحينها كان التمر هو النوع البارز للزراعة الصحراوية في البقاع المحيطة بوادي سوف خلال العهد الحفصي، ومنها مدينة غدامس وأكثر طعامهم التمر، وبلاد الواحات جنوب طرابلس كانت كثيرة التمر والنخل، كما أكد صاحب الاستبصار⁽⁷⁾.

أما بلاد الجريد، وهي الأقرب إلى وادي سوف، فكانت الممول الأساسي لها بالتمور، بل لجميع بلاد إفريقية بالمغرب الإسلامي، وأقربها مدينة توزر⁽⁸⁾. (وهي أكثر بلاد الجريد تمراً، ومنها تمتاز جميع بلاد إفريقية وبلاد الصحراء التمر لكثرتهم ورخصه)⁽⁹⁾، وكذلك الشأن في بلاد الزاب. فأراضيها تنتج التمر بكثرة، والحبوب بشكل محدود كما ذكر الوزان: (... وقليل من

(1) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 155.

(2) نفسه، ص 170.

(3) نفسه، ص 183.

(4) مما عرف عن بلاد الزاب فقرها من زراعة الحبوب في هذا العصر، بل اشتهرت بالتمور فقط، ولكنها كانت تجلب القمح إلى سوقها من المناطق التلية، وحينها يشتري أهل سوف ما يحتاجونه من حبوب كالقمح والشعير وغيرها.

(5) إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، ص 47.

(6) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 183.

(7) كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 146-147.

(8) توزر: قاعدة بلاد الجريد، وتبعد عن وادي سوف نحو 145 كلم شرقاً.

(9) كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 155.

الأراضي الصالحة لزراعة الحبوب، لكن عدد حدائق النخل بها لا يحصى). وقال عن بسكرة: (أما السكان فمؤدبون لكنهم فقراء، لأن أراضيهم لا تنتج شيئاً غير التمر)⁽¹⁾. أما تقرت فكانت بلاداً للتمر، ولكن ينقصها القمح كما ذكر الوزان: (وهي عامرة بالصناع والنبلاء الأغنياء الذين يملكون حدائق النخيل. لكن القمح منعدم فيها، ويستورد من قسنطينة مقابل التمر)⁽²⁾.

4- غراسة النخيل: وكانت وادي سوف مختلفة الشأن عما يحيط بها من البلدان الصحراوية القريبة، بل تستورد التمر - وهو غذاؤها الرئيسي - من بلاد الجريد. ولعل أسباب تأخرها في التفكير في غراسة النخيل يعود للعوامل التالية:

- حالة الخمول والانطواء التي عاشتها قبيلة زناتة، واكتفاؤها باستيراد عناصر غذائها، وهو أسهل سبيل ظهر لها. ولم يخطر ببالهم أن المنطقة يمكنها أن تكون أرضاً زراعية.
- طبيعة الأرض وانتشار الرمال وفقرها من المواد العضوية المساعدة على الزراعة، وتراها نفوذي لا يمك ماء. فضلاً عن صعوبة حفر الآبار التي تستعمل في السقي أو شرب الإنسان. واكتفوا بما يجري به الوادي الذي بدأ ماؤه ينضب. بل تحول في أواخر عهدهم إلى برك متناثرة، ولجج تتجمع حولها بعض الخيام أو البيوت. ويعتبر سكانها شبه رحل.

ويعتبر سيدي مستور أول من دق ناقوس التطور بوادي سوف حينما أمر بغراسة النخيل⁽³⁾. وكان له الفضل في إخراج وادي سوف من سباتها العميق، وحوها إلى إحدى البلدان الفاعلة اقتصادياً في كامل المنطقة الجنوبية. وتحولت إلى بلد مصدر للتمر الطيب والمتميز الذي بلغ الآفاق في قابل الأيام. والذي شجع سيدي مستور وسهل له العزم على القيام بأول تجربة لغراسة النخيل، هو أن الرياح العاتية حفرت كثيراً، حتى ظهر الثماد [وهو الماء القليل]. ومن هنا أدرك سيدي مستور قرب الماء في الحوض الرملي، فأشار على أبنائه بالشروع في الغراسة،

(1) الحسن الوزان، المرجع السابق، ج2، ص 138.

(2) نفسه، ج2، ص 135.

(3) اختلفت الروايات عن زمن غراسة النخيل، وهو ما بين أواخر القرن الثامن الهجري وبداية القرن التاسع. والامر بذلك بدون شك هو سيدي مستور. وهناك من يرى أن الزراعة بدأت في عهده، والرأي الثاني أنها تمت بعد موته بزمن من قبل أبنائه وأحفاده، لأن سيدي مستور ألح كثيراً على غراسة النخيل، فتهاون الأبناء وسوفوا كثيراً، ولكنه أوصاهم بذلك عند احتضاره. ونسي الأبناء وتراخوا. ولكن (وبعد زمن رأى أحدهم أباه في المنام يحفر قرب زاويته، فسأله عن ذلك فلم يجبه، ففهم منه غضبه عنه. فتلطف معه حتى أجابه بأنه سيغرس نخيلاً. فاستيقظ الابن مرعوباً من ذلك). وشرع في الغراسة في نفس المكان قرب مكان سكنهم. انظر: إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 183-184.

والسفر إلى الأماكن المجاورة لجلب الفسائل والحشان، وخصوصا من بلاد الجريد الأكثر قربا من وادي سوف. ونجحت العملية التي تمت في غوط سيدي مستور⁽¹⁾ بشرق مدينة الوادي. واكتشف زراعة بعليّة لا تحتاج للسقي⁽²⁾، وإنما برز التحدي في وجود الكثبان الرملية التي تتطلب الرفع والإزاحة حتى لا تدفن النخيل الفتية. وبعد زمن ليس بالبعيد، تشجعت قبيلة طرود، وشرعت في حفر الغيطان، والتسابق في الزراعة التي عمت كل العائلات. وصارت مصدر المعيشة، وفتحت الباب على مصراعيه لهجرة المزيد من الناس. وحدث التحول في تاريخ مجتمع وادي سوف لأن النخلة كانت المعلم الذي ثبت المجتمع، وأعطاه صفته الجديدة.

(1) هو أول مكان شهد زراعة النخيل بوادي سوف بدون منازع. ويقع حاليا شرق أولاد أحمد في سوق مدينة الوادي.

(2) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 183.

المبحث الرابع

الحياة الثقافية والدينية بوادي سوف في العهد الحفصي

تبوأ الثقافة مكانتها في حياة الأمم والشعوب، والعلم - دوماً - رائدها، وارتبط بوشائج متينة. وكان الدين محور مادتها، ومظهر تلك الحياة الثقافية البارزة. وتميز العصر الحفصي في مختلف الولايات ومنها وادي سوف، بقسط وافر من الثقافة الدينية.

أولاً: -الحياة الثقافية في العهد الحفصي:

كان عمود الثقافة وعنوانها الجلي هو التعليم الذي كان منتشرًا في شتى أنحاء السلطنة، ويؤدى في المساجد والكتاتيب القرآنية التي احتضنت جميع أنواع العلوم والمعارف والفنون كما ذكر ابن خلدون⁽¹⁾. وكان تحفيظ القرآن في مقدمة التعليم، ويدرس في الألواح بخلاف أهل الأندلس الذين كانوا يعتمدون في تلقيه للطلبة بواسطة المصاحف. وكان اهتمام بلاد المغرب الأوسط بالعلوم بارزا تاريخيا، وله حواضر علمية هامة، وفي مقدمتها بجاية الناصرية التي عرفت بعلمائها الأفاضل. وأشاد بها الغبريني في كتابه، منوها بالكتب التي درست بشكل كبير، فضلا عن المؤلفات وأشهرها كتاب المقدمة لابن خلدون الذي ألفه في قلعة بني سلامة قرب مدينة تيارت سنة 776هـ/1374م.

وكانت الكتب تجلب من المشرق وأهمها: كتاب "مختصر خليل" الذي لم يعرفه سكان المغرب إلا عندما جلبه إليهم محمد بن الفتوح التلمساني⁽²⁾ سنة 805هـ/1402م، فأقبل عليه الناس واعتمده في التدريس، وعكفوا على شرحه، واكتفوا به عن سائر كتب الفقه المالكي⁽³⁾. وعرف المغرب الأوسط ثلة من العلماء الأعلام في الفقه وعلم الكلام والتصوف والأدب وعلوم اللغة. وكانت لهم الدرجات العلمية البارزة في الحواضر الثقافية المزدهرة في بجاية وتلمسان والجزائر ومليانة وقسنطينة⁽⁴⁾ وغيرها من بلدان السلطنة، ولاسيما تونس وما

(1) ابن خلدون، العبر، ج6، ص ص 409-412.

(2) محمد بن عمر بن الفتوح، أبو عبد الله التلمساني. عالم فقيه وزاهد. انتقل إلى فاس وتصدر للإقراء. ولكنه أصيب بالطاعون ومات هناك سنة 818هـ/1416م. انظر: عادل نويض، معجم أعلام الجزائر، دار الوعي، الجزائر، 2017، ص ص 106-107.

(3) عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ج2، ص ص 75-76.

(4) الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981، ص 21.

جاورها. وقد قام جامع الزيتونة بدوره الكبير، ووجد عناية كبرى من السلاطين، ودعموه بمكتبة ضخمة بلغت كتبها نحو 36 ألف مجلد في القرن الثامن الهجري. ونبغ فيه علماء بلغ صيتهم الآفاق. وكانوا يلقون فيه العلوم الشرعية واللغوية. وقد عدد طلبته بثلاثة آلاف طالب⁽¹⁾. وكان الأمراء يحبون العلم، ويجالسون العلماء. وجعلوا التعليم مجانا تشجيعا للناس، بل تعداه إلى تخصيص منح ومساعدات للطلاب⁽²⁾.

كما عرف هذا العصر ازدهارا في المدارس التي أسسها السلاطين، مثل: المدرسة الشيعية التي أسسها أبو زكرياء يحيى سنة 633هـ. وسارت على منواله زوجته الأميرة عطف، فأسست سنة 650هـ المدرسة التوفيقية. وتوالت المدارس التي كان آخرها المدرسة المنتصرية التي أسسها السلطان محمد المنتصر سنة 841هـ. وكلها مدارس خاصة بطلبة جامع الزيتونة وفروعه⁽³⁾.

كما كان للزوايا دورها في تعليم أتباعها من محبي التصوف. ينشرون فيها علوم الدين والسلوك، ويقصدها الفقراء من أهل القرى والبوادي، وأشهرها في تونس: زاوية سيدي بن عروس، وزاوية سيدي الكلاعي، وزاوية الشاذلي. وفي القرن التاسع تطورت الزوايا إلى أماكن لإيواء المسافرين والغرباء، وتحولت إلى مقرات لنشر العلم⁽⁴⁾.

ولكن العلماء عانوا كثيرا من الوشايات والخصومات. وتعرض بعضهم للسجن والنفي والتشريد والقتل والتعذيب، ومنهم: عبد الرحمان بن خلدون الذي تنقل في بلاطات السلاطين، فعمل عند بني الأحمر بالأندلس، وبني مرين بالمغرب الأقصى، وبني زيان بالجزائر. ومكث عند بني حفص بتونس أربع سنوات (780-784هـ). ولما اشتدت الخصومة بينه وبين زميله في الدراسة الشيخ محمد بن عرفة، فضل ابن خلدون الانسحاب. وخرج إلى مصر بدون رجعة، وأقام بها إلى آخر حياته⁽⁵⁾.

ثانيا- الحياة الثقافية بوادي سوف:

غلب على المجتمع بوادي سوف طابع البساطة في الزمن الحفصي، وقلة العلم والعلماء.

(1) محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد، المطبعة التونسية، تونس، 1939، ص 37-46.

(2) جميلة مبطي المسعودي، المرجع السابق، ص 178.

(3) محمد بن الخوجة، المرجع السابق، ص ص 173-176.

(4) جميلة مبطي المسعودي، ص ص 169-170.

(5) محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص ص 509-518.

واقترنت المعرفة عند الشيوخ الحكماء. والحكمة لها مكانتها في توجيه المجتمع ورعايته. ولها قيمتها المعبرة كما ذكر صاحب التبر المسبوك: (أما الحكمة فإنها عطاء من الله جلت قدرته، يؤتيها من يشاء من عباده)⁽¹⁾. وكان للشيوخ دورهم في التربية والتوجيه بما يملكون من معرفة، وما يعتمدون عليه من تراث شعبي، وما حنكتهم به تجارب الزمان.

والثقافة امتزجت فيها الأسطورة بالقيم الدينية والأصول الشرعية، كما ورد عند شيخ عدوان الذي كان حكيم زمانه. ونلمس في حوارهِ التأكيد اليقيني على ملك طرود لودي سوف. ويظهر تأثير الشيخ العدواني بالفكر الأسطوري، ويرر بها سيطرة طرود على بني عدوان وغلبتهم على الأرض. وهو نوع من عدم تحمل المسؤولية في ردهم عن السكن فيها، ونفي الغلبة، وإرجاعها إلى التفسير الغيبي.

وساد في المجتمع الفكر الخرافي، وصدقوا بالأساطير، والأخبار التاريخية الواهية التي يتناولها الناس في مجالسهم، ويقصونها على أبنائهم وأحفادهم في سمرهم الليلي. ويعتقدون فيها البركة، ويأخذونها بدون تثبت، لأنها تمثل الثوابت الصحيحة، والحقائق التي لا غبار عليها. ومما أورده العدواني في تاريخه: (أن أهل الجردانية من بني عدوان، هم الذين قتلوا عليا ومعاوية)⁽²⁾. والمعروف تاريخيا أن الخوارج خططوا لقتل البارزين في عهدهم. وكلف عبد الرحمان بن ملجم بقتل الخليفة علي بن أبي طالب، وتم له ذلك في المسجد بالكوفة. وأما معاوية فتعرض لعملية الاغتيال، ولكنه نجا منها. ولعل مقصوده، أصول آبائهم قبل هجرتهم إلى أرض وادي سوف.

كما اهتم المجتمع بالأولياء والصالحين من العباد، والشغف بكراماتهم. وكلما شاهدوا مظهرا غربيا، أو تخيلوا حالة، يبرزونها، وتصير محل احترام وتقديس مثلما وقع في قبر سيدي يوسف الذي اعتقد الناس أنهم شاهدوا نورا يشع من قبره ليلا، فوضعوا عليه كومة من الخشب⁽³⁾ اعترافا بفضله. لأنه مات شهيدا - في نظرهم - وجعلوه من أولياء الله الصالحين. كما أن للشيوخ دراية ببعض الأحاديث النبوية الشريفة. فقد استدل شيخ عدوان في

(1) التبر المسبوك، المرجع السابق، ص 104.

(2) تاريخ العدواني، المرجع السابق، ص 82.

(3) شيدت قبة فوق ضريحه في وقت متأخر في القرن الماضي. وصار مزارا من العامة. انظر: إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 93.

الجردانية لوفد طرود⁽¹⁾ بحديث رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (لا تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله تعالى إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس. وجعل لكم الأرض، فعليها فاقضوا حاجاتكم⁽²⁾). وسبب نهي النبي على ظهورها في الأمور العامة، فيطيل الحديث في البيع والشراء وغيره، وذلك يشق عليها، ويتعبها بدون مبرر. والأصل هو النزول وقضاء الحوائج فوق الأرض.

قال الطيبي قوله: منابر كناية عن القيام عليها. لأنهم إذا خطبوا على المنابر قاموا. والمراد بالقيام الوقوف لا الشخوص. قال الخطابي: قد ثبت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - خطب على راحلته واقفا عليها، فدل ذلك على أن الوقوف على ظهورها إذا كان لأرب، أو لبلوغ وطر لا يدرك مع النزول إلى الأرض مباح، وإنما النهي انصرف إلى الوقوف عليها لا بمعنى يوجهه، فيتعب الدابة من غير طائل. وكان الإمام مالك يقول: الوقوف على ظهور الدواب بعرفة سنة، والقيام على الأقدام رخصة⁽³⁾.

ثالثا-الحياة الدينية بوادي سوف:

ظل الدين الإسلامي نبراسا منيرا في النفوس، وتجلي في المؤسسات الدينية، وممارسة الشعائر التعبدية، والمعاملات العامة في المجتمع. ويمكن الوقوف عند بعضها فيما يلي:

1-المساجد: عرفت وادي سوف ثقافة المساجد منذ العهد الموحد من قبيلة عدوان، تحديا للروم المسيحيين. وهو رد الفعل عند تأسيس كنيستهم. وبقيت هذه الثقافة راسخة في نفوسهم، ولكنها لم تظهر في الواقع، ولم تتوسع في تشييد مساجد. وهذا ما سكتت عنه الأخبار التي وصلتنا - لحد الآن- والأسباب التي أخرت عملية تشييدها عديدة، وأهمها: الاضطراب وعدم الاستقرار الذي مس القبائل التي كانت تنتقل باستمرار بحثا عن الموطن الآمن من شمال سوف إلى جنوبه، وفي مختلف اتجاهاته وأطرافه. وكذلك الصراع والحروب التي دارت رحاها في كامل المنطقة. والتي خلفت تهديم المباني، ولم تشجع على بناء المساجد. لأن البيوت في حد ذاتها قليلة ومتواضعة في شكلها ومساحتها. ولعل ضعف الارتباط بالصلاة والإقبال عليها، لم

(1) تاريخ العدواني، المرجع السابق، ص 93.

(2) رواه أبو داود.

(3) انظر: شرح سنن أبي داود، مع تصحيح الحديث. وكتاب، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري، شرح محمد بن عبد الله التبريزي، تح جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 2002، ج 7، ص

يدفعهم للبناء، واكتفوا باتخاذ زرائب أو غرف خشبية صغيرة للعبادة أو تعليم الصبيان بعض تعاليم الدين الحنيف، ولو خارج بيوتهم في الفضاء الخارجي وحول غيطان النخيل الجديدة.

2- الزوايا: تبوأ الزوايا في المغرب الأوسط مكانة دينية وثقافية واجتماعية هامة منذ القرن الخامس الهجري عندما أسس أبو عبد الملك مروان البوني⁽¹⁾ رباطه في عنابة. ثم انتشرت الزوايا والرباطات في كامل ربوع البلاد. وصارت المؤسسات المحورية في مختلف الحواضر والأرياف والمناطق الصحراوية، ومنها منطقة وادي سوف التي تأسست أول زواياها في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، وأهمها:

أ- زاوية سيدي مستور: وهي مقر سكن الشيخ الجليل سيدي مستور، في شرق مدينة الوادي. والذي اتخذه مقاما للتبتل والتعبد، وإكرام عابري السبيل. وفي رحابه يبلغ لهم النصائح والتوجيهات، والحكم وبعض المبادئ الدينية، ويحث الناس على الصلاة وذكر الله تعالى.

ب- زاوية سيدي عبد الله: وتقع في غرب مدينة الوادي⁽²⁾، والتي وضع حجر أساسها سيدي عبد الله بن أحمد في بداية القرن التاسع الهجري. واشتملت على مسكنه، وموطن تبتله وانقطاعه للعبادة وذكر الله، والنصح والوعظ لعامة أفراد المجتمع، وتعليم الناشئة من أحفاده الذين واصلوا رسالته، وبنوا المسجد، ووسعوا في بيوتهم - في وقت لاحق - حتى صارت قرية بارزة بين الكتبان.

3- المقابر في مدينة الوادي: تعتبر المقابر مظهرا جليا في مدينة الوادي. وفي وسطها وجدت عدة مقابر، ولاسيما بعد استقرار قبيلة طرود، وبسط سيادتها على المدينة، ومن أهمها:

أ- مقبرة الوادي: وتم تأسيسها في مكان سوق مدينة الوادي⁽³⁾، وذلك في الأيام الأولى من سنة 818هـ، عندما اضطروا إلى دفن الموتى بعد سقوط الضحايا في المعارك التي دارت مع خصومهم من زناتة. ويومئذ سارع زعماء القبيلة بتحديد مكانها قرب مساكنهم الأولى. وقد استجابوا لنصيحة شيخهم الأول الذي أرشدهم إلى ضرورة إكرام موتاهم، ودفنهم بعناية وفق

(1) مروان بن علي الأسدي القطان، أبو عبد الملك البوني، الأندلسي الأصل. ونسب لبونة لأنه نشأ بها، وعاش فيها بقية حياته. وكان عالما جليلا في الفقه والتفسير والحديث، ونال درجة الحافظ. وأخذ العلم في قرطبة والمشرق، واستقر نهائيا في عنابة مدرسا ومؤلفا إلى أن مات سنة 439هـ/1047م. وله شرح الموطأ للإمام مالك. انظر: عادل نويض، معجم أعلام الجزائر، ص 67.

(2) بقي سكان مدينة الوادي يطلقون على حي سيدي عبد الله وحتى فترة السبعينيات من القرن الماضي اسم الزاوية أو زاوية سيدي عبد الله. والآن يعرف بحي سيدي عبد الله.

(3) كانت بالتحديد في جنوب مسجد سيدي المسعود في الناحية الغربية من السوق.

أحكام الشريعة الغراء، لأنه يدل على مدى احترامهم وتقديرهم لأفراد مجتمعهم⁽¹⁾.
ب- مقبرة سيدي يوسف: وتقع في صحن القارة. وهي مكان موت البطل الطرودي سيدي يوسف في أرض المعركة التي دفن فيها. وشيدت له قبة، ودفن الناس حولها. وتحولت إلى مقبرة ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم.

ثالثاً- الدور الثقافي والعلمي لشيوخ وادي سوف:

إن أساس الحياة المطمئنة يكمن في الاستقرار السياسي، والرخاء الاقتصادي، والتلاحم الاجتماعي، والوعي الديني والثقافي. واجتمعت هذه الخصال في شيوخ وادي سوف. وعلى قلتهم، حاولوا رعاية المجتمع وحمائته من الأخطار، وتطوير حياته نحو الأحسن، ومنهم:

1- الشيخ سيدي مستور: وهو أبرز العلماء من طرود، وأصله من القيروان. وهاجر إلى المغرب الأقصى تبركا بأل البيت من العلويين الذين ذاع صيتهم في بلاد المغرب الإسلامي قاطبة. وأخذ منهم العلم. ومتن الرابطة الروحية مع شيوخ العلم والعرفان. وكان يعرف سابقا في وادي سوف، لأنه مر بقرنها يوم رحلته. وفي طريق عودته، فضل الإقامة بوادي سوف. واختار الجهة الجنوبية من تكسبت القديمة، وبنى عريشه⁽²⁾ بعد ترحيب زناته، وقبول إقامته بجوارها بكل ود ومحبة.

وكان يحب قومه، ويمدهم بكل ما يملك من مال أو رأي سديد. ولما قدم أولاد أحمد وأرادوا الاستقرار بقرع عريشه، رحب بهم غاية الترحيب، وأكرمهم أحسن إكرام. وكان دائم النصيح لقومه من طرود الذين اندمج معهم تحت رابطة التحالف والولاء. وظل يحذرهم من مخاطر عدوهم، ويرشدهم إلى أمور دينهم ودنياهم. وكان يتمتع بفكر استراتيجي في بناء المجتمع، وزيادة سكانه، ومن نصائحه لقومه:

(لا تمنعوا أحداً أجنبياً أتاكم من السكن معكم، بل أكرموا وزوجوه⁽³⁾ لتكثر أفتهاكم)

(1) تغير موقع المقبرة، ونقلت إلى الشمال الغربي بعد قدوم الشيخ العرش وتزعمه لمدينة الوادي. وأخذت اسم مقبرة أو جبانة الأعشاش إلى اليوم.

(2) العريش: يطلق على الشجر الملتف. وتعرف به الزريبة، وهي المأوى الخفيف الذي يشبه الخيام في سهولته. وكانت تشيد من الحلفاء والحطب المنتشر آنذاك. ولما شرع في زراعة النخيل، أضيف لها الجريد لختته، والقدرة على تطويعه. ويحمي العريش من جهاته الأربع، ويساهم في التسقيف فوق الخشب الممدود.

(3) دعوة سيدي مستور إلى الزواج من الأجنبي عن القبيلة لتمتين الأواصر عن طريق المصاهرة، ونبد العنصرية. ويعني بالأجنبي ولو كان بربريا، لأن الإسلام يشترط الدين والخلق. وهذا ما جعل الدماء تختلط. وانصهر أفراد المجتمع في نسج سكاني جديد، وأكثر فاعلية.

الناس. لأن الولد الذي يأتيكم من الأجنب، يكون أشد بطشا، وأشجع ممن يأتي لكم من بعضكم لحرارة الأول وبرودة الثاني كما قيل⁽¹⁾.

كما كان يحذر قومه من كيد قبيلة زناته، ودعاهم إلى الحيلة التامة، والحذر المتواصل، لأن الأحقاد تولد الخصومة، وتحدث الضرر البين الذي يستأصل المجتمع من جذوره. ولم يستمع القوم لنصائحه التي وقفوا عليها لاحقا عندما كشفت خيوط المؤامرة. ولولا لطف الله، لضاعت طرود في مدينة الوادي.

وسيدي مستور هو رجل العلم والدين والخلق. اعتكف في زاويته مشتغلا بالذكر والصلاة والعبادة، ومتابعة ما حوله من أحداث، وتقديم النصح للجميع، ولو من زناته التي تتربص الدوائر بهم. لأنه ينطلق من الدين الحق الذي لا يخشى فيه المؤمن الصادق لومة لائم، ويخاف ربه ويخشى عذابه. وحينها يصدر أحكامه بالعدل. وكان ذلك ديدن سيدي مستور على طريق الاستقامة.

ورغم امتلاك سيدي مستور للماشية التي صار بها من كبار الرعاة، فكر في مورد أساسي يضمن لقومه عيشا أحسن. فدعاهم إلى غراسة النخيل التي أثمرت وأينعت، وفاض خيرها، وساهمت في تماسك المجتمع وتطوره.

ومات سيدي مستور هائنا مطمئنا بما قدمه من عمل صالح. ودفن بالقرب من زاويته شرق حي أولاد أحمد العريق. وما زالت قبة قبره شاهدة، قرب الغوط الذي تمت فيه أول غراسة للنخيل بوادي سوف.

2- الشيخ سيدي عبد الله: هو أحد رجال سوف البارزين في عصره من العرب الذين توافدوا على المنطقة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري. وكان معه خادمه. وخرج من موطنه نفطة، ومكث مدة عند طرود عندما كانوا بعقلة الطرودي، فلقي منهم كرم الضيافة، وعرفهم عن قرب، وربط مع بعضهم علاقات أخوية. ثم واصل طريقه نحو المغرب الأقصى، واتصل بأحلاف العلويين، وتمسك بشعائهم. ولكنه فضل الانقطاع للعبادة، ونبذ الدنيا، والزهد في الزواج. واكتفى بتلقي العلم والسلوك. وبعد مكوثه نحو عامين، ونتيجة للظروف الصعبة التي مر بها، وبعض الخلاف مع جيرانه، فضل الرجوع والاستقرار بوادي سوف.

(1) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 167.

وهذه الهجرة المؤقتة تكشف عن انتسابه للأشراف العلويين⁽¹⁾الذين تزود منهم علميا وروحيا.

وعند عودته إلى وادي سوف، بحث عن أصحابه من طرود، فوجدهم تفرقوا، فقصد تكسبت القديمة، ووجد الترحيب من زناته، فأكرموه، وقبلوه كأحد أفرادهم، وألحوا عليه بالزواج. فزوجه امرأة منهم، ووقع اختلاط بين الطرفين. ونظرا لمكانته العلمية والدينية، اختاروه عضوا فاعلا في مجلسهم الاستشاري الذي له الحل والعقد في الشؤون العامة. ولكن انتماءه المذهبي المخالف للمذهب الإباضي، وعلاقته القديمة مع طرود، جعلت قلبه ميالا لهم. ولما لقي بعضهم، نصحوه بإخفاء علاقته بطرود مخافة الفتك به من زناته⁽²⁾. واستفاد الجميع بهذا السر. لأنه كان يخبرهم بكل تدبير يتم ضدهم، ولاسيما حين اشتد الصراع بين الطرفين. وكان سيدي عبد الله بحكمته وقوة إيمانه، يأبى الظلم ويكره المكر والخداع. فكان دائم التذكير لزناته، ويحاول رأب الصدع قدر الإمكان. ولما عزموا على قتل طرود وإبادتهم، قال لهم ناصحا: (إن طرودا تركوا إذايتكم وواخوكم وأزالوا ما في صدورهم عنكم، ويكرمونكم غاية الإكرام). ولكنهم لم يلتفتوا لقوله، ولم يرجعوا إلى صوابهم، بل تعللوا بغلبة طرود لهم، وحققوا مآربهم في السكن والاستقرار⁽³⁾. ولكن زناته اكتشفت حقيقة سيدي عبد الله وعلاقته مع طرود، وعرفت أن الذي سرب لهم الأخبار السرية هو سيدي عبد الله عن طريق خادمه، فغضبوا عليه كثيرا، وطلقوا زوجته، وطرده من قريتهم⁽⁴⁾.

نزل سيدي عبد الله في الجنوب الغربي من تكسبت القديمة، وبنى عريشا لنفسه وآخر لخادمه. واتخذوا المكان زاوية للتعبد والتعليم لمن أراد. وتعتبر من أوائل العمران العربي في

(1) وجدت عند أحد أحفاد سيدي عبد الله، وهو الطالب الجموعي الصيفي، شجرة النسب الشريف - كما ذكر - وهذا نصها: (هذه شجرة النور اللامع، شجرة الطيبة ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. شجرة الشرف النبوي والعلم والحلم والضياء والنور. ها أنا المسمى الجموعي بن الحاج محمد الصيفي بن مصباح بن الحاج قدور بن عبد الله بن أحمد بن حامد بن عبد الجبار بن أبي بكر بن علي بن محمد بن العباس بن يعقوب بن إسماعيل بن التهامي بن عبد الحنين بن عيسى بن اعمار بن عبد الرحمان بن علي بن صالح بن إدريس بن عبد الله بن الحوسين بن زين العابدين بن الحوسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وأمها فاطمة الزهراء بنت محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم). نقلتها عن الطالب الجموعي الصيفي في بيته في شهر جويلية 1997. والجدير بالذكر أن الشجرة بينها وبين سيدي عبد الله الأول ثلاثة أجيال فقط، ولا يصل ذلك إلى القرن الخامس عشر الميلادي الذي كانت فيه وفاة سيدي عبد الله الأكبر.

(2) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 161.

(3) نفسه، ص 170-171.

(4) نفسه، ص 172.

سوف بعد هجرة زناته. بل هي متزامنة مع تأسيس حي أولاد أحمد والأعشاش في حدود سنة 800هـ / 1398م. وكون أسرة، وحفر غوط نخيله، وأصبح من أبرز أعيان المنطقة - بعد سيدي مستور - ورجال الإصلاح فيها. ولما قدم العرب، ولاسيما قبيلة الأعشاش وأولاد أحمد، كان من رجال الإصلاح، وتحقيق الوثام، وخصوصا مع قبيلتي عدوان وطرود. وحينها برز دور سيدي عبد الله في الإصلاح والوعي الاجتماعي. وتواصل نشاطه حتى آخر حياته. ودفن بزاويته. وما زال ضريحه بارزا إلى اليوم خارج مسجده القديم.

وهكذا كانت وادي سوف ثم تحولت مستقبلا إلى حاضرة عمرانانية، وتوسعت قبيلة طرود في الفضاء القريب. وكان لزراعة النخيل دورها في تشجيع الهجرة، وتطور المنشآت العمرانية.

المبحث الخامس

المظاهر العمرانية في مجتمع وادي سوف في العهد الحفصي

إن مستوى حضارة المجتمع تكمن في طبيعة مساكنه وبيوته. وهي علامة محددة لمنزلته في سلم التطور. والدولة الحفصية عرفت ازدهارا في العمارة، بينما كانت وادي سوف فتية في إقامة سكانها واستقرارهم.

أولا: المظاهر العمرانية في الدولة الحفصية:

ساهمت القبائل العربية في توسيع الحركة العمرانية، ولاسيما بعد الهجرة الهلالية السلمية بعد سنة 630هـ/1232م، والتي نزلت إلى بلاد الجريد والواحات الجزائرية. وكانت البنية الاقتصادية المرتكز الأساسي في تشجيع الحركة العمرانية وزراعة النخيل⁽¹⁾. ولكن العرب الذين نزلوا إلى وادي سوف وعمروها، لم يجدوا زراعة النخيل في تلك الأثناء، لأن المقصد هو الاستقرار في المراعي، وتوفير ما يسد الرمق، ولا يبحث عن حياة الترف والتنعم. وهو ما أشار إليه ابن خلدون: (والبدوي لم يكن دخله كبيرا... فيتعذر من أجل ذلك سكنى المصر الكبير لغلاء مرافقه وعزة حاجاته. وهو بدوره يسد خلته بأقل الأعمال، لأنه قليل عوائد الترف في معاشه وسائر مؤنه، فلا يضطر إلى المال)⁽²⁾.

والعرب عموما كانوا يسكنون في هذا العصر في الأكواخ، والخيام المحمولة، والمصنوعة من الوبر والصوف⁽³⁾. بينما تمتاز منازل الحضر بجمالها. كما وصفها الوزان: (ومعظم الديار حسنة المنظر مبنية بحجارة مزلوجة ومنحوتة على أكمل وجه. سقوفها مزدانة بالفسيفساء والجص المجزع بطريقة فنية عجيبة، ومصبوغة باللأزورد⁽⁴⁾ وغيره من الألوان الرفيعة. ذلك أن الألواح وأخشاب البناء نادرة جداً، ولا يمكن أن يصنع بها يتوفر منها محلياً إلا قناطر قبيحة كذا). وتبلط الحجرات بمربعات لماعة ذات لون فاتح، وتبلط أيضا الساحات كذاك بقطع لماعة. وغالب المنازل ليس بها سوى طابق أرضي، ومدخلها جميل ذو بايين أولهما يفضي إلى الخارج، والآخر يتصل بالمسكن ويرقى إليه بسلم من بضع درجات مزدانة بتبليط جميل.

(1) محمد حسن، المدينة والبادية، المرجع السابق، ص 289.

(2) ابن خلدون، المقدمة ص 287-288.

(3) انظر: جميلة مبطي المسعودي، ص 158.

(4) اللأزورد: وهو حجر أزرق اللون، ومن الأحجار الكريمة.

ويتنافس السكان في تجميل مداخل بيوتهم لتكون أكثر أناقة وزخرفة من غيرها. لأن هناك يجتمع الناس للتحدث مع أصدقائهم أو لقضاء بعض الشؤون مع خدامهم⁽¹⁾. ولم يؤسس الحفصيون مدنا وعواصم جديدة على غرار المهديّة والمنصورة في عهد الدولة العبيديّة، بل اقتصروا على تشييد مساكن للنزهة في ضواحي مدينة تونس⁽²⁾. وما زال الطابع المعماري الحفصي فيها شاهداً على حضارتها، والذي تجلّى في القلاع والقصور والمساجد والمدارس والأسواق والحمامات⁽³⁾. وكلها ذات طابع متميز. فيه مزيج من العمارة المشرقية والمغربية الأندلسية⁽⁴⁾.

أما بلاد المغرب الأوسط (الجزائر)، فاقترنت على بعض المدن البارزة سياسياً ولها نفوذ. وظهرت في قصباتها، ومنها بجاية وبونة وسورها المنيع، وقصبة قسنطينة وجامعها الكبير ومسجد ورقلة⁽⁵⁾. ولكن بعض القرى ظهرت للوجود في هذا العصر. وتطورت باستمرار. وقد أحدثها بعض الأولياء المحليين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وهم على قيد الحياة، أو من قبل مريدي الشيخ، والقائمين على ضريحه. ويحمل الموقع مع اسم الولي، لفظ "سيدي فلان". وبدأت تتكاثر تلك المناطق في آخر العصر الوسيط بسبب نمو حركة التصوف⁽⁶⁾ التي جعلت من الدراويش الذين يرميهم الأطفال بالحجارة من الأولياء، وقد خلدتهم المدن وحملت أسماءهم القرى كما صرح به الوزان في وصفه لتلك الأحوال: (وفي أثناء إقامتي بتونس، أمر الملك ببناء زاوية جميلة جداً لأحد هؤلاء المجاذيب المسمى سيدي الداوي. وكان هذا الرجل يمشي في الأزقة مرتدياً كيساً، عاري الرأس، حافي القدمين، يضرب بالحجر ويصيح كالمسعود، فأجرى عليه الملك إيراداً حسناً يعيش به هو وعائلته)⁽⁷⁾.

ثانياً- العمران البشري بوادي سوف في العهد الحفصي:

عمرت وادي سوف قديماً، كما سبق الذكر، ولكنها في العهد الحفصي بدأت تشهد تحولات بارزة في عمرانها البشري، وتجلّى في مدنها وقراها التي شيّدت في ظروف مختلفة بفعل العوامل

(1) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص 77.

(2) روبر بارنشفيك، المرجع السابق، ج1، ص 365.

(3) عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج2، ص 72.

(4) جميلة مبطي المسعودي، ص 164.

(5) عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ج2، ص 73.

(6) روبر بارنشفيك، المرجع السابق، ج1، ص 365.

(7) الحسن الوزان، المرجع السابق، ص ص 76-77.

المتعددة، وأهما:

-**العامل الأمني:** فالإقامة والاستقرار الأول للسكان كان في شمال وادي سوف لوجود الظروف الطبيعية الملائمة، ولكن تتابع الأخطار، وقرب المنطقة الشمالية من طرق المواصلات، ووجود قطاع الطرق، دفع بالسكان الأوائل من العرب والبربر إلى النزول نحو الجنوب، والاستقرار بمدينة الوادي وضواحيها.

-**العامل الجغرافي:** والمتمثل في الماء الغزير في عيون النازية وما حولها، والمراعي الخصبة. ولما نزلت قبيلة طرود نحو مدينة الوادي، فضلت توطين السكان بالقرب من مجرى النهر، واختارت قبيلة عدوان اللجة، وهي البركة المائية التي تعتمد عليها في متطلبات حياتها.

-**العامل البشري:** وهو ضيق المكان، الأمر الذي دفع زناتة إلى توزيع مواقعها، وتنوع قراها، وسعت طرود إلى بناء وتشيد مساكنها في أطراف المدينة الجديدة بالنسبة لهم. ويمكن الوقوف عند أهم المعالم العمرانية الزناتية والعربية بوادي سوف فيما يلي:

1-المعالم العمرانية الزناتية: كانت مساكن زناتة بوادي سوف - وخصوصا الرحل منهم- على شكل زرائب من الحلفاء، وأعمدتها من الخشب الصحراوي من شجر الأزال والمرخ والرتم. أما المستقرون في القرى، فاستعملوا الطين والجبس، وأحاطوها بأسوار لحمايتها من الغارات المعتدية⁽¹⁾. واستطاعت قبيلة زناتة أن تؤسس قاعدة وادي سوف الأساسية، وهي مدينة والوادي، والتي احتوت على ثلاث قرى متفاوتة الحجم، وهي التالية:

أ- تكسبت القديمة: وهي قاعدة سوف الأولى، لها سورها الذي يحميها. ولما أحست بالخطر، قامت ببناء قرية في الشمال الغربي.

ب- قرية المغيبة: وتوجد في الشمال الغربي، قرب تكسبت الجديدة، وجنوب كوينين. وعرفت باسم المغيبة. وكانت بدون سور، لأنها بنيت على عجل، وجعلتها مخفية عن الأنظار.

ج- البليدة الجديدة: وكانت تسمى قصر العريش لوجود الأشجار الكثيفة بجانبها. وتقع إلى الشرق من سيدي مستور الحالية⁽²⁾. وكان طول الجدار نحو ثلاثة أمتار، وهو أمر يدعو إلى العجب في زمنه، كما ورد في رحلة بني هلال: (كان الناس يتعجبون من طول جدران قصر العريش وكان طوله ستة أذرع)⁽³⁾. وتم إحاطة القرية بسور عظيم لحمايتها من الأخطار،

(1) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 82.

(2) موقعه في مكان غوط الصلاعة قبلة الوادي شرق سيدي مستور.

(3) انظر: رحلة بني هلال، نقلا عن إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 83.

واتخذت مسكنا لزعيم البلدة. وسبب بنائها بالقرب من تكسبت القديمة، لأن هذه الأخيرة ضاقت بمن فيها من جهة، وحتى يكون الأنس بالجوار، ويسهل الاتصال والتشاور والتعاون في بعض الشؤون العامة.

د- قرية القدايم: وهي واقعة شرق جلهمة (نغزوت). وهي أصل مدينة قمار الحالية. أسسها إياضية سوف في حدود القرن الثامن الهجري⁽¹⁾، وكانوا على صلة وثيقة بإخوانهم من إياضية تكسبت القديمة بمدينة الوادي، يشاركونهم في السراء والضراء. ولما قدمت طرود إلى الوادي، كانت نيتها الأولى بناء قرية بالقرب من القدايم. ولكن زعماء القبيلة أثنوهم عن ذلك، ونصحوهم بنائها في تكسبت القديمة. وهذا ما جعل زناتة تكسبت تدخل في حرب مع طرود في صحن القارة. وتكبدت زناتة الهزيمة النكراء، وكان مصيرها المحتوم الخروج من سوف. وتهدمت قراها، ومنها بلدة القدايم، في حدود سنة 818هـ/1416م⁽²⁾. فنقلت طرود بعض حجارتها، وشيدت بها مواقع في مدينة الوادي⁽³⁾. وتوجد قبور زناتة في نواحي قمار كما ذكر محمد الطاهر التليلي: (ومن المعالم قبران قديان في طريق الغربية يقال أنهما من بلدة جلهمة التي كانت قرب قبر أحدهما واسمه داود، واسم الآخر مروان. وهما من إياضية سوف على ما يقال)⁽⁴⁾. وبعد ذلك عمرت قمار من قبل العرب الذي وفدوا عليها من جهات عديدة.

2-المعالم العمرانية العربية:

وهي المواقع التي شيدتها القبائل العربية التي استقرت في أطراف وادي سوف، وخصوصا في شهاها من قبل قبيلتي عدوان وطرود. ثم انتقلتا نحو الجنوب، ولحق بهم بنو سليم وأخلاق من العرب الذين عمروا المنطقة في فترات متفاوتة:

أ- قرى بني عدوان: وهي محدودة في عددها، وتمثلت في مساكنهم الأولى في الجهة الشمالية. ثم انتقلوا إلى القرب من مدينة الوادي. وأهم مواطنهم:

- وادي الجردانية: سكن عرب بني عدوان في مساكن خشبية في بادئ الأمر بوادي الجردانية، ثم استولوا على قصور الرهبان، وأخرجوهم منها إلى الزاب ووارجلان ووادي ريغ

(1) نقل ذلك الشيخ محمد الطاهر التليلي عن الشيخ محمد بن البرية. انظر: محمد الطاهر التليلي، "فذلكة تاريخية عن منطقة "سوف" بالجزائر"، ضمن كتاب أبي القاسم سعد الله، حاطب أوراق، عالم المعرفة، الجزائر، 2011، ص 177.

(2) إبراهيم بن عامر، المرجع السابق، مخ، ص ص 79-80.

(3) محمد ماني، عارة وعمران بلدة قمار، مخ، ص 32.

(4) محمد الطاهر التليلي، "لمحة موجزة عن مدينة قمار"، ضمن مجلة المنبر الثقافي الصادرة عن الجمعية الثقافية بقمار، ص 03، أرسل لي الصفحة المقصودة السيد التجاني العقون إلكترونيا يوم الثلاثاء 13 سبتمبر 2022، على الساعة 19:30.

مفتاح الخريطة

- قاعدة وادي سوف
- ✕ مواقع زناتية
- ⊙ مواقع عربية
- ▲ موقع زاوية

المقياس : 1 : 300 000

القطايع (قمار) ✕

⊙ جهيمة (تغروت)

⊙ اللجة (الزغم)

⊙ الهشبير (كوبنين)

✕ المغبية (كسبت الجديدة)

● زاوية سيدي عبد الله

⊙ زاوية سيدي مستنير

⊙ زاوية سيدي مستنير

✕ كسبت القديمة

✕ البلدية الجديدة (قصر العرش)

● زاوية سيدي مستنير

المراجع:

- 1- Ahmed Nadjah , le Souf des Oasis , Op-Cit, p9.
- 2- إبراهيم العوامر، الصروف، المرجع السابق، ص 160-174.
- 3- رحلة بني هلال، نقل عن إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 83.
- 4 - محمد العدواني، تاريخ العدواني، ص 102-103.

المواقع العمرانية بوادي سوف في نطاق الدولة الحفصية

وبلاد الجريد، واتخذوها مساكن في حدود عام 766هـ/1365م⁽¹⁾.

- اللجة: كانت اللجة إحدى البرك المائية المتفرعة من وادي أسوف بعد ضعف تدفق مياهه، فانتشرت اللجج والبرك المائية في أطرافه، ومنها لجة "الزقم" التي استوطنها بنو عدوان سنة 815هـ/1411م،⁽²⁾ وسبب انتقاهم وجود الماء في اللجة من جهة، والابتعاد عن قطاع الطرق، والبحث عن المراعي الخصبة، والاقتراب من طرود، والتعاون معهم في بعض الأحيان.

ب- قرى طرود: بحكم الحركة الدائبة لقبيلة طرود، تعددت قراهم، وتتابع مساكنهم بين شمال وادي سوف وجنوبها، ولاسيما قاعدتها مدينة الوادي، أهم مواطن القبيلة:

- عقلة الطرودي: وهي المكان الواقع في شمال وادي سوف. سكنته قبيلة طرود في أول أمرها في حدود سنة 796هـ/1394م، فحفروا سبعة آبار كانوا يشربون منها، ويسقون إبلهم ومواشيهم. وفي أحد تلك الآبار مات لهم رجل يدعى شداد بن الحارث الطرودي. فسميت به، لأن العرب يطلقون على المياه المتقاربة عقلة. وبعدها نزلوا إلى قصور عدوان، ولم يمكثوا فيها سوى مدة قصيرة نحو أربعة أعوام. ثم نزلوا إلى مدينة الوادي، وجمعوا شمل المهاجرين الذين انتسبوا لطرود بالولاء أو المصاهرة، واختلط بهم أفراد من بني عدوان وبني سليم. وهذا الذي جعل قبيلة طرود تتضخم في عددها، وتزداد قراها، وتبوءت مركز الصدارة في المنطقة. وتزعمت مدينة الوادي بدون منازع. وطرود أطلقت على المنطقة المركزية اسم مدينة الوادي، نسبة لوادي سوف القديم الذي يجري في أطرافها، وإلى سكانها الذين انسابوا إليها من كل الجهات، فشبهم الناس بالوادي الجاري من البشر⁽³⁾. وأهم القرى التابعة لطرود بمدينة الوادي حسب التسلسل الزمني:

- سيدي مستور: هي أول عمران عربي بمدينة الوادي. وعاش بها - في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري - الرجل الصالح سيدي مستور وإليه نسبت. أي بعد سنة 750هـ/1339م. وثبت السكن عند الشروع في زراعة النخيل. فكان غوط سيدي مستور هو التجربة الأولى الناجحة التي منحت تلك الضاحية من مدينة الوادي قيمتها التاريخية.

- أولاد أحمد: وهم أول فريق من طرود الذين نزلوا في غرب مساكن سيدي مستور في حدود سنة 800هـ/1398م⁽⁴⁾. وهم ينتسبون إلى "أحمد بن هبيب بن بهنة بن سليم بن منصور

(1) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 152-153.

(2) محمد العدواني، المرجع السابق، ص 102-103.

(3) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 90.

(4) نفسه، ص 161.

بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان⁽¹⁾. والظاهر أنهم احتموا بطرود التي قدمت في زمنهم، وسكن معهم بعض من بني عدوان، وصاروا منهم⁽²⁾.

-مدينة الوادي: أول نزول طرود لمدينة الوادي سنة 800هـ/1398م. وانتشروا جماعات متفرقة في منطقة ممتدة من وسط المدينة إلى مواقع سندروس ووادي العلندة والفولية والرقبية، فعثروا على الحجر على وجه الأرض، فأخبروا زعماء القبيلة، وعزموا على بناء قرية قرب محل تاغزوت، أو القدايم. ولكن الشيوخ كان لهم رأي آخر، وصمموا على بنائها في مكان قرب تكسبت⁽³⁾ رغم معارضة زناتة على ذلك. لأن من سبقهم كانوا يسكنون الخيام أو المساكن الخشبية. ولكن البناء معناه الاستقرار النهائي، والإقامة الدائمة. وهذا جعل طرود أول من بني المساكن بالحجارة والجبس، وشرعوا في وضع النواة الأولى للمدينة في غربي سوق مدينة الوادي فيما عرف بشارع البلد. وهو بداية الحي الذي عرف فيما بعد بالأعشاش.

-سيدي عبد الله: وهي ضاحية في غرب تكسبت القديمة. أسس هذا الحي في حدود سنة 818هـ/1416م بعد خروج سيدي عبد الله بن أحمد من موقع زناتة، فسكن في هذا المكان الذي يبعد بمسافة نحو كيلومتر واحد عن قاعدة سوف، وحفر غوط في مكانه.

ج-قرى بني سليم:

أما بنو سليم فقد اختاروا مكانا يبعد عن مدينة الوادي بنحو ستة كيلومترات شمالا. ولا شك أنهم استأذنوا طرود، ونزلوا على شكل بدو رحل، ومكثوا سنتين على تلك الحال. ثم تشجعوا عام 842هـ/1439م وبنوا قريتين، عرف كل منهما بالهنشير. ويطلق عادة على المكان المزروع:

-قرى الهنشير: إحداهما هي الهنشير الشرقي بمكان مقبرة كوينين الشرقية، والأخرى الهنشير الغربي في الغرب من كوينين. وكان البناء البارز فيها لا يكاد يذكر لقلته. وأغلبه من الخيام وزرائب من الخلفاء. ولكن الأغلبية فضلوا إقامة "ديار الكاف" داخل الحفر العميقة. (وأكثرهم يجعل في زمن البرد حفرا عميقة كالأبار يثقبونها في جهة، ويسكنونها بدل البيوت، ويخزنون فيها ما يحتاجون إليه. بحيث إذا مر أحد بتلك الأرض، لا يرى فيها إلا قليلا من الناس. وإذا حدث حادث، وصاح صائح، يراهم يخرجون من الأرض، ويغطون وجه

(1) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 278.

(2) **الروابط القبلية:** القبائل العربية عرفت أشكالا عديدة لتناسكها وزيادة أفرادها والذين يحملون اسمها بسبب عوالم التحالف، والتعاون، والجوار، والنسب. وكلها عوامل اختلاط الأنساب، وحينها يصعب التفريق بين أفراد القبيلة التي تنصهر كامل عناصرها في بوتقة واحدة تحمل اسم القبيلة، وصارت محل افتخار أفرادها، واعتزازهم بانتمائهم إليها.

(3) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 161.

البسيطة⁽¹⁾. وهكذا انحصرت وادي سوف في المعالم الأولى التي من خلالها توسعت إلى قرى جديدة في الفترات المتقدمة في عهود أخرى، ولاسيما في العصر الحديث.

ثالثاً-وضعية وادي سوف في نهاية العصور الوسطى:

انتهت العصور الوسطى في النصف الثاني من القرن الخامس عشر بتوالي الأحداث الكبرى التي خلفت أثراً أليماً في تاريخ العالم الإسلامي، انعكس على منطقة التقاء الحضارات العريقة في ضفتي البحر المتوسط. وكانت بلاد المغرب الإسلامي ضحية أمام التفوق الأوربي.

بينما رجحت الكفة من الطرف الآخر بالانتصار الباهر الذي حققه العثمانيون لما فتحوا القسطنطينية سنة 1453م. وكانت أول أمل في نصره الإسلام، والدفاع عن بلاد المسلمين، وخصوصاً في بلاد العرب مشرقاً ومغرباً. ولكن ذلك لم يدم طويلاً بوقوع الحدث الأليم الذي أحزن المسلمين في كل مكان، وهو سقوط الأندلس سنة 1492م. وحينها تكبدت البشرية خسارة كبرى بضياح نور الحضارة المشعة من قيم الإسلام الذي مكن العرب من بناء حضارة رائدة سرعان ما تلاشت، واضمحلت بضياح ملكهم، وتشتت شملهم. وصاروا أمام خطر جسيم، هدم قلاعهم وقيض أركان حصونهم. ويومئذ انقض الإيبان بمالكهم الموحدة، وغزوا بلاد المغرب الإسلامي التي تهاوت مراكز الدفاع فيها، وأجهزوا على بقايا الدويلات الإسلامية البربرية.

وكانت بلاد المغرب الإسلامي - بعد الموحدين - تعاني الانقسام والاختلاف. تتوزعها دويلات ضعيفة، فقدت بوصلة التقدم في سلم الحضارة. وصارت تعيش في نطاق التحاسد والتنافس على المناصب والمواقع والمغانم المسمومة، وتتوسع على حساب بعضها، سواء الدولة المرينية في المغرب الأقصى، والزيبانية في المغرب الأوسط، والحفصية بين المغربين الأدنى والأوسط.

وكانت الدولة الحفصية في تراجع كبير، ولكنها صمدت وقتاً أطول. واستمر وجودها تحت رحمة الأجانب إلى أواخر القرن السادس عشر الميلادي. وحينها عرفت وادي سوف، في ضفاف الدولة الحفصية، تحولاً بارزاً، وتطوراً جديداً. وصارت تبحث عن ذاتها في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وأرسى قواعدها العنصر العربي الذي عمر المنطقة بقوة، وفضل الاستقرار النهائي والفعال. وتبلورت مظاهر المجتمع بشكل جلي خلال العهد العثماني الذي شهد تاريخه أحداثاً هامة، ساهمت في رسم صورة المجتمع الحديث الذي نستعرض تاريخه في دراسة مقبلة إن شاء الله.

(1) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 174.

الخاتمة

إن مجتمع وادي سوف في العصور العتيقة مجتمع نموذجي لدراسة كل مجتمع مماثل. تتشابه فيه حياة الإنسان الصحراوي التي كانت تفتقد لأدنى الشروط الضرورية للبقاء، فضلا عن الفاعلية في التطوير وضمان مصادر العيش، وتوسيع الآفاق، وضبط الأوضاع. وبعد إتمام هذه الدراسة، والبحث المتأني لتلك المرحلة الأساسية، ظهرت جليا ملامح عديدة وعناصر جديدة، وهي جديرة بالحصص والتنويه.

إن تسمية هذا المجتمع بوادي سوف حمل دلالات عديدة. كانت الدلالة الجغرافية، والمظهر الطبيعي، هو الأقرب للصواب في إطلاقها من السكان. لأن كلمة «أسوف» أو «سوف» تاريخيا ارتبطت بوجود نهر جار بالمنطقة، والكلمة قريبة من اللفظ البربري الزناتي. واستعملها العرب عند حلولهم بنفس المكان. ولم يمنع ذلك من التوافق مع كلمة الرمال المتراكمة والمتشرة في مختلف أنحاء الإقليم، والتي يطلق عليها السكان اسم «السافي». إضافة إلى الكثبان الرملية الحادة التي تعرف عندهم بالسيوف.

كما أن الدلالة الاجتماعية التاريخية أضافت كلمات متقاربة وإن فصل بينها حرف «الصاد». فالمنطقة كانت موطنًا لسكانها الذين ارتدوا لباس الصوف، وصار نعتا على الزاهدين الذين عرفوا بالتصوف، والعلم والحكمة. ويضاف إليها التشابه اللفظي مع اسم قبيلة «مسوفة» التي زارت المنطقة لمدة من الزمن، وتفاعلت معها. كما يوجد اعتقاد أن هجرة بعض من سكان سوف من بلاد الشام، من مدينة أردنية تحمل اسم «سوف».

وتعانقت كلمة سوف مع «الوادي»، وهي تكاد تكون متقاربة. فكلمة الوادي أطلقها العرب من قاموسهم المعهود، وأكدوا بها ما سبق. ومن دلالاتها «وادي الماء» الذي تمتعوا من مائه العذب عددا من السنين، وكان جاريا في وادي سوف الشمالية، وانتهى مصبه في جنوب مدينة الوادي الحالية. كما اعتبروا رمالها الزاحفة مثل الوادي في جريانها. وأخيرا أطلق العرب اسم الوادي على قاعدة وادي سوف. وخلال القرن التاسع عشر فقط، تم الجمع بين الكلمتين، والتي استعملناها في مختلف العصور حتى لا تختلط بغيرها، ونعرف المقصود من سرد الحوادث.

إن الموقع الجغرافي والحدود الإقليمية لوادي سوف، في الجنوب الشرقي الجزائري، ربطتها حدود مع طرابلس الغرب جنوبا، والمغرب الأدنى (تونس) شرقا. وأرضها معروفة بانتشار الرمال، ومناخها الصحراوي القاري الجاف، مع غلبة الحرارة في معظم شهور السنة، وكذلك

رياحها الرملية والحارة، وأمطارها النادرة بسبب ابتعادها عن البحر. وتنتشر بها النباتات الرعوية، والطبية، والأشجار الحطبية التي يعتمد عليها السكان في شؤونهم المختلفة. كما تعيش بها الحيوانات البرية المفترسة، والحشرات والزواحف، والطيور البرية والمهاجرة.

ويمثل الجنس العربي آخر العناصر التي فرضت نفسها في المنطقة، وساهمت في استقرارها، وهي من القبائل الهلالية والسليمية. وأحلاف الهلاليين الذين نزلوا بوادي سوف هما قبيلتا: عدوان وطرود. وتتبعنا مسار القبيلتين منذ خروجهما من شبه الجزيرة العربية والمرور بمصر، ثم الأراضي الليبية والتونسية، وأخيرا الدخول إلى وادي سوف الشمالية.

وقد شهد المجتمع نموا سكانيا معتبرا، منذ التاريخ القديم، بسبب عوامل المصاهرة والهجرة، ولاسيما من المناطق المجاورة من ليبيا وتونس والمغرب الأقصى. وتكوّن المجتمع من عناصر مختلفة أهمها: الجنس البربري ومثله قبيلة زناتة، والجنس العربي السابق ذكره، والجنس الزنجي الذي جلب في ظروف مختلفة. وكانت حركة التعمير في بادئ الأمر في وادي سوف الشمالية، ثم ارتبطت بالعامل الاقتصادي، وغراسة النخيل، ووجود المياه الجوفية. ثم بعد استقرار الفرنسيين، اتجهوا نحو المناطق الشمالية، ونشأت قرى جديدة بسبب توفر الأمن والسكينة.

أما الحياة الاقتصادية، فعرفت البساطة في أسمى معانيها. وقام اقتصادها الأول على الصيد البري. وسادت حياة البداوة، ومارس السكان الرعي والترحال. وأخيرا دخلت إلى ميدان الزراعة. وهي دليل على استقرار المجتمع، وارتباطه بالعمران، وممارسة الصناعة التقليدية البدائية التي اعتمدت على مواد أولية محلية: زراعية وحيوانية. ولكن لم يسد حاجات المجتمع إلا الاشتغال بالتجارة الخارجية، وتوفير كل المتطلبات الضرورية لسكان المجتمع.

تنتمي وادي سوف إلى الصحراء الجزائرية، وهي جزء من الصحراء الكبرى التي شهدت تحولات جيولوجية. وبعد جفاف مياهها، عرفت نشأة الإنسان الأول التي كانت في حدود القرن الخامس قبل الميلاد في مرحلة اليبوسة. وتحديث هيرودوت عن وجود كثنان رملية. وكان مناخها رطبا يشبه مناخ المتوسط، وخاصة في الزمن الجيولوجي الرابع. وظهرت بها المسطحات المائية والأنهار والبحيرات، ومنها بحيرة التيروتون التي كانت شمال وادي سوف. وتمتد من خليج قابس إلى شط الجريد، وغربا إلى شط ملغيغ. وانتشر بصحراء وادي سوف غطاء نباتي كثيف، وعاشت بها حيوانات عديدة مثل: النعام، والحلزون وفرس الماء والزرافة والفيل. كما وجد الإنسان بحركته في عصور ما قبل التاريخ. وإن محطاته لا يمكن إحصاؤها

بالمنطقة. إذ انتشر الصوان المشذب والأدوات المختلفة الأنواع والأحجام، كرؤوس السهام المصنوعة بدقة ومن مختلف العصور، والتي تشهد على العصر الحجري في سوف، وخاصة الحضارة القفصية والنيوليتية.

سكنت وادي سوف منذ تاريخها العريق - كغيرها من المدن الجزائرية - عدة أجناس تعاقبت عليها في فترات متفاوتة من الزمن. وقد تحدث المؤرخون اليونان أمثال: هيرودوت وسالوست وهانون عن الشعوب التي قطنت الفضاء الصحراوي في جنوب الجزائر وهم: اللييون والجرامانت والأثيوبيون والجيترول والتوارق. وكانوا يعيشون حياة البداوة المعتمدة على التنقل بحثا عن الكلاً لحيواناتهم. والبربر الأمازيغ الذين عمروا المنطقة، منهم: الإباضيون وتواجدت مراكزهم في الفضاء الممتد من جبل نفوسة وجزيرة جربة وقسطيلية ثم أسوف وأريغ وورجلان ووادي ميزاب، وأخيرا تيهرت.

ولما كان البربر في سكوتهم يتمتعون، وقد عليهم آخرون، ولاسيما القرطاجنيون الذين توغلوا في الأراضي الجزائرية الشرقية، وكانوا يعرفون بالبنوقيين. وعرفوا بتجارهم مع السودان وغدامس، وهذا ما جعلهم يتمركزون في بعض نواحي وادي سوف. واستقر بعضهم في أرضها. وانتشرت مساكنهم في وادي الجردانية في الشمال الشرقي لوادي سوف، وفي منطقة البليدة القديمة قرب سيف لمنادي في الجهة الشمالية للوادي، وطالت إقامتهم بها. وكانوا يمارسون في مواقعهم المذكورة الرعي إلى جانب التجارة.

تعرضت بلاد الجزائر - منذ سنة 146 ق م وإلى زمن اندحار القوات البيزنطية سنة 647م - إلى ثلاثة أشكال من الاحتلال الأوروبية هي: الرومان والوندال والروم البيزنطيون. وكان لتلك الهيمنة آثارها الكبيرة في تلك الحقبة الطويلة. وتركت انعكاساتها على مختلف المدن والقرى الجزائرية، ومنها منطقة وادي سوف التي شهدت آثار الاحتلال في العهد الروماني، لكونها معبرا للتجارة. ويومئذ سكن الرومان عند قدومهم لوادي سوف في مناطق متوفرة على الماء والتربة الخصبة، وهي الجردانية والبليدة القديمة. كما عثر على آثارهم في عدة مناطق أخرى مثل: قمار والرقيبة وغرد الوصيف. كذلك وجدت آثارهم في زملة سندروس وبيير رومان، إضافة إلى نقودهم المتناثرة في الصحراء والتي شوهدت في عدة مواقع، وخصوصا في غرد الوصيف جنوب سحبان، وفي منطقة قمار. وتعود إلى عهد الممالك البربرية. وبعد الرومان اجتاحت الجزائر الوندال الذين لم يصلوا بأنفسهم إلى وادي سوف، بل كانوا سببا في جعلها كسابق عهدها موطنًا حاميا للفارين والمطرودين واللاجئين والمضطهدين من الرهبان المسيحيين

الذين التجأوا إليها. واستقر بعضهم في منطقة سحبان غرب الوادي، وفي جلهمة بين قمار وتاغزوت.

وقد تأثرت وادي سوف بالوجود البيزنطي في الجزائر، والذي بلغت آثاره إلى المنطقة، وصارت مأوى للمسيحيين، ولاسيما الرهبان من الروم الذين التجأوا إليها فرارا بدينهم، والتخلص من الظلم والاضطهاد الذي كان مفروضا عليهم في الشمال. وكان نزولهم عند من سبقوهم من الرومان بجلهمة وسحبان التي بنوا فيها أماكن للعزلة والعبادة. وشهدت منطقة سوف انتشارا واسعا للقطع النقدية البرونزية البيزنطية. ولم ينقطع أثرها من رمال العرق إلا خلال الحرب العالمية الأولى. وقد شارك فرسان سوف في تلك المقاومة الشعبية ضد خط الدفاع البيزنطي الذي كان ممتدا من قفصة إلى تبسة ولميز. وقاد الثورات زعماء البربر الذين أضعفوا الحكم البيزنطي فتهاوى بسهولة، وسقط عند قدوم الفاتحين من العرب المسلمين.

أما في مرحلة الفتح الإسلامي، فقد مثلت وادي سوف فضاء واسعا، تشابكت أحداثه، وتغيرت معالمه وحدوده باستمرار بسبب وقوعه بين بلاد الجريد بالمغرب الأدنى، وبلاد الزاب بالمغرب الأوسط، وغدامس بطرابلس الغرب. وحينها وصلت جحافل الفتح الإسلامي فعليا إلى نواحيه وأطرافه - في وقت مبكر - منذ وصول والي مصر عمرو بن العاص إلى طرابلس، وفتحها سنة 23 هـ. وبسط عبد الله بن سعد نفوذه على مناطق في البلاد التونسية قريبة جدا من وادي سوف، ومنها: سبيلة وقفصة وقصر الجم. وأضيف أيها في فتوحات معاوية بن حديج مناطق أخرى قريبة هي: سوسة وبنزرت وجربة وجالولاء.

ونظرا لجهاد عقبة بن نافع وتجربته الرائدة، عينه معاوية بن أبي سفيان واليا على إفريقية سنة 50 هـ. فتوجه نحو إقليم قسطنطينية، وهي بلاد الجريد المحاذية لوادي سوف، وعلى خط التماس معها، وبسط عليها نفوذه. وهذا يفيد أن عقبة أو قومه وصلوا إلى سوف وفتحوا قراها.

أما عصر الولاية بأفريقية، فقد ترك أثرا واضحا على المغرب الأوسط ووادي سوف. فتركزت كثير من الأحداث والمعارك ما بين بلاد الزاب في المغرب الأوسط، أو في المغرب الأدنى، ولاسيما في مناطق: قفصة وقسطنطينية ونفزاوة. وكلها مرتبطة جغرافيا واجتماعيا واقتصاديا بوادي سوف التي لا تخفى عليها الأخبار السياسية والعسكرية، والتي مست الولاية خلال حكمهم للبلاد التي ينتمون إليها، وتنقلهم في أرجائها. ويومئذ كانت وادي سوف معبرا للعرب، وطريقا آمنا للمهاجرين واللاجئين السياسيين، وأصحاب الآراء المحظورة لدى الخلافة بالمشرق، ولاسيما العلويين والخوارج والشيعة. وتواصل سيرهم نحو المغرب الأقصى،

يقطعون فيافي العرق الشرقي في الفضاء القريب من سوف، وهذا حتم على بعضهم الإقامة المؤقتة. وحينئذ حدث الاحتكاك، وتحولت وادي سوف إلى خزان جامع لفسيفساء مذهبية كغيرها من مناطق بلاد المغرب الأوسط. ثم تطورت تلك المذاهب إلى دول حكمت ردحا من الزمن في مختلف أنحاء ولاية إفريقية.

وقامت في بلاد المغرب الإسلامي دول عديدة عربية الأصل، إسلامية المنهج والروح، وسادت بلاد إفريقية والمغرب الأوسط. وكانت وادي سوف في ضفافها تنعم بالحرية والاستقرار. وأولها الدولة الرستمية (160-296 هـ / 777-909 م) التي كانت وادي سوف ضمن نفوذها، وتأثرت بسياساتها. وحينئذ بدأ انتشار المذهب الإباضي بصفة محدودة. وقد قسم الرستميون دولتهم إلى عمالات، وكانت أقربها إلى وادي سوف هي: قفصة ونفزاوة وقابس. وكانت المراعي منتشرة في شمال وادي سوف، ولاسيما قرب المنابع المائية بعيون النازية. كما عرفت منطقة سندروس بكثرة أشجارها وحسن أرضها. وقصدها العرب من العلويين، ومعهم الإبل الكثيرة. وكان وادي سوف النهر الرقراق يشهد في قسمه الشمالي تغيرا في انتشار مياهه، وتحولا في روافده. وكان يسمى وادي تاقارات، لأنه يمر على عريش تاقارات في الشمال، قرب خنشلة، وهي منطقة الرعي، وممارسة بعض الزراعة.

وتزامنا مع الدولة الرستمية، جاورت وادي سوف الدولة الأغلبية (184-296 هـ / 800-909 م). وحينئذ كانت وادي سوف في مد وجزر مع دولة الرستميين في الجنوب التي تحاذي أراضي الأغلبة في الشمال، في الخط الرابط ما بين الزاب وبلاد الجريد. وكان نفوذ الأغلبة ضعيفا، ويشرفون على إدارته من مدينة باغاية (الأوراس) التي لها احتكاك بحدود وادي سوف. ويتنقل الرعاة في تلك الأراضي ضمن نفوذ الأغلبة. وحينئذ أصاب البربر ضرر من سلطتها، ووجد الناس الراحة في هجرتهم إلى جنوب وادي سوف التي كانت ضمن نفوذ الرستميين. وكان الشريط الحدودي من بلاد الزاب إلى منطقة الجريد التونسي يشتعل بالثورات المتعاقبة. ووصل صدى تلك الأحداث إلى وادي سوف التي كانت ملاذاً للبربر الذين مسهم الاضطهاد ففروا إليها، مثل أصحاب العقائد المخالفة للمسيحيين، من بقايا الروم، أو المعتنقين للعقائد الضالة، وأصلهم من المسلمين الذين ارتدوا عن دينهم وهم أتباع صالح بن طريف. وكانت حركة القوافل فعالة بين القيروان وتيهرت، وتلك الطرق البرية قريبة من وادي سوف، ولاسيما الطريق الذي يخترق منطقة الهضاب العليا إلى بلاد الزاب، ثم بلاد الجريد،

ويتهيء عند سوق القيروان. والطريق الأقرب يتجه من تيهرت إلى ورجلان. وهو طريق صحراوي خالص، يمتد في حواف وادي سوف حتى يصل إلى الأراضي الأغلبية بالقيروان. وحدث الاستقرار للمذهب المالكي في نطاق الدولة الأغلبية. ويرجع الفضل في استقراره إلى تعاون الفقهاء والأمراء. وتمكنوا من محاربة وإخراج أتباع المذاهب المخالفة كالجوارج الذين أخرجوا من نطاق الأغلبة، واستقروا بجبل نفوسة جنوب ولاية طرابلس، وفي إقليم تيهرت، وباقي مناطق الدولة الرستمية، ومنها إقليم وادي سوف.

أما حالة وادي سوف في عصر الدولة العبيدية (الفاطمية) (296-361 هـ / 909-972 م)، فالمنطقة في قسمها الشمالي المتاخم لبلاد الأوراس، شهد دعوة الحلواني الشيعي الذي تقدم نحو المغرب الأوسط، واستقر في جنوبه في منطقة «سوف جمار» التي التبس الأمر عند المؤرخين في موضعها، وفي ألفاظها، والتي جعلوها في وادي الرمل قرب قسنطينة، ولاسيما المراجع الحديثة. ولعله اختلط عليهم أمرها، وخلطوا بينها وبين قسطنطينة وهي بلاد الجريد القريبة من وادي سوف. وذكر القاضي النعمان قبيلة سماتة التي احتضنته، وقام بدعوته للمذهب الشيعي، وشد الناس إليه الرحال، وتشيع على يديه الكثير من قبيلة كتامة ونفزاوة وساماتة.

كما أن الطريق الآمن، والسبيل الأنسب للتخفي الذي سلكه ركب الحج رفقة أبي عبد الله الشيعي، كان عبر بلاد الجريد إلى وادي سوف، فهو في آخر العمران بالمغرب الأوسط، والذي سبق له احتضان دعوة الحلواني، وله أتباع لدى قبيلة سماتة طابت الإقامة عندهم. واندلعت بعض الثورات، وامتد لهيبها إلى رقعة واسعة من الدولة، وبلغ خبرها وادي سوف، وتأثرت بشراياتها، ومنها ثورة أبي يزيد الخارجي (صاحب الحمار). وتصدى له المنصور الفاطمي فتعقب أثره. ووقعت حروب عديدة في نواحي الزاب وباغاية والجريد بنواحي وادي سوف. وانتهت تلك المعارك بانتصار المنصور وموت أبي يزيد سنة 336هـ/947م. كذلك ثورة أبي حزر الزناتي، وشارك معه شيخ الشيوخ أبو نوح سعيد بن زنقيل، وخرج ببلاد الجريد سنة 358هـ، 969م وهو من الإباضية الوهبية، وكان يدعو للناصر الأموي، وجمع في صفوفه البربر، وامتدت ثورته إلى الصحراء في بلاد الزاب ووادي ريغ وورقلة، ونواحي وادي سوف. والجدير بالذكر أن البربر اعتنقوا المذهب الشيعي، وتقبلوه عن تعصب ومعاداة للأغلبة، وليس عن علم ومحبة بسبب البساطة السائدة. لكن بمجرد انتهاء العهد الفاطمي، رجع المذهب المالكي إلى سابق عهده. وبفضل جهود علماء المالكية، ترسخ هذا المذهب السني في

العهد الأغليبي. وحينئذ عم المذهب المالكي كل المنطقة، ولم يبق من آثار الشيعة إلا بعض المظاهر والطقوس التي تحولت إلى سلوك يتشبث به العامة بدون وعي لأصله، وتوارثتها الأجيال، وتعلقت بها بسبب تعلقها بآل البيت، وبعضها مارسه الناس مخالفة للشيعة، وظهر جليا في أفراح عاشوراء ومهرجاناتها الفلكلورية الترفيحية، وعرفتها الجزائر وبلاد الصحراء وكان للظل الفاطمي أثره في مجتمع وادي سوف في زمن لاحق.

عاش البربر تحت حكم النفوذ الأجنبي ردحا من الزمن، وتحورت بلادهم على يد الفاتحين العرب الذين أقاموا دولا رأى فيها البربر تغييرا لشخصيتهم في حكم البلاد، فهرعوا إلى تأسيس دول في بلاد المغرب الإسلامي، هي دول بربرية الأصول، إسلامية المنهج والروح، وسادت بلاد إفريقية والمغرب الأوسط. وكانت وادي سوف في ضفافها تنعم بالحرية والاستقرار. وأولها الدولة الصنهاجية (الزيرية) (361-543 هـ / 972-1148 م) التي أسستها قبيلة صنهاجة البربرية، وانقلبت على الفاطميين في مصر، واستقلت بإفريقية والمغرب الأوسط. وكانت الحالة الاقتصادية لوادي سوف بسيطة، يغلب عليها الطابع البدوي، وتمارس الرعي والصيد. ورغم بداوة المجتمع وبساطة معيشته، فقد حافظ البربر على القيم الاجتماعية، واعتنوا بالأسرة، واهتموا بتعليم أفرادها ذكورا وإناثا. وحظيت المرأة بمكانتها المرموقة في إبداء الرأي، وسياسة الأمور، والمشاركة العلمية، مثل سارة اللواتية التي عاشت بوادي سوف - في النصف الثاني من القرن 5هـ / 11م - وكانت مثالا للصلاح والتقوى والاجتهاد في طلب العلم والسؤال عن الدين، ومخالطة شيوخ العلم وزيارتهم، ورواية الأشعار بالبربرية. وكذلك تك بنت سبت الزناتية. وهي المرأة الصالحة التي نصبوها ملكة، واختاروها لصلاحها وعراقة نسبها وتعففها. فحكمت عاصمة سوف الأولى، وحملت اسمها. وما زال إلى اليوم نعتا على حي تكسبت العريق.

وأمام ذلك التطور العمراني في الدولة الصنهاجية، كانت وادي سوف - المحاذية للدولة - تعيش حياة البداوة. وبدأت قبائلها تستقر في مواقع عمرانية، وتحولت مستقبلا إلى نواة المدن الأساسية. وهي مجموعة من القرى: تكسبت القديمة، وقرية الجردانية، ومنطقة سندروس، وقرية المغيبة. وإذا كانت الدولة الصنهاجية منارة للفقهاء المالكي، فإن منطقة وادي سوف صارت يومها مركزا للفكر الخارجي، وموطنا للحفاظ على الفقه الإباضي، ومقصدا للعلماء والطلبة الوافدين إليها من الحواضر المجاورة، ولاسيما درجين وجبل نفوسة ووادي ريغ

وورجلان. وكانت فئة الإباضية النكارية هي المتمركزة بوادي سوف. ويومئذ رحل إليها بعض العلماء في القرن الرابع لمناظرة سكانها، وردهم إلى أصول المذهب على نهج الوهيبية. وعرفت الدولة الزيرية حركة انفصالية نتج عنها بروز الدولة الحمادية (405-547 هـ / 1014-1153 م) في المغرب الأوسط. وكانت وادي سوف في ظل هذه الدولة، وضمن نطاقها الجغرافي، ويحدث الاحتكاك معها أحيانا. وقد أثبتت المصادر الإباضية متانة العلاقات بين وادي ريغ وأهل سوف، ودوام النصح التوجيه من علمائها، مما يدل على الالتئام للدولة الحمادية. وشهد تلك الفترة دخول قبائل بني هلال التي ساهمت في تعريب البلاد، وصارت سيرة تغريبتهم على كل لسان، وفي كل موطن لهم قصة، ونسجت حولهم الأساطير، وتعددت الأخبار. وكان لوادي سوف نصيب من أخبارهم، مع انتشار أشعارهم التي تمجد البطولة في معاركهم. وأحد وجوهها هي ربط الرواية الشعبية في وادي سوف بين خليفة الزناتي ونواة تأسيس بلدة حاسي خليفة.

ولم تكن وادي سوف تتمتع بمكانة اقتصادية معتبرة، بل غلبت عليها حياة البداوة وتنقل الرعاة، واستيراد التمر من المناطق القريبة، ولاسيما بسكرة. فكانت القوافل سيارة من وادي سوف لتوفير ما تحتاجه رغم سطو اللصوص وقطاع الطرق. وكانت الحياة الاجتماعية بسيطة، ملازمة لبساطة الصحراء، تعتمد على الطبيعة في شتى شؤونها. ويمثل الصيد أحد مصادر العيش. كما تتكون الأسر في سوف من الزوجات والإماء اللاتي يعشن في البيوت. إضافة إلى معاناة المجتمع من الضرائب التي تجمعها السلطة، وترسل من يجمعها، ويحدث فيها الظلم والجور في بعض الأحيان. وكان العنصر الإباضي فاعلا في المجتمع في وادي سوف. واشتهر بصفات كريمة عرف بها الأعيان والوجهاء، وتعدى ذلك إلى طبقة الفقراء. وكانت الأحكام تستند إلى العرف السائد، والأخذ بوصايا شيوخ العزابة في مركزهم بأجلو بوادي ريغ. كما عرفت وادي سوف حركة علمية لعلماء الإباضية الذين درسوا بها أو زاروها. وكان لها تلاميذ شدوا رحلهم في الآفاق الواسعة.

ولما حان زمن الدولة الموحدية (515-668 هـ / 1121-1269 م) التي بسطت نفوذها على كامل المغرب الأوسط، كانت وادي سوف ضمن نطاقها الجغرافي. وعرفت الدولة الثورات الداخلية، وأشهرها ثورة بني غانية المسوفيين الذين وصل أثرهم لوادي سوف، وحوله من الصحراء أثناء الصراع المرير. كما عرفت وادي سوف هجرة قبيلة عدوان العربية في حدود سنة 600 هـ / 1204 م. وحيث بدأ التنافس والاحتكاك مع الزناتيين الأوائل، ومع

ذلك أسس بنو عدوان قصورهم في الجردانية والنازية في الشمال، وجاهمة في الجنوب. ورغم أنها كانت في العهد الحمادي والزييري حاضرة علمية يشع علمها على الحواضر الإباضية، لكنها سرعان ما انطفأت شعلتها، وعاشت في سبات عميق، ما عدا ما كان صراعا عقديا نجم عنه تأسيس المسلمين لمسجد جاهمة، والمسيحيين لصومعتهم فيها.

أما حياة وادي سوف في ظل الدولة الحفصية وفي عهدها الأولى (625-898هـ/1228-1492م)، والتي توزع نفوذها بين المغربين الأدنى والأوسط، وصارت في مد وجزر بسبب تنافس الحكام على السلطة، يومئذ بدأت وادي سوف تعرف بعض استقرارها، وتتطلع إلى تحديد معالم شخصيتها، وتحوض الحياة السياسية من قبل قبيلة طرود العربية التي ربطتها الأحداث مع السلاطين الذين قدموا بأنفسهم للمنطقة، أو عبروا في نواحيها، وفضلوا مسالمتهم والتعاون معهم لرد المعتدين عن الطرفين.

وكانت التركيبة البشرية للسكان موزعة في نطاقين مختلفين: قبيلة زناتة البربرية الإباضية النكارية، إلى جانب القبائل العربية الوافدة مثل: طرود وعدوان وسليم. وكان الصراع متأججا بين الطرفين، وله أسبابه الاجتماعية والواقعية، وفي مقدمتها التنافس على مصادر المياه والمراعي، والتنازع على المواقع السكنية، وزادها الاختلاف الجنسي والمذهبي تأججا، وسالت الدماء مدرارا، ولم يجد الصلح نفعاً، وباءت محاولات الحكماء بالخبية، وفضلت زناتة مرغمة على مغادرة المنطقة نهائيا سنة 818هـ/1416م.

انتشرت في المجتمع العادات والتقاليد الشعبية، وفي مقدمتها دق الطبول عند الفرح والحزن، أو استقبال الضيوف وإكرامهم. وعندما يظهر البغي والعدوان، يتعاون الجميع على دفع الصائل المعتدي. وكانوا يستعينون بمعرفة أثر الأقدام (الجرة) على الرمال وكشف أصحابها، وخصوصا اللصوص وأصحاب البغي والعدوان. وإلى جانب ذلك، كان للكبراء والأعيان مجالسهم يتون في القضايا الهامة في المجتمع، وكل ما يمس الحياة السياسية والاجتماعية.

ولما خلا المكان لقبيلة طرود، بدأت تسعى لتنظيم المجتمع وفق إمكاناتها. فوجدت الحياة الاقتصادية والمعيشية بسيطة لا تكفي للعيش في هذه الصحراء القاحلة بدون مصادر للعيش الكريم، لأنها مقتصرة على الرعي والتجارة فقط. ففكر زعيمها الكبير الشيخ سيدي مستور في الأمر مليا، وأمرهم بزراعة النخيل، وانطلقت العملية فوراً، وحققت نجاحا مذهلا أحدث تحولا في شتى النواحي.

وبدأت وادي سوف تتطلع لوضع نواة المساجد، وتأسيس الزوايا لحفظ الدين، ونشر العلم، وأهمها: زاويتا سيدي مستور، وسيدي عبد الله. وكان لشيخها دورهم في التربية والتوجيه، وتعليم الأحكام العامة، والصلح بين المتخاصمين. وشجع ذلك على التوسع في العمران بسبب توفر العوامل المساعدة، ممثلة في الاستقرار الأمني، وكثرة الوافدين الجدد للمنطقة.

وكانت المعالم العمرانية الزناتية محدودة الانتشار، وهي: تكسبت القديمة وقرية المغيبة وقصر العريش أو البليدة الجديدة، وكلها بمدينة الوادي، وقرية القدايم نواة بلدة قمار. بينما توسعت المعالم العمرانية العربية، فشيدت قبيلة عدوان مساكنها في الجردانية أولا، ثم انتقلت إلى اللجة (الزقم) عام 815هـ/1411م. وسكنت قبيلة طرود أولا في عقلة الطرودي شمال وادي سوف عام 800هـ / 1398م. لأن المعالم الزناتية خربت عن آخرها. وصار لكل بطن من القبيلة موضعه، وتحول إلى عمران خفيف، وتمثل في ضواحي سيدي مستور وأولاد أحمد وسيدي عبد الله وقرى الهنشير السليمية بكوينين.

وبقيت الدولة الحفصية بشكلها الباهت تترنح نحو الزوال في بدايات العصر الحديث. وحينها واصلت وادي سوف نشاطاتها الاقتصادية بالتوسع في زراعة النخيل. وحاولت تحقيق التماسك الاجتماعي بين الأفراد، وعززت ذلك ببناء المساجد، ونشر العلم. ولا شك أن ذلك التاريخ زاخر بالأحداث، مفعم بالمعالم التاريخية، والذي نتمنى إنجازَه في الجزء الموالي لوادي سوف في نطاق التاريخ الحديث.

الملاحق

- الملحق 01: رسالة الكولونيل تيربي حاكم مقاطعة تقرت إلى حاكم ملحقة الوادي يوم 21 أبريل 1948
- الملحق 02: رسالة من حاكم ملحقة الوادي فيري إلى الكولونيل حاكم مقاطعة تقرت يوم 27 أبريل 1948
- الملحق 03: مقال حول الوجود الروماني بوادي سوف للحاكم العسكري بالوادي بيار بطايون ديسمبر 1952.
- الملحق 4: مقال حول الوجود الروماني بوادي سوف حاكم البلدية المختلطة بالوادي، شاليمو أبريل 1953.
- الملحق 5: مقال حول فيل متحجر في الشمال الشرقي للوادي، حاكم الوادي النقيب: أ. فوازار، مارس 1959.
- الملحق 6: مقال حول بربر زناتة بوادي سوف، حسين زيبيدي، قايد الحالة المدنية بالوادي، ديسمبر 1960

الملحق 01: بحث الفرنسيين في عصور ما قبل التاريخ
الوثيقة: البحث في ما قبل التاريخ 21 أبريل 1948

R. P.
GOUVERNEMENT GÉNÉRAL
DE L'ALGÉRIE

TOUGGOURT, le 21 Avril 1948

TERRITOIRES DU SUD

Le Lieutenant - Colonel THIRIET

Territoire Militaire
de TOUGGOURT

Commandant Militaire du Territoire de Touggourt

N° 2311 / I. A

à Monsieur le CHEF DE BATAILLON
Chef de l'Annexe
D' EL OUED

26 AVR 1948
2004

OBJET = Recherches préhistoriques

M. l'Abbé R. HIRIGOYEN, chargé de mission par les Ministères des Forces armées et de l'Éducation Nationale, est venu dans le Territoire, cet hiver, pour effectuer des recherches préhistoriques.

Très au courant de cette question je n'ai eu aucune peine à lui démontrer qu'un séjour d'une semaine et quelques promenades au long des pistes automobiles ne donneraient aucun résultat. En lui communiquant les résultats de mes recherches personnelles je l'ai invité à envisager la possibilité d'organiser une tournée d'études dans le grand erg pour y visiter les régions les plus accessibles, les ergs El Ouar et Bouma, ne pouvant être parcourus sans mesures spéciales de sécurité; devant rester hors des zones de recherches.

Aujourd'hui, l'Abbé HIRIGOYEN me soumet une demande qu'il envoie d'autre part à M. le Gouverneur Général de l'Algérie.

Il désire ratisser l'Erg d'El Oued à Ghazamès. Départ de son équipe fin août-début septembre. Son équipe rejoindrait Paris via Ghazamès et Tunis.

Je me propose de lui adresser un canevas précis d'action qui lui permettra de ne pas perdre de temps en route et de s'arrêter dans les régions les plus intéressantes. Pour mettre ce plan au point certains renseignements me manquent. Je vous prie de les préciser en accord avec le Capitaine CATIGNOL.

La mission de l'Abbé HIRIGOYEN étant officielle, toute l'aide des autorités locales sera requise afin que le résultat recherché soit obtenu dans les meilleures conditions.

- a) - Possibilité de trouver des montures avec équipement mehariste, des chameaux de bât, des sokkars - Prix de location d'El Oued à Ghazamès (faire une moyenne car je ne sais pas combien de personnes accompagneront l'Abbé. compter sur 3 au minimum.)

- b)- Possibilités de faire confectionner serouals et boubous - des sacs à provisions - Prix -
- c)- Possibilités d'acheter du ravitaillement pour un mois
- a)- Ghmaïrs, Betias pour l'eau, caissettes pour emballer les cailloux

Enfin tous détails permettant à la mission de partir d'El Oued parfaitement équipée.

D'autre part, je ferai accompagner l'Abbé par un élément de la C.M.E.O composé d'un Sous-Officier français et de deux bons guides qui seront choisis parmi les gens connaissant les silex taillés et ayant l'habitude de les receler dans le sable.

Les régions qui seront plus particulièrement visitées sont :

- environs de BIR EL MADJ KADDOUR (industriescapsienne, mésolithique).
- MOUIN REBAH
- GHAFFA avec pointe sur BERREÇOF
- FATHIMA
- Région sud de Fathima - ALL BEY - KEBOUR KHADEM (néolithique)
- Régions de LESSAOUA, LAREKSEN - FORT SAINT (paleolithique et néolithique).

Je vous serais obligé de m'adresser le plus tôt possible, car l'abbé attend ma réponse, les précisions demandées.



2/

الترجمة العامة للمراسلة
رسالة الكولونيل تيريات حاكم مقاطعة تقرت
إلى حاكم ملحقة الوادي يوم 21 أبريل 1948

الموضوع: البحث في ما قبل التاريخ

السيد رئيس البعثة: Abbé R. HIRIGOYEN، المكلف بالمهمة من قبل وزارتي الحربية والتربية الوطنية، سوف يأتي إلى المقاطعة هذا الشتاء، من أجل القيام بأبحاث حول ما قبل التاريخ.

إن الأمر عادي جدا حول هذه المسألة، وليس لي أي تكاليف نحوه سوى توفير الإقامة لمدة أسبوع، ومساعدته على التجوال في الدروب الطويلة للسيارات التي لم تعط أي نتائج فيما سبق. وإني أعطيته نتائج بحوثي الشخصية، واستدعيته للتمعن في مدى قدرته على تنظيم دورة دراسية في العرق الكبير، وزيارة المناطق الميسرة لبلوغها ومعاينتها مثل: عرق الأعور وعرق البومة. ولا يمكن العبور إلا بإعداد خاص وتأمين البعثة، وقبلها تبقى خارج منطقة البحث.

أما اليوم فقد عرض علي السيد رئيس البعثة: Abbé R. HIRIGOYEN، طلبا، وكذلك عرضه على السيد الحاكم العام للجزائر.

إنه يرغب في مسح العرق من الوادي إلى غدامس، ويكون انطلاق فريقه للبحث في أواخر أوت ويستمر إلى بداية سبتمبر، ويلحق فريقه بباريس عبر غدامس وتونس.

لقد اقترحت عليه أن يرسل لي مخططا مضبوطا للأعمال التي ينوي القيام بها حتى لا يضيع الوقت في الطريق، والتوقف في المناطق الأكثر أهمية، وحتى يضع ذلك المخطط في محله، لا بد من الحصول على المعلومات الناقصة، ولا بد من ضبط ذلك مع النقيب GATIGNOL.

إن بعثة السيد Abbé R. HIRIGOYEN، بعثة رسمية، ولا بد من توفير كل المساعدات من السلطات المحلية، وحتى يتم البحث والتنقيب في أحسن الأحوال:

أ) إمكانية تحضير مطايا مجهزة، سواء من المهاريست أو الجملال التي تؤجر،
ويحسب الأمر ما بين الوادي وغدامس (يحدد بالتقريب الثمن المخصص لذلك،
لأننا لا نعرف عدد الأشخاص المرافقين لرئيس البعثة Abbé، أحسب على اعتبار
3 على الأقل).

ب) إمكانية تحديد السراويل والبوبو [لباس صحراوي يشبه القميص]،
وأكياس المؤونة، مع تحديد ثمنها التقريبي.

ج) إمكانية شراء مؤونة شهر بأكمله.

د) تحضر الغراير، أوعية (براميل) الماء، وصناديق لحمل الصخور التي هي
العينات المجموعة من المناطق.

أخيرا كل التفاصيل تعطى للفريق المنطلق من الوادي والذي يكون مجهزا
بالكامل.

من جهة أخرى، أسعى ليكون مرافقا لرئيس البعثة، أحد عناصر (C. M. E. O)،
مكونا من ضابط صف فرنسي، ودليلين يتم اختارهما من أحسن الأشخاص
الذين يعرفون جيدا الصوان المسنون، واعتادوا على الكشف عن الآثار في الرمال.
إن المناطق الأكثر أهمية، والتي تستحق الزيارة والتنقيب:

- بالقرب من بير الحاج قدور (توجد الصناعة القفصية، الميزوليتيك).

- مويه ربح.

- الغرافة مع طرف من بير الصف.

- فطيمة.

- المنطقة الجنوبية من فطيمة - علي باي - قبور الخادم (النيوليتيكي).

- منطقة مسعودة، مركسن، فورسانت (الباليوليتي والنيوليتيكي).

لا بد من مراسلتي في أقرب الآجال، لأن رئيس الدير ينتظر إجابتي،
والتحضيرات المطلوبة.

الختم والتوقيع.

الملحق 02: بحث الفرنسيين في عصور ما قبل التاريخ
الوثيقة: البحث في ما قبل التاريخ 27 أبريل 1948

GOVERNEMENT GENERAL
DE L'ALGERIE

TERRITOIRE MILITAIRE
DE TOUGGOURT

ANNEXE D'EL OUED

EL OUED le 27 Avril 1948

Le Chef de Bataillon FERRY,
Chef d'annexe d'EL OUED
à
Monsieur le Colonel,
Commandant le Territoire Militaire
de Touggourt
à TOUGGOURT

DC

Objet : Recherches préhistoriques

Référence : Votre lettre n° 2315 /1.A du 21-4-48

J'ai l'honneur de vous demander de vouloir bien trouver ci-dessous les renseignements demandés par votre note citée en référence.

I°/ Il n'y a pas possibilité de se procurer à El Oued des mœurs avec ou sans équipement. D'autre part la location des animaux de bât et des sokhars risque de gréver singulièrement le budget de la mission .

La solution suivante pourrait être envisagée
La Compagnie Méhariste disposant de montures et d'animaux de bât en excédent pourrait, après accord de Monsieur le Général Commandant la 10^e Région Militaire, assurer le transport des membres de la mission et de ses bagages .

L'escorte et les convoyeurs seraient également fournis par la Compagnie Méhariste de l'Erg Oriental .

Pour l'équipement méhariste, suivant le nombre des membres de la mission, la question pourrait être résolue à l'intérieur de la Compagnie .

II°/ Les serouals, boubous et sacs à provisions pourront être confectionnés à El Oued .

Prix ensemble seroual et boubou : 1.500 francs .

III°/ Ravitaillement :

Le ravitaillement d'un mois pourrait être acheté soit dans le commerce local, soit au magasin de la Compagnie après accord avec Monsieur l'Intendant Sud .

IV°/ Graiss, bétillias pour l'eau, seront fournis par la Compagnie Méhariste de l'Erg Oriental. Les caissettes pour emballer les cailloux peuvent être confectionnées suivant le plan que Monsieur l'Abbé HIRIGOYEN voudrait bien me communiquer .

1

V°/ La mission devant séjourner dans l'Alg pendant un mois il importe que ses déplacements s'effectuent le plus rapidement possible, ainsi la plus grande partie du temps pourra être consacrée aux recherches.

Je me permets en conséquence de vous soumettre la solution suivante :

La mission devrait être dotée de trois jeeps en parfait état mécanique. Elle pourrait ainsi rayonner autour de tous les points de station (Bou'f Kebah - Bir Ejdjed - Fatima -) qu'elle atteindrait très rapidement grâce aux jeeps d'où un très sérieux gain de temps.

Pendant la préparation de l'expédition la région de Bir El Hadj Ksacour et Bir El Adai serait explorée rapidement. Les voitures descendraient ensuite vers le Sud ou dans les gorges l'escorte, les montures, le convoi, l'essence seraient déjà à pied d'œuvre.

Ce voyage automobile est parfaitement réalisable et ne serait que la répétition du voyage El Oued - Chameaux effectué en Mars avec les jeeps de l'Annexe d'El Oued. L'expédition pourrait ainsi être accomplie en deux ou trois jours des points qu'elle mettrait 10 ou 15 jours à atteindre aux chameaux.

VI°/ La participation de la Compagnie Méhariste de l'Alg Oriental à l'expédition de Monsieur l'Abbé HIRIGOYEN peut paraître trop importante. Mais étant donné qu'il s'agit d'une mission officielle patronnée par les ministères des Forces Armées et de l'Éducation Nationale, il m'a paru logique de diminuer, d'une façon très appréciable, les frais de la mission, en y faisant participer au maximum le personnel et les chameaux de la Compagnie Méhariste. Ceci est d'ailleurs parfaitement dans l'esprit nouveau qui doit animer l'Armée Française.

Le Capitaine Commandant la Compagnie Méhariste de l'Alg Oriental déclare que cela ne gênera en rien l'action saharienne de ses Pelotons pendant la période considérée.

الترجمة العامة للمراسلة

رسالة من حاكم ملحقة الوادي فيري إلى الكولونيل حاكم مقاطعة تقرت

يوم 27 أبريل 1948

الموضوع: البحث في ما قبل التاريخ

لي الشرف أن أطلب منكم أن تطلعوا أسفله على المعلومات المطلوبة من طرفكم حسب رقم رسالتكم السابقة.

1) لا يمكن أن تمدكم ملحقة الوادي بالمهاري وحدها من جهة، أو مع تجهيزاتها من جهة أخرى، لأن تأجير الحيوانات الميدانية لها محذور أن تستوعب ميزانية البعثة كلها.

الحل الموالي يمكن أن يكون واضحا، فرقة المهاريست عندها المطايا والحيوانات المفضلة، فيمكن الاتصال بالسيد الجنرال، حاكم المنطقة العسكرية العاشرة، وهو يضمن نقل أفراد البعثة وأمتعتها.

إن الحراسة ومواكبة الفرقة تكون مضمونة من قبل فرقة المهاريست للعرق الشرقي.

إن تجهيزات المهاريست تتبع عدد الأفراد في الفرقة، والمسألة يمكن حسمها في داخل فرقتهما.

2) السروال والبوبو وأكياس المؤونة يمكن إتمامها في الوادي. الثمن الإجمالي للسروال والبابو 1500 فرنك.

3) التموين:

إن مؤونة شهر كامل يمكن شراؤها من التجار المحليين، أو من قبل فرقة المهاريست بعد الاتصال مع السيد أمين صندوق الجنوب.

4) الغراير والبرميل الخاص بالماء، تقدم من قبل فرقة المهاريست بالعرق الشرقي، والصناديق المعدة لحمل الصخور يمكن إعدادها حسب المخطط الذي يعده رئيس البعثة: Abbé R. HIRIGOYEN، ويمكنه إخبارنا بذلك.

5) الفرقة التي تقيم شهرا بالعرق، نرى أنها تتنقل بأسرع وقت ممكن، وإن الوقت الأكبر لا بد من تخصيصه للبحث. وأفضل اعتماد الإجراءات التالية:

البعثة تكون مرفقة بثلاث سيارات من نوع جيب (Jeeps) تتمتع بأحسن حال ميكانيكيا. ويمكن التعرّيج حول نقاط المحطات التالية (مويه ربح، بير الحديد، فطيمة) التي تنتظرها السيارات، حتى يختصر الوقت مع اعتماد السرعة. أثناء تحضير الرحلة، فإن مناطق بير الحاج قدور، وبير العضل تكشف سريعا. فالسيارات تتجه نحو الجنوب أو نحو الأبراج. وعندها توجد المطايا، والطابور العسكري، والبنزين يكون قريبا وفي المتناول.

هذا السفر بالسيارات حقيقي، ولن يكون سوى السفر المعتاد بين الوادي وغدامس. وتمت في مارس بواسطة سيارات جيب (Jeep) من قبل ملحقة الوادي. ويمكن للرحلة أن تستغرق ما بين يومين أو ثلاثة، عوض أن تستغرق ما بين 10 إلى 15 يوما على ظهور الأبل.

6) إن مشاركة فرقة المهاريست للعرق الشرقي، ومرافقتها لبعثة رئيس البعثة: Abbé R. HIRIGOYEN ستكون أكثر أهمية. لأنها يومئذ تكون رحلة رسمية مرخصة من طرف وزارة الحرية والتربية الوطنية. وتكون منطقيا قد قللت، بطريقة جيدة، من نفقات الرحلة، باستغلال الأشخاص والجمال على أكبر نطاق من فرقة المهاريست. وهذا هو المطلوب ضمن التعليقات الصادرة من الجيش الفرنسي.

إن الضابط النقيب المكلف بفرقة المهاريست للعرق الشرقي، أكد أن هذه البعثة لن يحدث لها أي خلل في عملها الصحراوي أثناء فترة قيامها بالبحث والتنقيب.

مصدر الوثيقتين: وثائق الأستاذ طليبة بوراس الوادي.

الملحق 03: حول الوجود الروماني بوادي سوف

المقال: هل أقام الرومان في سوف؟

— 41 —

La mer a bien recouvert certains sites romains des bords de la Méditerranée. Pourquoi les dunes de l'Erg Oriental n'auraient-elles pas enseveli un poste romain contrôlant l'accès Nord de la piste de Ghadamès ?

Il reste à déterminer si ces ruines sont bien romaines : aucun témoignage précis n'a pu être recueilli sur l'aspect exact des ruines ensevelies depuis environ 60 ans.

M. ZOUBEIDI Hocine, Secrétaire du Commissaire de l'Etat Civil d'El Oued, suggère que le mot Sendrous pourrait bien être un vocabulaire romain et non berbère, les noms romains ou byzantins se terminant souvent en *ous* ou *as*.

La dune de Sendrous poursuivra-t-elle son mouvement vers le Sud-Ouest et les ruines émergeront-elles un jour des sables qui les recouvrent ? A en juger par la masse imposante de la *zemia*, ce jour n'est pas encore proche ! C'est seulement en entreprenant une fouille et en examinant ces ruines mystérieuses que l'on pourra savoir si les Romains recouvrent Sendrous, ou si l'imagination des bergers a paré quelques pans de murs d'un passé légendaire.

Pierre BATAILLON,
Administrateur en second, El Oued.

LES ROMAINS ÉTAIENT-ILS ÉTABLIS DANS LE SOUF ?

A 20 kilomètres au Sud-Est d'El Oued se dresse un gros massif de dunes que la carte au 1/200.000^{ème} et la tradition locale appellent Zemiet Sendrous, du haut duquel, venant de l'erg, on découvre la traînée des palmeraies du Souf.

Vers 1930, deux jardins furent creusés au pied de la *zemia* et, depuis, les cultures s'étendent peu à peu vers le Nord au prix d'un gros effort, chaque jardin nécessitant des fouilles importantes jusqu'au niveau de la nappe d'eau, une des plus douces du Souf.

Dans une dizaine d'années, peut-être les palmiers se succéderont-ils sans interruption sur les 5 kilomètres séparant Sendrous d'El Oued, palmerais jadis la plus méridionale.

Si l'on ajoute foi à une légende ayant cours dans la région, cette mise en valeur de l'extrême sud de la vallée ensablée de l'Oued Souf ramènerait ses habitants sur un site occupé anciennement par les Romains.

Quels sont les fondements de cette tradition ? Il existerait à Sendrous des ruines, aujourd'hui recouvertes par le sable, dont les murs seraient construits en pierres maçonnées. Lors de l'enquête menée sur les lieux, en mars 1952, aucun témoin ayant lui-même vu ces ruines n'a pu être découvert. Le propriétaire d'un des premiers jardins de Sendrous, Sassi ben Khedir, de la fraction des Ouled Ahmed, connaît l'emplacement approximatif des ruines, qui lui a été indiqué avant 1930 par deux vieillards, aujourd'hui décédés. Ceux-ci, dans leur jeunesse, avaient coutume de faire le sieste à l'ombre des murs en ruine, lorsqu'ils gardaient les troupeaux. Les deux groupes de ruines, éloignés l'un de l'autre de 200 mètres, sont recouverts par la *zemia* de Sendrous, qui aurait progressé en direction du Sud-Ouest. Ce déplacement de la dune est vraisemblable étant donnée la direction des vents dominants. On peut évaluer à 20 mètres l'épaisseur de la couche de sable recouvrant les ruines, qui auraient été édifiées au même niveau que la dépression bordant la *zemia* vers le Sud.

الترجمة العامة للمقال

هل أقام الرومان في سوف؟

في حدود 20 كيلومترا في الجنوب الشرقي من مدينة الوادي، تم رفع ركام رملي من الكثبان الضخمة التي تبرز في خريطة مقياسها 200000/1، وتطلق عليها التقاليد المحلية اسم زملة سندروس. والذين يقبلون من العرق، يكتشفون فيها آخر الغيطان في سوف.

في حدود سنة 1930، تم حفر مزرعتين في أسفل الزملة. وبعدها اتجهت الزراعة شيئا فشيئا نحو الشمال، وتبعتها الجهود الكبيرة. وكل مزرعة ختمت بالتنقيب المهم، والحفر إلى مستوى الطبقة المائية، وهي الأكثر رخاوة في سوف. خلال عشرات السنين تقريبا، توالى زراعة النخيل بدون انقطاع على امتداد 5 كيلومترات. وفصلت سندروس عن العقلة بغيطان قديمة للمهاجرين إليها.

وإذا أضفنا أمرا آخر إلى الأساطير المتداولة بالمنطقة، إن سبب تنمية الجنوب الرملي لوادي سوف، جلب هؤلاء السكان إلى هذا الموقع الذي استغل قديما من طرف الرومان، فما هي الأسس التي وضعت عليها هذه الاعتقادات؟

الاعتقاد أن منطقة سندروس تحتوي على أنقاض في الرمال، وجدران شيدت بحجارة البناء. حينئذ أجريت التحريات في عين المكان في مارس 1952، ولم يوجد أحد شاهد تلك الآثار التي يمكن اكتشافها. أحد ملاك إحدى الغيطان الأولى بسندروس، الساسي بن خضير، من قبيلة أولاد احمد، يعرف المكان التقريبي لتلك الآثار، والتي بينها له قبل سنة 1930 مسنين اثنين، حاليا توفيا. هذا الرجل أثناء شبابه كان يقضي القيلولة في ظل حائط الآثار عندما يكون يرعى بغنمه في تلك الناحية. مجموعتا الآثار تبعد الواحدة عن الأخرى بمقدار 200م، وقد غطتها زملة سندروس عن آخرها، والتي تقدمت نحو الجنوب الغربي، وتحول الكثبان أمر محتمل، ويوضح اتجاه الرياح حولها، ويمكن تحديد على 20م حجم طبقة الرمال

التي تغطي الآثار، والتي أقيمت على نفس المستوى لهبوط حافة الزملة نحو الجنوب.

إن البحر يغطي بعض المواقع الرومانية على حافة المتوسط. لماذا لا تكون كثنان العرقي الشرقي هي الأخرى قد دفنت محطة رومانية لمراقبة المدخل الشمالي للدورب نحو غدامس؟

إن السيد زبيدي الحسين، كاتب محافظ الحالة المدنية بالوادي، ذكر أن كلمة سندروس يحتمل أنها لفظة رومانية، أو اسم بربري. لأن الألفاظ الرومانية أو البيزنطية غالبا ما يوجد بها حرف OUS أو OS في نهايتها.

إن كثيب سندروس يواصل تغيير موقعه نحو الجنوب الغربي، وآثاره تبرز يوما من تحت الرمال التي تغطيها. ونحكم من خلال الركام الضخم للزملة، في يوم ما وليس قريبا، عندما نشرع في التنقيب، ونختبر هذه الآثار الخفية. ويومها يمكن معرفة إن كان الرومان احتلوا سندروس، أو أن تخيلات الرعاة هي التي تحدثت عن محاذة جدار في ذلك الماضي الأسطوري؟

الكاتب: بيار بطايون (Pierre BATAILLON) الحاكم بالوادي
المصدر: مجلة (B. L. S) العدد 11، ديسمبر 1952.

الملحق 4: حول الوجود الروماني بوادي سوف المقال: الرومان في سوف؟

LES ROMAINS DANS LE SOUF ?

Une soixantaine de pièces romaines en argent ont été trouvées à Ghourde el Oucif, à une quinzaine de kilomètres au sud de Sahbane, en 1951. Sahbane est situé à 25 kilomètres environ à vol d'oiseau au Sud-Ouest d'El Oued.

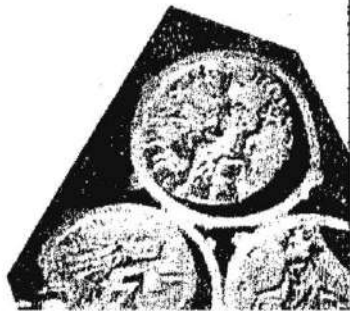
Le « découvreur » est un vieillard, parent d'Abdallah el Guettaoui, guide saharien bien connu des anciens d'El Oued. Ce vieillard se refuse à donner toute précision supplémentaire et même toute indication, s'attendant certainement à ce que le recul de telle dune lui livre d'autres pièces analogues.

Il ne resté plus que sept de ces pièces, les autres ont été égarées. Quatre d'entre elles ont été nettoyées « au mortier et au pilon » (*sic*) et sont fort maltraitées. Trois autres, presque intactes (dont l'une fleur de coin) ont été montées en broche par une honorable Européenne d'El Oued ; ce sont ces trois pièces dont la photographie accompagne cet article.

Cette découverte ne prouve certes pas que les Romains étaient installés dans le Souf ; elle prouve encore moins qu'ils ne l'étaient point... Ces pièces peuvent provenir, soit d'échanges honnêtes (ou non) en un point quelconque du limes, soit, plutôt, vu leur nombre, de vols ou de pillages ; et l'on pense à la mise à sac de tant de riches cités antiques, là-haut, dans le Nord. On essaie d'imaginer l'enchaînement des circonstances qui ont amené ces monnaies sous une des hautes dunes de l'Erg.

Mais les sept petites pièces se taisent narquoisement.

Administrateur CHALUMEAU,
Chef de la Commune mixte d'El Oued.



الترجمة العامة للمقال الرومان في سوف؟

في حدود ستين قطعة من النقود الرومانية الفضية عثر عليها في غرد الوصيف، على بعد نحو خمسة عشر كيلومتر جنوب سحبان سنة 1951. وسحبان تقع على حوال 25 كم من اتجاه طيران الطائر، في الجنوب الغربي للوادي.

إن المكتشف للنقود، هو شيخ مسن، والد عبد الله القطاوي، الدليل الصحراوي المعروف عند كبار الوادي. هذا الشيخ رفض إعطاء تحديد إضافي، وكذلك الإشارات الأخرى. ولكن نتظر، ربما تراجع الكثبان في المستقبل قد يكشف عن قطع أخرى مماثلة.

لم يبق سوى سبع من تلك القطع، والأخرى ضاعت. أربع منها نظفت أو (دكت صناعيا) وهي غير واضحة، والثلاثة الأخرى سليمة تقريبا (في زهرة الزاوية) والتي وضعت في مشبك لدى أحد الأوربيين المحترمين بالوادي، وهي القطع الثلاث الواضحة في الصورة الفوتوغرافية المرفقة مع المقال.

هذا الاكتشاف يدل على أن الرومان أقاموا في سوف. ويثبت كذلك أنهم لم يكونوا شيئا يذكر. هذه القطع يمكن تفسيرها أنها تعبر عن التبادل، أو أنها كانت في كيس أحد القدماء في الحواضر القديمة. ويمكن تخيل الظروف التي جلبت فيها إلى سوف، ووقعت تحت الكثبان العالية في العرق.

ولكن القطع السبع الصغيرة بقيت تسجل الغموض.

الكاتب شالومون: CHALUMEAU، حاكم البلدية المختلطة بالوادي.

المصدر: مجلة (B. L. S) العدد 12، أبريل 1953.

الملحق 5: فيل الحفريات بوادي سوف
المقال: فيل متحجر في الشمال الشرقي للوادي

9A
PALÉONTOLOGIE

Un éléphant fossile au Nord-Est d'El Oued

Le directeur de l'Institut de Recherches Sahariennes a bien voulu autoriser le Bulletin de Liaison à reproduire le compte-rendu qui lui a été adressé le 26 janvier 1959 par le capitaine Woisard, commandant le sous-secteur d'El Oued au sujet de la découverte d'un éléphant fossile. Un spécialiste a été envoyé sur les lieux et les résultats de ses observations seront publiés dans les Travaux de l'Institut de Recherches sahariennes.

B.I.S.

« J'ai l'honneur de porter à votre connaissance la découverte d'une tête de pachyderme fossile par un peloton méhariste de la compagnie méhariste de l'Erg Oriental.

« *Lieu de découverte* : Garet-et-Tir, à 80 km. au Nord-Est d'El Oued.

« *Date* : le 23 janvier 1959.

« *Description sommaire* : Il s'agit de la partie supérieure de la tête d'un pachyderme de grande taille. N'apparaissent que deux molaires, la partie inférieure des défenses, les os du palais et le début des vertèbres.

« — Les dimensions sont importantes,

« — 20 cm. × 12 cm. pour la partie supérieure d'une molaire.

« — 0 m. 25 de diamètre à la base pour les défenses,

« — 1 m. 40 de défenses sont visibles mais très évasées.

« *Remarques*. — La découverte a été faite parce que la courbure des défenses affleuraient le sol. C'est en creusant qu'apparurent les autres détails.

« Le sol a été décapé de 30 à 40 cm. de part et d'autre. Les travaux ont été arrêtés en attendant l'avis des spécialistes.

« Le reste des ossements est enterré dans un sol qui comprend à la fois du sable, des argiles et du gypse. Les os eux-mêmes semblent remplis de concrétions gypseuses. »

Capitaine A. WOISARD,
Commandant le sous-secteur d'El Oued.

الترجمة العامة للمقال فيل متحجر في الشمال الشرقي للوادي

إن مدير مؤسسة البحث الصحراوية، قد رخص لنشرية الاتصال (Bulletin de Liaison) بكتابة تقرير أرسل يوم 26 جانفي 1959 من طرف النقيب فوازار الضابط بالوادي، حول موضوع اكتشاف فيل الحفريات. أحد المختصين أرسل إلى عين المكان، ونتائج ملاحظاته نشرت في مجلة أعمال مؤسسة الأبحاث الصحراوية.

توضيح مجلة (B. L. S)

" لي الشرف أن أخبركم على اكتشاف رأس فيل متحجر من طرف طابور فرقة المهاريست بالعرق الشرقي.

" مكان الاكتشاف: قارة الطير، على بعد 80 كم من الشمال الشرقي للوادي.

" التاريخ: 23 جانفي 1959.

" وصف موجز: فيما يخص الجزء الأساسي لرأس الفيل من الحجم الكبير، ولا يظهر إلا ضرسين، والجزء السفلي للنان وعظام الفك ومقدمة الفقرات.

" القياسات مهمة:

" 20 سم x 12 سم بالنسبة للجزء الأعلى للضرس.

" 0.25 م لقطر القاعدة بالنسبة للأنياب.

" 1.40 م للأنياب واضح ولكنه واسع الهوة.

" ملاحظات. - الكشف أجري لأن أنحاء الأنياب كانت بارزة على الأرض،

ولكن بالحفر ظهرت بقية التفاصيل.

" التربة حفرت ما بين 30 إلى 40 سم من جانب وآخر، ثم توقفت الأشغال في

انتظار رأي المختصين.

" بقية العظام مدفونة في أرض تحتوي على الرمل والطين والجبس. والعظام

نفسها يظهر أنها مملوءة بالجبس المتصلب.

الكاتب: النقيب: أ. فوازار (A. WOISARD). حاكم الوادي.

المصدر: مجلة (B. L. S) العدد 33، مارس 1959.

الملحق 6: البربر بوادي سوف

المقال: بربر زناتة في سوف.

Les Berbères Zénètes dans le Souf

Renan a dit : « C'est une pensée d'une effroyable tristesse que le peu de traces que laissent après eux les hommes ; ceux-ci qui semblent jouer un rôle principal. »

Sur la foi des auteurs du *Kitab el-adouani* et du *Monhel el-adheb*, les Zénètes ont colonisé le Souf. Ils n'y ont pas, il est vrai, laissé d'altiers monuments ainsi que les Romains, leurs maîtres, mais leur œuvre, semble-t-il, a été féconde.

La région d'Oued Djardania, à environ cinquante kilomètres au Nord d'El Oued sur la route de Négrine, a conservé jusqu'à une date rapprochée des traces de fertilisation par les Zénètes, les tronçons de séguiâs en maçonnerie que les bergers découvraient çà et là sur le périmètre précité témoignaient de leur attachement à la terre et de leur labeur méthodique.

De vieux nomades ont remarqué en ces lieux des traces de constructions. Y a-t-il eu, à travers les siècles, destruction de ces édifices qui n'ont pu défier les temps ou bien l'océan des sables garde-t-il jalousement des ruines que l'archéologie mettra un jour à nu ?

Les Zénètes fortifiaient leurs centres. Sur l'emplacement de ce qui fut la populeuse cité d'El Beïda au Sud de Ghoût Es-Selaâ, à El Oued, des vestiges de murailles ont été découverts au cours de travaux dans une palmeraie ; mais la trouvaille la plus intéressante fut celle d'une tombe non orientée suivant le rite musulman.

Des traces de mur d'enceinte existaient également, il y a quelque quatre-vingts ans, à Sendrous, au Sud d'Amiche. Les Zénètes n'étaient pas d'humeur belliqueuse mais « pour avoir la paix, ils préparaient la guerre ». Laouamer rapporte dans le *Kitab es-srouf fitarikh Souf* que les Zénètes avaient leurs carrières de pierre à plâtre à Sendrous. Ceci ne paraît pas de la fiction car toutes les hypothèses sont permises avec le chameau qui, dans l'insondable Sahara, a joué un rôle très important au temps de la pénétration romaine. Ceci amène aussi à croire que l'industrie du plâtre assez répandue dans le Souf et dont profitent actuellement plusieurs familles, est d'origine zénète.

Au lieu dit Hexoua (nom propre d'une femme zénète), sur la frontière tunisienne, s'élevait la localité de Hézoua ; une autre, de nom inconnu, était sur la route d'El Oued à Touggourt à Sif-Sohanc. Tant de ruines prouvent que les Zénètes, tout comme les Romains, ont été des bâtisseurs.

Plus de six siècles après, leurs souvenirs survivent encore dans certaines dénominations de nos villages. Par exemple :

Amiche doit son nom à un Zénète, Améché (demi-aveugle) réputé pour son hospitalité dans la région d'Amiche,

Ournés est le nom propre d'un notable zénète mort là où est située actuellement l'onsis d'Ournés. Voici sa filiation :

Ournés fils de Lasonaben, fils de Maimat, fils de Faten, fils de Temacit et, comme la généalogie remonte jusqu'à Noé, mieux vaut reprendre haleine.

Ouzriten est le nom d'un esclave zénète mort noyé dans l'oued qui coulait à l'endroit d'Ouzaiten et qui descendait de Nazza.

Hassé Khalifa. Khalifa était un héros zénète que des actes de bravoure avaient rendu hors de pair dans des combats contre les Beni Hual en Lihye. El Adonani n'a pas précisé si ce personnage était venu dans le Souf ou si les Zénètes avaient baptisé le puits creusé par eux Hassé Khalifa afin de « faire luire la mémoire de leur guerrier et de redorer son nom. »

Quant aux coutumes zénètes, il en reste encore quelques empreintes telles que le tatouage de la croix au front, la croix de safran sur la gandoura neuve de l'enfant à circoncire, le déquètement des hommes en femmes à l'occasion de l'Achoura qui n'est peut-être que l'écho des Saturnales jadis en usage dans la Ville Eternelle. Autant de pratiques que la religion musulmane réprouve et qui, néanmoins, existent de nos jours encore dans le Souf.

Je ne contredirai pas ceux qui diraient que ce sont plutôt des survivances romaines, mais l'implantation des Romains dans le Souf ayant été controversée par certains officiers de l'ancienne annexe d'El Oued, il apparaîtrait que les coutumes sus-mentionnées ont bien été transmises à travers les âges aux habitants du Souf par les Zénètes qui vinrent de Numidie. Ibn Khaldoun n'a-t-il pas dit que le vaincu adopte nécessairement les usages du vainqueur ?

Le lecteur qui a connu le Souf trouvera que ce thème est purement légendaire. D'accord, parce que effectivement les documents mentionnés plus haut ont la fragilité du verre, parce que leurs auteurs, faux Hérodotes, démontrent l'obscur par le plus obscur, mais il ne demeure pas moins vrai que la légende est toujours plus belle que la réalité.

Hocine Zorwéni,

caïd des *Serviles noirs* à El-Goud.

Gommes sahariennes.

Révision des listes électorales.

Le premier secrétaire. — Connais-tu le prénom de Mue X... toi qui as été son élève ?

Le deuxième secrétaire. — Oui, elle s'appelle « Chou » ; c'est son mari lui-même qui l'appelle comme ça.

(Communication de M. Mekki Daoud).

الترجمة العامة للمقال

بربر زناتة في سوف

قال رينان: " إنه تفكير ملفت للنظر. إن القليل من الآثار التي يتركها القوم في تجمعاتهم، فإنها تلعب دورا أساسيا".

وحسب شهادة مؤلف كتاب العدواني، وكتاب المنهل العذب، فإن زناتة استوطنت سوف. إنها الحقيقة، وما يجمع من معلومات تكون مفيدة، وخلفت آثارا مثل الرومان.

إن منطقة وادي الجردانية، في حدود خمسين كيلومتر في شمال الوادي في طريق نقرين، حفظت وحتى وقت قريب آثارا غزيرة لزناتة. وهي قطع للبناء التي اكتشفها الرعاة في المحيط الواضح الذي يشهد على علاقتهم بالأرض، وكدهم المتواصل.

إن شيوخ البدو لاحظوا في محلهم آثار البناء التي كانت عبر القرون، وتحطمت عمارتها، ولكنها قاومت الزمن، أو بالأحرى محيط الرمال، وحافظت على الآثار التي صارت يوما عارية. الزناتيون قوا مراكزهم في المكان الأهل بالسكان الواقع في البيضاء. في جنوب غوط الصلاة بالوادي، توجد بقايا السور التي اكتشفت أثناء الحفر في إحدى الغيطان. ولكن الاكتشاف الأكثر أهمية هو الضريح الذي وجد في وضعية مخالفة للشريعة الإسلامية في توجيهه لغير القبلة.

آثار جدار، نحو ثمانين عاما، في سندروس جنوب عميش. والزناتيون ليس لهم الرغبة في الحرب. ولكن " من أجل تحقيق الأمن، يستعدون للحرب". فالعوامر يذكر في كتاب الصروف في تاريخ سوف: أن زناتة كان لهم محجر، يستخرجون منه الحجارة التي يستعملونها في تحضير الجبس، ويقع في سندروس. وهذا ليس من الخيال، لأن كل الفرضيات بينت أنها تنقل بالجمال في مجاهل الصحراء التي لعبت دورا هاما في زمن الدخول الروماني. هذه كذلك تجعلنا نعتقد أن صناعة الجبس

كانت موزعة بشكل كاف في سوف، وتنتفع منها حاليا كثير من العائلات، وهي من أصول زناتية.

في موقع حزوة(الاسم الحقيقي لامرأة زناتية)والتي تقع في الحدود التونسية، واسم آخر مجهول في طريق الوادي تقرت في سيف سلطان، كلها تثبت أن تلك الآثار شيدتها زناتة مثلهم مثل الرومان، بعد ستة قرون على الأكثر. وإن ذكرهم بقي أيضا في بعض تسميات قرانا على سبيل المثال:

عميش: يعتقد أنها اسم لأحد الزناتيين أعمش(نصف أعمى) المشهور بإقامته في منطقة عميش.

ورماس: هي اسم علم لأحد وجهاء زناتة، مات في نفس المكان. وتقع اليوم واحة ورماس. وإليك نسبه: ورماس بن لؤي بن مطماط بن فاتن بن تماسيت. وحسب شجرة النسب، يرفع إلى لؤي...

وازيتن: اسم عبد من زناتة مات غرقا في مجرى الوادي الجاري في منطقة وازيتن. وهو الوادي القادم من النازية.

حاسي خليفة: خليفة هو البطل الزناتي. وبحكم شجاعته، شارك في حرب خارج منطقته ضد بني هلال في ليبيا. العدواني لم يجدد أن هذه الشخصية أتت إلى سوف، أو أن زناتة أطلقت اسمه على البئر التي حفروها". فأشار إلى ذكرياته الحربية، وذكرت اسمه".

أما بالنسبة للعادات الزناتية، فبقيت بعض البصمات مثل الوشم على شكل صليب على الجبهة، والصليب من الزعفران على القندورة الجديدة يلبسها الصبيان عند الختان، وتقمص الرجال لصفة المرأة بمناسبة مهرجان عاشوراء الذي يعتبر من صدى أعياد زحل القديمة في العرف عند سكان المدينة الخالدة. وهي السلوكات التي ترفضها الشريعة الإسلامية، ومع ذلك موجودة في سوف إلى يومنا هذا.

لا أعارض ما يقال، والأولى أنها من بقايا الرومان. ولكن وجود الرومان في سوف بقي محل جدل عند بعض ضباط الملحقة القديمة بالوادي. والظاهر أن العادات السابقة انتقلت عبر أجيال إلى سكان سوف من طرف الزناتيين القادمين من نوميديا. ابن خلدون ألم يقل أن المغلوب مولع بتقليد الغالب؟ إن القارئ الذي يعرف سوف، يجد أن هذا الموضوع أصله أسطوري. نعم! فالحقيقة أن الوثائق لا ترتقي إلى أعلى مستوى من الحق، بل هي متهالكة تهالك الزجاج، لأن كاتبها هيرودوت يظهر الغموض تلو الآخر، ولكنه لا يبقى أقل من الأسطورة. وهي دائما أجمل من الحقيقة.

الكاتب: حسين زييدي، قايد الحالة المدنية بالوادي

المصدر: مجلة (B. L. S) العدد 40، ديسمبر 1960.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الكتب المطبوعة:

1- الكتب العربية:

أ-المصادر:

- 1- ابن الأبار، الحلة السیراء، نشر حسین مؤنس، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1958، ج2.
- ج1.
- 2- ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، ط1، تونس، 1286 هـ.
- 3- ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1.
- 4- (ـ)، الكامل في التاريخ، راجعه محمد بن يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1987، ج5، ج6.
- 5- الإدريسي الشريف، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، تصحيح هنري بريس، نشر كلية الآداب، جامعة الجزائر، 1957.
- 6- الأندلسي أبو الربيع سليمان، الاكتفا بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء، تح محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2000، ج1.
- 7- ابن بشكوال، الصلة، تح إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1989، ج1، ج2.
- 8- البغدادي عبد المؤمن، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح علي محمد البجاوي، دار المعرفة، ط1، بيروت، 1954، ج3.
- 9- البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك)، دار الكتاب العربي، القاهرة، (ب ت).
- 10- البلاذري، فتوح البلدان، تح عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعاني للطباعة والنشر، بيروت.
- 11- التجاني أبو محمد عبد الله، رحلة التجاني، تق حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 2005.
- 12- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1929.

- 13- ثابت بن سنان وآخرون، أخبار القرامطة في الأحساء والشام والعراق واليمن، جمع وتحقيق ودراسة سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، ط2، دمشق، 1982، ج1.
- 14- ابن الجوزي، صفة الصفوة، تح أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، 2000، ج2.
- 15- الحميري محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط2، بيروت، 1984.
- 16- ابن حوقل، صورة الارض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992.
- 17- ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، أو (تاريخ ابن خلدون)، دار البيان (ب ت) ج2.
- 18- (—، —)، تاريخ ابن خلدون، ضبط خليل شحادة، تح سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000، ج4، ج6.
- 19- (—، —)، المقدمة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1993.
- 20- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح إحسان حقي، دار صادر، بيروت، 1994، مج5.
- 21- الدينوري ابن قتيبة، المعارف، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 2003.
- 22- الذهبي شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تح شعيب الأرنؤوط - مأمون الصاغري، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1982، ج8.
- 23- أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، الجزائر، 1984.
- 24- (—، —)، كتاب السيرة وأخبار الأئمة. تح عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس، ب ت ط.
- 25- السمعاني أبو سعيد، الأنساب، تقديم عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، ط1، بيروت، 1988، ج4.
- 26- السيوطي جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط1، 1995، ج1.
- 27- الشاخي أبو العباس، كتاب السير، دراسة وتحقيق محمد حسن، دار المدار الإسلامي، ط1، ليبيا، 2009، ج2.

- 28- ابن الشعاع، الأدلة البيئية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984.
- 29- الشهرستاني، الملل والنحل، تح، صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، 2005.
- 30- ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تح محمد ناصر، إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.
- 31- الصفدي، الوافي بالوفيات، تح احمد الأرنؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 200، ج11.
- 32- الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1989، ج2.
- 33- الطبري ابن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، مصر، 1968.
- 34- أبو العباس أحمد، كتاب السير، تح، محمد حسن، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2009 ج2.
- 35- ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، صححه وخرج أحاديثه عادل مرشد، دار الإعلام، ط1، الأردن، 2002.
- 36- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تح عبد المنعم عامر، الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، (ب ت).
- 37- العدواني محمد، تاريخ العدواني، تحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1996.
- 38- أبو العرب بن تميم، طبقات علماء أفريقية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ت ط.
- 39- أبو العرب القيرواني، طبقات علماء أفريقية وتونس، تح علي الشابي، نعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس بالتعاون مع المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، ط2، 1985.
- 40- ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تح محب الدين بن سعيد العموري، دار الفكر، ط1، دمشق، 1997، ج50.
- 41- العسقلاني ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، تح عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1995، ج2، ج3، ج5، ج6،

- 42- الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981.
- 43- الغزالي أبو حامد، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ضبطه وصححه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1988.
- 44- الفرستائي، أبو العباس أحمد بن محمد النفوسي، القسمة وأصول الأرضين، تح بكير بن محمد بالحاج، محمد ناصر، نشر جمعية التراث-القرارة، المطبعة العربية، ط2، غرداية-الجزائر، 1997.
- 45- القاضي النعمان، كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، تونس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1986.
- 46- —، —، كتاب المجالس والمسائرات، تح إبراهيم الفقي، إبراهيم شبوح، محمد اليعلاوي، دار المنتظر، بيروت، 1996.
- 47- القلقشندي أبو العباس، نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب، تح إبراهيم الابياري، دار الكتاب اللبنانيين، ط2، بيروت، 1980.
- 48- القيرواني الرقيق، تاريخ أفريقية والمغرب، تح محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1994.
- 49- ابن كثير، البداية والنهاية،، تح أبو الفضل الدمياطي، عبد الرحمان فهمي الزواوي، دار الغد الجديد، ط1، القاهرة، 2007، ج 7.
- 50- الكندي ابن عمر محمد بن يوسف، كتاب الولاية وكتاب القضاة، تهذيب وتصحيح رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908.
- 51- المالكي أبو بكر عبد الله، رياض النفوس، نشر حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ط1، القاهرة، 1951، ج1.
- 52- المراكشي ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار المغرب، مكتبة صادر، بيروت، 1950، ج1.
- 53- المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994.
- 54- المقري أحمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، دار صادر، ط2، بيروت، د ت ط، مج 3.

- 55- مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، (ب ت).
- 56- مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986.
- 57- مؤلف مجهول، كتاب المعلقة في أخبار ومعلقات أهل الدعوة، تح الحاج سليمان بن إبراهيم الوارجلاني، نشر وزارة التراث والثقافة، ط 1، سلطنة عمان، 2009.
- 58- النميري ابن الحاج، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تح محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت، 1990.
- 59- الوزان الحسن، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط 2، بيروت، 1983، ج 1، ج 2.
- 60- الوزير السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تح محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الاسلامي، ط 1، بيروت، 1985.
- 61- ابن هشام، تهذيب سيرة ابن هشام. تح عبد السلام هارون. دار التراث العربي، بيروت، (ب ت).
- 62- هيرودوت، تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الاله الملاح، مراجعة أحمد العساف، حمد بن صراي، نشر المجمع الثقافي، شركة أبو ظبي للطباعة والنشر، الإمارات العربية المتحدة، 2001.
- 63- الوسياني أبو الربيع، سير مشايخ المغرب، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1985، ج 2.
- 64- (—، —)، سير الوسياني، تح عمر بن لقمان بن عصبانة، نشر وزارة الثقافة، سلطنة عمان، 2009، ج 1.
- ب- المراجع:
- 65- إدريس عماد الدين، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من عيون الأخبار، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت، 1985.
- 66- بابا حمو اعزام إبراهيم بن صالح، غصن البان في تاريخ ورجلان، تحقيق إبراهيم بحاز، سليمان بومعقل، مطبعة العالمية، ط 1، غرداية-الجزائر، 2013.

- 67- باجية صالح، الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى، دار بوسلامة للطباعة والنشر، ط1، تونس، 1976.
- 68- الباروني سعيد، الحركة العلمية والفكرية بجزيرة جربة عبر التاريخ، المكتبة الشاملة الإباضية (إلكتروني) إعداد مصطفى بن محمد شريف، نشر جمعية التراث، القرارة- الجزائر، 2010، الإصدار الثاني.
- 69- الباروني عبد الله، الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الإباضية، مطبعة الازهار البارونية، مصر، ب ت ط، ج2.
- 70- بالحميسي مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981.
- 71- بحاز إبراهيم، الدولة الرستمية 160-296هـ / 777-909م، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، نشر جمعية التراث، ط2، غرداية، الجزائر، 1993.
- 72- البخترى أحمد، الجديد في أدب الجريد، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1973.
- 73- برنشفيك روبر، تاريخ أفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1988، ج2.
- 74- بلحلول محمد علي، قفصة قديما وحديثا، شركة JMS، تونس، 1990.
- 75- بورويبة رشيد، أصل الفاطميين وملحمة أبي عبد الله الشيعي، تعريب محمد بلقراد، الجزائر في التاريخ، ج3.
- 76- (—، —)، الدولة الحمادية تاريخها وخصائصها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977.
- 77- بوغزيز يحيى، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار العث، ط1، قسنطينة-الجزائر، 1980.
- 78- بوغزالة حمد الهادي، شاهد من الثورة، حاوره طليبة بوراس، تق علي غنابزية، منشورات ملحقة متحف المجاهد بولاية الوادي، مطبعة سخري، الوادي-الجزائر، 2012.
- 79- بونار رابح، المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981، ج1.
- 80- (—، —)، المغرب العربي تاريخه وثقافته، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2019.

- 81- التاحلي أبو يعقوب، التشوف إلى رجال التصوف، تح احمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط 2، الدار البيضاء، 1997.
- 82- الثعالبي عبد العزيز، تاريخ شمال أفريقية من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الاغلبية، جمع وتحقيق احمد بن ميلاد، محمد ادريسي، مراجعة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1990.
- 83- جمال الدين عبد الله محمد، الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991.
- 84- جودت عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- 85- الجيلالي عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، ط7، الجزائر، ج 1، 2.
- 86- حاجيات عبد الحميد، الجزائر من الفتح الإسلامي إلى تأسيس الدولة الرستمية، الجزائر في التاريخ (3)، وزارة الثقافة والسياحة المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- 87- حارش محمد الهادي، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1992.
- 88- حثروبي محمد الصالح، هجرات سكان وادي سوف إلى مدينة بسكرة خلال القرن العشرين، تق علي غنابزية، دار الهدى، عين مليلة - الجزائر، 2019.
- 89- الحريري محمد عيسى، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس 160هـ - 296هـ، دار القلم، ط2، الكويت، 1987.
- 90- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس " عصر المرابطين والموحدين"، مكتبة الخانجي، ط1، مصر، 1980.
- 91- حسن محمد، المدينة والبادية بأفريقية في العهد الحفصي، منشورات جامعة تونس الأولى، شركة اوربي للطباعة، تونس، 1999، ج1.
- 92- الحفناوي أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ج1.
- 93- الحلبي ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، مراجعة خليل المنصور، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1996.

- 94- الخضري محمد بك، الدولة الأموية، عالم الكتب، ط1، بيروت، 2002، ج1.
- 95- (—، —)، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، تح سميير احمد العطار، دار الحديث، القاهرة، 2000.
- 96- خطاب محمود شيت، قادة فتح المغرب العربي، دار الفكر، ط8، بيروت، 2002، ج1.
- 97- بن الخوجة محمد، تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد، المطبعة التونسية، تونس، 1939.
- 98- دبوز محمد علي، تاريخ المغرب الكبير، دار إحياء الكتب العربية، ط1، مصر، 1963، ج3.
- 99- (—، —)، تاريخ المغرب الكبير، مؤسسة تاوالت الثقافية، كاليفورنيا، 2010، ج1.
- 100- حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1994.
- 100- روجي إدريس الهادي، الدولة الصنهاجية، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1992، ج1.
- 101- زكار سهيل، أخبار القرامطة، في الاحساء والشام والعراق واليمن، (جمع وتحقيق)، دار الاحسان للطباعة والنشر، ط2، دمشق، 1982، ج1.
- 102- سالم السيد عبد العزيز، المغرب الكبير العصر الإسلامي، دار النهضة العربية بيروت، 1981، ج2.
- 103- (—، —)، وسحر السيد، من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب الإسلامي، نشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993.
- 104- السائحي ميهوبي عبد القادر، ومضات تاريخية واجتماعية لمدن وادي ريغ وميزاب وورقلة والطيبات والعلية والحجيرة، دار البصائر، الجزائر، 2011.
- 105- سحنوني محمد، ما قبل التاريخ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1990.
- 106- سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، المعارف، الإسكندرية، 1993، ج2.
- 107- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1990، ج3.
- 108- (—، —)، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1990، ج2.

- 109- (____، ____)، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998، ج 4.
- 110- سعدون عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، 1985.
- 111- سعدي عثمان، عروبة الجزائر عبر التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
- 112- شريط عبد الله، الميلي محمد، الجزائر في مرآة التاريخ، ط1، مكتبة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1965.
- 113- شنييتي محمد البشير، سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146 ق م - 40 م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- 114- الشيخ حسين، دراسات في تاريخ الحضارات القديمة (1) اليونان، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، (ب ت).
- 115- صالح عبد القادر، العقائد والأديان، دار المعرفة، ط 2، بيروت، 2006.
- 116- الصنهاجي أبو بكر بن علي، أخبار المهدي بن تومرت وبداية الدولة الموحدية، تح عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1971.
- 117- ضيف الله محمد الأخضر، محاضرات في الحضارة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.
- 118- ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات (ليبيا تونس صقلية)، دار المعارف، القاهرة.
- 119- الطالببي محمد، الدولة الأغلبية، ترجمة المنجي الصيادي، مراجعة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.
- 120- الطاهر عبد الجليل، المجتمع الليبي دراسات اجتماعية وأنتروبولوجية، المكتبة العصرية، بيروت، 1969.
- 121- طهار محمد، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.
- 122- الطويل توفيق، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، الزهراء للإعلام العربي، ط1، القاهرة، 1991.

- 123- العبادي أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، (ب ت).
 124- (—، —)، في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، (ب ت).
 125- العدواني محمد الطاهر، الجزائر منذ نشأة الحضارة، في، الجزائر في التاريخ (1)، وزارة الثقافة والسياحة المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
 126- العزي كامل بن حسين الحلبي، نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب، ب ت ن.
 127- عقيلان أحمد فرج، أبطال ومواقف، دار المعراج الدولية، ط2، الرياض، 1997.
 128- بن عميرة محمد، دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
 129- العوامر إبراهيم، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تعليق الجيلاني العوامر، الشركة التونسية للنشر - تونس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، 1977.
 130- عويس عبد الحليم، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط2، القاهرة، 1991.
 131- غالب مصطفى، مقدمة التحقيق لكتاب القاضي النعمان، اختلاف أصول المذهب، دار الاندلس، ط3، بيروت، 1983.
 132- غانم محمد الصغير، مواقع حضارات ما قبل التاريخ في بلاد المغرب القديم، دار الهدى، عين مليلة، 2003.
 133- غلبون الطرابلسي محمد بن خليل، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان فيها من الأختيار (تاريخ طرابلس الغرب)، تعليق الطاهر احمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349هـ.
 134- غنابزية علي، الشيخ محمد بن عمر العدواني حياته ومآثره، إصدار دار الثقافة بالوادي، مطبعة الرمال، ط1، الوادي - الجزائر، 2015.
 135- الفاخوري حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، دار الجيل، بيروت، دت ط.
 136- أبو الفضل إبراهيم محمد، علي محمد البجاوي، أيام العرب في الإسلام، دار الجيل، بيروت، 1988.

- 137- القاسبي أبو الحسن، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين،
تح احمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، ط1، تونس، 1986.
- 138- قادري عبد الحميد، التعريف بوادي ريغ، منشورات جمعية الوفاء للشهيد بتقوت،
مطبعة الرمال، ط1، الوادي - الجزائر، 1999.
- 139- قداش محفوظ، الجزائر في العصور القديمة، ترجمة صالح عباد، المؤسسة الوطنية
للكتاب، الجزائر، 1993.
- 140- القشاط محمد سعيد، التوارق عرب الصحراء الكبرى، مركز دراسات وأبحاث شؤون
الصحراء، مطابع أديتار، ط2، كاليري - إيطاليا، 1989.
- 141- (—، —)، صحراء العرب الكبرى، دار الملتقى، دار الرواد، ط1، طرابلس،
1994.
- 142- القطب سمير عبد الرزاق، أنساب العرب، منشورات دار الحياة، ط1، بيروت،
1968.
- 143- كربيخال مارمول، إفريقيًا، ترجمة محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد
التوفيق، أحمد بنجلون، دار الكعرفة، الرباط، 1989، ج3.
- 144- الكعك عثمان، موجز التاريخ العام للجزائر، تقديم ومراجعة أبو القاسم سعد الله،
محمد البشير شنييتي، ناصر الدين سعيدوني، إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، ط1،
بيروت، 2003.
- 145- لقبال موسى، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر.
- 146- (—، —)، عقبة بن نافع، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.
- 147- مازيل جان، تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، تر ربا الخش، ط1، دار الحوار للنشر
والتوزيع، سورية، 1998.
- 148- محمد زيتون محمد، المسلمون في المغرب والأندلس، دار الكتب، مصر، 1990.
- 149- محمود إسماعيل، الأغالبة وسياستهم الخارجية 184-296هـ، عين للدراسات
والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط3، الهرم، 2000.
- 150- محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع
الهجري، دار الثقافة، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 1985.

- 151- محمود عبد الحليم، أبو مدين الغوث حياته ومعراجه إلى الله، دار المعارف، القاهرة، 1985.
- 152- المرزوقي محمد، قابس جنة الدنيا، مكتبة الخانجي، مصر، ومكتبة المشي، بغداد، 1962.
- 153- مزهودي مسعود، جبل نفوسة في العصر الإسلامي الوسيط (21-442هـ/642 - 1053م)، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 2010.
- 154- المدني أحمد توفيق، كتاب الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009.
- 155- (—، —)، هذه هي الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009.
- 156- مصطفى كمال عبد العليم، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، المطبعة الأهلية بني غازي، يناير 1966.
- 157- المطوي محمد العروسي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
- 158- مقيدش محمد، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح علي الزواري، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1988، مج 1.
- 159- مؤنس حسين، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (ب ت).
- 160- الميلي مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ت، ج1، ج2.
- 161- ناصر محمد صالح، منهج الدعوة عند الإباضية، دار ناصر للنشر والتوزيع، ط5، الجزائر، 2013.
- 162- الناضوري رشيد، تاريخ المغرب الكبير (العصور القديمة أسسها التاريخية الحضارية والسياسية)، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ج1.
- 163- النيال محمد البهلي، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، مكتبة النجاح للنشر والتوزيع، تونس، 1965.
- 164- هلال عمار، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 1984.
- 165- هويدا عبد العظيم رمضان، المجتمع في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى العصر الفاطمي، الهيئة العلمية العامة للكتاب، القاهرة، 1994، ج2.

- 166- يحيى معمر علي، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية - الإباضية في ليبيا، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان.
- 167-(، —)، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثالثة- الإباضية في تونس، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان.
- 168-(، —)، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الرابعة- الإباضية في الجزائر، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان.
- 2-الكتب الفرنسية:

- 169 – A . Poitou-Duplessy , **La Mer de Chotts , ou Mer Intérieure D’Algérie** , Liriont,1882
- 170 – Capitaine Aymand , **Les Touareg** , librairie Hachette , Paris ,1911
- 171 – G, G, A – **le Territoire du sud de l’Algérie** – Imprimerie Algérienne. Alger. 1929.
- 172 – J. Scelles – Millie , **Contes Sahariens du souf** , Maisonneuve et Larose ,1964 , Paris .
- 173 – Jules Trousset , **nouveau Dictionnaire Encyclopédique** , Librairie illustrée, Paris, v 4 .
- 174 – CH – ludaud – **Exposé de la situation générale du Territoire du Sud** – Iypographie Adolphe– Jordan 1908 .
- 175 – Lionel Balout: **Algérie Préhistoire**, ed Art et Graphique, paris, Mars 1958, p 105 .
- 176 – M. O. Mac Carthy ,**Dictionnaire Géographique ; Économique et Politique de L’Algérie**, Dubos Frères, Imprimera Libraires,Alger,1858 .
- 177 – Nadjah Ahmed – **le Souf des Oasis** – Edition la maison des livres. Alger. 1971 .

ثانيا: المخطوطات المعاصرة:

أ- باللغة العربية:

- 178- التليلي محمد الطاهر، الفوائد المشورة من المطالعات المبتورة، مخ، توجد نسخة في النادي السياحي بقمار.

- 179- بن حبة عبد المجيد، ديوان العلامة عبد المجيد حبة، جمع وإعداد عبد الحليم صيد، فوزي مصمودي، نادي الأدب والتراث، جمعية أضواء للثقافة والفنون، بسكرة.
- 180- سالمى مصطفى، الدر المصفى، جمع وتصنيف وتحقيق على غنابزية، مخ، 1999.
- 181- ابن عامر إبراهيم، الصروف في تاريخ سوف، مخ، نسخة احمد مفتاح القماري، لدي نسخة مصورة، ج 1.
- 182- ماني محمد، عمارة وعمران بلدة قمار، مخ، توجد لدي نسخة مصورة، ومرقونة.
- ب- باللغة الفرنسية:

- 183 – Voisin André, *Monographie d'une région Saharienne*, Paris, 1985, (Manuscrit)
- 184 – *Carte de Tozeur* – Publié par le service géographique de l'armée Française – en 1929

ثالثا: الكتب العامة:

- 185- أباضة نزار، المالح محمد رياض، إتمام الأعلام "ذيل لكتاب الأعلام لخير الدين الزركلي"، دار صادر، ط 1، بيروت.
- 186- الأطلس العالمي، المعهد التربوي الوطني الجزائري، الجزائر، 1983.
- 187- بابا عمي محمد بن موسى وآخرون، معجم أعلام الإباضية، دار الغرب الاسلامي، ط 1، بيروت، 1999، ج 2.
- 188- الجبوري كامل سليمان، معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 2003.
- 189- الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، معلمة المغرب، نشر مطابع سلا، الرباط، 1989، ج 10.
- 190- حجّي محمد، موسوعة أعلام المغرب، تنسيق وتحقيق، دار الغرب الإسلامي، ط 2، بيروت، 2008، ج 1.
- 191- ابن حزم، جبهة أنساب العرب، تح عبد السلام هارون، دار المعارف، ط 5، مصر، 1982.
- 192- الحموي ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، ط 2، بيروت، 1995، ج 3. طبعة 1977، مج 5.

- 193- خضر عادل أنور، أطلس تاريخ الجزائر، دار الشرق العربي، بيروت، دار العزة والكرامة للكتاب، وهران - الجزائر، ط 4، 2017.
- 194- الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط 7، بيروت، 1986، ج 2، ج 3. ط 15، بيروت، 2002، ج 1.
- 195- غيرستر جورج، الصحراء الكبرى، تعريب خيرى حماد، منشورات المكتب التجاري، ط 1، بيروت.
- 196- الفاخوري حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي "الأدب القديم"، دار الجيل بيروت، د.ت.
- 197- فيرون ريمون، الصحراء الكبرى، ترجمة جمال الدين الديناصوري، ومراجعة شكري نصري، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1963.
- 198- القاري علي بن سلطان محمد، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، شرح محمد بن عبد الله التبريزي، تح جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 2002، ج 7.
- 199- كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، د.ب، د.ت، ج 1.
- 200- (—، —)، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، ط 1، بيروت، 1993، ج 2.
- 201- (—، —)، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، ط 8، بيروت، 1997، ج 2.
- 202- المارغيني إبراهيم، النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في أصل مقرا الإمام نافع، دار الفكر، بيروت، 2004.
- 203- مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983.
- 204- مجموعة من المؤلفين، دائرة المعارف الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، ج 1.
- 205- المرعشلي أحمد، عبد الهادي هاشم، أنيس صايغ، الموسوعة الفلسطينية، ط 1، دمشق، 1984، مج 1.
- 206- ابن منظور، لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ب ت، ج 11.
- 207- نويض عادل، معجم أعلام الجزائر، دار الوعي، الجزائر، 2017.

208- وجدي محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، دار الفكر، ط3، بيروت، 1971، م3.

رابعا: الرسائل الجامعية:

أ- الرسائل بالعربية:

209- مبطي المسعودي جميلة، المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص منذ قيامها سنة 621 وحتى سنة 839هـ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي تح إشراف أ. د. محمد المنسي محمود عاصي، قسم الدراسات العليل التاريخية والحضارية، جامعة أم القرى، السعودية، سنة 2000.

210- غنابزية علي، مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ/19م. رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر تح إشراف أ. د. عمار بن خروف، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، سنة 2002.

أ- الرسائل بالفرنسية:

211 – Bataillon, Claude, *Le Souf Etude de géographie humaine*, Diplome d'études Supérieures de l'Université d'Alger (M. N). Institut de recherches Sahariennes, 1953 .

خامسا: المقالات التاريخية:

أ- المقالات العربية:

212- زبادية عبد القادر، «نبذة عن ماضي الصحراء الكبرى قبل التاريخ»، مجلة الأصالة، الجزائر، العدد الثالث، أوت 1971.

213- شنتي محمد البشير، «التوسع الروماني نحو الجنوب وآثاره الاقتصادية والاجتماعية»، مجلة الأصالة، الجزائر، العدد 41، جانفي 1977.

214- الفاخري مبروكة سعد، «العلاقات السياسية بين المملكة الجرمية في الجنوب الليبي والمدن الرومانية على الساحل الليبي (منذ القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادي)»، مجلة جامعة سبها للعلوم الإنسانية، العدد الثاني، 2013.

215- مياسي إبراهيم، «من تاريخ وادي سوف مدينة الألف قبة»، مجلة الثقافة، الجزائر، 1996، العدد 113.

216- وهابي نصر الدين، " سوف في المصادر الإباضية"، محاضرة في مدونة، وادي سوف دراسات تاريخية واقتصادية وثقافية متنوعة، أقيمت في الندوة الفكرية الخامسة للجمعية الثقافية للمركز الثقافي محمد ياجور بقمار أيام 24-25-26 ماي 2000، مطبعة مزوار، ط 1، الوادي- الجزائر، 2008.

ب- المقالات الفرنسية:

- 217- Bataillon Pierre, " Les Romains Etaient -Ils établis Dans Le Souf ? " (BLS), N: 11, Dec 1952 .
- 218- Chalumeau , " Les Romains dans le Souf ? " , (BLS) ,N: 12 ,Avr 1953.
- 219- Caid Hocine Zoubeidi, " Les Berbères Zénètes dans le Souf " , (BLS) ,N: 40 , Déc 1960 .
- 220- Pottier René, « Au Sahara...L'éthnographie et la Crois », **Revue la CROIS**, N: 16729 ,27 Aout 1937, Paris .
- 221 - Ferry C, " Liaison par Jeep El-oued-Ghadamès" , (T. I. R. S) Université d'Alger, T 5, 1948.
- 222- G. Gamps , " Le Néolithique de Tradition Capsienne au Sahara " , (T. I. R. S), T: 26, 1967 .
- 223- D. Escard , " Etude médicale et climatologique sur le pays de l'oued-Souf " , **publié dans les archives de médecine militaire** en 1886, T7 .
- 224- G. cauvet, " notes sur le souf et le souafa" , **bulletin de la société de géographie D'Alger**, 1934 .
- 225- C. Roger leselle , " les noirs du souf " , **Supplément au bulletin de liaison saharien** , sd.
- 226- C. A. Woisard , "Un éléphant Fossile au Nord-Est d'el-oued " , (BLS), N: 33, Mars 1959 .

سادسا: الحصص الإذاعية:

227- عاد مسعود: حقيقة الظل الفاطمي في التراث الشعبي لمنطقة سوف، حوار تم في برنامج أمجاد سوف، من تقديم علي غنابزية، إذاعة سوف، يوم 15 أوت 1999 .

سابعا: المراجع الإلكترونية:

228- أين أنت من سوف جرش، صحيفة الشاهد الإلكترونية، الشركة النموذجية للصحافة، صحيفة يوم 2015/11/18، تم الاطلاع 2019/10/04 ليلا.

- 229- الدليمي جمانة محمد نايف، عامر بن الظرب العدواني حياته وآثاره، الموقع: دنيا الرأي.
- 230- معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، كتاب الكتروني، تم الاطلاع عليه يوم السبت 2020/05/31، الساعة الواحدة والنصف زوالا.
- 231- ويكيبيديا الموسوعة العربية، والموسوعة الحرة. تم الاطلاع يوم 2012/07/29.
- 232- ويكيبيديا الموسوعة الحرة، تم الاطلاع يوم 2014/12/30. يوم الجمعة 2020/05/29 على الساعة العاشرة صباحا.
- 233- يوسف بن محمد الباروني، جزيرة جربة في موكب التاريخ، تح سعيد بن يوسف الباروني. كتاب الكتروني تم الاطلاع يوم: 2020/12/16. الرابط: [http: elbarounia.com](http://elbarounia.com)

الفهارس

- فهرس الخرائط

- فهرس الموضوعات

فهرس الخرائط

الصفحة	العناوين
24	1- الموقع التقريبي للمجرى المائي وادي أسوف القديم
26	2- خريطة موقع وحدود وادي سوف القديمة
43	3- خط هجرة قبيلة عدوان من شبه الجزيرة إلى بلاد المغرب
45	4- خط هجرة قبيلة عدوان ومراحل استقرارها بوادي سوف
54	5- خط هجرة قبيلة طرود من شبه الجزيرة إلى بلاد المغرب
56	6- خط هجرة قبيلة طرود ومراحل استقرارها بوادي سوف
77	7- مشروع البحر الداخلي الصحراوي شمال وادي سوف
82	8- مواقع ما قبل التاريخ في شمال وادي سوف
83	9- مواقع ما قبل التاريخ في جنوب وادي سوف
90	10- وادي سوف ضمن فضاء أراضي الجيتول
96	11- خريطة مراكز القبائل البربرية والإباضية في جنوب المغرب
100	12- خريطة مواقع قبيلة زناتة البربرية بوادي سوف
109	13- خريطة مواقع بوادي سوف أثناء عهد القرطاجنيين
113	14- خريطة مواقع بوادي سوف أثناء عهد الرومان
118	15- خريطة مواقع بوادي سوف أثناء عهد الوندال
121	16- خريطة مواقع بوادي سوف أثناء عهد البيزنطي
144	17- وادي سوف أثناء العهد الإسلامي ببلاد افريقية
167	18- موقع وادي سوف في ضفاف الدولة الرستمية
174	19- موقع وادي سوف في ضفاف الدولة الأغلبية
191	20- موقع وادي سوف في نطاق الدولة العبيدية
206	21- موقع وادي سوف في ضفاف الدولة الصنهاجية
222	22- موقع وادي سوف في نطاق الدولة الحمادية
247	23- موقع وادي سوف في نطاق الدولة الموحدية
272	24- موقع وادي سوف في نطاق الدولة الحفصية
317	25- المواقع العمرانية بوادي سوف في نطاق الدولة الحفصية

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوعات
03	الإهداء
04	تصدير بقلم الأستاذ الدكتور: عاشوري قمعون
08	المقدمة
14	الفصل الأول المجال الجغرافي لوادي سوف
15	أولا. الدلالات اللفظية لتسمية وادي سوف
15	أ) دلالات اسم «سوف»
15	1- الدلالة الجغرافية
17	2- الدلالة السوسيو تاريخية
18	3- الدلالة الإثنوغرافية
22	ب) دلالات اسم «الوادي»
22	1- دلالة وادي الماء
23	2- دلالة وادي الرمل
27	ثانيا: الموقع الجغرافي والحدود الإقليمية لوادي سوف
28	ثالثا: الإطار الطبيعي لوادي سوف
28	أ) مظاهر السطح
29	ب) الخصائص المناخية
30	ج) الغطاء النباتي لوادي سوف
31	د) الحيوانات البرية في وادي سوف
33	رابعا. مراحل تعمير القبائل العربية لوادي سوف
33	- الهجرة الهلالية والسلمية إلى بلاد المغرب
36	- الهجرة العدوانية والطرودية إلى بلاد المغرب

- 36 -أصول قبيلة عدوان ومسار هجرتها إلى وادي سوف
- 36 1- أصول القبيلة ومكانتها
- 41 2- هجرة قبيلة عدوان من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد المغرب الإسلامي
- 44 3- دخول قبيلة عدوان إلى وادي سوف ومراحل الاستقرار
- 44 أ) دخول بني عدوان إلى وادي سوف
- 46 ب) التنافس بين عدوان وطرود على الجردانية
- 46 ج) عدوان تسكن في اللجة
- 47 د) الاستقرار النهائي لبني عدوان
- 47 -أصول قبيلة طرود ومسار هجرتها إلى وادي سوف
- 47 1- أصول القبيلة ومكانتها
- 52 2- هجرة قبيلة طرود من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد المغرب الإسلامي
- 53 3- دخول قبيلة طرود إلى وادي سوف ومراحل الاستقرار
- 53 أ- هجرة طرود إلى مشارف وادي سوف
- 55 ب- التدافع بين طرود وعدوان في الجردانية
- 55 ج- دخول طرود إلى مدينة الوادي
- 57 خامسا: الإطار السكاني لوادي سوف
- 57 أ) النمو السكاني لمجتمع وادي سوف
- 59 ب) عناصر السكان في مجتمع وادي سوف
- 62 ج) التوزيع السكاني في مجتمع وادي سوف
- 63 سادسا: الإطار الاقتصادي لوادي سوف
- 63 أ) الصيد البري
- 64 ب) الرعي وحياة البداوة
- 65 ج) النشاط الزراعي
- 66 د) النشاط الصناعي
- 68 هـ- النشاط التجاري

الفصل الثاني

70

الوجود البشري القديم بوادي سوف

72

المبحث الأول: المظاهر الطبيعية وملامح الحياة الأولى في عصر ما قبل التاريخ في وادي سوف

72

1) المظاهر الطبيعية بصحراء وادي سوف

72

أ) التحولات الجيولوجية

73

ب) التغيرات المناخية

73

ج) المسطحات المائية

73

- المجاري المائية (الأنهار)

74

- بحيرة التريتون (التريتونيس)

75

د) بحيرة التريتون ومشروع البحر الداخلي

78

2) ملامح الحياة الأولية بصحراء وادي سوف

78

أ) الغطاء النباتي

78

ب. القطاع الحيواني

79

ج - وجود الإنسان

80

3) مواقع ومحطات ما قبل التاريخ بصحراء وادي سوف

80

أ- الحضارة القفصية

81

ب- الحضارة النيوليتية

85

المبحث الثاني: السكان الأوائل في صحراء وادي سوف

85

أولاً: العناصر السكانية الأولى بوادي سوف

85

1. الليبون (Libous)

86

2. الجرامانت (Garamante)

88

3. الجيتول (Gétules)

88

4. التوارق

91

ثانياً: البربر (الأمازيغ) في وادي سوف القديمة

92

أ- تسمية البربر

93

ب - أصول البربر

- 94 ج - أقسام البربر في الجزائر
- 95 د. مراكز القبائل البربرية الإباضية في جنوب بلاد المغرب الإسلامي
- 95 - جبل نفوسة
- 97 - جزيرة جربة
- 97 - إقليم قسطلية
- 98 - وادي أسوف
- 98 - وادي أريغ
- 99 - إقليم وارجلان
- 101 - وادي ميزاب
- 102 - مدينة تيهرت
- 102 هـ. العادات والتقاليد المشتركة بين البربر والعرب في وادي سوف
- 105 **ثالثا: الفينيقيون (القرطاجنيون) في وادي سوف (880-146 ق م)**
- 106 1- تسمية وأصول الفينيقيين
- 107 2- الفينيقيون في داخل البلاد
- 108 3- الفينيقيون في داخل الصحراء الجزائرية
- 110 **المبحث الثالث: أوضاع وادي سوف في عهد الاحتلال الأوربي القديم**
- 110 **أولا: الاحتلال الروماني بوادي سوف (214 ق م - 431 م)**
- 110 أ - تسمية الرومان وأصولهم
- 110 ب - الصراع الروماني القرطاجني
- 111 ج - الاحتلال الروماني للجزائر
- 111 د - الرومان في الجنوب الجزائري
- 112 هـ - الرومان في وادي سوف
- 114 1- آثار زملة سندروس (Zemlet Sendrous)
- 115 2- آثار بير رومان
- 115 3 - قطع النقود الرومانية

- 115 ثانيا: الاحتلال الوندالي في وادي سوف (431—534م)
- 115 أ - التسمية وأصولهم البشرية
- 116 ب - احتلال الوندال للجزائر
- 117 ج - الوندال في وادي سوف
- 119 ثالثا: الاحتلال البيزنطي في وادي سوف (534-647م)
- 119 أ - التسمية والأصول التاريخية
- 119 ب - احتلال الروم للجزائر
- 120 ج - البيزنطيون بوادي سوف

الفصل الثالث

- 123 تاريخ وادي سوف منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية عصر الولاة
بإفريقية

- 125 المبحث الأول: حالة وادي سوف في بدايات الفتح الإسلامي لبلاد إفريقية
- 125 أ- ظهور الإسلام وانتشاره في الأرض
- 126 ب - طلائع الفتح الإسلامي وانتشاره في بلاد إفريقية
- 128 ج - مراحل الفتح الإسلامي الأولى في بلاد إفريقية
- 129 - حملة معاوية بن حديج
- 129 - حملة عقبة بن نافع الأولى
- 132 المبحث الثاني: المسارات التاريخية للفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأوسط
ووادي سوف
- 132 أ - حملة أبي المهاجر دينار أول فاتح للمغرب الأوسط
- 133 ب - حملة عقبة بن نافع الثانية على المغرب الأوسط
- 135 ج - حملة زهير بن قيس البلوي في بلاد إفريقية
- 136 د- حملة حسان بن النعمان الغساني في بلاد المغرب الأوسط
- 139 هـ - حملة موسى بن نصير في بلاد المغرب الإسلامي والأندلس

- 145 المبحث الثالث: عصر الولاة بأفريقية وأثره على المغرب الأوسط ووادي
سوف
- 146 أ- ولاية أفريقية في العهد الأموي وأثرهم على المغرب الأوسط (97-129هـ)
- 147 1- ولاية محمد بن يزيد القرشي (97-99هـ)
- 147 2- ولاية إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر (100-101هـ)
- 148 3- ولاية يزيد بن أبي مسلم (102-103هـ)
- 148 4- ولاية بشر بن صفوان الكلبي (103-109هـ)
- 148 5- ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (110-114هـ)
- 149 6- ولاية عبيد الله بن الحبحاب السلوي (116-123هـ)
- 149 7- ولاية كلثوم بن عياض القشيري (123-124هـ)
- 150 8- ولاية حنظلة بن صفوان الكلبي (124-129هـ)
- 150 9- ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهري (129-137هـ)
- 151 ب - ولاية أفريقية في العهد العباسي وأثرها على المغرب الأوسط (137-
184هـ)
- 153 1- ولاية إلياس بن حبيب الفهري (137-138هـ)
- 153 2- ولاية حبيب بن عبد الرحمن الفهري (138-140هـ)
- 153 3- ولاية محمد بن الأشعث الخزاعي (143-148هـ)
- 154 4- ولاية الأغلب بن سالم التميمي (148-150هـ)
- 154 5- ولاية عمر بن حفص المهلب (151-154هـ)
- 154 6- ولاية يزيد بن حاتم بن أبي صفرة (155-171هـ)
- 155 7- ولاية داود بن يزيد بن حاتم بن أبي صفرة (171-172هـ)
- 155 8 - ولاية روح بن حاتم المهلب (172-174هـ)
- 156 9- ولاية نصر بن حبيب المهلب (174-176هـ)
- 156 10- ولاية الفضل بن روح المهلب (177-178هـ)
- 156 11- ولاية هرثمة بن أعين (179-181هـ)
- 157 12- ولاية محمد بن مقاتل بن حكيم العكي (181-184هـ)
- 157 ج - أهم الأعمال في عهد ولاية إفريقية في مرحلة تأسيس المجتمع الجديد

الفصل الرابع

162

تاريخ وادي سوف في ضفاف دول المغرب الأوسط العربية الإسلامية

164

المبحث الأول: وضعية وادي سوف في عصر الدولة الرستمية (160-296 هـ / 777-909 م)

165

أولا: تأسيس الدولة

165

ثانيا: الامتداد الجغرافي للدولة

166

ثالثا: الحياة السياسية

168

رابعا: الحياة الاقتصادية

169

خامسا: العمران والاستقرار

170

سادسا: الحياة الثقافية

170

سابعا: المعتقدات والمذاهب الدينية

170

1- ثورة النكارية

171

2- ثورة الواصلية

172

ثامنا: نهاية الدولة الرستمية

173

المبحث الثاني: وضعية وادي سوف في عصر الدولة الأغلبية (184-296 هـ / 800-909 م)

173

أولا: تأسيس الدولة

175

ثانيا: الامتداد الجغرافي للدولة

176

ثالثا: الحياة السياسية

177

ثالثا: وادي سوف وصدى الأحداث في الدولة الأغلبية

179

رابعا: الحياة الاقتصادية

179

خامسا: الحياة الثقافية

181

سادسا: المعتقدات والمذاهب الدينية

182

سابعا: نهاية الدولة الأغلبية

184	المبحث الثالث: وادي سوف في عصر الدولة العبيدية (الفاطمية) (296-)
	361 هـ / 909-972 م)
184	أولا: تأسيس الدولة
184	أ- مرحلة الدعوة
185	- أبو سفيان الشيعي
185	- الحلواني الشيعي
186	- أبو عبد الله الشيعي
188	ب - مرحلة التأسيس
188	- أبو عبيد الله المهدي
190	ثانيا: الامتداد الجغرافي للدولة
190	ثالثا: الحياة السياسية
192	رابعا: الثورات في العهد العبيدي
192	. ثورة أبو يزيد صاحب الخمار
193	. ثورة أبو خزر الزناتي
194	خامسا: الحياة الاقتصادية
195	سادسا: الحياة الثقافية
197	سابعا: المعتقدات والمذاهب الدينية
198	ثامنا: نهاية الدولة العبيدية بإفريقية

الفصل الخامس

200	تاريخ وادي سوف في ضفاف دول المغرب الأوسط البربرية الإسلامية
202	المبحث الأول: وضعية وادي سوف في عصر الدولة الصنهاجية (الزيرية)
	(361-543 هـ / 972-1148 م)
202	أولا: تأسيس الدولة
203	أ- مرحلة الاستخلاف
203	ب- مرحلة الانفصال
204	ثانيا: الامتداد الجغرافي للدولة

205	ثالثا: الحياة السياسية
205	أ- عهد الوحدة والقوة
207	ب - عهد الانقسام والضعف
208	رابعا: الحياة الاقتصادية
208	خامسا: الحياة الاجتماعية بوادي سوف
211	سادسا: العمران والاستقرار بوادي سوف
213	سابعا: الحياة الثقافية والنشاطات العلمية
216	ثامنا: المعتقدات والمذاهب الدينية
218	تاسعا: نهاية الدولة الصنهاجية
220	المبحث الثاني: وضعية وادي سوف في عصر الدولة الحمادية (405-547 هـ /1014-1153 م)
220	أولا: تأسيس الدولة
221	أ- مرحلة الولاية والانفصال
221	ب - مرحلة التأسيس والازدهار
221	ثانيا: الامتداد الجغرافي للدولة
223	ثالثا: الحياة السياسية
225	رابعا: الاجتياح العربي الهلالي للدولة الحمادية
227	خامسا: سيرة بني هلال والحقيقة التاريخية
231	سادسا: المغرب الأوسط من الأمازيغية إلى التعريب
233	سابعا: الحياة الاقتصادية
234	ثامنا: الحياة الاجتماعية بوادي سوف
236	تاسعا: الحركة العلمية في جنوب الدولة الحمادية
242	عاشرا: نهاية الدولة الحمادية
244	المبحث الثالث: وادي سوف في عصر الدولة الموحدية (515-668 هـ /1121-1269 م)
244	أولا: تأسيس الدولة
244	أ- مرحلة الدعوة والتأسيس (515-524 هـ)

- 245 ب - مرحلة القوة والتوسع (524-558هـ)
- 246 ثانيا: الامتداد الجغرافي للدولة
- 246 ثالثا: الحياة السياسية
- 248 رابعا: الثورات الداخلية
- 249 - ثورة بني غانية المسوفيين
- 249 أ) ثورة علي بن إسحاق المسوفي (580-584هـ)
- 250 ب) ثورة يحيى بن إسحاق المسوفي (584-631هـ)
- 251 خامسا: الحياة الاقتصادية
- 252 سادسا: دخول العرب إلى وادي سوف والاستقرار العمراني
- 254 أ) الجردانية
- 255 ب) جلهمة
- 255 سابعا: الحياة الثقافية بوادي سوف في العهد الموحيدي
- 256 ثامنا: المعالم الدينية بوادي سوف في عهد الموحيدين
- 257 أ) تأسيس المسلمين للمساجد
- 258 ب) تشييد المسيحيين للصوامع
- 259 تاسعا: العقائد والمذاهب الدينية في العهد الموحيدي
- 263 عاشرا: نهاية الدولة الموحدية

الفصل السادس

- 265 وضعية وادي سوف في عصر الدولة الحفصية (627-981هـ / 1229-1573م)

- 267 المبحث الأول: تأسيس الدولة الحفصية وسياستها العامة في الحواضر وأثرها على إقليم وادي سوف (627-)
- 267 أولا: تأسيس الدولة
- 267 أ - مرحلة الولاية والانفصال (571-627هـ)
- 268 ب - مرحلة التأسيس والازدهار (627-893هـ)
- 271 ثانيا: الامتداد الجغرافي للدولة
- 273 ثالثا: الحياة السياسية في الدولة الحفصية

273	أ- طبيعة الحياة السياسية عند الحفصيين
277	ب- طبيعة الحياة السياسية بوادي سوف
283	المبحث الثاني: الحياة الاجتماعية بوادي سوف في العهد الحفصي
283	أولا: الحياة الاجتماعية في الدولة الحفصية
284	ثانيا- الحياة الاجتماعية بوادي سوف
284	1- التركيبة البشرية للمجتمع في العهد الحفصي
286	2- التطور الاجتماعي والصراع القبلي
286	أ- أسباب الصراع
289	ب- أشكال الصراع
293	3- العادات والتقاليد بوادي سوف
293	أ- دق الطبول
294	ب- أصول الضيافة
294	ج- معرفة الأثر
295	د- دفع الصائل
296	4- الدور الاجتماعي للأعيان والكبراء
296	أ- شيخ عدوان
296	ب- شيخ طرود
297	ج- المجلس الاستشاري
298	المبحث الثالث: الحياة الاقتصادية بوادي سوف في العهد الحفصي
298	أولا: الحياة الاقتصادية في الدولة الحفصية
300	ثانيا- الحياة الاقتصادية بوادي سوف
300	1- الحياة الرعوية
301	2- ممارسة التجارة
301	3- الزراعة الصحراوية
302	4- غراسة النخيل

304	المبحث الرابع: الحياة الثقافية والدينية بوادي سوف في العهد الحفصي
304	أولاً: -الحياة الثقافية في العهد الحفصي
305	ثانياً-الحياة الثقافية بوادي سوف
307	ثالثاً-الحياة الدينية بوادي سوف
307	1-المساجد
308	2-الزوايا
308	أ-زاوية سيدي مستور
308	ب-زاوية سيدي عبد الله
308	3-المقابر في مدينة الوادي
308	أ-مقبرة الوادي
309	ب-مقبرة سيدي يوسف
309	ثالثاً-الدور الثقافي والعلمي لشيخ وادي سوف
309	1-الشيخ سيدي مستور
310	2-الشيخ سيدي عبد الله
313	المبحث الخامس: المظاهر العمرانية في مجتمع وادي سوف في العهد الحفصي
313	أولاً: المظاهر العمرانية في الدولة الحفصية
314	ثانياً- العمران البشري بوادي سوف في العهد الحفصي
315	1-المعالم العمرانية الزناتية
315	أ-تكسبت القديمة
315	ب-قرية المغيبة
315	ج-البليدة الجديدة
316	د-قرية القدايم
316	2-المعالم العمرانية العربية
316	أ-قرى بني عدوان
318	ب-قرى طرود
319	ج-قرى بني سليم
320	ثالثاً-وضعية وادي سوف في نهاية العصور الوسطى

321	الخاتمة
331	الملاحق
352	قائمة المصادر والمراجع
370	الفهارس
371	فهرس الخرائط
372	فهرس الموضوعات

الكاتب في سطور

الباحث الأكاديمي، وأستاذ التعليم العالي بجامعة الوادي (الجمهورية الجزائرية) والمهتم بالتاريخ المحلي لمنطقة وادي سوف، وتاريخ الفكر الإسلامي.

هو الأستاذ الدكتور علي بن الحاج الأخضر بن احمد بن خليفة بن العربي بالغنبازي الجدلاوي. ولد يوم 19 مارس 1959 بمدينة الوادي قاعدة (وادي سوف). وتلقى تعليمه الأولي في المدرسة القرآنية، ثم في مدارس التربية إلى أن نال شهادة البكالوريا (1979). ونال شهادة الليسانس في التاريخ دورة (جوان 1983) من جامعة قسنطينة، وشهادتي الماجستير (أفريل 2002) والدكتوراه (ماي 2009) من جامعة الجزائر.

اشتغل أستاذا للتعليم الثانوي ما بين (سبتمبر 1985 إلى ديسمبر 2002 بالوادي)، ثم التحق بجامعة الوادي، منذ ديسمبر 2002، بصفته أستاذا للتاريخ الحديث والمعاصر، وله نشاط كثيف، في عضوية اللجان العلمية، ورئيس لبعض المنتقيات والأيام الدراسية المنظمة في الجامعة وعلى المستوى الوطني. وتولى رئاسة المجلس العلمي لمعهد العلوم الاجتماعية والإنسانية 2011/2010، ورئيس المجلس العلمي لكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية بجامعة الوادي. كما تولى رئيسا للجنة العلمية لقسم العلوم الإنسانية 2016/2015. وهو مؤسس ورئيس المنتدى الأكاديمي للدراسات التاريخية بجامعة الوادي.

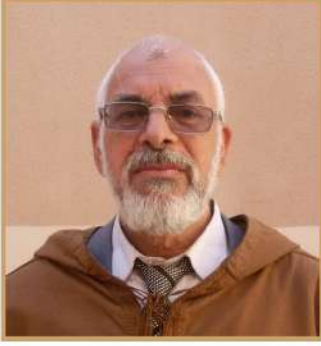
كما عين رئيسا للمجلس العلمي لمتحف المجاهد بالوادي منذ 2007 إلى اليوم. وعضو المجلس العلمي للمتحف الجهوي للمجاهد ببسكرة. ورئيس فرع ولاية الوادي للمنتدى الوطني للفكر والدراسة والبحث التاريخي لمركز الحركة الوطنية.

عرف بنشاطه في تقديم العديد من المحاضرات والندوات والدورات العلمية في المساجد، والمدارس الشعبية والجمعيات والنوادي الثقافية ومراكز الشباب عبر بلديات ولاية الوادي وخارجها. وهو خطيب الجمعة في مسجد صلاح الدين الأيوبي (1996-2022).

- المساهمة بعشرات المقالات الفكرية والتاريخية في الصحف والمجلات الدولية والوطنية والمحلية.

- التعاون مع إذاعة سوف الجهوية، وإنتاج عدة برامج ذات طابع فكري وثقافي وتاريخي.

- المشاركة في أول موقع لوادي سوف على الأنترنت، (موقع wadsouf.com) في سنة 2002.
- موقع خاص متخصص في التراث التاريخي منذ 2015 هو (أمجاد سوف) amjadsouf.com.
- إصدارات المؤلف التاريخية:
- الشيخ سيدي مصباح بن سيدي سالم ومآثره في الزاوية السالمية بوادي سوف.
 - دراسات في تاريخ المقاومة الثقافية بالجزائر للحفاظ على الهوية الوطنية (جزءان).
 - مساهمات علماء وادي سوف في النهضة العلمية والحركة الصحفية الوطنية 1900-1986.
 - الشيخ محمد بن عمر العدواني حياته ومآثره.
 - أدوار الكفاح المسلح بوادي سوف.
 - مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية (أطروحة الدكتوراه مطبوعة دار هومة).
 - مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن التاسع عشر. (مذكرة الماجستير مطبوعة دار سامي).
 - الدليل الأكاديمي للأعمال الموجهة في الدراسة التاريخية الجامعية.
 - تاريخ العلاقات العثمانية المغاربية وأثرها الجيوسراتيجي على ضفتي البحر المتوسط 1492-1911.
 - رحلات الفرنسيين إلى وادي سوف وأعماق العرق الشرقي بصحراء قسنطينة (1860-1939).
 - فصول ودراسات في تاريخ الحركة الوطنية والثورة التحريرية بوادي سوف 1854-1962.



الأستاذ الدكتور

علي بن الأخضر غنابزية

هذا الكتاب...

يعتبر كتاب مجتمع وادي سوف في التاريخ القديم والوسيط، إضافة نوعية في تاريخ هذا الإقليم الصحراوي العتيق، لأنه تعرض لفترة زمنية هامة، معلوماتها التاريخية قليلة ونادرة. ولكنه تمكن، وبعبارة مركزية، أن يبرز المفاهيم الواضحة الجلية التي تشفي الغليل، وأبان عن حقائق أزال بعض الغموض، وبددت الكثير من التساؤلات. كما تميز بإشارات الموثقة التي فتحت مجالاً رحباً للمهتمين والمتابعين للمسيرة التاريخية لهذا المجتمع المحلي. وهو في نهاية المطاف ينير دروب الباحث الجاد والدارس المثابر، والراغب في الوصول إلى الحقيقة التاريخية أو الاقتراب منها.

ISBN: 978-9931-273-48-6



9 789931 273486

للطباعة
والنشر
والتوزيع

سَامِي